تيسير التفسير

لقطب الأيمـــة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفـيش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الثاني عشر)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

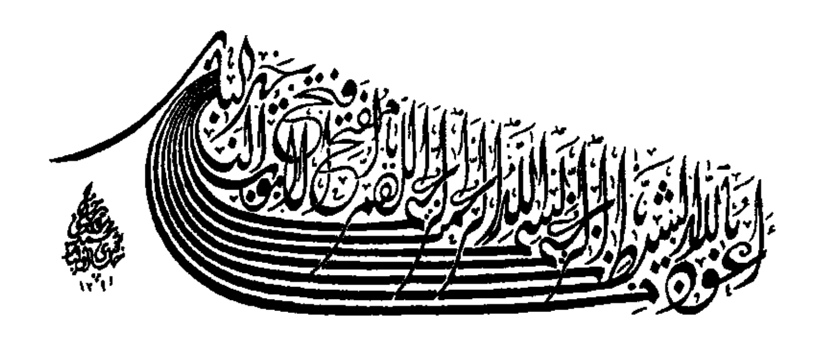
بمساعدة لجنة من الأساتذة

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان : كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان : مصطفى اشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبت الذين ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾

(سورة النحل آية ١٠٢)



تفسير سورة يس وآياتها ٨٣

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑫﴾

رسالة سيدنا محمَّد ﷺ وموقف الناس منها

(فقه) لا تجب الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، إذا ذُكِر لفظ «يس» أو سمع، ولو كان فيه قول أنّه اسم له، بل قيل: لا تجب الصلاة عليه والسلام إلاّ إذا ذكر باسم محمَّد، أو أحمد، لأنّهما المشهوران، وهو ظاهر قول صاحب العقيدة [عقيدة العزابة للشيخ عمرو بن جميع]: إنّ له ﷺ في القرآن اسمين محَمَّدًا وأحمد، واقتصروا في الدِّيوان[1] على لفظ محمَّد، لأنّه أشدُّ شهرةً، ولأنّه اعتِيدَ كثيرًا ذكرُه في التوحيد.

وقيل : تجب بكلِّ اسم له، وبكلِّ إشارة، وبكلِّ ضمير، أوموصول.

١- ديوان الأشياخ ويقال له ديوان العَزَّابة، تأليف عشرة فقهاء من القرن الخامس من قنطرار ومن تجديت ومن أريغ ومن نفوسة تولّى الكتابة الشيخ يوسف بن أبي عمران موسى بن زكرياء. يوجد منه ١٥ جزءا في مختلف فروع الفقه. انظر: تعليق البكري على النيل، ج٣، ص١٠٨١.

﴿يَسِ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يقولون: لست رسولاً، كما مرَّ مثله في السورة قبل هذه، فنزلت هذه الآيات إلى ﴿غَافِلُونَ﴾ تصديقًا له كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ (سورة الرعد: ٤٣) . وهذه السورة [قيل: إنَّها] قلب القرآن لاشتمالها على أمَّهات الأصول، يدفع بها الجهل والآفات، كما يصلح البدن بالقلب.

وفي الأثر: تُسَمَّى الْمُعِمَّة والمدافعة والقاضية، تَعُمُّ خيرَ الدنيا والآخرة لقارئها، وتُكابِدُ عنه البلوى في الدنيا والآخرة، وتقضي له كُلَّ حَاجَة، روي ذلك بسند فيه ضعف. وروي: يُغْفَرُ له ما تَقَدَّمَ، وكمن قرأ القرآنَ عشرًا، وكمن قرأه إحدى عشرة، وكمن قرأه اثنتين وعشرين.

وروي مرفوعًا: «كمن قرأه مرَّتين» وذلك الحسنة بالحسنة، قلت: وهكذا في سائر التضاعف في سائر الطاعات وأجورها، هذا حكمنا، إذ لا يستوي الكثير بالقليل، وأمَّا عند الله الرحمن الرحيم فله أن يعطي الأجور ومضاعفة، أو يضاعف لمن يشاء الحسنة بعشر وأكثر، كمَا صحَّ أنَّ هذه الأمَّة أقصر أعمارًا وأكثر ثوابًا، فيكون لمن قرأ هذه السورة مرَّة كمن قرأ القرآن كُلَّهُ، مع أنَّ لكلِّ حرف منه عشر حسنات وأكثر، أي كمن قرأه بدون سورة يس، ولك أن تقول: معها، لأنَّ الشيء مفردًا غيرُهُ مقرونًا بغيره[1].

وفي أبي داود: «**اقرءوا على موتاكم يس**»[2]، ويروى عن رسول الله

١- أي: «قد يكون للشيء مفردا ما ليس له مجموعا مع غيره، كما يشاهد في بعض الأدوية». انظر: الألوسي: روح المعاني، ج٢٢/ ص٢١٠.

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب القراءة عند الْمَيِّت، رقم ٣١٢١. و**ابن ماجه** في كتاب الجنائز، باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر، رقم ١٤٤٨. و**أحمد** في مسند البصريين، رقم ١٩٧٩٠، من حديث معقل بن يسار.

ﷺ : «إنَّ لكلِّ شيء قلبًا وإنَّ قلب القرآن يس، من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطاه من الأجر كأنَّما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرَّةً»[١]، وقال ﷺ : «من قرأ يس أمام حاجته قضيت له»[٢].

وقال ﷺ : «من قرأها إن كان جائعًا أشبعه الله، وإن كان ظَمآن أرْوَاه الله تعالى، وإن كان عريانًا ألبسه الله تعالى، وإنْ كان خائفًا آمنه الله تعالى، وإن كان متوحِّشًا آنسه الله تعالى، وإن كان فقيرًا أغناه الله تعالى، وإن كان في السِّجن أخرجه الله تعالى، وإن كان أسيرًا خلَّصه الله تعالى، وإن كان ضالاًّ هداه الله تعالى، وإن كان مديونًا قضى الله دينه من خزائنه»[٣].

[قلت:] ومن سمع أنَّه من فعل كذا من عبادة كصوم وصلاةٍ وصدقةٍ كان له كذا وكذا من الدنيا كرزق وصحَّة بدن ونصرٍ فلْيفْعَل تلك العبادة لرضى الله تعالى وللحسنات والنجاة من النار، وغفران الذنوب، ويَدْعُ بعدَ ذلك، ولا ينشئ عبادة لأمر دنيويٍّ، بل ينشئها تقرُّبا إلى الله تعالى، ويترتَّب عليها مرادُه من الدنيا.

وما ورد من ذلك في الحديث مخالفًا لما ذكرت فإنَّه يُؤوَّل به، فإنَّ أنواع العبادة لم تُوضع للدنيا، ثمَّ إنَّهُ إن توهَّم أنَّ له الأجر عليها في الآخرة قال الله ﷻ : قد أعطيتك في الدنيا حاجتك التي عبدتني لأجلها، أو قد جازيتك عنها بكذا من أمر الدنيا، وإنَّما يتوسَّل إلى أمور الدنيا بالدعاء، وهو مأمور به، وهو عبادة.

١-رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل يس رقم ٢٨٨٧. و**الدارمي** في كتاب فضائل القرآن باب في فضل يس رقم ٣٢٨٢ من حديث أنس.

٢-رواه **الدارمي** بلفظ: : «مَنْ قَرَأَ يس فِي صَدْرِ النَّهَارِ قُضِيَتْ حَوَائِجُهُ». كتَاب فضائل القرآن، باب في فضل، رقم ٣٤١٨.

٣-روى **البيهقي** ما يقاربه لفظا في شعب الإيمان كتاب باب في تعظيم القرآن، باب ذكر سورة يس، رقم ٢٤٦٧، من حديث أبي قلابة.

ومعنى «يس» يا إنسان بلغة طيّء والحبشة، فقيل: أصله أنيسين، واعترض بأَنّ المسموع أُنيْسِيان، والحافظ حجَّة، وليس ذلك من عنده، وأنّ الأصل عدم التصغير، ولو كان لله ﷻ أن يصغِّر لفظ وَلِيِّه تعظيمًا لكن لا يقال به إلاّ مع وُرُودِ مثله عن الله في وليِّه. وإنيسيان دليل على أنّ الإنسان من النسيان، فلعلّ «يس» كلّه اسم واحد للسورة، أي اُتْلُ يس.

أو حروف مقطَّعة، أو يا حرف نداء، وسين حرف من إنسان اختصارًا، كما اختصر شا من لفظ شاهد، في قوله ﷺ : «**كفى بالسيف شا**»[1]. وإذا قيل: هذا نداء، رُدَّ على القائل أنّ حذف حرف النداء الداخل على النكرة المقصودة ضعيف.

فما قيل في الحديث الوارد في حقوق الوالدين من وفاء الضمانة: «**الزم رَجُلَ أُمَّكَ**» من أنّ رجل منادى، أي الزم أمَّك يا رجل ضعيف، والصواب كسر الراء واسكان الجيم مضافًا إلى الأمِّ أي اُكْسُها واخدمها، ويدلُّ لهذا حديث باب الجهاد: «**ويحك الزم رجلها**»[2].

وعن ابن الْحَنَفِيَّة[3]: «يس» يا محمَّد، وفي الحديث: «**إنّ الله تعالى سماني في**

١- رواه **أبو داود** في كتاب الحدود، باب في الرجم، رقم ٤٤١٥. و**ابن ماجه** في كتاب الحدود، باب الرجل يجد مع امرأته، رقم ٢٦٠٦، من حديث سلمة بن المحبق بلفظ: «شاهد». ورواه **عبد الرزاق** في مصنَّفه، كتاب العقول، باب الرجل يجد على امرأته رجلا، رقم ١٧١٩ من حديث أنس بلفظ: «شا».

٢- رواه **ابن ماجه** في كتاب الجهاد، باب الرجل يغزو وله أبوان، رقم ٢٧٨١، من حديث معاوية بن جاهمة السلمي.

٣- هو محمد بن علي بن أبي طالب المدني، أمُّه خولة بنت جعفر الحَنَفِيَّة، ينسب إليها تمييزا له عن أخويه الحسن والحسين، كان واسع العلم شجاعا ورعا أسود اللون، وتزعم الكيسانية أنّه لم يمت، مقيم برضوى، خرج إلى الطائف هاربا من ابن الزبير وتُوُفِّيَ هنالك عام

القرآن بسبعة أسماء، محمد وأحمد وطه، ويس، والمزمّل، والمدثّر، وعبد الله».
وقيل: المراد يا سيِّد.

و«الحكيم» فعيل للنسب، بمعنى ذي الحكمة، لاشتماله عليها، أو بمعنى مفعول من الرباعي بالزِّيادة، أي مُحْكَمٌ، أي متقن مضبوطًا، كأعقدت العسل فهو عقيدٌ أي معقّد. ولا معمول لــ«مرسلين» لأنّ المراد من أهل الرسالة لا من أهل الرسالة إلى كذا.

(بلاغة) ويجوز أن يكون الحكمة أسندت إلى القرآن بمعنى الناطق بالحكمة، على التجوُّز في الإسناد، أو على الاستعارة المكنيَّة، بأن شُبِّه بالحيِّ ورمز إليه بلازمه، وهو النطق، ويجوز تسمية الإنسان بيس كما سمِّي به بعض أصحابنا، وبعض قومنا.

(قصة) ومن ذلك أنّ بعض أعراب المغرب الأوسط أكثر قراءة يس لأمر دنيويٍّ، وأُغير على حيِّهم فصاح أين أنت يا يس؟ يعني السورة، فأجابه رجل من جهة العدوِّ: ها أناذا يس، فهو إمَّا رجلٌ من العدوِّ اسمه يس خلّصه الله تعالى به، أو مَلَكٌ أو ما شاء الله كان له من قراءته.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان لــ«إنّ»، أو حال من المستتر في خبرها، ويجوز أن تكون «على» بمعنى الباء، فيعلّق بــ«مرسلين»، والمراد أنّه من أهل ذلك الشأن الذي لا يصحُّ سواه، فإنّه لا رسول إلاّ على صراطٍ مستقيم. والصراط المستقيم الحقُّ، اعتقادًا وعملاً وقولاً.

﴿تَنزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ خبر لمحذوف، أي هو تنزيل العزيز الرحيم، أي القرآن تنزيل العزيز الرحيم. و«تَنزِيلُ» مصدر بمعنى مفعول، أي مُنَزَّل العزيز

٨١هـــ. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٧٠.

الرحيم. أو «يس» مبتدأ اسم للسورة خبره «تَنزِيلُ» وجملة القسم وجوابُه معترضة، والأوْلى ما مرَّ.

(بلاغة) وفي إضافة «تَنزِيلُ» لـ«الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» تعظيم للقرآن، لأنَّه من ذي العزَّة الكاملة والرَّحمة العَامَّة الكاملة، فلا بدَّ من الإيمان به خوفًا من سطوة الغالب القاهر وطمعًا في رحمته التي منها الإحسان بتنزيله، كما قال ﷻ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧).

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلّقٌ بتنزيل أو بمحذوف، أي نزَّلناه لتنذر، أو أرسلناك لتنذر، ﴿مَّآ﴾ نافية، كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (سورة السجدة: ٠٣) ، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ (سورة سبأ: ٤٤) .

﴿أُنذِرَ ءابَآؤُهُمْ﴾ نعت لـ«قَوْمًا»، والمراد: ما أنذر آباؤهم الأدنون، فهم في غاية من الاحتياج إلى الإنذار، وأمَّا آباؤهم الأبعدون فقد أنذرهم أبوهم إسماعيل، فتطاول الأمد حتَّى نسيت شريعته.

ويقال: لم تنقطع النِّذَارَة إلاَّ أنَّها قَلَّ صاحبها واسْتُضْعِفَ وكان لا يُؤخَذُ به، ولم تصل قريشًا، ففي كلِّ زمان مثل قسٍّ بن ساعدة وزيد بن عمرو؛ أو المراد: ما باشروا إنذار نبيء، ولو باشروا إنذار مثل قسٍّ، وإنذار أهل الكتاب.

والإنذار: الإعلام بأمر الوحي الذي يترتَّب عليه العذاب إذا لم يؤخذ به، أو نفس الوعيد على عدم الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ (سورة النبأ: ٤٠) ، والأوَّل أولى لأنَّه لا عقاب قبل الوحي والإرسال.

ويجوز أن تكون «ما» نكرة موصوفة، أو اسمًا موصولاً مفعولاً مطلقًا، أي إنذارًا أُنْذِرَهُ آباؤهم الأقدمون، ببناء أنذره للمفعول، أو الإنذار الذي أُنْذِرَهُ

آباؤهم الأقدمون، ببناء أنذره للمفعول، والهاء المقدَّرة في الموضعين رابطة للصِّفة أو الصلة؛ أو مَصدَرِيَّة، أي لتنذر قومًا إنذار آبائهم، أي مثل إنذار آبائهم.

﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن دين الله تعالى بسبب أنَّه لم ينذر آباؤهم. والضمير للقوم، ولو أنذر آباؤهم لاتَّصل الإنذار فلا يغفلون إلاَّ عمدًا، وهذا أولى من ردِّ الضمير إلى القوم وآبائهم، ومن ردِّه إلى الآباء، أي لم ينذر آباؤهم، فهم أحوج إلى الإنذار.

ويجوز تعليق الجملة بـ«تُنذرَ»، فتكون الفاء للتعليل، أي لتنذرهم لأنَّهم غافلون، وكذا إن علِّقت بـ«مُرْسَلِينَ» أو بـ«أنزلناه» المحذوف المعلَّق به «لِتُنذرَ» أو نحوه. وإذا جعلنا «مَا» اسمًا أو حرف مصْدَر، فالغفلة عمَّا أنذر به آباؤهم.

﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ والله لقد صحَّ وثبت ﴿الْقَوْلُ﴾ قولُنا: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة السجدة: ١٣) وقولنا: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ منكَ...﴾ (سورة ص: ٨٥) وهذا أولى من تفسير القول بعلم الله ﷻ أو بقضائه، ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ هم تبعة إبليس، كما قال الله ﷻ : ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ، أَجْمَعِينَ﴾ متعلِّق بـ«حَقَّ»، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِم...﴾ (سورة يونس: ٩٦) ويجوز ــ على ضعف ــ تعليق «عَلَى» بالقول، أي حقَّ الكلام على أكثرهم بالسوء، وهو العذاب، وتفسير ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ بحقِّ دين الله بالبرهان. ووجه قوله تعالى: ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أنَّه حجَّة عليهم مهلكة إذ لم يعملوا بها. ﴿فَهُمْ﴾ أي الأكثر ﴿لاَ يُومِنُونَ﴾ أي بسبب حقِّ القول عليهم مع اختيارهم.

(أصول الدين) فليس إجبارًا، إذ لا يخفى أنَّ المكلَّف قادر على ترك المعصية وعلى فعلها، فيختار فعلها، وعِلْمُه تعالى بأنَّه يختارُها أزلِيٌّ، ولا يخفى عنه

شيء، فاختياره إِيَّاهَا تابع لعلمه تعالى به، وإن شئت فقل: علمه تابع لاختياره، بمعنى أنّه لا إجبار على كلّ حال مع أنّ اختياره مخلوق لله تعالى أيضًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ جمع عنق بضمّ العين والنون، أو بضمّها وإسكان النون، أو بضمّها وفتح النون، جمع قلّة للكثرة، لا جمع عنيق. **﴿أَغْلَالاً﴾** عظيمة هائلة، جمع غُلٍّ بالضمّ للقلّة، أريد به الكثرة وهو ما تجمع به اليد أو اليدان الى العنق تضييقًا وتعذيبًا، ولذلك يُسَمَّى جامعة.

وقد يطلق الغلُّ على ما يربط به اليدان وحدهما، أو اليد وحدها، أو العنق وحدها، أو غير ذلك من الأعضاء، أو متعدِّد، وصحَّ المعنى بلا تأويل بالقلب بأنّ الأصل: أعناقهم في أغلال، لأنّ المعنى في أعناقهم مع اليدين، أو اليد للتعذيب.

﴿فَهِيَ﴾ أي الأغلال، والفاء للتفريع، أي أغلالاً عظيمة، حتَّى إنَّها بلغت الأذقان، أو لمجرَّد التعقيب على أنّ التنوين والتنكير في أغلالٍ ليس للتعظيم.

﴿إِلَى الاَذْقَانِ﴾ المعهودة، إذ لا بُدَّ لهم من الأذقان، أو «ال» نائب عن المضاف إليه، أي إلى أذقانهم، متعلّق بمحذوف جوازًا، لأنّه كون خاصٌّ، أي منتهية إلى الأذقان، و لم ينتقل إليه ضمير منتهية لأنّه ينتقل من الكون العامّ. والجمع للقلّة مراد به الكثرة، والمفرد: ذقنٌ بفتح الذال والقاف، وهو مجتمع أسفل اللحيين.

﴿فَهُم﴾ بسبب انتهائها إلى الأذقان بتضييق **﴿مُّقْمَحُونَ﴾** مرفوعة وجوههم إلى فوق بربط عَمُودٍ تحت اللحيين، وليس غضُّ البصر شرطًا فيه، وقيل: «هِيَ» عائد إلى الأيدي المعلومة من ذكر الأعناق والأغلال معًا، كما دلّ ذكر الخير على الشرِّ في قوله:

وما أدري إذا يَمَّمتُ أرضـــا أريد الخير أَيُّهُما يَلِيني

أي: أيُّ واحد من الخير والشرِّ، وصرَّح بهما في عقبه في قوله:

أالخـــير الذي أنا أبتغيه أم الشرُّ الذي لا يأتليـــني

فإقماح وُجوههم للتضييقِ على الأذقان بالأيدي، والفاء سَبَبِـــيَّة، وذلك كلُّه ظاهر، إلاّ أنّ فيه إلغاء الظاهر وإرجاع الضمير إلى غير الظاهر.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قدَّامهم ﴿سُدًّا﴾ عظيمًا مانعًا من قبول دين الله باختيارهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا﴾ كذلك وذكرهما كناية عن جميع الجهات، وأيضا كفى عن ذكرهنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ غطّيناهم، والفاء لمجرَّد الترتيب، إلاّ أنّه يحتمل أنّ المراد: أغشيناهم بالسدَّين فتكون للتفريع.

﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾ الحقَّ بسوء اختيارهم، فإنّ تصميمهم على الكفر كالأغلال، واستكبارهم عن قبول الحقّ كالإقماح، إذ فيه رفع الرأس وعدم النظر في أحوال من قبلهم، كسدٍّ من خلفهم، وفيما يستقبل كسدٍّ من قدامهم.

(بلاغة) وفي جمع الأيدي إلى الأعناق تلويح إلى منع التوفيق حين استكبروا، لأنّ المتّضع يضع عنقه ولا يرفعه، وفي الإقماح تلويح إلى أنّهم لم ينظروا في شأن أنفسهم، فإنّ المقمح لا ينظر بدنه، وفي السدِّ تلويح بأنّهم لا ينظرون إلى آيات الآفاق الدالّة على الوَحْدَانِيَّة. وفي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا...﴾ تشبيه لتصميمهم على الكفر بربط الأيدي إلى الأعناق، أو جعل الأغلال فِي الأعناق في النار مستقبل، والماضي لتحقُّق الوقوع.

أو المعنى: قضينا بجعل الأغلال في أعناقهم، ومثل قوله: ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾ قوله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ (سورة الإسراء: ٩٧) ، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ﴾ (سورة طه: ١٢٥) وفي النار والموقف مواطن، فتارة يبصرون ليعاينوا عذابهم وقبحهم وإخوانهم، كقوله

ﷻ : ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (سورة ق: ٢٢) إن لم يفسَّر بالإدراك.

وليس المقام لذكر الإنفاق حتى يفسَّر جعل الأغلال في الأعناق كناية عن عدم الإنفاق، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ (سورة الإسراء: ٢٩) .

(سيرة) ولا بدَّ من تفسير الآيات بما ذكر من وجوه الدين والآخرة مع ما طابقها من وقائع الحال في الدنيا، مثل ما روي أنّه ﷺ يجهر بالقراءة فقام قوم من قريش ليأخذوه، فجمعت أيديهم إلى أعناقهم ولايبصرون، فأنشدوه الله تعالى وما في قريش بطْن إلاّ وله ﷺ قرابة فيهم، فدعا الله فشفاهم من ذلك، وأنّ أبا جهل لعنه الله أخذ حجرًا ليضربه في الصلاة فألزق في يده حين دنا وانثنت يده إلى عنقه فرجع، وما فكَّ إلاّ بجهد، فأخذه مخزوميٌّ آخر فلمَّا دنا عميَ فنادى أصحابه فرجع فابصر، وقد سمع صوت رسول الله ﷺ وما رآه، وقال: رأيت فحلاً يخطر بذنبه لو دنوت لأكلني، فأخذه مخزوميٌّ آخر فرجع ينكص حتَّى وقع على قفاه مغشيًّا عليه، فأخبرهم أنّه رأى فحلاً أعظم ما يكون يخطر بذنبه حين دنوت، لو لم أرجع لأكلني، فنزلت الآيات لذلك كلّه.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ، ءَأَنذَرْتَهُمْ، أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ عطف على ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فيجري عليه من التفريع أو السَّببيَّة ما جرى عليه، أو عطف على ﴿جَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا﴾ عطف اسْميَّة على فِعْلِيَّة، أو على ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ بمجرَّد طريق الإخبار دون الربط بسَبَبيَّة، أو تفريع آخر.

(صرف) والفعل يؤوَّل بالمصدر بعد «سَوَاءٌ» بلا حرف مصدر فـ«سَوَاءٌ» خبر مقدَّم لمبتدأ ممَّا بعده، هو مصدر، أي إنذارك وعدمه سواء،

وقدِّم الخبر للحصر، كقولك: قائم زيد، أي ما إنذارك وعدمه إلاّ سواء.

﴿لاَ يُومِنُونَ﴾ استئناف لبيان ما فيه الاستواء، أي إنذارك وعدمه مستويان في انتفاء الإيمان. وقدِّم الإنذار لأنّه أنسب بأن يومنوا، وليكون بمنزلة قولنا: الإنذار كعدمه في أن لا يومنوا. وقد يجوز أن يكون حالاً من هاء «عَلَيْهِمْ» أي سواء عليهم حال كونهم متَّصفين عند الله بعدم الإيمان، وذلك أولى من جعله حالاً من إحدى الهاءين بعد.

وأجيز أن يكون بدلاً اشتماليًّا في الجملة، ولا نحتاج لرابط، وعلى كلّ حال ليس مؤكّدًا للجملة قبله، إلاّ باعتبار أنّ الاستواء معلوم من المقام أنــّهُ في عدم الإيمان.

(أصول الدين) روي أنّ عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدري الدمشقي[1]، فقال: أشهدك أني تائب من قولي في القدر وكأنّي لم أسمع الآية، فقال عمر: اللهمَّ إن صدق فتب عليه وإن كذب فسلّط عليه من لا يرحمه، فروي أنّ هشام بن عبد الملك قطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ اَلذِّكْرَ﴾ أي إنّما يؤثّر إنذارك فيمن اتّــبَعَ الذّكر، فعبَّر بالسَّبَب عن المسبَّب، كأنّه قيل: إنّما ينفع إنذارك من اتّــبَعَ الذّكر، أو تنذر من يتّبع، أو من سبق في علم الله أنــّهُ يتّبع، والمراد أيضًا النفع والتأثير.

أو إنّما تنذر إنذارًا نافعا من اتّــبَعَ الذكر وأمّا غيره فإنذاركه كالعدم في

١-غيلان بن مسلم الدمشقي، ويلقب أيضا بالقدري، تنسب إليه الفرقة الغيلانية، ثاني من تكلّم في القدر بعد شيخه معبد الجهني، قال الشهرستاني في الملل والنحل: كان غيلان يقول بالقدر خيره وشرّه من العبد، أفتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق بعد ١٠٥ هـــ. الزركلي، ج٥، ص٣٢٠.

شأنه، ولك الأجر العظيم.

ومعنى إنذار مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وعظه وإخباره بما نزل، أو زيادة تخويفه عمَّا ربَّما صدر بعدُ، أو عمَّا صدر منه بعد اتِّـبَاع الذكر، فلا تحصيل حاصل. و«الذكر»: القرآن أو الوعظ، ومثل ذلك في قوله تعالى:

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ خافه خوف إجلال، أو خاف عقابه و لم يغترَّ بأنَّه رحمن للمذنب، فإنَّه مع رحمته شديد العذاب، سريع العقاب، كما قال ﷻ : ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاَلِيمُ﴾ (سورة الحجر: ٥٠) ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٧) ، وللتنبيه على ذلك لم يذكر مع الخشية ما يناسبها كالقهَّار وشديد العقاب.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الضمير في «خَشِيَ»، أي غائب عن الله، أي غير مشاهد له، والله مشاهد له، أو من عقاب المحذوف، أي خشي عقاب الرحمن، حال كون العقاب غير حاضر، أو غائبًا عن أعين الناس خوف الرِّياء، أو متعلِّق بـ«خَشِيَ»، أي خشي في الغيب، أي في القلب.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بسبب الاتِّباع والخشية ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لِمَا تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ على عمله الصَّالح لا يعرف قدره إلاَّ الله ﷻ في الجنَّة، فهو زائد على دخوله الجنَّة، كما في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1].

(أصول الدين) وأحقُّ ما ينال به ذلك توحيد الله سبحانه، ومن توحيده اعتقاد أنَّه لا يُرى، لأنَّ رؤيته ولو بلا كيف لم تخرج عن التحيُّز والانكشاف، وهما المحذور، ولو كان اللسان لا يفي بتفسيرهما.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٧، ص٤١٣.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لا غيرُنا، أكّد الإحياء بالجملة الاسميَّة وضمير غير المفرد في مواضع، وذكر «نَحْنُ»، ولا تخفى التقوية بذلك. لَمَّا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٩) قال الله ﷻ : أنا الكفيل بالبعث فتشاهدونه.

﴿نُحْيِ الْمَوْتَى﴾ مَن كَفَر ومَن اتَّبع الذكر، كلّهم للجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من حسنات وسيِّئات كالخُطا إلى المساجد وإلى صلاة الجُمعة ﴿وَءَآثَارَهُمْ﴾ كالصدقة الجارية، والعلم الذي عَلَّمَه غيره، والتأليف، وتأسيس الحَقِّ كنفي الرؤية، وكتأسيس قوانين المعصية كإثبات الرؤية، وكون صفاته تعالى غيره، وقوانين الظلم، قال ﷺ : «**من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سنَّ سنَّة سَيِّئَةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا**»[1] ثمَّ تلا الآية، فالحديث تفسير للآية بالمعصية والطاعة المستمرَّين بعد موت صاحبهما.

وكان بنو سلمة وغيرهم من الأنصار بناحية من المدينة، بعيدة عن المسجد النبوي، وكان حول المسجد فراغ، فـأرادوا القرب منه، فأنزل الله ﷻ : ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا...﴾ فدعاهم فقال: تكتب آثاركم وقرأ الآية، فتركوا القرب، وكان ﷺ كارهًا لخلاء نواحي المدينة، فقال: « **يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم؟**» فقالوا : يا رسول الله نحتسب ولا يَسرُّنا التَّحوُّل.

والمراد بقوله: تكتب آثاركم الأخذ من قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ لا تفسير الآثار في الآية بخطواتهم، فإنَّه قد فَسَّرها بما يستَمِرُّ فلا يغرنَّك موافقة لفظ

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب السنن، باب من سنَّ سنَّة حسنة أو سيِّئة، رقم ٢٠٣. ورواه **الدارمي** في كتاب السنن باب من سنَّ سنَّة حسنة أو سيِّئة، رقم ٥١٣، من حديث أبي هريرة.

الآثار، وهَبْ أنَّها مرادة فليست بخصوصها، بل بحيث أنَّه يقتدى بهم في ترك القرب، وفي المجيء من بعيد.

وفي الحديث: «**أعظم النَّاس أجرًا في الصلاة أبعدُهم**»[1] فأبعدهم ممشى والذي ينتظر الصلاة مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يُصَلي ثمَّ ينام.

وقيل: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾: من النيات، ﴿وَءَاثَارَهُمْ﴾: سائر الأعمال، وهو مخالف لتفسير الحديث، مع أنَّ النية لا يطَّلع عليها المَلَكُ، فَلَعلَّ الله يكتبها بقدرته، ومن ذلك ما ورد من أنَّ الله ﷻ يُخرِجُ للإنسان كتابًا فيه حسنات بالنية، ويقول: لم يطَّلع عليها غيري، وفسَّر بعضهم الكتابة بالحفظ، وبعضٌ بالجزاء.

﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ**﴾ مِمَّا يرجع إلى الدين أو غيره ﴿**أَحْصَيْنَاهُ**﴾ حفظناه، وأصل الإحصاء العَدُّ، عبَّر به لأنَّ العدَّ لأجل الحفظ،، ويقال: أصله العدُّ بالحصى ﴿**فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾ اللوح الحفوظ لأنَّه إمام يعمل به، ولا يخالف، والمراد غير أحوال أهل الجنَّة وأهل النار، لأنَّها لا تنحصر، إلاَّ إن خلق الله ذلك للَّوح بقدرته يفي بذلك، كذا قيل، وفيه أنَّ ذلك من خصوصيَّات الله ﷻ ، وما كذلك لا يخلقه الله تعالى لغيره، وذلك محال، كما أنَّ معلومات الله لا تنقضى، ومنها أحوال أهْلِهَا، ومع ذلك هي محصورة عند الله.

ومعنى ﴿مُبِينٍ﴾: مظهر لِمَا كان وما يكون، وقد يقال: اللوح المحفوظ مشتمل على الكلِّ مطلقا شيئًا فشيئًا، مثل أن يكتب ما في ألف سنة ثمَّ ما في ألف بعدها، وهكذا أو بتخالف العدد. ولا نجزم بأنَّ اللوح زُمُرُّدة خضراء من وجه، وياقوتة حمراء من آخر، وقيل: **اللوح المحفوظ علم الله.**

١- رواه **البخاري** في كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الفجر في الجماعة، رقم ٦٢٣.
ورواه **مسلم** في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخُطَا إلى المساجد رقم٦٦٢. من حديث أبي موسى الأشعري.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قصّة أصحاب القرية . أنطاكية

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ عطف قصّة على أخرى، وإنشاء على إخبار، أو على محذوف بلا فاء، أي أنذرهم واضرب لهم مثلاً، و«أَصْحَابَ» مفعول أوّل، و«مَثَلًا» مفعول ثان، أي اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء في الإصرار على التكذيب.

(لغة) وضرب المثل تطبيق حال غريبة بحال مثلها في الغرابة، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (سورة التحريم: ١٠) ، وقد يستعمل ضرب المثل بمعنى ذكر أمر غريب، ولو بلا تطبيق بالآخر، أي واذكر لهم قصّة غريبة كالمثل، والتقدير: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، و«أَصْحَابَ»

بدل من «مَثَلاً» على حذف مضاف، كما رأيت، ومن القسم الأوَّل ما شُبِّهَ مَضْرِبُه بمورِدِه، نحو: «الصَّيف ضيَّعتِ اللَّبن». والقرية: أنطاكية[1].

﴿إِذْ جَآءَهَا اَلْمُرْسَلُونَ﴾ بدل اشتمال من «أَصْحَابَ» وليس ظرفًا، والمعنى واضرب لهم نفس وقت مجيء المرسلين إليها، أو ظرف لبدل اشتمال محذوف من «قرية»، والرابط «ها» في «جَاءَهَا»، أي الحادث أو الواقع إذ جاءها المرسلون، أو بدل كلٍّ من «أَصْحَابَ» بتقدير: قصَّة أصحاب القرية، و«ها» عائدة إلى القرية، ولم يقل: جاءهم بردِّ الضمير إلى «أَصْحَابَ» إيذانا بأنَّ المرسلين جاءوا أصحاب القرية وأصحاب القرية في القرية، ولم يلقوهم خارجها، ولو قال: جاءهم، لاحتمل أنَّهم جاءوهم وهم في غيرها خارجا.

ويجوز ردُّ الضمير إلى الأصحاب بتأويل الجماعة، فيتبادر أنَّهم جاءوهم وهم فيها كذلك. و﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ هم الحواريُّون أرسلهم عيسى حين أراد الله له الرفع إلى السماء.

وإنَّما أسند الله الإرسال إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذَ اَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ لأنَّه هو الذي أمر عيسى عليه السلام بإرسالهم، وقال ابن عبَّاس وكعب: ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾: أنبياء الله، أرسلهم إليها تقوية لعيسى عليه السلام بنصره وتصديقه فيما يقول، قبل رفعه إلى السماء، كما أرسل هارون تقوية ونصرة لموسى عليهما السلام.

ويدلُّ له قولهم: ﴿مَآ أَنتُمُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فإنَّه ردٌّ على من قال إنَّا رُسُلٌ من الله تعالى لا على من لم يقل ذلك مثل الحواريِّين، وهو الظاهر من قوله عز وجل: ﴿إِذَ اَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾.

١- أنطاكيا مدينة في تركيا حاليا، وهي من عواصم الأمبراطورية الرومانية، أنشئت سنة ٣٠٠ ق.م، وصلتها الديانة المسيحية سنة ٤٠م. وللإفادة راجع تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير للآية.

(قصص) ويدلُّ له أيضًا ظهور المعجزة على أيديهم، كإبراء الأكمه وإحياء الموتى كما في بعض الآثار. روي: أنَّ الاثنين أخذا بندقتين من طين فجعلاها في موضع العينين من صبيٍّ ممسوح كالجبهة، فصارتا له عينين يبصر بهما. وأنَّ ابن لدهقان مات منذ سبعة أيـــّام، أخَّر الملك دفنه حتَّى يجيء أبوه من السفر، فطلب الملك منهما أن يحيياه، فأحيياه بإذن الله تعالى، وقالا: هل تفعل ذلك آلهتك؟ فقال: لا، فآمن هو وقوم من رعيَّته، ومن لم يؤمن مات بصيحة جبريل، وقيل: كفر وعزم على قتلهما وقتل الثالث، ولَمَّا حيي ابن دهقان قال لهم: أُحَذِّركم من الإشراك فَإِنِّي أدخلت في سبعة أودية من النار.

[قلت:] وذلك مختصٌّ بالأنبياء أصالة وغالبًا، إلاَّ أنَّه قد يحتمل أنَّه كرامة لغير الأنبياء لا معجزة، إذ لم يدَّعُوا الرسالة، وأنَّهم فهموا أنَّهم مبلِّغون عن الله تعالى، وفهموا أنَّهم يدَّعون الرِّسالة من الله تعالى فنفوها عنهم، وهم لم يدَّعوها، وإنَّما بلَّغوا عن عيسى عليه السلام. أو لَمَّا كان مرسلهم مدَّعي الرسالة عاملوهم معاملة مدَّعيها بنفيها عنهم، قصدًا إلى نفيها عنه.

قيل: والاثنان يوحنَّا وبولس، أو ثومان وبولس، أو شمعون ويوحنَّا، أو صادق وصدوق. وقال: ﴿إِلَيْهِم﴾ لا إليها لأنَّ الإرسال إلى من يكلَّف ويعقل لا إلى الجماد.

وأمَّا قوله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فتابع لقوله: ﴿إِلَيْهِم﴾، بخلاف المجيئ فإنَّه لا يختصُّ بأن يكون إلى العاقل، وأصحاب تلك القرية يعبدون الأصنام.

﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي عزَّزناهم، أي صيَّرناهما عزيزين قويَّين ﴿بِثَالِثٍ﴾ شمعون الصفا، أو سمعان، أو شلوم، أو بولص بالصاد، أو بالسين.

(قصص) لَمَّا سجنا وجلدا مائتيَ جلدة أتى هذا الثالث، حتَّى توصَّل إلى

الملك وأنس به، وكان يعبد الله تعالى بحضرة الصنم، فظنَّ الملك أنَّه يعبد الصنم، فكلَّم الملك فيهما، فقال: حال الغضب بيني وبينهما فالآن أحضرهما، فقالا: إنَّا نعبد إلهًا قادرًا لا صنمًا عاجزًا عن إحياء ما مات، فصدَّقهما الثالث.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ الاثنان والثالث. والعطف على «عَزَّزْنَا» أو على «كَذَّبُوا»، ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ قائله واحد والاثنان متَّفقان معه، والسكوت رضى وقبول ونصرة، ولاسيما أنَّه قد حضروا معًا وهكذا قاعدة تكلُّم الجماعة فإنَّه ليس يتكلَّم كلٌّ واحد، بل واحد مع اتِّفَاق الباقين.

وكذا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ أي أصحاب القرية للثلاثة ﴿مَآ أَنتُمُ، إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزيَّة لكم تختصُّون لأجلها بالرسالة من الله تعالى، أو بالمجيء بما جئتم ﴿وَمَآ أَنزَلَ اَلرَّحْمَنُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ تدعوننا إليه.

فهم مُقِرُّون بالله وسمَّوه الرحمن إشارة إلى أنَّه عظيم الرحمة وكثيرها، لا يحتاج إلى عبادتنا، ولا تضرُّه أفعالنا، فهو يرحم من لا يعبده ومن يعبده، وإنَّما نعبد ما نعبد من الأصنام لتعيننا على مصالحنا، وهي محتاجة.

ولذكرهم الرحمن علمنا أَنَّهُ لم يصحَّ ما قيل: إنَّهم قالوا: لا نعرف إلهًا غير أصنامنا، وعلى صحَّته فالمعنى: لا نعرف إلهًا يحتاج للعبادة، والرحمن موجود لا يحتاج إليها.

[قلت:] ويبعد ما قيل: إنَّ لفظ «الرَّحْمَنُ» من كلام الله لا من كلامهم، وإنَّ المعنى: ما أنزل الذي تدَّعون وجوده شيئًا، وَإِنَّهُ ذكر لفظ «الرَّحْمَنُ» لحلمه وجلبهم إليه، وصرَّحوا بمضمون قولهم: ﴿مَآ أَنتُمُ...﴾ إلى: ﴿...مِنْ شَيْءٍ﴾ في قولهم: ﴿اِنَ اَنتُمُ، إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ ولم يقل: كاذبون، للدَّلالة على تجدُّد الكذب واستمراره.

﴿قَالُواْ﴾ أي هؤلاء المرسلون لهم، أنبياء أو غير أنبياء، قولان. ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ

﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ منه، والاستشهاد بعلم الله جار مجرى القسم في التأكيد والجواب، وأكّدوا أيضا بالجملتين الاسميَّتين وبإنّ واللاّم.

(أصول الدين) ومن استشهد بالله كاذبًا فهو مشرك إذا تعمَّد خلاف الواقع، مثل أن يعلم أنّ زيدًا غير قائم فيقول عمدًا: الله يعلم أنّه قائم، ناسبًا إليه تعالى أنّه علم غير القيام قيامًا، لأنّ ذلك جهالة وعجز، وهما من صفات الخلق، فأشرك بنسبتهما إليه تعالى، فلو قال ذلك لا على هذه النسبة بل على جهة الكذب فليس بمشرك بل فعل كبيرة.

وفي الآية تحذير عن معارضة علم الله ﷻ . وفي ذكر لفظ الرُّبوبيَّة رمز إلى أنّه هو الربُّ الذي يستحقُّ عبادتكم، إذ هو ربُّكم، ولأنّه أرفق بالحال التي هم فيها ﷺ ، من إظهار المعجز على أيديهم، كأنّهم قالوا: ربُّنا الذي نرجو منه النصر عليكم بالمعجز يعلم إنّا إليكم لمرسلون منه.

ولا دلالة للحصر في «رَبُّنَا يَعْلَمُ» لعدم آلة الحصر فيه وصيغته، ولأنّه ليس الحصر صحيحًا لأنّ المؤمنين بهم قد علموا أنّ الله أرسلهم، إلاّ أن يتكلّف الحصر الإضافيُّ، أي يعلم هو لا أنتم، لأنّكم لم تنظروا في الآيات، مع أنّه لا أداة حصر ولا صيغة له إلاّ بمعونة المقام.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ اَلْبَلاَغُ﴾ إلاّ تحصيل البلاغ، أو اسم مصدر بمعنى التبليغ للرسالة ﴿الْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا تبقى معه ريبة أو بعض خفاء للاجتهاد فيه، ولاقترانه بالبرهان، كإبراء الأكمه وإحياء الْمَيِّت، أو غير ذلك على ما روي، فَلاَ مؤَاخَذَةَ علينا من الله ﷻ ، ولا تقصير في حقّكم إذْ أدَّينا ما أُمرنا به.

(بلاغة) وما أكّدوا أوّلاً إلاّ بعد إنكار كما قالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وَلَمَّا زادوا إنكارا ازداد التأكيد بالاستشهاد بعلم الله ﷻ ، وباللام،

ونقول: إنَّ الاثنين أخبروا الكفرة بلا تأكيد، وبعد التكذيب أكّدوا، وبعد ازدياد التكذيب ازداد التأكيد.

﴿قَالُواْ﴾ لَمَّا فشلوا وعجزوا ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي نفرنا عنكم إذ جئتمونا بما خالف هَوَانَا ومعتادنا، وإذ جئتمونا بوعيد على مخالفتكم -وقد قيل: إنَّهم أقحطوا وأسرع فيهم الجذام للتكذيب- وبما يورث الخلاف بيننا بعد ما كنَّا متَّفقين، وبافتتان الناس.

وأصل التطيُّر معاملة الطير بالإنهاض، فإن طار يمينًا مضَوْا فيما قصدوا من فعل كذا أو تركه، أو يسارًا تركوا ما قصدوا أو بالعكس، ثمَّ عمَّ في النفرة عن الشيء، **و الجاهل يتابع ما يهواه ولو كان فيه شرُّه وفي خلافه نجاته وخيره.**

ومن تمام تطيُّرهم قولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن دعائكم لنا إلى التوحيد وتوابعه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة حتَّى نقتلكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، تتمنَّون معه الموت، يعذِّبونهم هذا العذاب الأليم ثمَّ يرجمونهم. والواو لا تفيد الترتيب.

أو نوقع فيكم الرَّجم ومسَّ العذاب الأليم بعضكم بالرَّجم وبعضكم بالعذاب الأليم المستمرِّ الذي تبقى معه الحياة، وقد قيل: إنَّه الحرق، وإن كان الرَّجم الشتم -كما قيل عن مجاهد: إنَّ الرجم في القرآن كلّه الشتم- صحَّ اجتماع الرجم بمعنى الشتم مع الإحراق، بتقدُّمه على الإحراق، أو مع استمرار العذاب.

﴿قَالُواْ﴾ أي المرسلون ﷺ ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم اعتقادًا ونطقًا وقُبحُ أعمالكم. وعن ابن عبَّاس: الطائر الشؤم، وأمَّا نحن فيمننا معنا: التوحيدُ والعمل الصالحُ وندعو إليهما، ولنا الخير بذلك.

ويجوز تفسير طائر بما يعمُّ الخير والشرَّ، طائركم هو معكم من اعتقادكم وأقوالكم، إن خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ ﴿أَين ذُكِّرْتم﴾ ذكّرناكم نحن أو غيرنا.

(نحو) إذا اجتمع الاستفهام والشرط أجيب الشرط عند يونس[1]، ووجهه انسحاب الاستفهام عليه وعلى أداته وجوابه، فلم يحتج إلى جواب مخصوص له، فيقدَّر: أين ذكّرتم تتطيّروا ؟ أو تتوعّدوا بحذف النون، أو تطيّرتم أو توعّدتم بماض مجزوم المحلّ.

(نحو) وقال سيبويه: يجاب الاستفهام فيرفع تتطيّرون أو تتوعّدون المقدّر بثبوت النون، أو يقدّر ماض غير مجزوم المحلّ، ويغني جوابه عن جواب الشرط، فهو في نية التقديم، أي أتتطيّرون ؟ أو أتتوعّدون إن ذكّرتم؟ وإذا قدّر مقدَّمًا هكذا لم يجزم بأداة الشرط قطعًا، وشُهِر أنّه يحذف جوابُ ما تأخّر من شرط أو القسم.

﴿بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مستغرقون في الإسراف، وهو مجاوزة الحدّ في الشرّ، فمن إسرافكم هذا جاءكم الشؤم لا من جهة المرسلين، بل لكم اليمن من جهتهم لو اتّبعتموهم. و«بل» للإضراب الإبطالي، عمّا توهّموا من أنّ الشؤم من جهة المرسلين. وذكروا لفظ «قَوْمٌ» تأكيدًا في تعبيرهم بأنّهم توافقوا على الإسراف.

﴿وَجَآءَ مِنَ اَقْصَا اَلْمَدِينَةِ﴾ أنطاكية، أي من أبعد مَوْضِعٍ فيها ﴿رَجُلٌ﴾ عظيم عند الله قدرًا لا اتّصال له بالرُّسل قبل مجيئهم يتواطأ لأجله معهم، بل هداية من الله ولطف به، وهو حبيب عند ابن عبّاس وكعب رضي الله عنهما، وشهر بأنّه حبيب النجّار، وقيل: رجل قصّار، وقيل: حرّاث، وقيل: إسكافيّ، وقيل: نحّات للأصنام، أي يعمل صورها بدون أن يعبدها، والتصوير ولو

١- تقدّم التعريف به في ج٨، ص٢٠١.

للحيوان جائز في تلك الأمم، وإن كانت للعبادة فذلك قبل أن يؤمن، ولعلّه جمع تلك الصفات كلّها.

(قصص) وروي أنّه كان في غار يعبد الله، فنقول هذا الغار في أقصى المدينة، وهذه العبادة بعد كفره إن سبق له كفر، وفي الأثر: «سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا قطّ طرفة عين، عليّ بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون».

وصاحب يس هو هذا، ولا يقال: يشكل على ذكر عليّ أنّه كان طفلا ذا ثمان سنين، ودعاه النبيء ﷺ إلى الإيمان، فقال لأبي طالب: إنّ محمّدًا يدعوني، قال: فأجبه، لأنـــّا نقول لا كفر للطفل، فهو مؤمن من قبل لكن ذكر لأبيه الدعوة، أو هو ذاهل، وقيل: كان أوّل الإسلام التكليف متعلّقا بالتمييز، والإمام عليٌّ حينئذ مميِّز.

(قصص) وروي أنّ هذا الرجل المذكور في الآية كان مؤمنا بالنبي ﷺ كـــ«تبع» الأكبر، وورقة قبل مبعثه، كما يؤمن به كُلٌّ من رآه في التوراة أو الإنجيل أو غيرهما، ويقال: كان مجذوما فمنزله أقصى أبواب المدينة، عبد الأصنام سبعين سنة، فدعاه المرسلون فقال: هل من آية؟ قالوا: يشفيك الله تعالى، قال: دعوت الأصنام سبعين سنة ولم تشفني، فكيف يشفيني ربُّكم في غدوة أو روحة؟ قالوا: هي عاجزة وربُّنا قادر، فدعوا له فشفاه الله ﷻ ، فقام يكسب ويتصدّق بنصف ما يكسب، وينفق نصفا على نفسه وعياله.

ولعلّ معنى كونهم لم يكفروا قطّ أنّهم لم يكفروا بعد الدعوة، ونقول: أمّا الذي رأوه في قرب المدينة يرعى فدعوه، فقال: هل من آية؟ فقالوا: نشفي المرضى ونبرئ الأكمه والأبرص، فذهب بهم إلى ابنه مريضا ومسحوا عليه، وشفاه الله، فهو غير هذا، وإن كان هو فمعنى إيمانه أنّه أظهره.

(بلاغة) وقدَّم «مِنَ اَقْصَى» هنا مع فضل الرجل بالإيمان تفنُّنا في البلاغة، ولأنَّه لو أخِّر لتُوُهِّم أنَّه متعلِّق بـ«يَسْعَى» فيفوت بيان أنَّه من أهل المدينة، وتقديمه ظاهر في أنَّه من أهلها، ولو لم يكن نَصًّا فيه، ولبيان أنَّ بُعْدَه لم يمنعه من الإيمان، وكون رحمته تعالى تسع القريب والبعيد، ولذا عبَّر بالمدينة بعد التعبير بالقرية إذ صارت بانضمام الأطراف مدينة، ولبيان أنَّ إنذارهم بلغ أقصى المدينة لاجتهادهم في التبليغ بالإظهار.

﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع برجليه، أو بشدَّة قصد من قلبه، ولا يخفى أنَّ الأوَّل أولى لأنَّه حقيقة لا مجاز، مع أنَّه متضمَّن للمعنى المجازي أيضا، لأنَّ السعي بالمشي في أمر إنَّما يكون عن سعي القلب فيه.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اِتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكرهم بالرسالة حثًّا على الإيمان إذ لم يقل: اتَّبعوا هؤلاء الرجال، أو هؤلاء الذين جاءوكم، كما أنَّه خاطبهم بـ«قوم» مضافا لنفسه، إشارة إلى أنَّه يحبُّ لهم الخير لا الشرَّ، كما يحبُّه لنفسه، وهو منهم، وشرُّهم شرٌّ له، وأنَّه ناصح لهم كما ينصح الإنسان نفسه.

﴿اتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمُ أَجْرًا﴾ على ما يدعوكم إليه، ولو كان يطلب الأجرة لا تُّهمتموه على طلبه من مال أو جاه أو علوٍّ، والرجل علم من حالهم أنَّهم لا يطلبون أجرا، وروي أنَّه سمع بهم فأتاهم وعلم أنَّهم على الحقِّ، فقال: أتطلبون أجرا؟ فقالوا: لا، فقال لقومه: اتَّبعوا من لا يسألكم أجرا وهو مهتد في نفسه ودعائه كما قال:

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لا ضالُّون ولا مضلُّون، والجملة حال من الموصول، أو من ضميره في «يَسْأَلُ»، أي لا يطلبكم للأجر مع أنَّه مهتد نافع، سواء جعلنا «مَنْ» مفعولا به لـ«اتَّبِعُوا» وهو الصحيح، أو بدلا من «الْمُرْسَلِينَ» و«اتَّبِعُوا» توكيدا للأوَّل، وهو ضعيف.

﴿وَمَا لِيَ لآَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي﴾ لا عذر لي في ترك عبادته وحده ولا مصلحة، وأختار لكم ما أختار لنفسي، ولا عذر لكم في ترك متابعتي كما قال: **﴿وَإِلَيْهِ﴾** لا إلى غيره **﴿تُرْجَعُونَ﴾** للجزاء بما عملتم من السوء، وهذا تهديد وتصريح بما تضمَّنه ﴿مَا لِيَ لآَ أَعْبُدُ...﴾ من خطابهم، مواجهة، كأنَّه قيل: ما لكم لا تعبدون؟ ومقتضى الظاهر: وإليه أرجع، وليس ذلك التفاتا لأنَّ ياء المتكلِّم ليست للمخاطب، وإنَّما يكون التفاتا لو كان المعبَّر عنه في الموضعين واحدا.

وإن استعمل ﴿مَا لِي لآَ أَعْبُدُ...﴾ في موضع ما لكم لا تعبدون الذي فطركم مجازا حصل الالتفات من التكلُّم لفظا إلى الخطاب، على مذهب السكاكي، وذلك تعريض كما رأيت.

ومثله ما قيل: إنَّ ملكهم دعاه فقال: أتتابعهم؟ فقال: ما لي لا أعبده وإليه ترجعون؟ يريد بـ«لِي» التعريض، وبـ«تُرْجَعُونَ» الملك وقومه، وتفوت فائدة التعريض بحمل الآية على الاحتباك هكذا: ما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع، وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون.

﴿ءَاَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ إنكارٌ لأن يكون اتِّخاذ آلهة متعدِّدة غير نافعة صوابا واستحماقٌ لمتَّخذها وهي لا تنفع ولا تدفع، كما أفاده نعتها بقوله: **﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِي﴾** نعتا لازما لا يَتَصَوَّرُ خلافه لا استئناف، ولا يخفى عنهم أنَّ مراده أنَّ كلَّ إله اتَّخَذَهُ غير الله لا يشفع له ولا يدفع عنه ضرًّا.

والمراد: انتفاء أن تكون لها شفاعة وإنقاذ، فضلا عن أن يرجوهما منها، وليس مراده افتراض أنَّها لها شفاعة غير نافعة. و«شَيْئًا» مفعول به لـ«تُغْنِي» بمعنى تزيل، أو بمعنى تنفع، أو مفعول مطلق، أي إغناءً. والإنقاذ: التخليص من

ضرٌّ واقع أو مستقبل.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ إذا اتَّخذت من دونه آلهة ﴿لَّفِي ضَلَالٍ﴾ خطأ وذهاب عن الصواب والصلاح إلى الهلاك ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر لكلِّ عاقل استعمل عقله، و لم يستغرق في التقليد، كيف يشرك المصنوع العاجز عن نفسه الذي لا نفع فيه ولا دفع ولا شعور بالصانع الخالق القادر على كلِّ شيء من نفع وضرٍّ؟.

﴿إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خاطب قومه تصريحا بأنَّه آمن بالله الذي هو ربُّهم لا ربَّ لهم غيره، من آلهتهم كما هو ربُّه وربُّ كلِّ شيء، و لم يبال بما يعاقب عليه بعدما لوَّح لهم بالإيمان تلويحا وأكَّد دفعا لما قد يتوهَّمون أنَّه لم يؤمن.

وزاد بقوله: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ اسمعوا قولي فقد برح الخفاء لا أبالي بتغيظكم، ولا بما يتفرَّع عليه من مضرَّتي، وفي الله خلفي.

وقيل: اسمعوا قولي كلَّه، أي اعملوا به كما اخترت لنفسي، وعن ابن مسعود: لَمَّا قال صاحب يس ﴿اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ﴾ خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء وقال: ﴿إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي استشهادا لهم بإيمانه عند ربِّهم الذي أرسلهم بالدعاء إلى الإيمان به، ولذلك أضاف الربَّ إليهم، وقيل: بربِّكم خطاب لقومه، و«اسْمَعُونِ» خطاب للرسل استشهادا لهم، وقيل: كلاهما لقومه أو للناس عامَّة.

وكأنَّه قيل: ما حاله عند الله بعد هذا التصلُّب الشديد على دينه؟ فأجيب كما قال الله ﷻ : ﴿قِيلَ﴾ قالت الملائكة ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وإنَّما يقال له: ادخل الجنَّة إن مات، أو رفع حيًّا إليها، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أي اتَّصلَ علمهم ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فإنَّه إنَّما يجزم بالمغفرة والجعل من المكرمين بعد ذلك الدخول أو الرفع، إذ ليس نبيئا

يوحى إليه، ولا يتبادر أنَّ نبيئا أخبره، وغير ذلك شاذٌّ في العلم بشيء.

فقيل: رفعه الله حيًّا إلى الجنَّة كرفع عيسى إلى السماء يأكل ويشرب فيها، ويموت عند الساعة، كما روي عن الحسن، وهو المتبادر من قول قتادة، أدخله الله تعالى الجنَّة وهو فيها حيٌّ يرزق؛ وقيل: ولو حلَّ فيها بروحه بعد قتله، كما قال الله في الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٩) .

وكما قال الجمهور: إنَّهم قتلوه، فقيل: بالوطء عليه حتَّى خرج قصبه من دبره، وألقيَ في الرس، وقيل: بالحجارة حتَّى مات، وهو يقول: اللهمَّ اهد قومي، أو بدفنه في حفرة حيًّا، وعن الحسن: بالإحراق، وإنَّ قبره في سور أنطاكية، أو بنشره حتَّى خرج المنشار بين رجليه.

وقيل: معنى ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ التبشير بدخولها يوم القيامة، فالمضيُّ لتحقُّق الوقوع، ولم يقل: قيل له، للعلم به، ولأنَّ عمدة الكلام دخول الجنَّة بالإيمان، لا المقول له ولا القائل، ولذا لم يقل: قال الملائكة، وهم ملائكة الموت، ولم يقل: قال الملك، هو ملك الموت.

وتمنِّيه ﷺ علمهم بمغفرته وكرامته إنَّما هو من صفاء قلبه وكمال رحمته بقومه، ورغبته في قيام دين الله، ولو بهلاك نفسه، وفي الحديث: «**نصح قومه حيًّا وميِّتا**» وهذا أولى من أن يقال: تمنَّى ليعلموا باهتدائه وضلالهم وفوزه، ويغتاظوا بأنَّهم لم يصنعوا به إلاَّ ما فاز به.

(نحو) والقول إن كان يوم القيامة فالمضيُّ للتحقُّق، و«مَا» مَصدَرِيَّة لا اسم لعدم الرابط، ولا يقدَّر بلفظ «به» لأنَّ متعلَّق الجارِّ المذكور غير متعلَّق المقدَّر، وقيل: لظهور المراد بلا شرط، أي بما غفر لي ربِّي به ذنوبي وهو الإيمان، وجعلني به من المكرمين، والمصدريَّة أولى، أي يعلمون بغفران ربِّي لي، وجعله إيَّاي من المكرمين.

ويجوز وقوع «ما» الاسميَّة على الغفران، أي بالغفران الذي غفره لي ربِّي، فهاء «غفره» مفعول مطلق على هذا، لا [يَصِحُّ] وقوعها على الذنوب، أي بالذنوب التي غفرها لي، وهو أعظم وهو الشرك، ولو أراد أن يعلموا أنَّه تعالى لا يتعاظمه ذنب التائب [لَمَا صحَّ] لأنَّه تكلُّف.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

نهاية أصحاب القرية ومآل المكذِّبين

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ للإهلاك **﴿مِنۢ بَعْدِهِ﴾** بعد ذهابه عنهم بالموت، أو بالرَّفع إلى الجَنَّة **﴿مِن جُند﴾** عسكرًا من الملائكة أو مِمَّا شئنا. سُمِّيَ العسكر جندًا للخشونة، والجند: الأرض الغليظة فيها حجارة.

﴿مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ما في حكمتنا إن نتزل عليهم الجند للإهلاك، بل قضينا أن نهلكهم بالصيحة، ومن المهلكين من كانت حكمتُنا إهلاكه بالخسف، ومنهم بالإغراق، ومنهم بالريح، ومنهم بالحصب.

﴿إِن كَانَتِ الاَّ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ما كانت الإنزالة لإهلاكهم أو الأخذة أو العقوبة إلاَّ صيحة واحدة، أخذ جبريل بعض بعضادتي باب القرية فصاح بهم فماتوا بمرَّة **﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾** ساكنون لا يتحرَّكون بروح ولا جسم.

(بلاغة) واستعار الخمود من خمود النار، واشتقَّ منه خامدًا على التبعيَّة التصريحيَّة، أو شبَّههم بالنار لجامع الإضرار، ورمز إلى ذلك بلازمها وهو الخمود، وهم هالكون جميعًا، إلاَّ الرجل الذي جاء.

وزعم بعض أنَّ ملكهم وبعض من يليه آمنوا فأُهلك غيرهم، ولم تقتل الرسل ولم تصبهم الصيحة، وقيل: قتلوا على أنَّهم ليسوا أنبياء، لأنَّ الأنبياء لا يصيبهم ما يصيب أقوامهم من الهلاك، بل يخرجهم الله.

﴿يَاحَسْرَةً عَلَى اَلْعِبَادِ﴾ المكذِّبين، لا خصوص القوم المذكورين كما قيل، بل يدخلون في العموم أوَّلاً.

والمتحسِّر الْمُهْلَكُون، وقيل: تتحسَّر عليهم الملائكة، أو المؤمنون، أو الرسل المذكورون، أو الرجل من أقصى المدينة. وقد قيل: يا هؤلاء تحسَّروا حسرةً على العباد. ويقال: هم أحقَّاء أن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون. والظاهر أنَّ المنادى الحسرة، وهي من كلِّ من تصلح منه، ونداء الحسرة تنزيل لها منزلة العاقل، كأنَّه قيل: اُحضُرِي فهذا وقتك، وهي تشديد المغبون الندم، حتَّى يحصل غايته فينحسر ويفشل.

﴿مَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ الاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ذلك تهديدٌ لمن كذَّب برسول الله ﷺ، وإهانةٌ لهم بأنَّ الصيحة الواحدة تكفي في إهلاكهم لو شاءها الله، كما شاءها بأهل أنطاكية.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ألم يعلموا **﴿كَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ اَلْقُرُونِ﴾** «كَمْ» مفعول لـِ«أَهْلَكْنَا»، والجملة مفعول لــ«يَرَوْا» قامت مقام مفعولين، علِّقت بالاستفهام التوبيخي.

وقيل: «كَمْ» خبريَّة، وهي أيضا معلَّقة لأفعل[1] القلوب، ويدلُّ للاستفهام قراءة ابن مسعود «أَلَمْ يَرَوْا مَن اَهْلَكْنَا»، لكن لا مانع من كون «مَن» موصولة مفعولاً أوَّلاً و«أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ» مفعولا ثانيًا، والجملة على كلٍّ حال هي بمنزلة المفرد، ولذلك أبدل منها مفرد بدل اشتمال في قوله ﷻ:

﴿أَنَّهُمْ، إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ وهو المصدر من معنى لا، أي انتفاء رجوعهم إليهم. والآية الأولى للمهلكين والثانية لأهل مكّة، أو للعباد، قيل: معنى التخويف بأنّهم لا يرجعون إليهم في الدنيا أنّ إهْلاَكَنَا إيَّاهم إهلاكٌ لا يرجى الرجوع معه.

وفيه أنّ الموت مطلقًا لا يرجى معه الرجوع إلى الدنيا إلاّ شاذًّا ليس في أذهان أهل مكّة، وقيل: بتقدير لام التعليل للرؤية، أو للإهلاك، ولا معنى لهذا صحيح.

وقيل: المعنى على البدلية التهكُّم بهم، أو الحصر بتقديم «إِلَيْهِمْ» أي ألم يروا أنّهم يرجعون إلينا لا إليهم، و«لا» صلة، وفيه أنّهم لم يؤمنوا بالبعث فكيف يخاطبون بهذا؟ اللّهمَّ إلاّ أن يراد أنّه لَمَّا تحقّق أمر البعث وظهرت دلائله صحَّ أن يُقال: ألم يروا أنّهم يبعثون؟ و«كَمْ» وما بعدها مبدل منه، والبدل «أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ» و«لاَ» صلةٌ، أي ألم يروا أنّهم يرجعون، كما أنّه لَمَّا تحقّق عند الضليل [امرئ القيس] أنّ محبوبته دائمًا طيِّبة الرائحة بغير استعمالٍ، خَاطَبَ من لم يشاهدها بقوله:

أَلـم تَرَيَانِي كلّما جئـت زائـرًا وجدت بها طيبًا ولم تـتـطيَّب

وقيل: الأولى لهم والثانية للرسل، واللام للتعليل، أي أهلكناهم لعدم رجوعهم إلى ما يقول الرُّسل، ولا ركّة فيه كما قيل، إلاّ أنّه لا يتبادر.

١- في الطبعة العمانية: «لفعل».

وقال السيرافي: أهلكناهم بأنَّهم لا يرجعون، وفيه أنَّ كلَّ إهلاك كذلك، فكيف يَعظُهم به؟. ولا وجه لبدل الكلّ لأنّ انتفاء الرجوع ليس نفس الإهلاك، بل مترتِّبٌ عليه. ولا وجه لقول ابن هشام: إنَّ المعنى استأصلْنَاهم بعدم الرُّجوع.

﴿وَإِن كُلٌّ﴾ من المكذّبين المستهزئين ومن أُهلك من القرون ﴿لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾ لا عند غيرنا، متعلّقٌ بقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للعذاب، كما هو عادة القرآن استعمال الإحضار في مقام العذاب والسوء، حتَّى قال ابن سلام: معناه معذّبون.

(نحو) واللام مُبيِّنَةٌ أنَّ «إنْ» مخفَّفة لا نافية، و«مَا» تأكيد. ويجوز تعليق «لَدَيْنَا» بـ«جَمِيعٌ» بمعنى فريق مجموع، وهو خبر، و«مُحْضَرُونَ» خبر ثان. وقال الكوفيُّون: «إنْ» نافية، واللام بمعنى إلاَّ وَيَدُلُّ له قراءة «لَمَّا» بتشديد الميم بمعنى إلاَّ.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾

أدلة القدرة الإلهيّة على البعث وغيره

﴿وَءَايَةٌ﴾ خبر مقدَّم ﴿لَّهُمُ﴾ نعته ﴿الْأَرْضُ﴾ مبتدأ مؤخَّر ﴿الْمَيِّتَةُ﴾ شبَّه عدم زيادة النبات عليها بحال الميِّت في عدم صدور تحرُّك منه، فهي كالميِّت.

﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ حال من مبتدأ على قول من أجاز الحال منه، أو مستأنفة، أو نعت، لأنَّ «ال» في الأرض للجنس فكأنَّه نكرةٌ فساغ وصفه بالجملة، أو بدل من الأرض اشتمالي على تقدير حرف المصدر، أي إحياؤها.

(نحو) ويضعف جعل «ءَايَةٌ» مبتدأ مسوغه نعته بـ«لَهُمْ»، أو تعليقه به لأنَّ فيه معنى الإعلام، و«الارض أحييناها» مبتدأ وخبرهما خبر الأوَّل، والربط بالمعنى، وقد ذكره النحويُّون قديمًا ومثَّلوا له بنحو: زيد قام الإمام، أو قام أبو عبد الله، إذا كان زيد هو الإمام أو هو أبو عبد الله.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ بُرًّا وشعيرًا وأرزًّا وغيرهنَّ، وهذا من استعمال النكرة عَامَّة في الإثبات، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ (سورة التكوير: ١٤) ، وهذا الإخراج منها نفس الإحياء في «أَحْيَيْنَاهَا» فهو تفسير له، وكذا فسَّره أيضا بالنخيل والأعناب بعد.

﴿فَمِنْهُ يَاكُلُونَ﴾ قدَّم «مِنْهُ» للفاصلة وبطريق الاهتمام، حتَّى كأنَّه أريد الحصر، لأنَّ الحَبَّ أعظم ما يؤكل ويعتمد. و«مِنْ» للتبعيض، ويضعف الابتداء ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ﴾ بمعنى نخل، أو جَمْعٌ لنَخْلٍ الذي هو اسم جمع لنخلة، كعبد وعبيد، وعليه الجمهور.

﴿وَأَعْنَابٍ﴾ حقيقة في ثمرات هذه الشجرة، مجاز في الشجرة على الصحيح، وقيل: حقيقة فيهما، والمراد في الآية ثمراتها، ولم يذكر شجرتها،

والنخل بالمفرد كما ذكر الحَبَّ لأنَّهما لا يدلاَّن على الأنواع بالإفراد، وكلٌّ واحد اسم لنوع بخلاف الحبِّ فإنَّه اسم جنس، مشعر باختلاف ما حوله كَبُرٍّ وشَعِيرٍ، والحبَّة مفردة تدلُّ على الجنس أيضًا، وإنَّما المراد أنَّه لم يقل: «حبوب» بصيغة الجمع الذي ليس لمجرَّد إسقاط التاء، وقيل: جُمعًا للدلالة على مزيد النعمة، وأمَّا الحبُّ ففيه قِوام البدن. و لم يمتنَّ بثمراتهما كما امتنَّ بالحَبِّ بل بهما لكثرة منافعهما الزائدة على ثمراتهما.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾ التشديد للمبالغة، أي أنْبعنا إنباعًا عظيمًا كثيرًا ﴿فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئًا كثيرًا عظيمًا هو العيون، فـ«مِنْ» للبيان للمنعوت المقدَّر، كما أجاز الأخفش زيادة مِن مطلقًا، أي فجَّرنا فيها العيون.

وأجيز التبعيض، وذلك البعض كثير عظيم، والآية وغيرها كالصريح في أنَّ مواضع جري الماء تحت التراب عيون قبل إنباعها، فيجوز أن تكون «مِنْ» للابتداء. والمفعول محذوف، أي فجَّرنا من العيون ما ينـتفع به.

﴿لِيَأْكُلُواْ﴾ متعلّق بـ«فَجَّرْنَا» إذ لولا التفجير لم يكن الثمر، فضلاً عن أن يؤكل، أو لم يكثر كما يكفي، أو لم يَقْوَ، أو متعلّق بـ«جَعَلْنَا»، وفصل بالتفجير لأنَّه سببه. ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ من ثمر ما ذكر، وهو النخل والأعناب، أو هو الجَنـَّات لما قال رؤبة:

فيها خطوط من سـواد وَبَلَق كأنَّه في الجلد تَوْلِيعُ البَهَق

قيل له لم قلت: كأنَّه لا كأنَّها ؟ فقال: أردت كان ذاك وَيْلَكَ.

أو من ثمر الماء لدلالة العيون والتفجير عليه، أو لتقديره، أي وفجَّرنا فيها من ماء العيون.

(بلاغة) وأضيف الثمر للماء لأنَّه سببه، أو من ثمر النخيل، ويفهم مثله

للأعناب، و لم يعكس لأنّ ما مفرده بالتاء يذكر ويؤنّث، ويفرد ويجمع، وليس الأعناب من ذلك، أو من ثمر التفجير، وأضيف إليه لأنّه سببه، أو لأنّ الثمر بمعنى الفائدة كما يقال لهذه التجارة ثمرة أي ربحٌ.

أو من ثمر الله على طريق الالتفات من التكلّم إلى الغيبة، ووجهه أنّ الأكل والتَعيُّش مِمَّا يشغل عن الله فناسبا الغيبة.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ «مَا» نافية والهاء للثمر، أو لِمَا فجَّر **﴿أَيْدِيهِمْ﴾** بل خلقه الله الرحمن الرحيم. والجملة معطوفة على «فَجَّرْنَا» عطف القصص، أو حال من الثمر. أو «مَا» اسم موصول واقع على ما يعمل من العصير والدِّبس، عملته أيديهم من الثمر، ويضعف وقوعه على ما غَرسوا، لأنّ هذا مذكور بقوله: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّات﴾** ويضعف أنّها نكرة موصوفة لدلالتها على القلّة، والمقام للامتنان بالسعة **﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾** الهمزة ممَّا بعد الفاء، وإلاّ قدَّرنا: أيرون ذلك فلا يشكرون؟!.

﴿سُبْحَانَ اَلذِي خَلَقَ اَلاَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ سبِّحوه تسبيحًا، فهو اسم مصدر هو التسبيح نائب عن فعل الأمر، أو سبِّحوني تسبيحًا بصيغة التكلُّم.

ووضع الظاهر موضع المضمر ليذكر القُدرة التامة، إذ قدَر على خلق الأصناف، والزوج ما يقترن بآخَر مماثل له، ولو تركيبًا أو جوهريَّة، أو عرضيَّة، أو مضادٌّ له، **وكلُّ المخلوقات كذلك.** أو اسم مصدر هو التسبُّح بضمٍّ الموحدة أي تنزّه الله، أو انتزه بالذات، وعلى كلّ حال المراد البعد عن أن يشرك به مخلوق في العبادة، أو يتّصف بصفة مخلوق.

﴿ممَّا تُنبتُ الاَرْضُ﴾ من أصناف النبات التي بالحرث أو بالغرس وبغير ذلك **﴿وَمِنَ اَنفُسِهِمْ﴾** كذكر وأنثى وخنثى، أو هو عند الله أحدهما، وأحمر

وأبيض وأسود وقصير وطويل، وغير ذلك.

﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ كقوله تعالى: **﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** (سورة النحل: ٠٨) أي وأزواجًا مِمَّا لا تعلمون، لم نسمع به، ولم نره، أو سمعنا به ولم نره، كما قيل: إنَّ وراء المحيط أرضًا بيضاء معمورة بخلق يعبدون الله ﷻ كعبادة الملائكة، لا يعلمون آدم ولا دنيانا هذه، وما يعلمه كلُّ أحد أقَلُّ قليل جدًّا مِمَّا يجهله، وما يجهله غير متناه، وما يعلمه متناه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي من الليل، أي من ظلمته، لأنَّ الليل والنهار زمان كون الشمس حال ظهر الأرض بيننا وبينها، صحَّ أو لم يَحُلْ، وليست تحت الأرض بل فوقها، وإنَّما قالوا: هي تحت الارض على معنى أنَّ الأرض حالت بيننا وبينها. و«مِنْ» للابتداء، على حدِّ قوله ﷻ : **﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الاَرْضُ...﴾**.

(بلاغة) ومعنى سلخ النهار من الليل إزالة الضوء عن مكان الليل، وموضع إلْقاء ظلِّه وظلمته، وهو الهواء، مستعار عن كشط الجلد عن لحم الحيوان لكشف الضوء عن مكان الليل، استعارة أَصلِيَّة، واشتقَّ منه على طريق التبعيَّة التصريحيَّة «نَسْلَخُ» لجامع الظهور، فاللحم يظهر عن كشط الجلد، والظلمة تظهر عن إزالة الضوء. أو شبَّه النهار بالحيوان ورَمَزَ إليه بالسلخ. والنهار عبارة عن الضوء مجازًا، أو بتقدير: ضوء النهار.

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام، كأَشْأَمَ وأَعْرَقَ دخل الشام والعراق، وأَصْبَحَ وأَمْسَى وأَظْهَرَ دخل الصباح والمساء، وحرَّ الشَّمسِ.

(صـرف) و«أفعل» يأتي للدخول والخروج، ومنه قول عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما: «اظهر بمن معك من المسلمين إليها» أي إلى

الأرض، أي أخرج إلى ظاهرها، وقول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يُصلّي العصر و لم يظهر الفيءُ بعدُ من الحجرة»[1] أي لم يخرج إلى ظاهرها.

فبزوال الضوء عن الموضع تفاجئه الظلمة، ولا فاصل بينهما إذ لا ثالث، والأصل الظلمة إذ الضوء بحادث. والفاء لتفريع المفاجأة، وكفى في ذلك أنّهم بينما هم في ضوء كانوا في ظلمة، ومعنى المفاجأة اتّصَال الظلمة بآخر الضوء.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، أو «الشَّمْسُ» معطوف على الليل، و«تَجْرِي» مستأنف، أو حال على جواز الحال من المبتدأ، لأنّ الشمس معطوف على المبتدأ، و«لَهَا» على كلّ حال نعت «مُسْتَقَرٌّ». و«مستقر» اسم مكان ميميّ، وهو هنا الحدُّ الذي تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة، كمقرِّ المسافر إلاّ أنّه يمكث فيه والشمس لا تزال تتحرَّك وتكوُّن الشهور بذلك.

(معاني أسماء الشهور) فسمِّي المحرَّم لتحريم القتال فيه، ولو في الجَاهليَّة لتعظيمه. وصفر لخو مكّة فيه من أهلها، أو لصفرة وجوههم فيه لمرض، أو لصفير إبليس للناس بالقتال بعد محرَّم. والرَّبيع الأوَّل والثاني للخصب الواقع فيهما، وقيل: الأوَّل لأنَّه صادف أوَّل الخريف والآخر لأنَّه صادف آخر الخريف. وجمادى الأولى والثانية لجمود الماء فيهما. ورجب لعظمته في الجَاهليَّة قبل الإسلام، أو لثقل حمل الأشجار حتّى جعلوا لها عمدًا. وشعبان لتشعُّب قبائل العرب فيه أي تفرُّقها، وقيل: لتشعُّب الخير فيه. ورمضان لاحتراق الذنوب

١-رواه **البخاري** في كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، رقم ٥٢٠. و**النسائي** في كتاب المواقيت، باب تعجيل العصر، رقم ٥٠٥، من حديث عائشة.

فيه، أو لمصادفة الحرِّ الشديد فيه، وهو أولى لأنَّه لم يختصَّ بالإسلام. وشوَّال لأنَّ الإبل شالت أذنابها فيه للِّقاح، أو لأنَّ قبائل العرب شالت عن مواضعها، أي تفرَّقت، أو لأنَّهم صادوا فيه، يقال: أَشَلْتُ الكلب، أرسلته للصيد. وذو القعدة لأنَّهم يقعدون فيه عن الحرب. وذو الحجة لأنَّهم يحجُّون فيه.

ولام «لِمُسْتَقَرٍّ» بمعنى إلى، كما قرئ بـ«إِلَى»، وأجيز أن تكون تعليليَّة، وأن يكون المعنى: تجري لمنتهى لها من المشارق اليوميَّة والمغارب اليوميَّة، لأنَّها تتبعها مشرقًا مشرقًا، ومغربًا مغربًا، حتَّى تبلغ أقصاهَا وترجع، فذلك حَدُّها ومستقَرُّها لا تعدوه، واللام بمعنى إلى، أو للتعليل.

و«مستقر» اسم مكان، وكذلك إذا قلنا: إنَّ المعنى تجري لحدٍّ لها من مسيرها كلَّ يوم في رأي أعيننا، وهو المغرب، أو تجري لكبد السماء ودائرة نصف النهار، وذلك مجاز عن الحركة البطيئة.

ويجوز أن يكون مستقرُّها غاية ارتفاعها صيفًا وغاية هبوطها شتاءً، ويجوز أن يكون المستقرُّ مصدرًا ميميًّا بمعنى الاستقرار والمكث في كلِّ برج من البروج الاثني عشر، فاللام داخلة على الغاية والحاصل.

وقال قتادة ومقاتل: تجري إلى انقضاء الدنيا، فـ«مستقر» اسم زمان ميميٌّ. وجاء في أحاديث أنَّها تسجد تحت العرش، وهي تدلُّ أنَّ المستقرَّ اسم مكان، وأنَّها تمسك عن الجري حال السجود، حتَّى زعم بعض عن عكرمة أنَّها تبيت الليل كلَّه ساجدة، وجاء أنَّها تطلب الله في سجودها أن لا تطلع لأنَّها تُعبَدُ من دون الله.

[قلت:] وأنت خبير بأنَّها تدور إلى جهة الشمال دائمًا إذا غربت، و أنَّه لا وقت هو ليل على الدنيا كلِّها فوقت واحد يكون ليلاً على أهل موضع ونهارًا على أهل موضع آخر، والأوقات كُلُّها متتابعة كذلك، ففي أيِّ ليل من ليالي

الدنيا تسجد؟ أفي ليل مضاب أم في ليل عمان؟ وهكذا... وآمنَّا بالحديث [إن كان صحيحا].

ولعلّ المراد ليل قائل ذلك ﷺ ، وهو ليل مكّة أو المدينة، أو ليل الخارج عن المعمورة، ولو كان ذلك نهارًا في أماكن كثيرة، والظاهر الأوَّل.

أو تسجد مع سير، وقد قرأ ابن مسعود: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَّهَا» أي تجري أبدًا لا وقوف لها إلى يوم القيامة. والشمس والقمر والنجوم خلق الله لها تمييزًا مع أنَّها جماد، وَقِيلَ: لها روح وحياة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري البديع الشأن الذي تحار فيه الأذهان **﴿تَقْدِيرُ﴾** مصدر بمعنى مفعول، أي مقدَّر **﴿الْعَزِيزِ﴾** الغالب بقدرته على كلّ شيء **﴿الْعَلِيمِ﴾** بكلّ شيء. ونور الشمس والنجوم مخلوق فيهنَّ؛ وقيل: نور الشمس من العرش ونور الكواكب من نور الشمس؛ وقال ابن العربي: نور الشمس من نور تجلّي الله تعالى، ونور سائر الكواكب السيَّارات منها، فما ثَمَّ إلاّ نوره تعالى؛ وقيل: السيَّارات والثوابت كلُّها نورها من نور الشمس.

(فلك) والسنَة أربعة فصول: ربيع وصيف وخريف وشتاء، والربيع يبتدئ من أحد وعشرين من مارس (بالسين المهملة)، أو مارث (بثاء مثلثة) ونصف برمهات. والصيف من أحد وعشرين ينيه ونصف بؤنة. والخريف من الثالث والعشرين من سبتمبر ونصف توت. والشتاء من الثاني والعشرين من دسمبر ونصف كيهك.

(فلك) وفي أوَّل الربيع يستوي الليل والنهار ويزداد النهار بعد بقدر ما ينقص الليل، وينتهيان أوَّل الصيف، فيكون أطول نهار الثاني والعشرين من ينيه، وليلته أقصر ليلة، ثمّ ينقص النهار ويزيد الليل إلى أوَّل الخريف فيستويان، فيزداد الليل وينقص النهار إلى أوَّل الشتاء، فأطول ليلة ليلة الحادي والعشرين من دسمبر،

ونهارها أقصر نهار، ويزداد الليل حتَّى يستويان أوَّل الربيع، وفي الربيع والخريف يعتدل الهواء، ويشتدُّ البرد في الشتاء، والحرُّ في الصيف.

(الشهور القبطية) والشهور القبطية توت وبابه، وهاتور، وكيهك وطوبة، وأمشير، وبرمهات، وبرموده، وبشنس، وبؤنة، وأبيب، ومسرى، وبعدها أيـــَّام النسيء، وكلٌّ منها ثلاثون يومًا، فالسنة القبطيَّة ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا، وتُسَمَّى بسيطة، وتزيد يومًا في كلِّ أربع سنين، وتكون أيـــَّام النسيء ستَّة، فالسنة حينئذ ثلاثمائة وَسِتَّة وَسِتُّونَ يومًا، وتسمَّى كبيسة.

والسنة الإفرنكية كالسنة القبطيَّة بعضها ثلاثون يومًا وبعضها أحد وثلاثون، إلاَّ الثاني فثمان وعشرون، وأيَّامها ثلاثمائة وخمسة وَسِتُّونَ يومًا، وهي السنة البسيطة، وفي كلِّ أربع سنين يكون الشهر الثاني تسعة وعشرين، فالسنة ثلاثمائة وَسِتَّة وَسِتُّونَ، وهي السنة الكبيسة.

والشهور الإفرنكية: يناير أحد وثلاثون، وفبراير ثمانية وعشرون، أو تسعة وعشرون، ومارث أو مارس أحد وثلاثون، وأبريل ثلاثون، ومايه أحد وثلاثون، وأغسطس أحد وثلاثون، وسبتمبر ثلاثون، وأكتوبر أحد وثلاثون، ونوفمبر ثلاثون، ودسمبر أحد وثلاثون. وينيه ثلاثون، ويوليه، أحد وثلاثون، وهما مُتَّصِلان بمايه، ويقسم تاريخها على أربعة، فإن لم يبق شيء فكبيسة، وإن بقي فبسيطة.

﴿وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي صيَّرنا محلَّ سيره، بتقدير مضافين. و«مَنَازِلَ» مفعول ثانٍ لـــ«قَدَّر» بمعنى صيَّر، ويقدَّر مضاف قبل «مَنَازِلَ»، أي قدَّرناه ذا منازل، ويجوز أن يكون متعديًّا لواحد هو «مَنَازِلَ»، والهاء على تقدير اللام، أي قدَّرنا له. وقيل: هو الهاء على حذف مضاف.

و«مَنَازِلَ» ظرف، أي قدَّرنا سيره في منازل، أو قدَّرنا نوره في منازل، فيزيد مقدار النور في كلِّ يوم، ثمَّ ينقص كذلك، لأنَّ نوره من نور الشمس

بدليل اختلاف تشكُّلاته بالقرب والبعد منها، وخسوفه بحيلوليَّة الأرض بينهما، إذا حاد عن مجراه، [قلت:] **ولا ينبغي أن يختلف في ذلك.**

ومنازله ثمانية وعشرون، والمنزل: عبارة عمَّا يقطعه القمر في يوم وليلة، وذلك أنَّه يختفي ليلتين من آخر الشهر وأقلّ أو أكثر لمزيد قربه من الشمس.

ولا يختفي أكثر من ثلاث ليال، ليلة قدامها وليلة تحتها تقريبًا، وليلة خلفها، وذلك تقريب، فأسقطوا يومين وذلك عند العرب وسكّان البدو، وذلك ليضبطوا أحوال الرعي والانتقال إلى المراعي وسائر مصالحهم.

وبقي ثمانية وعشرون، وقسَّموا دور الفلك عليه، فكان كلُّ قسم اثني عشرة درجة، وإحدى وخمسين دقيقة تقريبًا وهو ستَّة أسباع درجة، ونصيب كلّ برج منه منزلتان وثلث.

والمنازل عند أهل هند سبعة وعشرون، لأنّ القمر يقطع فلك البروج في سبعة وعشرين يومًا وثلث يوم، فحذفوا الثلث لأنَّه أقلُّ من النصف، والشمس تستردُّ دائمًا ثلاث منازل، ما هي فيه بشعاعها، وما قبلها بضياء الفجر وما بعدها بضياء الشمس، ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر، ثمّ شعاعها ثمّ بضياء الشفق، فوجدوا الزمان بين كلّ ظهوري منزلتين ثلاثة عشر يوما تقريبًا، فأيَّام جميع المنازل تكون ثلاث مائة وأربعة وَستِّينَ.

لَكِنَّ الشمس تقطعها في ثلاث مائة وخمسة وَستِّينَ، وزادوا ذلك اليوم في الغفر اصطلاحًا أو لشرفه، وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة، ويرجع الأمر إلى النجم الأوَّل.

وليس القمر أو الشمس يحادي المنزل ولا بدَّ، فإنَّه قد يكون قبله بقليل أو بعده، وإنَّما أرادوا الضبط، وليس كلُّ منزل نجمًا واحدًا، بل بعضها نجم

وبعضها اثنان، وبعضها ثلاثة وأكثر، فالثريَّا ستَّة أنجم، وقيل: خمسة، وقد قيل: بالآلة أكثر من ثلاثين نجمًا فيها، وبعض المنازل غير نجم، وهوالبلدة، فإنَّها قطعة من السماء لا نجم فيها مستديرة[١].

ولا يخفى أنَّ الشهر ثلاثون أو تسعة وعشرون بحسب الرؤية، والشرع جاء على هذا لا غير، وأمَّا أهل الميقات فقالوا: الشهر الأوَّل ثلاثون والثاني تسعة وعشرون، والثالث ثلاثون، وهكذا فالشهر الأخير تسعة وعشرون، وأيَّام السنة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا بسيطة، وثلاث مائة وخمسة وخمسون كبيسة، والشهر الأخير منها ثلاثون، ويسمَّى هذا الحساب الحساب الوسطي. والشمس والقمر يجتمعان في آخر كلِّ شهر عربي في منزلة واحدة ودرجة واحدة، وهو يوم ثمانية وعشرين إن كان سير الشمس بطيئًا، أو يوم تسعة وعشرين إن كان سريعا، ثمَّ إن كان البعد بينهما اثنتي عشرة درجة أو أكثر رؤي الهلال، وإن كان أقلَّ لم ير مثل أن يجتمعا في درجة واحدة نهار ثمانية وعشرين، أو تسعة وعشرين عند غروب الشمس.

والقمر سريع السير، فعند غروب ليلة الثلاثين يكون القمر قد سار في اليوم والليلة ثلاث عشرة درجة، فالبعد أكثر من اثنتي عشرة درجة، فيرى الهلال ويكون الشهر ناقصًا، وإن اجتمعا نهار تسعة وعشرين أو ليلة ثلاثين عند الغروب بعد مضي نهار تسعة وعشرين، فعند الغروب يكون القمر قد سار في اليوم والليلة منزلة واحدة، والبعد بينه وبين الشمس أكثر من اثنتي عشرة درجة فيرى الهلال ويكون الشهر تامًّا.

١– تقدَّم شيء عن ذلك في ج٦، ص١٩١ وما بعدها، عند تفسير قوله تعالى: {هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً}.

والحاصل أنّه متى كان القمر في برج الحمل أو الحوت خلف الشمس وبينهما إحدى عشر درجة رؤي الهلال، وإن كان في برج الجوزاء أو الجدي وبينهما اثنتا عشر درجة رؤي، وإن كان في برج السرطان أو القوس وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، وإن كان في برج الثور أو الدّلو وبينهما خمس عشر درجة رؤي، إن كان في برج الأسد أو العقرب وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، إن كان في برج الجوزاء أو الجدي وبينهما خمس عشرة درجة رؤي، وإن كا ن في برج السنبلة أو الميزان وكان بينهما ثلاث عشرة درجة رؤي، وإن كان أقلّ من هذه الدرج لم يُرَ و لم يظهر إلاّ بالحساب الدقيق.

﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ صار في أواخر سيره لقربه من الشمس في رأي العين **﴿كَالْعُرْجُونِ﴾** هو العود الذي بين الشمراخ والنخلة، من العرج وهو العوج، والنون زائدة كالْوَاوِ، بوزن «فعلون»، لا ما قيل: من أنّها أصل بوزن «فعلول». شبّه به القمر آخر الشهر إذا تقوّس صورة لا تحقيقًا بخلوٍّ باقيه من النور، ووجه الشبه ذلك العوج أو مع اللون.

وظاهر الآية أنّه قمر في ليالي الشهر كلّها كما هو العرف العام، ولا سيما إذا ذكر مع الشمس، و المشهور عند اللغويين أنّه بعد الاجتماع مع الشمس ومفارقته إيَّاهَا لا يسمَّى قمرًا إلاّ من ثلاث ليال، وستٍّ وعشرين، وفيما عدا ذلك يسمَّى هلالاً.

﴿الْقَدِيمِ﴾ الذي مرَّ عليه زمان حتَّى يبس واصفرَّ واعوجَّ، وقيل: مرَّ عليه حول.

(فقه) ومن قال: كلُّ عبد لي قديم فهو حرٌّ، عتق من له حول عنده أو أكثر، وقيل: ستّة أشهر.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ إخبار عن شيئين جمعهما بأنّهما بعد هذا الاجتماع لا يفعل أحدهما بالآخر ما ينقض هذا الاجتماع، كما يتغاير زيد وعمرو ثمّ يصطلحان، فلا زيد يأكل مال عمر ولا عمرو يضربه، وهذا حكمة دخول حرف النفي على الشمس والليل، إذ التفاعل بينهما خلق الله الشمس والقمر على أبلغ حكمة، فلا الشمس بعدُ تُدرِكُ القمر بإبطاله فتبقى طول الليل لا تغيب، ولا يظهر له ضوء، أو تسرع الطلوع عقب غروبها كذلك، ولا الليل يسبق النهار بأن لا تطلع الشمس فيبقى الليل للقمر لا يغيب، أو يغيب فيسرع الطلوع، وذلك في معنى ولا القمر سابق الشمس، إلاّ أنّه لم يقل هذا - والله أعلم - ليؤذن بالتعاقب بين الليل والنهار، وبنصوصية التدبير على المعاقبة فإنّه مستفاد من الحركة اليومية التي مدار تصرُّف كلٍّ منهما عليها.

(بلاغة) وعبَّر بالإدراك في شأن الشمس، وبالسبق في شأن الليل وقَمَرِه لبُطءِ سَيرها وسرعة سيره، ولأنّها أقوى، فهي مظنَّة معالجة الضعيف لتهلكَه، والضعيف لا يقاوم القويَّ بل يفرُّ وينجو بالهروب.

وفي الآية إيذان بأنّهما لا قدرة لهما على ذلك المنفيِّ، بل الله لو شاء لفعله، كما تقول: ما عمرو سعى في حاجتك، تريد بل غيرُه، وعبارة بعض: لا قدرة للشمس على أن تدرك القمر في سيره لبطئها وسرعته، وعبارة بعض: إنّ القمر مع سرعته لا يسبق الشمس بالحركة اليوميَّة.

وقيل: لا تدرك الشمس منافع القمر كالتلوين، ولا يدركها في منافعها كالإنضاج، وقال الحسن: لا يجتمعان أوّل الشهر، بل تغيب ثمّ يظهر، وقال يحيى بن سلام: لا تدركه ليلة أربعة عشر بل تغيب قبل طلوعه، وهو كالمبادر لها فهو بدر، ويقال: إذا اجتمعا في فلك قامت الساعة.

وأصل «يَنْبَغِي» مطاوعة «بغى» بمعنى طلب، والمراد: لا يليق في الحكمة أن تدرك القمر، لا ما قيل من اختيار أنّ المعنى لا يتسخَّر ولا يتسهَّل أن تدركه.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كلُّهم لمعنى الشمس والقمر، كما قال: «يسبحون» بصيغة الذكور العقلاء تعظيمًا، أو لأنّهما عاقلان خلق الله لهما العقل والتذكير، تغليبٌ للقمر، ولأنّهم يخبرون عن كلٍّ ولَو لاثْنَين بالجمع أو بالإفراد لا باثنين، وكثيرًا ما يرجع ضمير الجمع لاثْنين.

ويجوز أن يقدَّر: كلٌّ واحد منهما يسبحون، ويجوز ردُّ الضمير إليهما وإلى الكواكب، لأنّها عاقلة، ودلَّ عليها ذِكرُهما وذكر الليل هكذا: وكلُّهم يسبحون في فلك، وقدِّم للفاصلة وعلى طريق الاعتناء بالفلك.

والسبح: المشي بانبساط، وكُلٌّ من بسط في شيء، والصحيح أنّه في السباحة في الماء، والفلك مجرى الكواكب أو الشمس أو القمر من الهواء، قيل: سمِّي لاستدارته كفلكة المغزل، وذلك مجرى في الهواء مستديرًا، وفي جسم لطيف غير الهواء، وكلٌّ نجم له فلك من ذلك يجري فيه والسماوات ساكنة لا تتحرَّك.

وأوَّل الشهور تشرين الأوَّل، ثمَّ تشرين الثاني، ثمَّ كانون الأوَّل، ثمَّ كانون الثاني، ثمَّ شباط، ثمَّ آذار، ثمَّ نيسان، ثمَّ أيَّار، ثمَّ حزيران، ثمَّ تمُّوز، ثمَّ آب، ثمَّ أيلول، وذلك بحساب الروم واللغة السريانية.

(حساب الفرس وأسماء شهورها) وأمَّا بلغة الفرس فهنَّ فرودين، وأردبهشت، وحزاداد، وبير، ومرداد، وشهر بور، ومهر، وأبان ثمَّ خمسة أيَّام لا تعدُّ من السنة، يقال لها الأيَّام المسروقة بينهم، وأدرودى، وبهن، واسفندار، والبدء من نيروز، وكلَّما مضى من شهر عشرة أيَّام دخل شهر من شهور الرُّوم.

وكلّ سنة يتأخّر النيروز بيوم من أيــّام الجمعة، فإن كان النيروز يوم الخميس كان في السنة بعده يوم الجمعة، وفي السنة الثالثة يوم السبت، وما كان من شهور العرب ينقص في كلّ سنة عشرة، وربّما نقص أحد عشر، فستّة أيّام منها ينقصان شهورها، والأربعة هنّ الأيّام المسروقة، واليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وكلّما انتقص من الليل ازداد في النهار، وكلّما انتقص من النهار ازداد في الليل.

وأطول النهار نصف حزيران من خمس عشرة ساعة، والليل من تسع وهو أقصر ليل، ثمّ ينقص النهار، ويزداد الليل ويستويان في المهرجان، لكلّ واحد اثنتا عشرة ساعة، وبعد سبعة عشر من كانون الأوّل يكون الليل خمس عشرة ساعة، وهو أطول ما يكون، والنهار تسعًا أقصر ما يكون، ثمّ ينقص الليل ويزداد النهار إلى النصف من حزيران، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾ (سورة فاطر: ١٣) والله أعلم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ، أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّـــاتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ «آيةٌ» خبر للمصدر، أي حَمْلُنَا ذُرِّيَّـــاتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلْقُنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ آيةٌ لهم، بإسكان ميم حَمْلنا ولام خَلْقنا ورفعهما في التقدير.

والذُّرِّيــَّة: الأولاد الصغار والكبار، ويطلق على الواحد ذكرًا أو أنثى فصاعدًا، حقيقة في كلّ ذلك لا في الجمع فقط كما قيل، والمراد هنا الصغار، وفسِّر بالنساء كما ورد في الحديث نهي عن قتل الذراري وفسِّر بالنساء.

[قلت:] والصواب أنّه الصغار وأمّا النهي عن قتل النِّساء ففي حديث آخر، نعم في حديث آخر عن حنظلة الكاتب: كنّا في غزاة عند رسول الله ﷺ ،

فرأى امرأة مقتولة، فقال: «**هاه ما كانت هذه تقاتل، الْحَقْ خالدًا وقل: لا تقتلنَّ ذرِّيـــَّة ولا عسيفًا**»[1] أي أجيرًا.

ووجه التفسير بهن ضُعفُهُنَّ، ومعَ ضعفهنَّ يجاوِزْنَ البحْر بالفُلك، وهذا امتنان، وكذا إذا فسِّر بالصغار لضعفهم، فإن صحَّ حمل الذُّرِّيـــَّة على النساء لغة فالأولى أنَّ المراد في الآية الصغار والنساء، ثمَّ إذا كان يطلق على الكبار فهم المراد، لأنَّهم يبعثونهم في الفلك للتجر، وذلك امتنان.

أو المراد الكبار والصغار والنساء لما ذكر من التجر والضعف.

ولفظ «ذُرِّيـــَّة» من الذرء بمعنى الخلق، قلبت الهمزة ياء فأدغمت فيها الهاء، وقيل: أصله «ذروية»، قلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء لاجتماعهما، وسكون السابق منهما، وقيل: «فعلية» كقمرية.

والفُلْكُ: السفينة، سُمِّيت لأنَّها تدور في الماء، وليس من شرطها الدور. والْمَشْحُون: المملوء، أي مع امتلائه لا يغرق بما فيه، أو وصفه بالشحن لأنَّ ما خَفَّ من السفن مظنة للعب الرِّيح به، وهم لا يسافرون بها خالية.

وكون الفلك للجنس ظاهر لا يحتاج إلى روايته عن ابن عبَّاس، كما روي، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يراد بالرواية عنه ردُّ ما قالت الشيعة: الذرِّيـــَّة نطف عليٍّ وذرِّيته في الفلك أي في البطن، وردُّ ما قيل: إنَّه سفينة نوح، وما قيل: إنَّه السفن والزوارق بعدها، والمحمول نطفهم في أصلاب آبائهم المحمولين.

والهاء في «لَهُمْ» على كلِّ حال للمشركين مطلقًا، وقيل: لأهل مكَّة، وقيل: للعباد في قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ (سورة يس: ٣٠) مع بعده،

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان، رقم ٢٨٤٢. و**أبو داود** في كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، رقم ٢٦٦٩. من حديث حنظلة الكاتب.

وأجيز ردُّ الثاني للذريَّة.

والمراد بـــ«مَا يَرْكَبُونَ» الإبل كما شهر أنَّها مثل الفلك، وأنَّها سفائن البرِّ، كما قيل: «سفائن برٍّ والسَّحابُ بِحَارُها».

ويبعد تفسيرها بالأنعام، لأنَّ الغنم لا تحمل الإنسان، والأولى تفسيرها بالإبل والبغال، والحمير والخيل والبقر، كما ذكرن في القرآن بالحَمْلِ [في سورة النمل آية ٧٠].

وسفن النار داخلة في الفلك إذا كانت في البحر، وما كان منها في البرِّ فهي وأفعال صُنَّاعها مخلوقة لله ﷻ .

﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إغراقهم ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ في الماء لمعاصيهم، ولكن أمهلناهم، كما قال: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهذا عائد إلى قوله ﷻ : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾ عطف على «نُغْرِقْ» عطف اسْمِيَّة على فعْلِيَّة، والمعنى: نغرقهم و لم يغثهم أحدٌ من الغرق، و لم يمنعهم من الموت بعد الغرق. أو جواب لمحذوف، أي إن أغرقناهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذونَ.

والصريخ: وصف بمعنى المغيث، كما رأيت، أو بمعنى: لا مجيب لندائهم في مبادئ الغرق لينجيهم، يقول: لبيك جاءك العون، وهو معنى صحيح، يجوز التفسير به لا كما قيل: لا يجوز.

ويجوز أن يكون مصدرا، بمعنى: لا إجابة لهم إذ نادوا، أو لا إغاثة، وشمل سيرًا وصوتًا الفعيل، كصهيل.

(أصول الدين) والآية تقول: إنَّ الله هو المنجي لا غيرُه بالكسب، ولا بالطبع، ردًّا على من يقول لجهله: إنَّ المنجي تجويفُ السفينة، وذلك التجويف لا يمنع الرسوب إن أراده الله ﷻ ، وهو الذي جعل لكم التجويف سببا لعدم الرسوب.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ استثناء منقطع، أي لكن نرحمهم بالتنجية أو بما يقارن التمتيع بالحياة، ونمتّعهم بحياة إلى حين أجلهم، رأيت في ديوان المتنبي:

وإن أسلـم فـما أبقـى ولكـن سلمت من الحِمام إلى الحِمام[1]

ولا يخفى أنّ ما ذكرته لعدم إحواجه إلى تقدير أولى من جعل النصب على التعليل لمحذوف، أي لا يغاثون ولا ينقذون إلاّ رحمة منّا وتمتيع إلى حين، أو على نزع الجارّ متعلّقًا بذلك المحذوف، أي إلاّ برحمة ومتاع، أو إلاّ بأن نرحمهم رحمةً ونمتّعهم متاعا بالنصب على المفعوليّة المطلقة. و«مَتَاعًا» اسم مصدر بمعنى تمتيع.

وأجاز ابن عطية أن يكون قوله تعالى: ﴿فَلاَ صَرِيخَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ في شأن أصحاب الفلك، ناجين أو مغرقين، أي لا نجاة لهم إلاّ برحمة الله ﷻ، وهو ضعيف لا يناسبه التفريع في قوله: ﴿فَلاَ صَرِيخَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

١- وقبله:

فإن أمرض فما مرض اصطباري وإن أحـم فما حمَّ اعـتزامي

من قصيدة له عندما مرض بالحمَّى في مصر وهو يستعدُّ للهروب مطلعها:

ملومكم يجلُّ عن الملام ووقع فعـاله فوق الكلام

ناصف اليازجي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب، ص٥٢٠.

إعراض المشركين عن التذكير وقساوة قلوبهم

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للمشركين مطلقًا، أو لأهل مَكَّة ﴿اتَّقُواْ﴾ احذروا ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مثل ما بين أيديكم من عذاب الأُمم قبلكم على الكفر، أو اتَّقوا موجبَه، وهو الكفر ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ عذابَ الآخرة، أو عكس ذلك، أو ما تقدَّم من ذنوبكم وما تأخَّر، أي عقابها.

وزعم بعض أنَّ المراد: نوازل السماء ونوازل الأرض، وبعض أنَّ المراد: المكاره من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كي ترحموا، أو قائلين لعلَّنا نرحم، والرَّحمة الإنجاء من العذاب. وجواب «إِذَا» محذوف تقديره: أعرضوا. ﴿وَمَا تَاتِيهِم مِّنَ﴾ صلة ﴿ـ ايَةٍ مِّنَ ـ ايَاتِ رَبـِّهِمُ، إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ بالتكذيب والاستهزاء.

والآيات هنَّ الآيات المتلوَّة، وأضيفت للربِّ تعظيمًا لها، أو هنَّ وسائر المعجزات والدلائل، كإخباره بالغيوب، وما ذَكَّرهم به في ضمن التلاوة، كالشمس والقمر والفلك.

(نحو) والمضارع للتَّجدُّد، و«آيَةٍ» فاعلٌ، و«مِنَ ـ ايَاتِ» نعت «آيَةٍ»، و«مِنْ» للتبعيض، أو متعلِّقٌ بـ«تَاتِي» فتكون للابتداء، وقدِّم عنها على طريق الاهتمام بالآيات وللفاصلة، أو للحصر معها، أي من شأنها أن يعرض عمَّا سواها كلِّه، وعكسوا بأن أعرضوا عنها وحدها لا عن الكفر وسائر أمورهم.

أو الحصر من طريق الحصر الادِّعائيِّ مبالغةً، كأنَّه قيل: لم يعرضوا إلاَّ عنها، وجملة «كَانُوا...» حال من «آيَةٍ»، والرابط ضمير «عَنْهَا»، أو من هاء «تَاتِيهِمْ» والرابط واوُ «كَانُوا».

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي قال المؤمنون والنبيء ﷺ ﴿لَهُمُ، أَنفِقُواْ﴾ على الفقراء والأرحام، وفي وقت القحط ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الأموال فضلاً منه، كما قال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (سورة القصص: ٧٧) ، ذمَّهم الله على ترك الإنفاق بعد ذمِّهم على ترك التقوى، وعلى عدم مبالاتهم بنصح الناصح مع عظم جناياتهم، ومع أنَّ الصدقة تدفع البلاء، مع أنَّه ما أمرهم بإنفاق الكلّ بل ببعض.

﴿قَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي قالوا، فوضع الظاهر ليصفهم بالكفر، أعني أنَّ هذا النظم الكريم من جملة ما يذكر فيه علّة الحكم، ولو شاء الله تعالى لقال: قالوا كافرين، أو قالوا لكفرهم، فيفيد العلّة وهي الكفر.

﴿لِلذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي للنبيء وللمؤمنين القائلين لهم «أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ﴾ إطعامه ﴿أَطْعَمَهُ﴾؟.

أسلم بعض الفقراء فقطع عنهم قرابتهم أو مواليهم المشركون النفقة، فأمرهم المسلمون بالإنفاق، وذلك في مكّة، أو أقحطوا فَشَحُّوا فأمروهم بالإنفاق على الفقراء، مؤمنين أو كافرين، وأجابوا بالإطعام الذي هو خاصٌّ.

والإنفاق المأمور به عامٌّ لما يؤكل وللدراهم ولغيرها لأنَّهم يفتخرون بالإطعام، ولأنَّ غير الطعام يراد للطعام في الجملة، ولا سيما في القحط.

أو «نُطْعِمُ» بمعنى نعطي، كقولك: أطعمت فلانًا وَسْقًا من بُرٍّ أي أعطيته، إذ لا يأكل وَسْقًا مرَّة ولا هو يأكله بلا علاج إصلاح الطعام، إلاَّ أنَّ هذا المثال أقرب، لأنَّه في الأكل، لكن يصلح دليلا لأنَّه لم يشترط الأكل فإن شاء أعطاه بعد أخذه في دين عليه مثلاً.

و«قَالُوا أَنُطْعِمُ...» جواب بلا مناسبة مجازفة في الرَّدِّ على من طلب الإنفاق، وقد قيل: أقاربهم الضعفاء هم القائلون: أطعمونا.

وقيل: القائلون كُفَّار بالله، فعابوا على من يقول: شاء الله كذا، أو إن يشأ الله، وفي هذا مناسبة في الجواب باعتبار قول المؤمنين إن شاء الله، وإن يشأ الله تعالى.

وكان العاصي بن وائل السهمي إذا سأله سائل قال: اذهب إلى ربِّك فهو أولى منِّي بكَ، ويقول: قد منعه أفأطعمه أنا؟ وأخطأ فإنَّ الله ﷻ أغنى بعضًا وأفقر بعضًا ابتلاء لا بُخلاً منه تعالى. وقيل: قالوا ذلك استهزاء.

﴿إِنَ اَنتُمُ، إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ في قولكم: «أَنفقُوا» بأمر الله، فإنَّ الله لم يأمرنَا، أو في قولكم: مَنْ شَاءَ اللهُ أَطْعَمَهُ. وقيل: نزلت الآية في اليهود إذْ أُمروا بالإنفاق على الفقراء وأبوا، وهو ضعيف، ولا سيما أنَّ السورة مكّـيَّة.

ويجوز أن يكون ﴿إِنَ اَنتُمُ، إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ خطابًا من الله ﷻ للمشركين مطلقًا، أو لأهل مكَّة، ويبعد أو لا يجوز أن يكون من كلام المؤمنين للفصل، وللتكلُّف بتقدير سؤال، كأنَّه قيل: فما قال المؤمنون؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

إنكار الكفَّار يوم البعث وبيان أنَّه حقٌّ لا شكَّ فيه

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ، أَنفِقُواْ...﴾ ﴿مَتَىٰ هَذَا اَلْوَعْدُ﴾ الوعد بالبعث، كان ﷺ يكثر ذكره ويذكر ما تضمَّنه، أو يشير إليه

كذكر النار، فكانوا يذكرونه متى هو؟ ولو لم يذكره ولا ما يبنى عليه، فإشارة القرب لقرب ذكره، أو ما يرجع إليه، أو لحضوره في أذهانهم.

ومرادهم: أحضره لنا بأنْ يميتنا الله ﷻ، فيبعثنا الآن، أو بأن يبعث من قبلنا، أو بيِّن لَنا وقتهُ بأجَلٍ نحضره، أو قصدوا أنّه حقٌّ بالاستهزاء فأحضره لنا.

والمراد بالوعد الوعيد لأنّه ﷺ يذكره ردعًا لهم، أو أرادوا الوعد بالخير لأنّهم يقولون: إن بعثنا لقينا الخير من الله، أو بشفاعة ما نعبد من دونه، أو أرادوا الخير والشرَّ لأنّه يذكره ثوابًا وعقابًا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إثبات الوعد.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر المشركون، أهل مكّة وغيرهم في ذلك الوقت ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ عظيمة، نفخة الموت، والانتظار إنّما هو لكونها لا بُدَّ منها، فكأنّهم أقَرُّوا بها، ولمناسبة قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ»؟.

﴿تَاخُذُهُمْ﴾ تأخذ أرواحهم ﴿وَهُمْ يَخَصِّمُونَ﴾ بلا إيذان لهم بحضورها، ولا علامة لحضورها، وهم في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم، وخصوماتهم.

والرَّجلان يتبايعان، فلا يتمُّ البيع، ولا يطوى الثوب فيسقط من اليد، والرجل يلوط حوضه فلا يسقى منه، والرَّجل انصرف بلبن نعجته أو لقحته فلا يطعمه، والرجل يرفع لقمته إلى فيه فلا يأكلها كما في البخاري ومسلم[1]، وهم

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **البخاري** في كتاب الرقاق، باب قول النّبيء ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين»، حديث رقم ٦١٤١، **ومسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، رقم ٢٩٥٤، عن أبي هريرة، ونصُّه عند البخاري: «...وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَن ثَوبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانه وَلاَ يَطْوِيَانه، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَد انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَته فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيه، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا».

كلُّهم في النار إذ لا تقوم على مؤمن، ولا على من يقول الله. والواو للحال. والأصل: يختصمون نقلت فتحة التاء للخاء، وأبدلت صادًا وأدغمت في الصاد.

﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في أمر مَّا من أمورهم لموتهم، وعدم من يبقى بعدهم، وهو مفعول به لـ«يَسْتَطِيعُونَ».

قلت: لا يجوز أن يترك الظاهر إلى غيره في القرآن لمجرَّد الإمكان بلا داع، مثل أن يقال لا يستطعون أن يوصوا توصية، أو يُضَمَّن «يَسْتَطِيعُونَ» معنى يوصُّون بشدِّ الصاد فيجعله مفعولاً مطلقًا. ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ لحَنَّةٍ أو لحاجة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إن لم يكونوا عندهم ولو قريبًا، بل لا يستطيعون حركة.

﴿وَنُفِخَ﴾ نفخة البعث بعد نفخة الموت بأربعين عامًا، هم فيها غير معذبين، ولا المسلمون منعمون فيها، بل موتى كالنوام، كما روي عن ابن عبَّاس، وروي عن أُبي ومجاهد أَنَّ للْموتَى نومةً قبل البعث ﴿فِي الصُّورِ﴾ هو مفرد بمعنى صورة متَّسعة في بيوت منها الأرواح ترجع إلى أبدانهم، وهو الصحيح الواردة به السنَّة، أو في صورات الأبدان على أنَّه جمع صورة، وَيَدُلُّ له قراءة فتح الواو، وذكر القرطبيُّ أن لإسرافيل أعوانًا في النفخ.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الاَجْدَاثِ﴾ القبور، والواحد «جَدَثٌ» بفتحتين، متعلِّقٌ مع قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿يَنسِلُونَ﴾ وقُدِّما للحصر والفاصلة.

والنسل: المشي بسرعة في لين، والمراد هنا بإجبار، كما قال: «مُحْضَرُونَ»، وهذا النسل مع نظر، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (سورة الزمر: ٦٨) ، أو قَلَّ وقت النظر حتَّى كأنَّه جزء من وقت النسل بعده. و«الربُّ» بمعنى المالك، وذكره لمعنى رجوهم إلى من أحسن إليهم، فلم يشكروا فهم يساقون إلى العقاب.

﴿قَالُواْ﴾ حين الخروج من القبور **﴿يَاوَيْلَنَا﴾** ياهلاكنا اُحْضُرْ فهذا أوانك، قالوه جزعًا، أو يا قومنا انظروا ويلنا **﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾** مصدر ميميٌّ، أي من رقودنا، أو اسم مكان ميميٌّ، أي من موضع رقودنا، وهو القبر، كما مرَّ آنفًا أنَّ لهم رقودًا.

فلعلَّ من مات قبل النفخة يترك عنه العذاب بعدها، ومن مات بها عُذِّبَ حتَّى لا يبقى قليل للبعث أصابهم طَعْمُ النوْمِ، وقيل: لا ينقطع العذاب في البرزخ، ولكن إذا بعثوا شبَّهوه بالنوم بالنسبة إلى هول البعث وما يستشعرون من النار قبل حضورها، إذ شاهدوا البعث الموعود، أو **مرقد استعارة للقبر بدون اعتبار عذاب ولا نوم فيه.** والإضافة للجنس، فكأنَّه قيل: من مراقدنا.

﴿هَذَا مَا وَعَدَ اَلرَّحْمَنُ﴾ ما وعده الرحمن من البعث **﴿وَصَدَقَ اَلْمُرْسَلُونَ﴾** عطف على الصِّلة، ورابطه محذوف، أي وصدق فيه، بناء على جواز حذف الرابط المجرور بالحرف بلا شرط، أو يقدَّر صدقه بالتخفيف، تقول صدقني زيد بالتخفيف إذا أخبرك بصدقه.

(صـرف) ويشبه اللعبَ جعل «مَا» مَصدَرِيَّة، وتأويل المصدر بالموعود، لأنَّ هذا الموعود هو نفس ما الموصولة الاسميَّة، فأبقها هي، وكذا تأويل الصدق بالمصدوق يكفي عنه عطفه على صلة الموصول الاسميِّ.

وذلك من كلام المشركين المبعوثين، اعترفوا بوعد الرحمن وصدق المرسلين، إذ شاهدوا البعث، قالوه لأنفسهم، أو قاله بعض لبعض؛ أو من كلام الله تعالى؛ قيل: أو الملائكة، أو المؤمنين.

وهو جواب لقولهم: «مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا»، فمقتضى الظاهر في جواب «مَّنۢ بَعَثَنَا» أن يقال: الذي بعثكم الرحمن، أو الله، أو الرحمن بعثكم، وعدل عن ذلك إلى

ما في الآية تذكيرًا لكفرهم بقوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ إذا كان ذلك من غيرهم، وتقريعًا عليه وتذكيرًا له نَدَمًا إن كان من كلامهم، أو هو جواب عن غير ما سألوا عنه، لأنَّ غيره أحقُّ بالسؤال، ويسمَّى الأسلوب الحكيم.

وإذا كان من كلامهم فلفظ «الرَّحْمَنُ» للطمع في الرحمة، وعلى أنَّه من كلام المؤمنين فلأنَّ الرحمة غمرهم. وأجيز أن يكون هذا نعتًا لـــ«مَرْقَدِنَا». و«مَا» مبتدأ خبره محذوف، أي ما وعد الرحمن حقٌّ، والأنسب بقوله: ﴿صَدَقَ...﴾ أن يكون فاعلاً لمحذوف، أي حقَّ ما وعد...الخ.

﴿إِن كَانَتِ الاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي النفخة المشتملة على [ما يقال فيها:] «أيَّتها العظام النخرة والأوصال المتقطِّعة، والشعور المتمزِّقة، إنَّ الله يأمُركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء».

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فريق مجموع كطرفة عينٍ للحساب، استعمل الإحضار هنا على العموم في الخير والشرِّ، بل اختار بعض أنَّ المراد المؤمنون، وقيل: المراد الكُفَّار.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ متعلّق بـــ«تُظْلَمُ» بعده، ولا صدر لـــ«لاَ» النافية إذَا لم تعمل عمل إنَّ، أو عمل ليس. و«ال» للحضور أو للعهد، بذكر النفخة بالنسبة إلى إخباره الآن به ﴿لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مؤمنة أو كافرة ﴿شَيْئًا﴾ مفعول مطلق، أي ظلمًا مَّا، أو مفعول به، أي لا تنقص، قيل: أو يُقَدَّرُ بشيء أو في شيء.

﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاء ما كنتم تعملونه، أو جزاء عملكم في الدنيا، من كفر أو إيمان، وحكمة حذف الجزاء أنه كأنَّه نفس العمل لِقُوَّة الارتباط بينهما، حتَّى إنَّه يجوز أن لا يقدَّر مضاف، بل «ما» واقعة على الجزاء كأنَّهم عملوه، قيل: أو يصوَّر العمل بصورة الجزاء.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾

جزاء المحسنين

﴿إِنَّ أَصْحَابَ اَلْجَنَّة الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ﴾ عظيم، متعلّقان بقوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾ أو «فِي شُغْلٍ» حال من المستتر في «فَاكِهُونَ»، أو خبر و«فَاكِهُونَ» خبر ثان.

هذا ما يقال للكفرة تغيظًا لهم بأنّ أعداءهم المؤمنين فَازُوا، وفيه دعاؤهم الآن إلى الإيمان سواء قلنا: ذلك من كلام الكُفّار اعترافًا منهم أو المؤمنين، أم قلنا: إنّه كلام من الله مستأنف من الله. والخطاب قيل: خاصٌّ أو عامٌّ.

والشغل: ما يَصُدُّ عن غيره لكونه أهمَّ، خيرًا كما هنا أو شرًّا، قيل: هو افتضاض الأبكار يكون لهم ولهنَّ لذّة، ولا وجع لهما، وضرب الأوتار والسماع، والتزاور، وضيافة الله لهم كلّ جمعة في كثيب من المسك، ولا يرون الله حاشاه، وغير ذلك من سائر نعم الجنَّة، لا يحضر في قلوبهم أصحابهم أو قرابتهم أو أزواجهم الذين في النار، وإن خطر لم يتألّموا و لم يرقّوا لهم، ويخطر ببالهم ما يفرحون به من كون أعدائهم في النار.

ومعنى ﴿فَاكِهُونَ﴾: فرحون متعجِّبون بما هم فيه، طيِّبوا النفوس، أو متحدِّثون بما يسرُّهم، أو أصحاب فواكه كَلَابِنٍ وتَامِرٍ.

(نحو) ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ﴾ مبتدأ وخبر ﴿عَلَى اَلاَرَآئك﴾ متعلّقٌ بقوله: ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر ثان، أو «فِي ظِلاَلٍ عَلَى اَلاَرَآئك» متعلّقان بـ«مُتَّكِئُونَ» و«مُتَّكِئُونَ» خبر، أو حالان من المستتر في «مُتَّكِئُونَ» و«في

ظلاَلٍ» حال منه و«عَلَى اَلاَرَآئِكِ» حال من ضمير استقرار «فِي ظِلاَلٍ»، أو «مُتَّكِئُونَ» خبر آخر لـــ«إِنَّ»، و«هُمْ» تأكيد للمستتر في «فَاكِهُونَ».

(نحو) و«أَزْوَاجُهُمْ» معطوف على هذا المستتر و«فِي ظِلاَلٍ» و«عَلَى الاَرَآئِكِ» على ما مرَّ، إلاَّ أنَّه ليس «فِي ظِلاَلٍ» خبر لقوله: «هُمْ»، ويجوز أن يكون خبرا آخر لــ«إِنَّ»، وكذا «عَلَى الاَرَآئِكِ».

(صرف) والظلال: جمع ظِلٍّ، كشِعْبٍ وشِعَابٍ، وذئب وذئاب، أو جمع ظُلَّة بالضمِّ، كقُبَّة وقباب، وبُرمة وبرام، بكسر بائه، ولو قلَّ، لقراءة بعضهم: «فِي ظُلَلٍ» بالضمِّ، كغرفة وغُرف، قيل: أو جمع ظِلَّة بالكسر، كلِقْحَةٍ ولقاح، وهو قليل ولا قراءة تعضده.

ولا شمس في الجَنـــَّة، فالمراد ما يشبه ظلَّ الدنيا، لكن بلا شمس معه في الجنَّة، بل كظلِّ يوم السحاب، وكالضوء قبل طلوع الشمس على الجبال والأرض، وكالليل لكن مع ضوء، وجاء في أحاديث: «**إنَّه لو ظهرت حوراء لأضاءت الدنيا أو لزال ضوء شمسها**»[1] فالمراد ظلُّ الجنَّة بلا شمس، لا استواؤه بنحو ظلِّ قبل طلوع الشمس، وإلاَّ نافى ضوء الحوراء فهو فوق ذلك أو نورها في نفسها كذلك.

ولا يؤثر في الجَنـــَّة ضرًّا أو حرارة، قال ﷺ : «**ألاَ هَلْ مِن مُشَمِّرٍ للجنَّة، فإنَّها لا خطر لها** -أي لا مثل لها- **وهي وربِّ الكعبة نور يتلألأ**»[2].

١- أورده المنذري في الترغيب والترهيب، مج٤، ص٥٣٣، رقم٩٣ من حديث عامر. وَأَوَّلُه قوله: «لو أنَّ امرأة من نساء أهل الجنَّة...» وقال: رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن في المتابعات. كما روى البخاري أيضا حديثا يقاربه معنى عن أنس، رقم٢٦٤٣.

٢- رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة الجنَّة، رقم ٤٣٣٢، من حديث أسامة بن زيد.

والجمع في «ظِلاَلٍ» لأنَّ لكلِّ جزء من الجنَّة ظلٌّ، أو للتَّعظيم كقوله: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ (سورة الذاريات: ٤٧) ، أو لاعتبار ما لكلِّ أحد منهم، وليس كضوء الدنيا، فإنَّ ضوء الدنيا العظيم حارٌّ.

وقيل: الظلال الملابس والستور، فقد جاء أنَّ في الجنَّة غُرفًا، ولأهلها لباسٌ، وإنَّ في الجَنـــَّة شجرة يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا يقطعها، يتحدَّثُ فيه أهل الجنَّة، أو **الظِّلُّ العزَّة والراحة والتنعُّم.**

(لغة) والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير الذي عليه فراش في بيت مزيَّن، سُمِّيت لأنَّها في الأصل من شجر أراك، أو مِن أرك بالمكان أقام فيه، وأصل الأُرُوك الإقامة على رعي الإبل.

والآية تدلُّ على أنَّ المراد بالسُّرُر في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ (سورة الطور: ٢٠) السرر المفَرَّشة في البيوت المزيَّنة، أو تارة على سرير بلا بيوت ولا فرش وتارة بذلك.

والمراد بالأزواج المؤمنات، والحور من تزوَّجت في الدنيا ومن لم تَتزَوَّج، وأزواج المؤمنين يكنَّ له ولو أربْعًا لا ما قيل له واحدة فقط، ولا ما قيل اثنتان. والمرأة لآخر أزواجها في الدنيا إن كانا مؤمنين، وإن شاء الله الرحمن الرحيم زوجه من طلَّقها في الدنيا. وامرأة فرعون زوج للنبيء ﷺ .

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ عظيمة، وأهل الجَنـــَّة يأكلون ويشربون تلذُّذًا بلا جوع ولا عطش، والمراد أنَّ لهم فاكهة متى أرادوها جاءتهم، أو جاءت بها الملائكة، والظاهر أنَّهم لا يمسكون، بل كلَّما أرادوا حضرت، فلا مانع من أن يمسكوا بلا تغيير ومن شأنها أن لا تتغيَّر، ولو طال إمساكها، والأحاديث تدلُّ على الأوَّل. و«فِيهَا» متعلِّق باستقرار «لَهُمْ» أو بـــ«لَهُمْ» لنيابته عنه.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يتمنَّونَ، تقول: ادَّعِ عليَّ ماشئت أي تمنَّ، وفلان في خير ما ادَّعى، أي تمنَّى، وليس يتأخَّر بل يحضر في الحين، أو يدَّعون يطلبون بألسنتهم، فيُعجَّل لهم، أو لهم بلا طلب منهم ما من شأنه أن يطلب، وفي الطلب باللسان أو القلب أو التمنِّي تلذُّذ بسرعة الإجابة.

(صرف) والأصل «يَدْتَعِوُونَ» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ومن شأنها القلب لأنَّها فوق ثلاثة، وحذفت ضمَّة الياء لثقلها فضمت العين لواو الجمع، أو نقلت إلى العين، والتقى ساكنان فحذفت، وقلبت التاء دالاً وأدغمت فيها الدال، والوزن يفتعل بمعنى الثلاثي كاشتوى بمعنى شوى وقال لبيد :

وغـــلام أرسلته أمُّـــه	بألوك فبذلنا ما ســـــــأل
أرسلـــته فـــأتاه رزقه	فاشتوى ليـــلة ريح واجتَمل

أي برسالة، والألوكة الرسالة، واجتمل أي جَمَلَ، أي أذاب الشحم.

أو لَهُم مَّا يَدَّعُونَ الله به في الدينا، وهو الجنَّة. أو يفتعل بمعنى التفاعل، أي ما يطلب بعض من بعض، لكمال التحاب فيجيـــبه به، أو لهم بلا طلب ما من شأنه أن يطلب، وذلك كارْتَمَوْا بمعنى تراموا.

﴿سَلاَمٌ﴾ بدل من «مَا» بدل بعضٍ ولو بلا رابط، ولو كان نكرة و«مَا» معرَّفة، وأجيز أنَّها نكرة موصوفة أو خبر لمحذوف، أي هو سلام أو ذاك سلام، أو مبتدأ لمحذوف، أي لهم سلام، وقوله: ﴿قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ هو مع الناصب المحذوف، وضميره نعتُ «سَلاَمٌ»، أي سلام يقال قولا من ربٍّ رحيم، فــ«قَوْلاً» مفعول مطلق، أو نعت لـــ«مَا» النكرة الموصوفة لتأويله بالوصف، أي سالم، أو تقدير مضاف، أي مصاحب سلام.

والسلام على ألسنة الملائكة من أنفسهم، أو حكاية عن الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة الرعد: ٢٣) وإنَّما قال : ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ لأنَّ الله تعالى أرسل إليهم بسلام منه أو منهم.

﴿وَامْتَازُواْ﴾ انفردوا ﴿الْيَوْمَ﴾ عن المؤمنين وعن كلِّ خير إلى النار ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون، وذكر الضحَّاك أنَّ كلَّ كافر في بيت من نار لا يرى ولا يرى بخلاف المؤمنين، فإنَّ بعضا يجتمع ببعض.

وهذا الانفراد في البيوت إنَّما هو آخر أمرهم بعد الخصام والتحاجِّ المذكور في مثل قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ﴾ (سورة غافر: ٤٧) ، أو أراد الضحَّاك بالكافر الصنف كاليهود وكالنصارى، كذا قيل، وفيه أنَّه لا يتبادر منه أنَّه أراد بالبيت محلاًّ واسعا مخصوصا بصنف، وأيضا لا يختصُّ الخصام بالأصناف، فإنَّ من صنف من يخاصم من هو من صنف آخر، إلاَّ إن راعى الغالب.

وقيل: «امتَازُوا» أمر تكوين يحدث فيهم السِّيما ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ (سورة الرحمن: ٤١) ، وفيه بعد، وكنت من قبل أن أرى هذا يتبادر لي أنَّ الأمر تكوين لانفرادهم في الموقف. والعطف عطف قصَّة على أخرى، أو يقدَّر: افرحوا أيُّها المؤمنون وامتازوا أيُّهَا المجرمون.

[قلت:] ومن الغفلة أن يقدِّروا المحذوف بعاطف فيحتاج إلى معطوف عليه، مع أنَّهم يقدِّرونه تخلُّصا من وجود معطوف بلا معطوف عليه، ويجوز تقدير عاطف ومعطوف هنا عطفا على محذوف، أي يقال للمؤمنين: «قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ» ويقال للمجرمين: «امتَازُوا».

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ ﴾

توبيخ بني آدم على الكفر وجزاء المجرمين

﴿أَلَمَ اَعْهَد اِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ, لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

هذا من جملة ما يقال للمجرمين يوم القيامة، أي ألم يتقدَّم لكم منِّي قولي: «لاَ تَعْبُدُواْ...» فإنَّ «لاَ تَعْبُدُوا» تفسير، وفي العهد معنى القول، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ...﴾ (سورة الأعراف: ٢٧) وقوله تعالى: ﴿لاَ تَتَّبِعُواْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٨) ، وقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) . ويبعد أن يراد الحجج العقليَّة والسمعيَّة.

وعبادة الشيطان تكون بعبادة غير الله تعالى، وبسائر المعاصي، وقوله: ﴿إِنَّهُ...﴾ تعليل للنهي كما هو قاعدة الكلام، لا تعليل لوجوب الانتهاء، لأنَّه لم يقل: وجب عليكم أن لا تعبدوه لأنَّه لكم عدوٌّ مبين. وعداوته جاءت من قبل عداوته لآدم عليه السلام ، كما لوَّح إليه بندائهم بعنوان البنوَّة له.

﴿وَأَنُ اعْبُدُونِي﴾ عطف على ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ﴾، وأخَّره لأنَّ التحلِّي بعد التخلِّي **﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** ما ذكر من تحريم عبادة الشيطان ووجوب عبادة الله، وليست الإشارة إلى وجوب عبادته فقط، لأنَّه لا يصحُّ

الإخبار عنها بقوله ﷻ: ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إلاّ مع ترك عبادة الشيطان، هذا جريان على اللفظ، وليس بلازم، بل يجوز مراعاة المعنى المراد، فإنّ عبادته تعالى لا تَتَصَوَّرُ مع عبادة الشيطان، فإنّها باطلة بعبادة الشيطان، فلا يخفى أنّ المراد: اعبدوني وحدي، فحينئذ يصحُّ الإشارة إلى وجوب عبادة الله تعالى.

﴿وَلَقَدَ اَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا﴾...الخ داخل في التعليل، أي لأنّه عدوٌّ مبين لكم، ولأنّه والله قد تحقّق إضلاله جبلاًّ كثيرا، وأنتم من هؤلاء الذين أضلّهم، فتوبوا. والجبلُّ: الأمَّة العظيمة، وأقلُّها عشرة آلاف، وفسَّره بعض بالأمَّة وبعض بالجماعة.

﴿اَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ أكنتم تشاهدون في أسفاركم آثار العقاب على الكفر، فلم تكونوا تعقلون فتتركوا ما به عوقبوا، لِئَلاَّ تصابوا مثلهم؟ أو أتعقلون أنّ الآثار لضلالهم؟[1].

ويقال على شفير جهنَّم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها مرارا كثيرة على ألسنة الرسل وأتباعهم، لتتركوا ما يوجبها، و لم تبالوا و لم تستعدُّوا ﴿اِصْلَوْهَا اَلْيَوْمَ﴾ ادخلوها، أو سخِّنوا بها أبدانكم، وهذا تهكُّم وإهانة، وقيل: كونوا وقودها، وهذا لا يصحُّ لغة، ولكن كونوا فيها كالحطب في النار، وقيل: اِلْزَمُوها، كما يقال للفرس الذي على إثر السابق مُصلٍّ، لأنّه يلزم أثره حتَّى يقف.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي بسبب كونكم تكفرون، ومن قال: لا تدلُّ «كان» التي لها اسم وخبر علىالحدث، تأوَّل المصدر مِمَّا بعدها، أي بكفركم، والباء سَبَبِــيَّة.

﴿اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ نغطِّيها ونشدُّ عليها، كما يربط فم القربة، وفيهم قدرة على الكلام، ولا يجدونه لذلك الشدِّ.

١– كذا في النسخ تأمل.

(بلاغة) وذلك حقيقة، أو كناية عن إخراصهم، أو استعير الختم للإخراص استعارة أَصلِيَّة، واشتقَّ منه «نَخْتِمُ» على طريق التبعيَّة، وفي ذلك إعراض عن خطابهم لقبح أعمالهم إلى التكلُّم لغيرهم.

(نحو) ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾
تنازع «تُكَلِّمُ» و«تَشْهَدُ» وأعمل الثاني وحذف للأوَّل المضمر الفضلة، أي وتكلِّمنا أيديهم به، أي بما كانوا...الخ، ولو أعمل الأوَّل لقيل: وتشهد أرجلهم به بما كانوا...الخ، وهاء «به» في الموضعين لـــ«مَا».

ونسب التكلُّم إلى الأيدي لأنَّ أكثر الأعمال بها، وقد قال الله ﷻ : ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ (سورة النبأ: ٤٠) ، و﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة يس: ٣٥) ، ﴿بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِي النَّاسِ﴾ (سورة الروم: ٤١) ، ﴿بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠) ، ﴿بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِيهِمْ﴾ (سورة البقرة: ٧٩) ، ﴿بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ﴾ (سورة القصص: ٤٧).

جاء في أحاديث ما حاصله: أَنَّ الكافر ينكر ما فعل وينسب الملك الكاتب إلى الكذب عليه، وقد قال الله ﷻ له: ألم أكرمك؟ فيقول: بلى لكن عملت بما أمرت به، ويثني بخير، فيقول الملك: عملت كذا في موضع كذا وقت كذا وهكذا، فيقول: يَا رَبِّ ألم تجرني من الظلم؟ يَا رَبِّ لا أقبل شاهدا إلاَّ من نفسي، فيقول الله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، وبالملائكة الكرام، فيختم على فمه، فتنطق جوارحه، ثمَّ يخلى فيقول: بعدا لكنَّ، فعنكنَّ كنت أناضل[1].

١–لعلَّ الشيخ يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم في كتاب الزهد والرقاق، رقم ٢٩٦٨، ورقم ٢٩٦٩، عن أنس بن مالك.

وجاء الحديث عن أبي هريرة وهو في مسلم مرفوعا: «**إنّ أوّل ما ينطق من جوارحه فخذه اليمنى**». وفي مسند أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعا أيضا: «**إنّ أوّل ما ينطق منها فخذه اليسرى**» ولعلّ بعضا تنطق يمناه وبعضا يسراه، أو بعض تنطق يمناه أوّلا وبعض يسراه أوّلا فكلتاهما ناطقة من كلّ إنسان، وحصر الأوّلية بالنسبة إلى غير الأفخاذ.

والنطق حقيقة يخلق الله في الإعضاء الحياة والعقل ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة فصلت: ٢١) ، العضو ينطق بما فعل وبما فعل غيره من الأعضاء، وقيل: بما فعل، وهذا أظهر، لأنّ كلّ عضو ينطق بما فعل، فما فائدة نطق غيره، والأوّل أبلغ، وفي حديث مسلم عن أنس مرفوعا: «**إنّه يقال لأركانه، انطقي فتــــنطق بأعماله**».

(أصول الدين) والآية ونحوها كالأحاديث كالنصّ في أنّ المشرك مخاطب بفروع الشريعة، وبأنّ هذه الأعضاء هي التي كانت في الدنيا، إذ كانت تنطق بما فعلت لا غيرها مثلها، ولا الجسد غير الذي في الدنيا، بل الذي فيها، وهل علمها بما تنطق به محدث في الموقف؟ قيل: نعم، وقيل: علمت به في الدنيا وهي في الدنيا عاقلة ولا تنساه، وإن نسته ردّه الله تعالى إليها فتشهد به، كما قيل: إنّ الأشياء كلّها حتّى أعضاء المشرك تسبّح الله ﷻ في الدنيا، **والمراد في الآية التمثيل لما ينطق من الجوارح لا خصوص الأيدي والأرجل بدليل الأحاديث.**

﴿**وَلَوْ نَشَآءُ**﴾ الطمس ﴿**لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ**﴾ أوقعنا المحو عليها في الدنيا، فيكون موضعُها كالجبهة أو الخدّ أو إزالة أبصارها فيكونوا عميًا. و«نَشَآءُ» بمعنى شئنا، ولكن صيغة المضارع للدلالة على استمرار عدم المشيئة ﴿**فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَٰطَ**﴾ عطف على «طَمَسْنَا» فشرعوا في أن يسبق بعض بعضًا، أو أرادوا الاستباق إلى الصراط الذي عرفوه قبل، وهو طريق المشي في الأرض.

(نحو) ونصبُه على نزع الجارِّ كما رأيت، أو على أنَّه مفعول به لتضمُّن «استَبَق» معنى تبادر، أو جاوز، أو لكونه بمعنى سبق، فيكون الطريق مسبوقًا على التجوُّز في الإسناد.

(بلاغة) أو الاستعارة بالكناية، بأن شبِّه بإنسان فرمز إليه بالمشي، أو ذلك مجاز لعلاقة اللزوم، فإنَّه يلزم من سلوك الطريق أن يكون وراء الماشي لقطعه له.

وعن ابن عبَّاس: أعينهم بصائرهم، والصراط: الأمور التي تدرك بالقلب ويتصرَّف فيها، فيكونون لا يدركون ولا يعقلون ما كانوا من قبل يدركونه ويعقلونه. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ كيف يبصرون؟.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ مسخهم ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ في الدنيا قردة أو خنازير أو حمرًا أو نحو ذلك من صور الحيوان، ويبقون أحياء عقلاء، كما قبل المسخ، أو تكون قلوبهم كقلوب ما مسخوا إليه، أو مسخناهم جمادًا كالحجارة، والمسخ يستعمل في ذلك كلِّه، وفي قلب الجماد إلى جماد، كقلب الشجر حجرًا.

(لغة) وقيل: قلب الحيوان إلى آخر مسخ، وإلى نبات فسخ، وإلى جماد رسخ، ولا بدَّ من الخِسَّة في المسخ، فلو قلب حيوان إنسانًا لم يسمَّ مسخًا بل قلبًا.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ تمكُّنهم الموجود فيهم وقوَّتهم في التَّصرُّف والمحافظة عن الاسواء، فيعجزوا عن ذلك، ولا يقدرون على الامتناع من المسخ، وقيل: مسكنهم ومكانهم كالمقامة بمعنى المقام. والإضافة للجنس فعمَّت، كما قرأ الحسن وأبو بكر[1]: «مكاناتهم» بالجمع.

١-أبو بكر القارئ: هو شعبة بن عياش بن سالم الأزدي الكوفي الخياط، ولد سنة ٩٥هـ بالكوفة، من مشاهير القرَّاء، كان عالما فقيها في الدين، تُوُفِّيَ بالكوفة سنة ١٩٣. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٦٥.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُواْ مُضِيًّا﴾ ذهابًا إلى ما أرادوا الذهاب إليه من مصالحهم مثلاً، والأصل: مُضُويًا بوزن قُعُود، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكُسِرَ ما قبلها. ﴿وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ماكانوا عليه من صورهم قبل المسخ، أو العقل والإدراك الكائنين إن زالا بالمسخ.

ولا يصحُّ التفسير بالرجوع إلى الإيمان، لأنّه لا يمكن مع المسخ، إلاّ أن يلاحظ معنى أنّهم لا يجدون الرجوع إليه لزوال عقولهم، بمعنى أنّه فاهم ولو لم يكن لهم شعور به وتَمَنٍّ، نعم لا خفاء أنّه يمكن الشعور به وتمنِّيه إن بقيت عقولهم بعد المسخ، ولا يقبل منهم، لأنّهم كمن مات، أو رأى شيئًا عند احتضاره، ولا إشكال.

(نحو) والعطف على «مُضِيًّا» تنزيلا للمضارع منزلة الاسم، أو للتأويل بحذف حرف المصدر الناصب، وهو «أنْ»، ورفع الفعل بعد حذفه، أو بحذف حرف المصدر غير الناصب، وهو «ما» أي ولا أن يرجعوا، أي ولا رجوعًا، أو لا ما يرجعون، أي ولا رجوعًا، أو عطف على «مَا استَطَاعُوا».

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ نطل عمره إلى مدَّة انتهاء قوته ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ نقلبه، نرُدُّه إلى ضعفه السابق قبل قوَّته شيئًا فشيئًا، كما يقلب الجسم، تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، من النكس، و«تنكس» تبعٌ له، وذلك عند ابتداء الضعف، وهو مختلف باختلاف الأمزجة مثلاً، والتعب والراحة، والهموم والأفراح، وغير ذلك مِمَّا شاء الله تعالى من سائر الأسباب.

والظاهر إطلاق أنّه بعد الأربعين غالبًا، وقد يكون قبله ولو كان لا يظهر، ولو كانت النبوءة بعدها، ولَعَلَّ العقل لا ينقص بعدها إلاّ إلى مدَّة، بل يزيد ضبطًا، ولا يخفى أنّ القول بالثمانين ضعيف لظهور النقص قبلها في الغالب.

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أترون ذلك النكس فلا تعقلون، فترجعون إلى الإيمان والعمل قبل الموت، أو الضعف الذي هو قريب من الموت، أو تَعْقِلُونَ أنَّ من قدر على النكس يقدر على المسخ، فلعلَّه يمسخكم.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

إقامة الحجَّة على التوحيد وتأييد الرسول ونفي الشعر عنه

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي كلُّ ما يقول لكم محمَّد ﷺ من أمر الدين والبعث والإخبار عن الأمم والوعد والوعيد على المسخ وغيره هو حقٌّ من عندنا، لا تُهمةَ فيه وليس منه، ولا هو شاعر فتتَّهمُوه، كما تكذب الشعراء ويهيمون في كلِّ واد، حتَّى قيل في شأن الشعر: «أَعْذَبُهُ أَكْذَبُهُ».

والشِّعر: كلام موزون بوزن مخصوص قصدًا، وما وافق الوزن فيه فليس بشعر لأنَّه لم يُقصد أن يقرأ كقراءة الشعر، والله عالم بأنَّ ذلك البعض على وزن الشعر.

والقرآن في التوحيد وأمور الشريعة خَاصَّةً، بخلاف الأشعار فإنَّها في غير ذلك إلاَّ ما شذَّ، وله ﷺ براهينُ تقوِّيه، منها بلاغة القرآن التي لا تطاق.

[قلت:] وقد أردكت منها كثيرًا بقدر طاقة المخلوق، **والحمد لله** وبعضها تتنوَّر في قلبي ويعجز لساني عن بيانها إلاّ بإطالة كلام.

[قلت:] وما اتَّزن منه يقرأه ﷺ كقراءة النثر، كما نقرأه، وذلك مثل قول بعض: «ياصاحب المسح تبيع المسح» قرأه كالنثر، وسمعه أبو العتاهية فقال: «فإنَّ عندي إن أردت ربحًا».

والرجز شعر، فلا يقوله النبيء ﷺ ، ولو كانوا يقولون فلان راجز وفلان شاعر، وإن قلنا: ليس شعرًا فلا يقدح به، ولو قرأه بوزنه، فيكف وهو لا يتمُّه؟ وقد قيل: إنَّه قال:

أنا نبيء لا كذب أنا ابن عبد المطَّلب

فنقول: إنَّه قرأه نثرًا، وقيل: بوزنه ولكن كسره لسانه بفتح باء كذب، أو ضمِّه مع تنوينه، وكسر باء المطلب، مع أنَّ هذا مجزوء، وهو ماحذف منه جزء، أعني مستفعلن أربعًا، والخليل يقول مجزوء الرِّجز ليس شعرًا، وكذا منهوكه.

ومع ذلك قيل: ليس المراد أنَّه لا يقدر على أن يحكي شعر الغير بل لا يقوله من نفسه، وقد روي أنَّه حكى بيت ابن رواحة[1] كما هو:

يـبـيـت يجـافي جنبه عن فراشه اذا استقلت بالكافرين المضاجع

وأنشد كنلك:

١-عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري أبو محمَّد، من النقباء الاثني عشر يوم العقبة. شهد بدرًا والغزوات كلّها إلى أن قدم معركة مؤتة واستشهد فيها مع جعفر وزيد سنة ٠٨ هـ. وكان من الشعراء الراجـزين وشاعر النبيء ﷺ . الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٧٦.

مــا أنت إلاّ أصبـــع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وهو لابن رواحة. وقال: «ستبدي لك الأيـّام ما كنت جاهلا» وقرأه: «ويأتيك من لم تزوِّد بالأخبار» وإنَّما هو: «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد». وقال: «كفى بالإسلام والشيب ناهيًا» وإنَّما هو: «كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا». وقال:

«أتجعل نهبي ونهب العبيدين الأقرع وعيـــينة»

وإنَّما هو: «بين عينية والأقرع»، وقال:

«ألم ترياني كلّما جئت زائرًا وجدت بها وإن لم تطيب طيبًا»

وإنَّما هو: «وجدت بها طيبًا وإن لم تتطيَّب».

كلٌّ ذلك أشعار لغيره يقرأها على وزنها لا كالنثر لكن يكسرها.

ويقول الصدِّيق إذا كسر: إنَّما قال صاحبه كذا، فيقول: والله ما أنت شاعر ولا راوية، وعن عائشة: ما أتّم بيتا إِلاّ قول بعض:

تفـــاءل بما تهوى يَكُنْ فَلَكلّما يقال لشـــيء كان إلاّ تحقّقا

وعليه فإنَّما قال: وما لقيت في سبيل الله.

وعن عائشة: أبغض الكلام إلى رسول الله ﷺ الشعر، أي الإكثار منه، وما كان منه في حرام. وعن الخليل: كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، أي ما كان منه فيه حكمة، أو أمر شرعيٌّ.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ ...﴾ معناه ما الكلام الذي يقوله محمَّد ﷺ وتنسبونه إلى السحر والكذب والشعر إلاّ ذكر، أي عِظَةٌ وقرآن، أي شيء سَمَاوِيٌّ يُقْرَأُ، ظَاهِرٌ أنّه من الله ﷻ وأنّهُ حَقٌّ.

(بحور الشعر من نظم المؤلف)

الطويل: أجل ليس للهادي الشفـيع مماثل هو البحر لم يعرف له قط ساحل
فعولن مفاعيلن فعـول مفاعل طويلٌ نـجاد السيف أرْوَعُ بَاسِلُ

المديد: أيِّدتْ خير لـلورَى معجزاتٌ كلُّها آياتُها بيِّنـاتُ
فاعـلاتن فاعلن فاعلات ومديد حكمها دائمات

البسيط: للمصطفى ملَّة دانت لهـا الملل وشرعه أشرقت من نوره السبل
مستفعل فاعلن مستفـعل فَعِل بحر بسيط بـه بحر الورى وَشَلُ

الوافر: علمتُ الله ليس لـه مثيل وأنَّ محمدًا نعم الرسول
مفاعلتن مفاعلـتن فعـول بوافر نوره اتَّضح السبيل

الكامل: .بمحمد نور المعـارف شـامل لـولاه ما عرف الفضائل فاضل
متفاعلن متـفاعـلن متفاعل كملت صفات علاه فهو الكامل

الهزج: أتى المختـار تنزيل به قد جاء جبريل
مفاعيـلن مفاعيل فإهـزاج وترتيل

الرجز: خـير الورى طرًّا وأعلى أفضل نبـيئـنا المدثر المزمل
مستفعلن مستفعلن مستفعـل برجزي في مدحه ابتهل

الرمل: طيبة طابت وهاتيك الجهات شملتهـا بالنبيء البركـات
فاعلاتن فاعلاتن فاعلات رمَلا سارت إليها اليعملات

السريع: ما تحت تهديد العـدا طائل نبيئنا الهادي لنا كافـل
مستفعلن مستفعلـن فاعل وهو سريع خيره شامل

المنسرح: خير الورى بالكمـال مشتمل بفضـله الجَمِّ يضرب المثل
مستفعلن مفعـولات مفتعل منسرح الجود ليس ينعقـل

الخفيف: من هدى المصطفى استفاد الهداة واستنارت بنوره النـيرات

فاعلاتن مستفعلـــــن فاعلات	بخفيف أمداحه راجحات
المضارع: علا طـــــه شامخـــات	عـــلى الزهر عاليات
مفاعيلـــــن فاعـــلات	بنـــور مضـــارعات
المقتضب: شرع طـــــه مكتمل	وهو عدل معتدل
فاعلاتـــــن مفـــتعـــل	لا اقتضاب لا علل
المجتث: أيمة الشـــــرك ماتوا	بسيف طه وفاتوا
مستفعلـــــن فاعلات	جثت به النائبات
المتقارب: سَما فوق هام السمـــاء الرسول	دنـــا فتدلى فكان القبول
فعولن فعولن فعولـــــن فعول	تقارب حيث نأى جبرايل
الخبب: الفضل تقاسمـــــه الرسل	والكل بأحمد مكتمـــل
فعلن فعلن فعـــــل فَعِل	وله خببـــا تعدو الإبـــل

﴿**لِّـتُنذِرَ**﴾ به، متعلّق بمحذوف، أي أنزلناه لتنذر به ﴿**مَن كَانَ**﴾ في علم الله، أو بمعنى يكون فعبَّر بالماضي للتحقُّق ﴿**حَيًّا**﴾ عاقلاً بالغًا.

(**بلاغة**) شبَّه العقل بالحياة واشتقَّ من الحياة بمعنى العقل «حيًّا»، أو مومِنًا فيكون قد شبَّه الإيمان بالحياة والعلاقة فيهما الانتفاع، وَلَكِنَّ إنذار المؤمن بمعنى زيادة التأكيد عليه.

أو أراد بالإنذار مطلق الإخبار، أو إنذار المؤمن إنذاره عمًّا قد يصدر عنه، أو ذلك مجاز مرسل، لأنَّ العقل النافع أو الإيمان سبب للحياة الأبدية، وغير العاقل وغير المؤمن كالميِّت.

كما قابل الحيَّ بالكافر، إشارة إلى أنَّهم كالموتى في قوله: ﴿**وَيَحِقَّ**﴾ يثبت ﴿**اَلْقَوْلُ عَلَى اَلْكَافِرِينَ**﴾ قولنا إنَّ الكافرين في النار ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة الزمر: ٧١) ، أو شبَّه الكافرين بالموتى على

الاستعارة، أو المجاز الإرسالي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ إذا لم نجعل الهمزة ممَّا بعد العاطف قدَّرنا: ألم يتفكَّروا؟ أو ألم يلاحظوا؟ أو ألم يعلموا يقينا ولم يروا؟ **﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾** اللام للنفع والتمليك، أو للتعليل والأوَّل أولى.

﴿مِّمَّا عَمِلَتَ أَيْدِينَآ﴾ أحدثناه بلا توسُّط مخلوق فيه وهو غير قليل، كخلق الأرضين والعرش والكرسي والسماوات، والملائكة.

(بلاغة) شبَّه الإحداث وكونه بالقدرة بصنع الصانع، وكونه صَنَعَهُ باليد، ففيه استعارة تمثيليَّة، أو كنَّى عن الإيجاد بعمل الأيدي في شأن المخلوق كالإنسان، ثمَّ استعير عمل الأيدي على الاستعارة التمثيليَّة.

وقيل: العمل الإحْدَاثُ، وهو حقيقة والأيدي القدرة مجازًا وعليه فالجمع تعظيم لذلك الصنع العجيب، كما أنَّ ضمير «أَيْدِينَا» للتعظيم.

[قلت:] ولا قرينة قالية ولا حالية ولا عهدية على إرادة الملائكة بالأيدي، على أنَّ العمل بالواسطة كنفخهم الأرواح في الأبدان، فضلاً عن أن يستعار الأيدي لهم، وأبعد منه استعارة الأيدي لأسماء الله تعالى، عَمَلاً بالواسطة لكلِّ اسم منها أثر، ولا يوجد الأيدي بمعنى الملائكة، أو بمعنى الأسماء في القرآن، ولا في الحديث ولا في كلام.

(أصول الدين) واليد بمعنى القدرة أو المتكلِّم مثلا صحيحٌ معنًى ولغةً وشرعًا، فيجب التفسير بذلك **فمن تركه وجعل ذلك من المتشابه كفرار من الضوء إلى الظلمة، ومن العلم إلى الجهالة**، وسواء في ذلك الإفراد كـ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الفتح: ١٠) ، والتثنية كـ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (سورة ص: ٧٥) ، والجمع كالآية.

(بلاغة) ﴿أنْعَامًا﴾ ثمانيةً، خَصَّها بالذكر لكثرة منافعها، قيل: وبدائع فطرها، وفيه أنّ كلّ حيوان بديع الفطرة، وكذا غيره، نعم قال الله ﷻ : ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الابِلِ كَيْفَ خُلقَتْ﴾ (سورة الغاشية: ١٧) ، ومع عظم الأنعام شأنًا أخَّرها بطريق الاهتمام بـ«لَهُمْ» وبـ«مَا عَمِلَتْ» وللتشويق إلى ذكر ما عملت أيدينا، وليتَّصل ذكرها بذكر ملكها، وتذليلها، والركوب عليها، والأكل منها والانتفاع بها والشرب منها.

﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ عطف على «خَلَقْنَا لَهُمْ...» والفاء لمجرَّد التفريع ولا خفاء فيه، إذ لو لم يخلقها لم يملكوها، ولا يحتاج إلى تقدير: وملّكناها لهم ﴿فَهُمْ لَهَا ...﴾ لأنّ هذا التقدير يغني عنه قوله ﷻ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾، وقيل: «مَالِكُونَ» قادرون، والإعراب واحد، يقال: ملكت العجين إذا استعمل فيه قدرته. وأمَّا قوله:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا[1]

فيحتمل أنّ المعنى على ظاهره لأنّه إذا نفر غير مالك له، ولو أمسكه لكان في قبضته، وأنّ المعنى لا أستطيعه، والاستطاعة هنا كالقدرة. ولام «لَهَا» للتقوية، وقد اختلف في تعليقها، وقدِّم للفاصلة وبطريق الاهتمام.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ فلا تمتنع عمَّا أريد بها، فقدروا على ركوبها وذبحها، وقصِّ شعرها وصوفها ووبرها وحَلْبِها. وعطف على هذا بالتفريع في قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ هذا تبعيض باعتبار الجزئيَّات، لأنّ منها ما لا يركب وهو الغنم.

﴿وَمِنْهَا يَاكُلُونَ﴾ هذا التبعيض باعتبار الأجزاء لأنّ من أجزائها ما لا يؤكل كالشعر، عطف على «مِنْهَا رَكُوبُهُمْ» وغيَّر بالفعليَّة، لأنّ المأكول بعضها، وهو

١- البيت للربيع بن ضبع كما في لسان العرب وهو من شواهد اللغة.

لحمها وجبنها وسمنها وزبدها وإقطُها، وجميع ما يتَّخذُ من لبنها، وهذا عامٌّ والركوب على الدَّابَّة منها كلِّها تستعمل فيه، ولو كان موضعه منها الظهر.

والحاصل أنَّ التخالف بالفعليَّة والاسميَّة للتخالف بأنَّ المركوب يركب كلُّه والمأكول يؤكل بعضه وهو اللحم والشحم، وقيل: «يَاكُلُونَ» بمعنى مأكول، أو الأكل مبتدأ و«مِنْهَا» خبر فلا تغيير، **وهذا خلاف الأصل** جدًّا إذ فيه جعل الفعل المبنيِّ للفاعل بمعنى الاسم الذي هو اسم مفعول، أو بمعنى المصدر الذي بمعنى مفعول.

وقيل: غيَّر لأنَّ الأكل في الأنعام مستمرٌّ كثير فيها كُلِّها، بخلاف الركوب، فإنَّ الغنم لا تركب، و«رَكُوبُ» بمعنى مركوبة، كحَصُور بمعنى محصور، أي محبوس، وحلوب بمعنى محلوبة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أُخر كشعرها ووبرها وصُوفها وجلودها، وكالحرث على البقر والبعير، والسقي عليها **﴿وَمَشَارِبُ﴾** جمع مشربٍ اسم مكان الشرب، فإنَّ ضروعَها وأخلافَها مواضع الشرب، ولو كان بواسطة الحلب، مع أنَّه يقع الشرب منها بالأفواه.

وقيل: المشارب الأوعية التي تتَّخذ من جلودها للشرب، أو جمع مشرب، مصدر ميميٌّ بمعنى مشروب، والمراد في ذلك كلِّه اللبن، وتخصيصه مع شمول المنافع له لعظم شأنه **﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾** أيشاهِدُونَ هذه النعم فلا يشكرونها، بعبادة الله وحده.

﴿وَاتَّخَذُواْ من دُونِ اللهِ﴾ العظيم الشأن الذي لا إله إلاَّ هو، المنعم بتلك النعم **﴿ءَالِهَةً﴾** أصنامًا أو غيرها، عاجزة غير عاقلة لا تملك شيئًا **﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾** قائلين: لعلَّها تنصرنا في الدنيا عن البلاء، وفي الآخرة عن النار إن كانت الآخرة.

وردَّ الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي لا يستطيع آلهتُهم ﴿نَصْرَهُمْ﴾ أي نصر هؤلاء العابدين لها في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُمْ﴾ أي الآلهة ﴿لَهُمْ﴾ أي لعابديها ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ تحضر ليعذّب عابدوها بها، بأن تجعل لهم وقود النار، أو تحضر لحساب عابديها، فيتبيَّن أنَّها لا تدفع عنهم شيئًا.

(بلاغة) وفي جعلها، جندًا لهم كعسكر يدفع عنهم تَهَكُّمًا بهم، وكذا في لاَم النفع، وكان الأمر بالعكس، إذ كانت جند الله يعذّبهم بها، وكذا في قول الحسن وقتادة: ﴿هُمْ﴾ لعابديها، و﴿لَهُمْ﴾ للآلهة، و﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ في الدنيا لحفظها، والذَبِّ عنها مع أنَّها لا نفع فيها.

وكذا في رواية عن الحسن: ﴿هُمْ﴾ أي عابدوها، ﴿جُندٌ﴾ لآلهتهم في الدنيا بعبادتها، ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للنار في الآخرة، أو ﴿هُمْ﴾ عابدوها لآلهتهم، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ في النار بعد إحضار الآلهة فيها. والواو للحال المقدَّرة.

﴿فَلاَ يُحْزِنكَ﴾ عطف على الاسميَّة قبلها عطف إنشاء على إخبار، وفعليَّة على اسميَّة، أو جواب شرط، أَيَ إذا كان حالُهم مع ربِّهم هذا الرَّدِّ عليهم وإعداد النار لهم ولآلهتهم ـــ كما قيل قَبلُ ـــ وأيضًا كان رأيهم عبادتها مع أنَّها لا نفع فيها، فلا يحزنك ﴿قَوْلُهُمْ،﴾ إنَّ لله شركاء، وإنَّك شاعر وكاذب، ونحو ذلك.

والنهي في اللفظ من نهي الغائب وهو قولهم، نهى قولَهم عن أن يؤثّر فيه ﷺ حَزَنًا، والمراد نَهْيُه ﷺ أن يتأثّر بالحزن لذلك القول، كأنَّه قيل: لا تحزن بقولهم، وذلك أبلغ من هذا لأنَّه نهي عن أن يأتيه حزن، فَضْلاً عن أن يؤثّر فيه.

وعلّل النهي تعليلاً جمليًّا مستأنفًا بقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ عِلْمُه تعالى كناية عن عقابهم، أو مجاز مرسل لعلاقة السَّببيَّة واللزوم، فلعلمه بما فعلوا يعاقبهم، وهو حكيم اقتضت حكمته أنّه لا بدَّ يعاقبهم، وأنّه لا يخلف عنهم الوعيد، ولا عن رسوله الوعد، والانتقام منهم، حتَّى يلتذَّ ﷺ به.

وإطلاق العلم على نفس ما يخفونه من الإشراك والمعاصي بالقلب والجارحة أولى من إطلاقه على نفس الإخفاء والإعلان، لأنَّ العقاب على حبَّات الخردل من نفس ما عملوا بل نفس الإخفاء، والإعلان أيضًا ممَّا عملوا، فـ«مَا» موصول اسميٌّ لا مصدريَّة ولو أمكنت.

وقدَّم الإسرار لأنَّ المشركين يتوهَّمون أنّه تعالى لا يعلمه، ولأنَّ الخفاء دائمًا متقدِّمٌ على الإظهار ولو بتقدُّم عزم القلب، ولطريق الاهتمام بإصلاح السرِّ. وزعم بعض أنّه قدَّم تلويحًا إلى أنَّ علم السِّر عنده تعالى كأنّه أقدم من علم العلن.

ومفعول القول محذوف، ومرَّ تقديره، وأجيز أن يكون هو قوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ...﴾ على التهكُّم، أو على تشديد التحريض على اعتقاد ذلك، حتَّى كأنَّهم اعتقدوه مع بعدهم عنه، ومع البعد عن العمل بمقتضاه، كما شدَّد على الترك مع البعد عن الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤) ، إذا كان خطَابًا له ﷺ ، وهذا كلام على الجواز ولا تعمل به واعمل [أي اقرأ] بالوقف على ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وبحذف المقول، ويجوز الوصل مع عدم اعتقاد أنَّ مقولهم: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ...﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ

بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

الردُّ على منكري البعث

﴿أوَلَمْ يَرَ الانسَانُ أنّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَة﴾ عطف على **﴿أوَلَمْ يَروا﴾** أو استئناف. والاستفهام تعجيب وإنكار، والتقدير: ألم يتفكّر الإنسان و لم يعلم أنّا خلقناه من نطفة، ولَمَّا حذف المقدَّر أظهر الإنسان، ويجوز التكرير للتهويل، هكذا: ألم يتفكّر الإنسان و لم يعلم الإنسان أنّا خلقناه؟ فإنّ المذموم كلّما ذكر اسمه ازداد ذمًّا بذكره.

وأكّد الإنكار والتعجُّب بقوله: **﴿فإذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾** مبالغ في الجدال بالباطل، والصحيح أنّ المراد متكلّم مفصح بالكلام بعد ما كان ماء مهينًا **﴿مُبِينٌ﴾** ظاهر أنّ ذلك منه جدال بالباطل، وجاهر به لا يُخفي، ولا يُكَنِّي.

(سبب النزول) والمراد بالإنسان جنس الكافر، ولو نزلت إلى آخر السورة في العاصي بن وائل، جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم ففتَّه بيده فقال: يا محمد أيحيي الله تعالى هذا بعد ما أرمَّ؟ قال: «**نعم يبعث الله هذا ويميتك ثمّ يحييك ثمّ يدخلك نار جهنّم**».

وقيل: قائل ذلك أبيُّ بن خلف الذي قتله رسول الله ﷺ يوم أحد بحربة كما وعده أنّه سيقتله، وما أصابت منه كثيرًا فقالوا: لا بأس، فقال: قد وعدني بالقتل، ولو تفل عليَّ لقتلني، واختاره بعض وهو رواية عن ابن عبَّاس.

وعنه أبو جهل وعنه عبد الله بن أبي، وفيه أنّ مشركي المدينة يلاينون بالتوحيد، وينافقون بالشرك، ولا يجاهرون به عنادًا وخصامًا لرسول الله ﷺ ، وأيضًا السورة والآية مكّية، لكن لا مانع من أنّ ابن عبّاس عقل القصّة مع صغر سنّه، والظاهر أنّهم كلّهم قالوا فنزلت فيهم، أو قاله بعضهم فنزلت فيه، و لم يرتدع الآخرون فقالوه بعده.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ عطف على ﴿أَوَلَمْ يَرَ الانسَانُ﴾ لا على مدخول «لم» لأنّها لا تدخل على الماضي، أو عطف على الاسميّة قبلها. والمَثَل جعلهم البعث بعد الموت قصّة غريبة أو عجيبة تنكُّرًا.

والمراد بالمثل أنّهم قاسوا الله تعالى القادر على غيره في العجز عن إحياء الموتى، ويشبههم من أهل التوحيد من يقول بأنّ الله تعالى يبعثهم بأجسام أخر غير التي فنيت، و لم تبق، والقرآن يردُّه ويردُّه الأحاديث، فالصواب أنّه يحيي ما بقي من الجسد، ويعيد ما فني ويحييه، وذلك كلُّه بمرة.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي نسي خَلْقنا إيّاه من نطفة أي ترك تذكُّره والاحتجاج به على نفسه وغيره، أو شبَّه تركه بالنسيان ﴿قَالَ﴾ الإنسان في ضرب المثل منكرًا لإحياء الموتى ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بَالٍ بِلًى شَديدًا وهو بمعنى فاعل من رَمَّ اللازم لا المتعدي، وأفرد مذكرًا.

(صرف) و لم يقل رميمة لأنّه على وزن المصدر من الأصوات والسير، والمصدر يصلح لذلك، ولأنّه محمول على فعيل بمعنى مفعول، كامرأة كحيل، ولغلبة استعماله على غير موصوف قال: عظم رميم، وكثر ذكره بلا ذكر لعظم، فجرى مجرى الأسماء كرجل.

ويقال: كلُّ اسم مشتقٌّ عدل به عن وزنه فإنّه يعدل عن أحواله بمعنى فاعل أو مفعول، وقيل: لأنّ العظام بوزن المفرد، وهو مصدر فاعَل بفتح العين مصدر

نحو قاتل قتالاً، و[مصدر] ما دلّ على نفار ونحوه، ومفردات كثيرة ككتاب، وقيل: لأنّه غير وصف كالرّمات والرِّمة، وإن كان من رَمَّ المتعدّي أي أبلاه الله، أو أبلته الأرض فلا إشكال لأنّه ككحيل بمعنى مكحولة.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا اَلذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومعلوم أنّ الإعادة أسهل من المبدئ في الجملة والطباع، فلو قالوا به في الله سبحانه لم يقبل عنهم[1]، وكفروا به أيضًا لأنّ فيه نسبة بعض الصعوبة إلى الله حاشاهُ.

(أصول الدين) والأصل بقاء الموجود وهو القدرة، فلا دليل على زوالها، والقديم لا يتغيَّر والآية كالنصِّ في أنّ العظم تدخله الحياة، وإذا انقطع عن صاحبه أو مات صاحبه مات فيحيى بعد موته، ولا يلزم من عدم حسِّها أنّها ميِّتة، فبعض الحي يحسُّ وبعضه لا يحسُّ، كالقرن والشعر والسنِّ، وقد قيل: إنّها تحسُّ حسًّا ضعيفًا، وأمَّا ما يظهر من حسِّها فلما اتَّصل به، وكما تخرج من حَيٍّ أو تزداد، فهي حيَّة، ولو كانت ميِّتة لتعفّنت، وما ذلك إلاّ لحلول الروح فيها.

(فقه) والتأويل بأصحاب العظام أو بأَنّ العظام اسم لأصحابها، أو بأنّ إحياءها ردُّها طريَّة خلاف الظاهر ومجاز، فهي نجسة كلحم الميتة، ومن قال: لا تحلُّ فيها الحياة قال بطهارتها، إذا زالت الرطوبة واللُّزُوجَة عنها كجلد الميتة.

﴿وَهُوَ﴾ الله ﷻ ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ فلا تخفى عنه أجزاء الْميِّت ومواضع تركيبها واتِّصالها وقوَّاها، كما كان قبل الموت.

﴿الذي﴾ نعت «الذي أَنشَأَهَا» أو بدل منه، ولم يقل: «عليم وجعل لكم» عطفًا على «أَنشَأَهَا» للفصل وللتأكيد بذكر «الذِي»، ولتفاوت الجعل الأوَّل والثاني.

١- في نسخة -أ-: «فهلاّ قالوا به مع أنّهم قالوا به في الله سبحانه...».

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَلشَّجَرِ اِلاَخْضَرِ﴾ أي الطريِّ، متعلّقان بـ«جَعَلَ» وله مفعول واحد، لأنّه بمعنى خلق أو أنشأ. قُدِّما على قوله: ﴿نَارًا﴾ على طريق الاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر، وليقرِّب ذكر نار إلى لفظ الإيقاد. و«ال» للجنس، وَكُلُّ شجر فيه نار إلاَّ أن العفار والمرخ أكثر نارًا وأسرع، وقيل: خصَّت بهما.

والنار من الشجر الأخضر أمر عجيب إذ تولَّدت النار من الماء مع تضادِّهما، والقادر على ذلك قادر على إحياء الموتى، يسحق المرخ على العفار وهما أخضران، فيقطر منهما الماء فتقدح النار بإذن الله، والمرخ ذكر، والعفار أنثى، وعكس في الصِّحاح.

واستثنى بعضهم العناب، وقال: لا نار فيه، وشاهدت خروج النار من العرجون الطريِّ، أو قرب خروجها فَجَرِّب ذلك بحكِّه بعود أو حديد فتشتدُّ حرارة موضع الحكِّ، وتلك النار التي ذكرت تحدث عند الحكِّ، وليست كامنة في العود الأخضر، وقوله: ﴿مِّنَ اَلشَّجَرِ﴾ لا ينافي ذلك، فإنَّها تخرج منه عند الحكِّ.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ النار﴿أَوَلَيْسَ﴾ أي أليس الذي أنشأها أوَّل مرَّة، وجعل لكم من الشجر الأخضر نارًا، وليس ﴿اَلذِي خَلَقَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ﴾ الأرضين مع سعتهنَّ وغلظهنَّ ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ يردُّ خلقتهم الأولى بنفسها، وأعيان أجزائها لما فنيت الأولى وردَّت، جَعَل المردود كأنَّه غير نفس الأوَّل بل مثلهم، ولو كان المردود غير الأوَّل لم ينكروا ويخاصموا، كما لم ينكروا النشأة الأولى.

أو المراد أن يخلق مثلهم معهم، أو كما تقول: مثلك يفعل، تريد أنت تفعل، وما وجد من حيٍّ فهو، وما فني أعاده الله عَجَّلَ كما قَدَر على إنشاء شيء لا من شيء.

والعاجز هو المخلوق، فإنَّه عاجز عن أن يدرك ما فيه ظاهرًا، ألا ترى أنَّ نور عينك يبصر ما هو أوسع مِمَّا دارت عليه الأجفان، وأوسع من كوَّة ينظر منها، فإنَّ الله ﷻ خلق نورًا يخرج منها ممتدًّا للجهات، ولا تدري ذلك ما هو في الشأن، وتتوهَّم أنَّك تدرك شيئًا بعينيك معًا، وما أدركته إلاَّ بواحدة، وإذا غضضت أحدهما تبيَّن لك ذلك.

﴿بَلَىٰ﴾ أجاب عنهم لأنَّ القدرة على ذلك أمر لاَ مَحِيدَ عنه، أو لَمَّا تردَّدوا في الجواب أجاب ﴿وَهُوَ اَلْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ عظيم القدرة والعلم، فلا يعجز عن شيء لأنَّه يفعل بلا علاج كما قال:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُ،﴾ شأنه، أو قوله، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ اِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ، كَن فَيَكُونُ﴾ (سورة النحل: ٤٠) ، ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا﴾ إذا أراد كونه ﴿اَنْ يَّقُولَ لَهُ، كُن﴾ يخلق له لفظًا فيما شاء، ولا تسلسل فيه، أو قوله تَوَجُّه إرادته لكونه ﴿فَيَكُونُ﴾ عطف على «إِنَّمَآ أَمْرُهُ».

﴿فَسُبْحَانَ اَلذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾ مُلْكُ، كَما قُرِئَ به ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه عن العجز، وعن أن يكون له شريك. والواو والتاء للمبالغة، كالرغبوت والرهبوت ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بأجسامكم الأولى. وفيه وعيد للكفَّار سواء قلنا الخطاب لهم أو للعموم، والله أعلم وهو المستعان الموفّق.

وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه

تفسير سورة الصافات وآياتها ١٨٢

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾

إثبات وحدانية الله وتأكيدها

﴿وَالصَّآفَّات صَفًّا﴾ والملائكة الصافّات، جمع جماعة صافّة، أو طائفة صافّة، فالتأنيث لتأنيث الطائفة أو الجماعة، ودون ذلك أن يكون لتأنيث كلّ فرد بتأويل نفس أو ذات، ولا مفعول به له، إذ لم يتعلّق غرض الكلام به.

أي: الواقعات صفوفا، كقولك: فلان معط، تريد أنّه غير شحيح، لا أنّه يعطي فلانا أو كذا. أو له مفعول به حذف ليشمل أنواعا، أو يحتملها، أي الصافّات أنفسها للعبادة.

أو الصافّات أقدامها للصلاة، قال رسول الله ﷺ : «**ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربّهم**» قالوا: وكيف يصفّون عند ربّهم؟ قال: «**يتمّون الصفوف المتقدّمة، ويتراصّون في الصفّ**»[1].

أو الصافّات الملائكة تصفّ أجنحتها في الهواء، منتظرات لأمر الله تعالى، أو حيث يؤمرون بالصفّ على مراتبهم في القرب من الله منزلة، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (سورة الصافات: ١٦٥) ، وكذا لم يذكر الملائكة ليحتمل الكلام

١– رواه **مسلم** في كتاب الصلاة باب الأمر بالسكون والنهي عن الإشارة، رقم٤٣٠. ورواه **أبو داود** في كتاب تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف، رقم٦٦١. من حديث ابن سمرة.

غيرها معها، كصفوف الإنس والجنِّ في القتال والصلاة والطير، كما قال الله ﷻ : ﴿وَالطَّيْرُ صَآفَّات﴾ (سورة النور: ٤١) ، وأما أن يفسَّر بالطير وحدها فلا، لبعدها عن المقام، ولأنَّها غير عاقلة وما بعد ذلك للعاقل على التفسير الراجح.

و«صَفًّا» مفعول مطلق وليس مفعولا به للصافات، أي الصافات صفوفها، لأنَّه مفرد مجرَّد من «ال» والإضافة في الإثبات، فالأصل أن لا يستعمل في جماعة ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ الملائكة الزاجرات ﴿زَجْرًا﴾ مفعول مطلق.

ولا مفعول له، أو مفعوله محذوف، وهو الراجح، أي الدافعات الجنَّ عن الإنس أن تضرَّهم أو توسوس لهم، وعن سائر الإفساد، وعن استراق السمع، أو معالجات ما علق بها من الأمور العلويَّة، كالكواكب والقمرين إن كان لها تعلُّق بهم، **أو الآيات القرآنيَّات الزاجرات للمكلَّف عن المعاصي**، قيل: أو كلُّ ما يزجر عنها.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ جماعات الملائكة القارئات آيات القرآن، وسائر كتب الله تعالى، فرادى وبعضا مع بعض، وعلى من شاء الله من الإنس والجنِّ، حين أخذوها من اللوح المحفوظ، كما نسخوا القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلِّه، ولو كان ملك الوحي بها جبريل خاصَّة، وقد يشيِّع الآية فصاعدا كالسورة -مثل سورة الأنعام- ملائكة.

أو التاليات الملائكة التي تلي أمر ذلك مطلقا بقراءة أو كتابة أو غير ذلك. أو **الصافَّات: طوائف العلماء الصافَّات أرجلها للصلاة، أو في صفوف الجماعات في الصلاة، الزاجرات بالوعظ والنصح، التاليات لآيات الله ﷻ** .

أو الملائكة الزاجرة عن القبيح بالإلهام، أو الطوائف العائدات للغزاة للصفِّ في الحرب، الزاجرات الخيلَ فيها والعدوَّ، التاليات لذكر الله في تلك الحال أو مطلقا.

وقال ابن العربي: الصافّات ملائكة صافُّون حول العرش للعبادة، لا يدرون أنّ الله خلق آدم و لم يؤمروا بالسجود له، ويسمَّون المهيومين، وإنَّهم العالين في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (سورة ص: ٧٥) ، والزاجرات أمروا بتسخير العلويَّات والسفليَّات، والتاليات التي أمرت بتلاوة المعارف على خواصِّ الخلق.

والفاء للترتيب على سبيل الترقّي، فالزاجرات أفضل من الصافات، والتاليات أفضل من الزاجرات، أو على سبيل التدلّي عكس ذلك، وعلى الأوَّل الزاجر لأنّ فيه نفع الخلق أفضل، والتاليات أفضل لأنّ مسألة من العلم أفضل من الأعمال، قيل: ولا سيما إذا كانت التلاوة على خاصَّة الخلق، وقد قيل: الصافّات الكروبيُّون، وقيل: المقرَّبون، وقيل: بتقدير مضاف على جميع تلك الأوجه، أي وربِّ الصافات، ولا حاجة إلى ذلك لأنّه تعالى يقسم بخلقه.

﴿انَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ لا متعدِّد ﴿رَّبُّ﴾ خبر ثان بمعنى مربِّي أو مالك ﴿السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ مشارق الشمس عند طلوعها كلّ يوم في السنة، فهي عدد أيّام السنة، وهي ثلاثمائة وَسِتُّونَ بإسقاط الكسر، لأنّ السنة الشمسيَّة تزيد بستَّة أيّام.

والمغارب مغاربها كلّ يوم كذلك، واكتفى بذكرها عن ذكر المغارب لأنّها تستلزمها، مع أنّ الشروق أعظم في القدرة، وأبلغ في النعمة، وهو شأنها كلّ يوم والشروق أفضل، وهو من شباب النهار وزيادة، والغروب عكس ذلك، ولذلك استّدلّ إبراهيم للنمروذ به.

(فلك) وإن شئت فمشارق الشمس مائة وثمانون، لأنّ مشارقها من رأس السرطان أوَّل بروج الصيف إلى رأس الجدي أوَّل بروج الشتاء متَّحدة معها، من رأس الجدي إلى رأس السرطان، ولكلّ برج ثلاثون يومًا.

وقيل: المراد مشارق الكواكب، ويناسبه ذكر الكواكب بعدها، قيل: وهي السيَّارات منها، متفاوتة في العدد، وأكثرها مشارق زحل، قيل: تزيد على مشارق الشمس بألوف، وقيل: المشارق كلُّ موضع أشرقت عليه الشمس، والمغارب كلُّ موضع غربت عنه، ولا يختصُّ ذلك بأوَّل النهار وآخره، وثنِّي المشرق والمغرب في الآية الأخرى [سورة الرحمن: آية ١٧] باعتبار الصيف والشتاء.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

تزيين السماء بالكواكب وحفظها من الشياطين

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ اسم تفضيل لأنَّه مؤنَّث اسم التفضيل الذي هو الأدنى، وهو نعت للسماء، وألفه للتأنيث، والسماء مؤنَّث وهو خارج عن التفضيل، لأنَّ المراد السماء القريبة، لا السَّماء التي هي أقرب إلينا من الأخرى.

﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ الإضافة على ظاهرها، لأنَّ للكواكب زينة فأضيفت إليها، كقولك: جمال زيد وشبابه، ويجوز أن تكون للبيان أي بزينة هي الكواكب، بأن تطلق الزينة على الكواكب، ولو كان في الأصل مصدرًا، ويدلُّ له قراءة «زينَةٍ» بالتنوين، فإنَّ الكواكب حينئذ بدله، أو عطف بيان على جواز مُخالَفَته تعريفًا وتنكيرًا.

(ردُّ توهُّم) [قلت:] ولا ندري بتحقيق أنَّ الكواكب والقمرين تحت السماء، كما قيل بأيدي الملائكة في قناديل مسلسلة، أو عليها متَّصلة بها، أو في

الفلك الثامن، أو أنّ القمر في السماء الأولى، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة، والثوابت في فلك هو الكرسيُّ، ولا بدَّ أنّ القمرين والكواكب زينة للسَّماء من فوقها أو من تحتها.

ويجوز أن يكون «زِينَة» مصدرًا من «زان» المتعدِّي، يقال زانه الأمر، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي زَيـــنّـــا السماء بزينتِنا الكواكب، أي زيَّناها بأن زيَّنتها الكواكب.

﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول مطلق، أي وحفظناها حفظًا، أو معطوف على «زِينَة» بطريق العرب في عطف التوهُّم، كأنَّه قيل: خلقنا الكواكب تزيينًا للسماء، وحفظًا لها، أي للسَّماء بها، أي بالنجوم أي الشُّهب، على طريق الاستخدام، فإنَّه لا يرمى بالثوابت ولا بالسائرات، وإلاّ نقص عددها أو فرغ، فهو منصوب على التَّعليل، والله سبحانه لا يتوهَّم. **﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾** متعلّقٌ بـــ«حِفْظًا» على التَّعليل، أو به أو بناصبه المحذوف على المَفعوليَّة المطلقة. و«مَارِدٍ» مجرَّد عن كلِّ خير وطاعة، يقال: رجلٌ أمرد متجرِّد عن الشعر، ورملة مرداء متجرِّدة عن النبات، وشجرة مرداء متجرِّدة عن الورق.

﴿لاَّ يَسْمَعُونَ إِلَى اَلْمَلإِ الاَعْلَىٰ﴾ مستأنف، أو نعت لـــ«كُلِّ» أو لـــ«مَارِدٍ» بمعنى أنَّهم لا يؤثِّر سمعهم، أو لا يحصل لهم سمع، أو لا يسمعون سمعًا نافعًا، فإمَّا أن لا يسمعوا أو يسمعوا سمع خطف، وقدَّرَ بعضٌ: لئلاَّ يسمعوا، ولَمَّا حُذفت «أَنْ» رُفع الفعلُ وعدِّيَ بـــ«إلى» لتضمُّنه معنى أصغى، على حدِّ ما مرَّ، أي لا يؤثِّر إصغاؤهم، أو لا يحصل لهم إصغاء، أو لا يصغون إصغاءً نافعًا، وذلك لأنَّهم يرجمون، كما قال الله ﷻ :

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ يرجم الملائكة من جاء من الشياطين لاستراق السَّمع، من جانب مًّا من الجوانب، إذا جاء واحدٌ رماه ملك واحد، ويجوز أن يكون الفاعل الذي ناب عنه المفعول النجوم، وكأنَّه قيل: وتقذفهم النُّجوم من كلِّ جانب.

﴿دُحُورًا﴾ إبعادًا، منصوبٌ على التعليل، أو المفعوليَّة المطلقة لتأويل القذف بالدحور، أو الدحور القذف، أي يدحرون دحورًا، أو يقذفون قذفًا لا على الحالية، وهو وصف بمعنى مدحورين، جمع داحر، لأنَّ فاعلاً بمعنى مفعول لا يجمع على فعول، كما يقال: قاعد وقعود، وشاهد وشهود، وعلى قراءة «يَقْذِفُونَ» بالبناء للفاعل يكون جمع داحر حالاً وليس بمعنى مفعول.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة زيادة على عذاب الدُّنيا بالقذف والتعب وعدم إصابة المراد، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (سورة الملك: ٥) ، ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم، كما قابل به أبو الأسود[1] قلَّة البقاء في قوله:

لا أشتري الحمد القليل بَقَاؤُهُ يومًا بِذَمِّ الدَّهر أجمَعَ وَاصِبًا

وقيل: [واصب] أي شديد، وهو تفسير باللازم إذ يلزم من دوام السوء شدَّته. وفسَّر بعضهم العذاب الواصب بعذاب الدُّنيا، وهو تعبهم وعدم نيل المراد والقذف.

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ اَلْخَطْفَةَ﴾ أخذ من كلام الملائكة تحت السماء، أو فوقها مع بعد المسافة، والله قادر، خلقهم على جهر الصوت ولا يطيقون الإسرار. والخطف: أخذ بخفَّة وسرعة مطلقًا، ولا يشترط غفلة المأخوذ منه.

١-هو ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني الدؤلي من الفقهاء التابعين واضع علم النحو على ما يقال، سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيـّام عليٍّ. وكان أوَّل من وضع النقاط للمصحف، له شعر. تُوُفِّيَ بالبصرة سنة ٦٩هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٣٦.

(نحو) والاستثناء متَّصل من واو «يَسْمَعُونَ»، لا كما قيل: إنَّه منقطع، وإنَّ «مَنْ» شرطية وجوابها «أَتْبَعَهُ» من قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ، شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ لأنَّ الجواب ماض مجرَّد عن حرف النفي وقد، متصرِّفٌ لا يقرن بالفاء فيحوج إلى دعوى زيادتها، أو تقدير: فهو أتبعه، أو فقد أتبعه، وهو بمعنى تبع متعدٍّ لواحد.

والشِّهاب: شعلة نار يشعلها الملك من ضوء الكوكب، فيصير الضوء محرقًا من حينه، أو حين يصل محلَّ الجنِّ على أنَّ الكواكب تحت السماء على ما مرَّ، أو في سطحها، ولو بعدت المسافة، والله قادر، ولا ينقص ضوء الكوكب، أو يردُّ الله مثل ما أخذ، وتلك الشعلة هي نفس الضوء لا بشيء آخر، كحطب يقبس من النار.

وقيل: الشهب **كواكب صغار لا ترى إلاَّ حال الرمي بها ليست من نجوم السماء الثوابت ولا من السيارة.** قال ابن سيرين: كنا مع أبي قتادة الأنصاري على سطح فانقض نجم، فأتبعناه أبصارنا فنهانا، وقال: لا تتبعوا أبصاركم، فإنَّ رسول الله ﷺ نهانا عن ذلك.

وضمير النصب في: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ (سورة الملك: ٥) ، على طريق الاستخدام. و«ثَاقِبٌ» يثقب الجوَّ بضوئه، أو يثقب المسترق، أي في الجملة، فإنَّ من المسترقين من يحترق ولا يموت، فيصير كالمجنون، قيل: يضلُّ الناس في البراري، وقيل: كُلُّ من أصابه هلك.

وعن ابن عبَّاس: تصيب كُلَّ من رمي إلاَّ أنَّه لا يموت، وكان القذف قبله ﷺ ، وقيل: حدث عند ميلاده، والصحيح تقدُّمه، وعند ميلاده اشتدَّ وكثر. [قيل:] وكانت الجنُّ تدخل السماوات ولَمَّا بعث عيسى عليه السلام أو ولد حجبوا عن ثلاث، ولَمَّا ولد النبيء ﷺ حجبوا عن الأربع البواقي. وإنَّما تصعد

للاستراق مع مشاهدة الموت به أو الضرر به لشدَّة الحرص عليه، حتَّى إنَّهُ يحترق الأعلى، ويلقي الكلمة للذي تحته قبل خروج روحه، قيل: ولأنَّ القذف بالشهب ليس للاستراق خاصَّةً، أو لأنَّهم لا يدرون بموت من تصيبه، وللرغبة في المدحة بقُوَّة الاستراق عند سائر الجنِّ، وعند الكهنة ومن تلقي إليه.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

إلزام الحجة على المكذبين وإثبات البعث

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ إذا كان لنا ما ذكر من الخلق، أو إذا عرفت فاستخبر للتبكيت بالتقرير أو الإنكار مشركي مكَّة كأبي الأشد، وفيه نزلت.

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أقوى بنية أو أصعب إيجادًا **﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾** من الملائكة والسماوات والأرض والكواكب والشياطين والشهب، وعبَّر بـــ«مَنْ» تغليبا للملائكة والشياطين على غيرهم. و«مَنْ» معطوف على «أَهُمْ»، ففي «أَشَدُّ» ضميرهما و«أَشَدُّ» خبرهما.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ﴾ تراب وماء وهما في الآية معجونان **﴿لاَّزِبٍ﴾** ملتصق بما مسَّه أو بعضه ببعض، ولا يصحُّ في اللغة ما قيل: إنَّه الجَيـــِّد، وإنَّما هو من خارج لشدَّة عجنه، وجودته، كما يقال من آية أخرى [سورة الحجر:٢٦] : إنَّه منتن.

وهذا ردٌّ عليهم بأنّهم ضعاف، لأنّهم من الطين بخلق أبيهم منه، والطين ضعيف، وقد خلق ما هو أقوى، وخلقُ الضعيف أسهل في عقولهم، وهما عند الله سواء، وبأنّهم من طين بخلق أبيهم، فلا يعجزه أن يخلقهم عند البعث، وإحياءُ ما بقي من أعضائهم، وإكمالُها أسهلُ في عقولهم والكلُّ عند الله سواء.

﴿**بَلْ عَجِبْتَ**﴾ يا محمَّد، أو مطلق من يصلح للعجب عَجَبَ إذعَانٍ واستعظامٍ للدَّلائل، أو عجبت من إنكارهم البعث مع وضوحها، والإضراب عمَّا يفيده الاستفتاء من طلب إقرارهم، أي لا يقرُّون بل أنت وأصحابك تذعنون، أو عن استفتائهم، أي لا تستفتهم فإنَّهم لا يعجبون عجبَ إثباتٍ، لأنّهم معاندون بل مثلك يعجب هذا الإعجاب.

﴿**وَيَسْخَرُونَ**﴾ من عجبك عجب إثبات لقدرة الله، والواو حالية على تقدير: وهم يسخرون، أو عاطفة. ﴿**وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ**﴾ عطف على «يَسْخَرُونَ»، أي عادتهم السخرياء وإن لا يتَّعظوا إذا وعظوا، أو إن لا يأخذوا بالحجَّة إذا قوبلوا بها عنَادًا أو عدم فهم.

﴿**وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً**﴾ حجَّة للبعث ﴿**يَسْتَسْخِرُونَ**﴾ استَمَرَّ استسخارهم، وهو المبالغة في السخر، أو للطلب أي طلبوا من يسخر به ﷺ .

(سيرة) لقي ركانة في جبل يرعى غنمًا وهو من أقوى الناس، فقال له: أرأيت إن صرعتك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثا وهو يتعجَّب كيف صرعني؟ ودعا شجرة فأتت وعرض عليه الإسلام، فجاء إلى مكّة وقال: يا بني هاشم سَاحِرُوا بصاحبكم أهل الأرض، فنزلت.

﴿**وَقَالُواْ إِنْ هَذَآ**﴾ ما رأيتم من الآيات ﴿**إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ ظاهر يصرف الناس به عمَّا حقّقوه، وقوّوا أنّ ذلك سحر بقولهم: ﴿**أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا**

﴿وَعِظَامًا﴾ بعض أعضائنا ترابًا وبعضها عظامًا، أو إنسان ترابًا وآخر عظامًا، والتقدير: أنبعث إذا كُنَّا ترابا وعظاما؟ أو أئذا متنا وَكُنَّا ترابا وعظاما بعثنا؟ وهي في الوجهين شرطيَّة، ولا يلزم أن تكون خارجة عن الشرط في الأوَّل إلاَّ أنَّه أغنى عن جوابها ما قدِّر قبلها، كقولك: أُكْرِمُكَ إذا جئت، وإذا جئت أكرمتُكَ.

ودلَّ على المقدَّر قوله: **﴿اَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَآؤُنَا الاَوَّلُونَ﴾** «آباؤُنَا» مبتدأٌ محذوف الخبر، أي أو آباؤنا الأوَّلون مبعوثون؟ أو عطف على الضمير المستتر في اسم المفعول بلا فصل، وهذا أولى من دعوى العطف على أصل اسم «إنَّ» إذا كان مبتدأ، أو «إنَّ» واسْمُها.

(نحو) وقد يدَّعى الفصل بواو «مَبْعُوثُونَ» لأنَّها زائدة على مبعوث للإعراب، والفصل بالنون وهي زائدة بدل من تنوين المفرد، وذلك لأنَّ الاستتار في مبعوث فقط، وقدَّموا «ترابًا» لأنَّه أبعد عندهم عن الحياة كما ذكروا الآباء لأنَّهم لقدمهم أبعد خلقًا عندهم.

﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون أنتم وآباؤكم الأوَّلون **﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾** أذلاَّءُ. والخطاب تغليب لهم على آبائهم الغائبين. والجملة حال من واو «تبعثون» المقدَّر الذي دلَّ عليه «نَعَمْ» كذا قيل، وهذه الجملة زيادة في الجواب عن جوابهم، كما زاد ﷺ قوله لأُبي بن خلف: «**يُدْخِلُك جهنَّم**» على سؤاله إذ جاء بعظم يفتُّه بيده، فقال: يا محمَّد أترى الله يحيي هذا بعد ما رمَّ؟ قال: «**نَعم ويدخلكَ جهنَّم**».

(بلاغة) ويبعد أن تكون هذه الزيادة من الأسلوب الحكيم، وهو أن يجاب بما لم يُسئل عنه تنبيهًا على أنَّه أحقُّ بالسُّؤال، وإنَّما قلت ببعده لأنَّه قد أجاب نفس سؤالهم، والأسلوب الحكيم لا إجابة فيه لنفس السؤال، إلاَّ أن يكون اصطلاح أنَّ الزيادة تنبيهًا من أسلوب حكيم، وأمَّا كون الذلِّ أحقُّ أن

يسأل عنه فلقيام الدلائل على البعث، ولم يبق إلاَّ ذكر أنَّهم يبعثون أعِزَّاءَ كحالهم الآن أو أذِلاَّءَ.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ البعثة المعلومة من المقام، أو الضمير للبعث فأُنِّثَ لتأنيث الخبر. والفاء في جواب شرط مقدَّر، أي إذا كان البعث أمرًا لا مَحيد عنه فإنَّما هي زجرة، أو تعليل لمحذوف، أي لا يصعب عليه لأنَّها ما هي إلاَّ ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ صيحة يصيحها ملك بإذن الله ﷻ ، نفخة البعث، و«الواحدة» معلومة من زجرة فـ«وَاحِدَةٌ» نعت مؤكِّد.

ويجوز العطف على «نَعَمْ» لأنَّه في معنى الجملة فلا تقدير، والجملة من تتمَّة القول، وأمَّا إذا قدِّر الشرط أو المعلّل فالمجموع مستأنف من الله ﷻ ، أو من تتمَّة القول، ويجوز كون الفاء تعليلاً لـ«قُلْ» بلا تقدير شيء.

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام من قبورهم أحياء يعقلون ﴿يَنظُرُونَ﴾ يبصرون كما في الدنيا، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي ويقولون لأنفسهم، أو بعض لبعض، والماضي لتحقُّقِ الوقوع ﴿يَاوَيْلَنَا﴾ هلاكنا احْضُرْ فهذا وقتك، أو «يَا» حرف تنبُّه وتوجُّع، و«وَيْلَ» مفعول مطلق لفعل من غير لفظه.

﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي وُعدنَا به على أعمالنا قَدْ صحَّ، ولم يكذب كما كنَّا نعدُّه في الدنيا كاذبًا. ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تمييز المحسن من المسيء بالسيما والثواب والعقاب، هذا من كلام بعض لبعض من تتمَّة القول، أو من كلام الملائكة.

﴿الذِي﴾ نعت لـ«يَوْمُ» أو «الْفَصْلِ» ﴿كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ والتكذيب بأحدهما تكذيب بالآخر، لأنَّ الفصل موقوف لذلك اليوم،

وقال الله ﷻ للملائكة غير الزبانية: الْقُوا الذين ظلموا على الزبانية في النار، فيشتغلون بهم فيها.

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

تبكيت المشركين وملاحاة بعضهم بعضا يوم القيامة

﴿احْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ المشركين، أو المشركين والفساق، والصحيح أنَّها في المشركين، وذلك من الموقف إلى النار، أو من مواضعهم إلى موقف الحساب، وهو المدلول عليه بما سبق وما يأتي، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ، إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أو يقوله الملائكة بعضٌ لبعض ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أزواجهم المشركات أو قرناءهم من الشياطين، أو أزواجهم: **أشباههم، كيهودي مع يهودي، وزان مع زانٍ أو زانية، وصاحب ربًا مع صاحب ربًا، وصاحب خمر مع صاحب خمر.**

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأوثان، زيادة في تخجيلهم وتعذيبهم، أو «مَا» واقعة على الأصنام والأوثان والشاطين، ولفظ «ما» لخسَّة الشياطين كأنَّها أوثان، يقرنون مع هؤلاء في النار.

وقيل: «مَا» لهؤلاء كلِّهم ولمن عبد من الملائكة، وعيسى وعزير، إلاَّ أنَّهم لا يدخلونها ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠١) ، ولكن أُحْضِرُوا ليتبرَّأوا من عبادتهم. والواو عاطفة في الموضعين، ولا دليل على أنَّها في الأوَّل للمعيَّة، ومعنى المعيَّة مفاد.

﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أَوْصِلوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ طريق ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الشديدة الاتِّقاد، والتعبير بالهداية والصراط تهكُّم بهم، كأنَّهم أرادوا صراط الجحيم، فبُيِّن لهم وأُوصِلوا إليه، وهو بالمشي في الأرض حتَّى يصلوه.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم، من وقف المتعدِّي ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن التوحيد. قال جماعة: وعن أعمالهم، وعن ابن مسعود: يسألون عن شرب الماء البارد تهكُّمًا، يعني هو بعض ما يذكر لهم، أو الوقف للسؤال بعد هدايتهم إلى صراط الجحيم، وقبل دخولهم فيه، والهداية التعريف لا الإيصال.

ويجوز أن يكون صراط الجحيم طريقهم من قبورهم، وهو ممتدٌّ، والوقف في بعضه، وقيل: الوقف للسؤال قبل الهداية إلى الصراط، والواو لا ترتِّب، وإنَّها في نيَّة التقديم على «فَاهْدُوهُم»، ويقال أيضًا: الوقف بعد الهداية عند مجيئهم إلى النار، وإنَّما يدخلون النار بعد قطع أعذارهم، وانقطاع التناصر المذكور في قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ لا تتناصرون، حذفت إحدى التاءين، أي لا ينصر بعضكم بعضًا كما تزعمون في الدنيا، كما قال أبو جهل: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ (سورة القمر: ٤٤) ، أُحْضِر لهم هذا القول وقت كانوا أحوج إليه تعذيبًا لهم به، ويجوز أن يكون الخطاب لهم ولما عبدوه.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ والإضراب عن مضمون ما ذكر، أي لا ينازعون في الوقوف وغيره، بل يستسلمون، واستسلامهم انقيادهم لعجزهم عن

الاحتيال أو الحجَّة، وأصله: طلب السلامة، ومن لازمه الانقياد، فاستعمل في الانقياد أو استسلامهم خذلان بعض لبعض.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ هم الأتباع من الإنس ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الرؤساء المُضلُّون، أو ﴿بَعْضُهُمْ﴾: كفرة الإنس، و﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: قرنائهم من الجنِّ، أو كلٌّ ذلك بأن يقال قوله: ﴿بَعْضُهُمْ﴾: الأتباع، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: الرؤساء من الإنس والجنِّ.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ تساؤل نَدَم وتقريع: لمَ عبدنَاكُم ولَمْ تنفعونَا؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي المرؤوسون التابعون ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَاتُونَنَا﴾ في الدينا، أو قال القرناء. ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ خطاب للرؤساء المتبوعين بأنَّكم تأمروننا بالباطل المنافي للحقِّ، وعن اليمين لأنَّهم يمنعونهم عن الحقِّ، والمجاوزة إعراض فهم معرضون عن الحقِّ، حاملون لغيرهم على الإعراض، متعلِّق بـ«تأتي» وإن شئت فـ«عَنْ» للابتداء مشيرة إلى الصدِّ والإعراض، كما يقال: جاء من جانب كذا، ولو علِّقت بحال خاصَّة لجاز، أي صادِّين لنَا عن اليمين، واليمين عبارة عن جهة الخير، والمراد التوحيد وتوابعه.

ولليمين شرف في الجَاهليَّة والإسلام، وفي الدنيا والآخرة، وأمَّا أن يستدلَّ بالآية على أنَّ لها شرفًا في الجَاهليَّة فلاَ، لأنَّهم ذكرُوهَا بعدما عاينوا الحقَّ في الآخرة، و لم يحكوها عن جاهليَّتهم في الدنيا، ولا جاهليَّة في الآخرة.

(بلاغة) واليمين استعارة مصرَّحة تحقيقية أَصليَّة، وليس فيها بناءُ مجازٍ آخر على هذا، ويجوز أن تكون الجملة استعارة مركَّبة تمثيلية، ويجوز أن يكون المراد بالخير المعبَّر عنه باليمين الضلال، تغروننا به وتزعمون أنَّه هدى وصلاح على جهة النصيحة. أو اليمين: القوة والقهر مجازًا إرساليًّا لعلاقة المحليَّة، لأنَّ

اليمين محلٌّ لهما، أو السَّـبَبِـيَّة، لأنَّ اليمنى ــ قيل ــ سبيلهما. أو اليمين: القَسَم فلا مَجَازَ، أي باليَمين.

وَذُكِرَ في أثر ما لَيْس لازمًا من عبارة ولا خارجًا وَهُوَ مَا حَاصِلهُ: من أتاه الشيطان من اليمين فمن الدين يلبسه عليه، أو من الشمال فمن الشهوات يغريه بها، أو قدَّامه فبالتَّكذيب بالقيامة وتوابعها، أو من خلفه فلتخويفه بفقره أو فقر من يعزُّ عليه بعده، فيمنع حقوق المال. ولا يجوز **تفسير اليمين بالشهوات إذ لا دليل له استعمالاً ولا لغةً.**

﴿قَالُواْ﴾ أي الرؤساء أو القرناء **﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُومِنِينَ﴾** لستم تحبُّون الإيمان فقهرناكم عنه، ولا غافلين فابتدأناكم بالصدِّ عنه، بل كفرتم قبل **﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾** قَهرٍ بل اخترتم الكفر.

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ مسرفين في الكفر من ذات أنفسكم، لرسوخه فيكم، فناسب أن تجيبونا بما أردنا منكم من الكفر بلا إجبارٍ، أو الجملتان بمنزلة واحدة للتأكيد حاصلُهما: إنَّكم كفرتم من خبث أنفسكم ولا إجبار منَّا لكم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أنتم ونحن بكفرنا أنتم ونحن **﴿قَوْلُ رَبِّـنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾** أي العذاب.

(نحو) هذه الجملة مفعول به للقول، ومقتضى الظاهر: إنَّكم لذائقون، وهما وجهان مطَّردان مراعاة ما قال القائل ومراعاة حاصله، تقول: حلف زيدٌ لأقومنَّ وحلف ليقومنَّ، وزيد هو المراد بالقيام، وإن أرادك به قلت: حلف لتقومنَّ وحلف لأقومنَّ.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ بسبب أنَّ قوله حقٌّ لا يتخلَّف فلا يتخلَّف سببه، ويبعد أن يكون مفعول القول محذوفا تقديره: **﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾** (سورة

السجدة: ١٣) ، ولكن يتعطّل عليه ما بعده، ويجوز كون الضمير في «عَلَيْنَا» للرؤساء أو القرناء فقط.

﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ تعليل للعلّة قبله، أي أغويناكم لأنّا كنّا غاوين في أنفسنا، والغاوي لا يكون هاديًا، سواء علمنا في الدنيا أنّا غواة أو لم نعلم.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الرؤساء والمرؤوسين. والتفريع على محذوف، أي الأمر ظاهر، أو الأمر كذلك فإنّهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إذ قامت القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ على اختلافهم في شدّة العذاب: شديدٌ وأشَدُّ، فإنّ المغوين أشدُّ عذابًا، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اَوْزَارِ الذينَ يُضِلُّونَهُم﴾ (سورة النحل: ٢٥) ، وقوله: ﴿وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٣) ، ونحو ذلك.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ فعل حكمة، وذلك زيادة توكيد وتحقيق ﴿بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي المشركين، وعلّل ذلك بقوله ﷻ : ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

(نحو) ﴿لَآ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾: نائب فاعل «قِيلَ»، و«يَسْتَكْبِرُونَ» جواب «إِذَا»، والمجموع خبر «كَانَ»، و«كَانَ» وما بعدها خبر «إِنَّ». وهذا أولى من أن تقول: «يَسْتَكْبِرُونَ» خبر «كَانَ» مغنٍ عن جواب «إِذَا».

(نحو) و«اللّٰهُ» بدل من ضمير في الخبر المحذوف لـــ«لاَ»، أي موجود إلاّ الله. ومن التكلُّف جعله بدلاً من اسم «لاَ» باعتبار أصله، وهو الرفع، لأنّ الأصل أن لا يعتبر محلُّ اسم الناسخ الذي هو الرفع على الابتداء، ولا نسلّم ما قاله الكوفيُّون من أنّ «إلاّ» عاطفة موجبة، كلا العاطفة السالبة، ولا ما قيل: إنّ لفظ الجلالة خبر «لاَ» وإنّها غير عاملة فيه، إذ لم يَرِدْ: لا رجل زيد، ولا ما قيل: إنّ «إلاّ اللّٰهُ» نعت على محلّ اسم «لاَ» الذي هو الرفع، لأنّ الأصل أن لا يراعى.

والمعنى صحيح كأنَّه قيل: الإِلَهُ الذي هو غير الله لا يُوجد، وذلك من مفهوم الصفة، لا من مفهوم اللقب، **بل الكلام صريح في إثبات الأُلوهيَّة لله ﷻ وحده لا مفهوم فقط.**

(نحو) ومن العجيب جعل «لاَ إِلَهَ» خبرًا و«إِلاَّ اللَّهُ» مبتدأ، ولو كان لفظ الجلالة نائب فاعل «إِلَهَ» بمعنى مألوهًا، ومغنيًا عن الخبر لنون اسم «لاَ» ونصب لشبهه بالمضاف، ويردُّه أيضًا أنَّ «إلاَّ» معطَّلة عن ذلك، فليس كقولك: ما مضروب العُمَرَان.

﴿وَيَقُولُونَ أَيِنَّا﴾ الاستفهام لإنكار اللياقة **﴿لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا﴾** احترامها أو عبادتها لا نترك شيئًا من ذلك **﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾** يعنون رسول الله ﷺ، أنكروا وَحْدَانيَّة الله تعالى بقولهم: **﴿أَيِنَّا لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا﴾** ونبوءة سَــيِّدنَا محمَّد ورسالته ﷺ بقولهم: إنَّه شاعر مجنون لا رسول ولا نبيء، وهذا تخليط منهم، فإنَّه لا يتصوَّر شعر من مجنون مطبق، إلاَّ إن صحَا، وأمَّا شارب الخمر فعقله كامن داخله، فإن صحَّ منه شعر فقد أَلِفَهُ قبلُ، أو صحَّ لأنَّ فيه عقله.

﴿بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ﴾ التوحيد وتوابعه **﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾** هاتان حجَّتان: إحداهما أنَّه على الحقِّ من الله ﷻ، والثانية أنَّه يقول ما يقول الرسل قبله.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ

أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين المخلصين

﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب بعد الغيبة تشديد عليهم بمواجهتهم بالشرِّ، لمزيد عنادهم وكبريائهم، **﴿لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الاَلِيمِ﴾** للإشراك والتكذيب والاستكبار **﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** إلاَّ جزاء ما كنتم تعملونه من المعاصي، فالعذاب من جهتكم لا من جهة غيركم.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اَللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع، والمعنى: لَكِنَّ الذين أخلصهم الله لعبادته ليسوا كذلك، أو هم منعَّمون، والمستثنى منه هو الضمير المستتر في «ذَائِقُو» أو هو الواو من «تُجْزَوْنَ»، بمعنى: إِنَّكُم تجزون بالسيِّئة السيِّئة، وعباد الله المخلصون يجزون بالحسنة عشرا فصاعدا، ويجزون ما لم يعملوا من الخير وقد نووه بصدق.

وفي ردِّ الخطاب في «تُجْزَوْنَ» إلى الناس كلِّهم فيكون الاستثناء متَّصلا تفكيكُ الضمائر وعدمُ صحَّة المعنى، لأنَّه لم يقل: إلاَّ ما كنتم تعملون من السوء، بل اللفظ عامٌّ، فما هذا الاستثناء المتَّصل؟.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ العباد المخلصون، وإشارة البعد مع قرب ذكرهم لعلوِّ منزلتهم **﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾** بأنَّه غير مقطوع ولا ممنوع، ولا مكدَّر بحزن لعدم الحزن، وأنَّه لا فضلة له كالدنيا، لأنَّه لا وسخ في الجنَّة، ولا نتن فيها، وأنَّه بلا كسب

ولا كدٌّ ولا سؤال، وأنَّه لذيذ الطعم والمنظر والرائحة، وأنَّه بغير حساب ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة غافر: ٤٠) ، وأنَّه بكرة وعشيًّا، أو يراد بالبكرة والعشيِّ عموم الأوقات كلَّما أرادوا.

﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل كلٍّ، أو عطف بيان على جوازه في النكرات، أو خبر لمحذوف أي هو فواكه، والمراد بالفاكهة هنا ما يلتذَّذ به، ولا خلل في أبدانهم يختار له طعام دون آخر، فشملت اللحم واللبن وخمر الجنَّة، وكلُّ ما يؤكل أو يشرب فيها، أو المراد الظاهر، وغير الفاكهة يعلم بالمقام، وبالتزام أنَّ الفاكهة من طعام المترفين بعد طعامهم.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله إكراما كلِّيا لا يلحقهم هوان، وذلك أفضل شيء، أو مكرمون بالنعيم الروحانيِّ، كما أكرموا بالنعيم الجسمانيِّ. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلِّق بـ«مُكْرَمُونَ» لقربه لا بـ«مَعْلُومٌ» إذ لا فائدة لكونه يعلم في الجنَّة، بل لكونه يعلم الآن فيستعدُّ له. والإضافة بمعنى لام الاختصاص المفيدة للحصر فيما قيل، حتَّى كأنَّه قيل: في جنَّات ما فيها إلاَّ النعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ وهذا حال من المستتر في «مُكْرَمُونَ» وهذا التقابل لزيادة الأنس وللتحدُّث، وجاء في حديث أنَّه ترفَعُ عنهم الستور أحيانا فينظر بعض إلى بعض.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ هذا كلام مستأنف أو خبر ثان لقوله: ﴿هُمْ﴾. والطائفون أطفال المشركين، وأهل النار إذا ماتوا غير مكلَّفين جاء: أنَّه ﷺ سأل الله أن يعطيه أطفال المشركين خدما لأهل الجنَّة ففعل[1]. ﴿بِكَأْسٍ﴾ بخمر تسمية للحال

١- يشير الشيخ إلى حديث: «سألت ربِّي في اللاهين فأعطانيهم خدما لأهل الجنَّة» وقد تقدَّم تخريجه ج٨، ص١٤٤.

باسم المحلّ، قال الضحَّاك والأخفش كما هو رواية عن ابن عبَّاس: كلُّ كأس في القرآن خمر، ويدلُّ على إدارة الخمر ما بعد ذلك إلى قوله: ﴿يُترَفُونَ﴾.

ولا يجوز تفسير الكأس بالإناء وخمره معا لأنَّه لا لذَّة من الإناء، ولا هو بعض «مَعين»، ولا هو أحقُّ بنفي القول والترف، ولا بالوصف بالبياض، إلاّ توسُّعا في ذلك كلّه، **والأصل عدمه**، وأمَّا في اللغة فالجمهور على أنّ الإناء لا يسمَّى كأسا إلاّ وفيه خمر، قال بعض المحقّقين: أو نبيذا مَّا، وكان من زجاج، فإن لم تكن فيه خمر أو نحوه فهو قدح، وقيل: القدح ما لا يشرب منه لكبره.

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ نعت، أي كائنة من شراب معين، أو نهر معين، أي معيون، أي تراه العيون لجريانه على وجه الأرض لكثرته.

(صرف) والميم زائد ميم مفعول ثقلت الضمَّة على الياء فنقلت إلى العين، فالتقى ساكنان الياء والواو فحذف الواو، وقلبت الضمَّة كسرة، وأجيز أنّ الميم أصل، وأنَّه يقال: معن يمعن فهو معين أي ظاهر، ويحتاج إلى نقل صحيح عن العرب.

وخمر الجنَّة بمعنى الظاهر المعتاد، إلاّ أنّها أشدُّ لذّة وحلاوة. وقيل: ماء خلقه الله فيها على لذّة الخمر، وقيل: **لا اشتراك بين نعيم الجنَّة والدنيا إلاّ بالأسماء.**

﴿بَيْضَآءَ﴾ نعت ثان، أشدَّ بياضا من اللبن **﴿لَذَّةٍ﴾** نعت ثالث، مبالغة كأنّها نفس اللذّة، وصف بالمصدر أو بمعنى ملذوذ بها، أو وصف كطبٌ بمعنى طبيب حاذق، أي لذيذة جدًّا **﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾** أي لهم، ولكن أظهر تلويحا إلى معنى يستلذُّها كلُّ من ذاقها.

(نحو) **﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾** الجملة نعت رابع، سواء قلنا: «فيهَا» خبر و«غَوْلٌ» مبتدأ، أو «غَوْلٌ» فاعل لـــ«فِيهَا» لنيابته عن ثبت، أو فاعل لثابت

محذوفا مبتدأ رافعا لمكتفى به عن الخبر، أو اسما لـــ«لاَ» كذلك عملت كليس.

والغول: إهلاك الشيء من حيث لا يحسُّ، ومنه الغول بمعنى السعلاة، يعني لا تملك العقل كما تملكه خمر الدنيا، ولو أكثروا منها ولا تنقص العقل ولا صداع فيها، فالأولى أنَّه استعمل الإهلاك في مطلق الضرر من وجع ونتن. وتقديم «فِيهَا» للحصر، أي انتفى منها خَاصَّةً الغول لا من خمر الدنيا.

﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يستمرُّ انتفاء نزفهم أي نزف عقولهم، أي إذهابها شيئا فشيئا عنها، أي نزفا متولِّدا عنها، أو بسببها أو لأجلها، فـــ«عَنْ» للتعليل أو السَّـــبَبِـــيَّة أو للمجاوزة. والنزف: إخراج ماء البئر شيئا فشيئا حتَّى يفرغ.

والنازف الله ﷻ ، ولا يمنع كون «هَا» من «عَنْهَا» عائدة إلى الخمر من كون النازف في العبارة الخمر، بمعنى المذهبة لما علمت من أنَّه لا مانع من عمل عامل واحد في ضميرين لمسمًّى واحد إذا كان أحدهما بحرف جرٍّ نحو: ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ﴾ (سورة القصص: ٣٢) ، مع أنَّه لا ضمير في «يُنزَفُونَ» لها بارز ولا مستتر، فلا تهم كما وهموا.

ويجوز أن يكون المعنى: لا يجعلهم يغيبون عنها فتنزف من بطونهم كخمر الدنيا. وعن ابن عبَّاس: في الخمر أربع: السكر والصداع والقيء والبول، فنزّه الله عنهنَّ خمر الجنَّة.

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ﴾ أزواج حابسات ﴿الطَّرْفِ﴾ العين، والمراد الجنس أو الطرف النظر، لا يكثرن النظر إلى الأشياء، وذلك وصف محمود، يقال: امرأة مريضة وذابلة، أو لا ينظرن إلى غير أزواجهنَّ لشدَّة حبِّهنَّ لهم، وكأنَّه لم يخلق سواهم، أو الطرف طرف أزواجهنَّ: يمنعن لكمال جمالهنَّ وتحبُّبهنَّ أزواجهنَّ أن ينظروا إلى غيرهنَّ لو أمكن أن ينظروا إلى غيرهنَّ.

﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، وأصله عُونٌ بضمٍّ وإسكان كحمراء وحمر وسوداء وسود، قلبت الضمَّة كسرة والواو ياء. والعيناء واسعة العين مع حصول محاسن العين، وفي ذكر هذا الوصف مناسبة لطيفة لقوله: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ الواحدة بيضة كبيضة الدجاج، وبيضة النعام **﴿مَّكْنُونٌ﴾** مستور عمَّا يوسِّخه أو يغيِّره. واختار بعض أنَّ المراد: بيض النعام لأنَّه أبعد من مسِّ الأيدي، ولأنَّ فيه صفرة، والبياض المحمود ما معه صفرة أو حمرة لا الخالص، وليس ذلك بلازم، لأنَّ الإنسان يأخذ بيض الدجاج أو غيرها فيزيل وسخه، فيجعله مستورا في موضع إلى وقت الحاجة، والله قادر أن يجعل كمال الحبِّ في البياض الخالص.

وعن السدِّي: «البيض المكنون» ما تحت القشرة، ووجه الشبه كمال الطراوة والنعومة، والعرب تشبه النساء بالبيض، وتسمِّيهنَّ: بيضات الخدور، وقيل: ذلك بعد الطبخ، قيل: وما تحت القشر أنسب بقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾ والقشر شيء غير مكنون، قلنا: ذلك خلاف الظاهر **والصواب ما مرَّ أوَّلا**، والقشر يصان عن الوسخ، فهو مكنون.

ويمكن تشبيههنَّ بالبيض في تناسب اللون مع المحافظة عمَّا يغيِّرهنَّ، وقد شبِّهنَ بالياقوت والمرجان [في سورة الرحمن آية ٥٨]، فقيل: بالياقوت من حيث الصفاء، وبالمرجان من حيث الإملاس وجمال المنظر، أو المرجان: الدرُّ الصغار البيض المشوب بصفرة، فلا إشكال كما قلنا: إنَّ في بيضة النعام صفرة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كما هو عادة المجتمعين على شراب وما يتلذَّذ به أكلا أو شربا في ترف وفرح. والعطف على «يُطَافُ». والماضي للتحقُّق وللمعالجة إلى ما هو من أعظم اللذَّات، وهو الإقبال على الحديث في أنس وفراغ عن مكدِّر.

﴿قَالَ قَـآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في جملة أحاديثهم ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ صاحب كافر ﴿يَقُولُ﴾ موبِّخا لي على تصدُّقي بمالي رجاء لثواب الآخرة بعد البعث لكفره بالبعث ﴿أَ.نَّكَ لَمِنَ اَلْمُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف الصاد، أي الذين صدَّقوا بالبعث و لم يكذِّبوا به؟ وأمَّا بشدِّ الصاد والدال كما هو قراءة، فعلى أنَّ الأصل المتصدِّقين بالتاء أبدلت صادا وأدغمت، أي أإنَّك لمَّن يتصدَّق بماله رجاء لثواب بعد البعث ولا بعث؟.

﴿أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ا۪نَّا﴾ تأكيد للأوَّل ﴿لَمَدِينُونَ﴾ مجزيُّون بأعمالنا بعد إحيائنا، أو مسوسون مربوبون، منْ دانه إذا ساسه، كما قال ﷺ : «**العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**»[1].

(قصص) كان رجلان من بني إسرائيل شريكين، وقيل: أخوان أيضا، بينهما ثمانية آلاف درهم، اقتسماها فاشترى الكافر دارا بألف، وتزوَّج امرأة بألف، وجهَّز بألف، واشترى خادما ومتاعا بألف، وأنفق المسلم ألفا يشتري بها أرضا في الجنَّة، وألفا لدار في الجنَّة، وألفا يملك بها حورا فيها، وألفا لخدم الجنَّة ومتاعها، كلٌّ من ذلك عقب فعل الكافر بمثله، ويقول: «يارب هو فعل للدنيا، وأنا فعلت لوجهك»، فافتقر وعرض له في طريقه يسأله شيئا، وهو في حشمه، فقال: أنت فلان الذي آمنت بالبعث وتصدَّقت بمالك؟ والله لا أعطيك شيئا.

﴿قَالَ﴾ المؤمن المصدِّق بماله لأصحابه المجتمعين معه في الجنَّة ﴿هَلَ اَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ على أهل النار لأريكم ذلك القرين القائل: «أَ.نَّكَ لَمِنَ اَلْمُصَدِّقِينَ». والاستفهام للتخيير والعرض والطلب.

١-رواه **الترمذي** في كتاب القيامة والرقائق، رقم ٦٣٨. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ١٤٢٣، من حديث شدَّاد بن أوس. بلفظ «الكيِّس...».

﴿فَاطَّلَعَ﴾ وتبعوه، لأنَّ من في الجنَّة إذا طلب شيئا كان، وكلٌّ من «مطَّلع» و«اطَّلع» من الافتعال، من مَادَّة: ط ل ع. ﴿فَرَءَاهُ﴾ رأى القرين ﴿فِي سَوَآءِ﴾ وسط، وسمِّي الوسط سواء لاستواء الأطراف إليه، ولكن يطلق على ما لم تستو هي إليه أيضا ﴿الْجَحِيمِ﴾ مع بعد ما بين مساكنهم في الجنَّة ومساكن أهل النار، والله قادر على ذلك، فلا حاجة إلى أن يقال: يخبره الملائكة، وأيُّ فائدة مع هذا في قوله: ﴿فَاطَّلَعَ﴾.

﴿قَالَ﴾ المطَّلع الرائي لقرينه: ﴿تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِي﴾ «إِنْ» مخفَّفة، واللام دليلها، و«تُرْدِينِي» تهلكني، والقسم للتعجُّب من سلامته مع كثرة إغرائه له بالكفر، وتزيينه مع أنَّه قرينه.

[قلت:] وفي الآية تحذير من مصاحبة من يدعو إلى المعصية بقوله أو فعله أو حاله. ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي﴾ موجودة لي ﴿لَكُنتُ مِنَ اَلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب كما أحضرتَ أيُّها القرين.

﴿أَفَمَا نَحْنُ﴾ إذا لم نجعل همزة الاستفهام ممَّا بعد العاطف قدَّرنا: أنحن مخلَّدون في الجنَّة فما نحن ﴿بِمَيِّتِينَ﴾ لا مخلَّدون مثلك أيُّها القرين في النار؟ وذلك كلُّه خطاب منه رضي الله عنه لقرينه إلى: ﴿...الْعَامِلُونَ﴾، أو ﴿...الزَّقُّومِ﴾، يفتخر عليه ويهزأ به ويوبِّخه، وذلك بخلاف الكفَّار، فإنَّهم يتمنَّون الموت في النار كلَّ ساعة. قيل لحكيم: ما شرٌّ من الموت؟ قال: الشرُّ الذي يتمنَّى فيه الموت.

﴿إِلاَّ مَوْتَتَنَا اَلاُولَىٰ﴾ التي متنها في الدنيا، ولا يرد على الحصر موت الإنسان عقب إحيائه للسؤال وعلى رجوع الأرواح، لا يرد موهم في أربعين عَمَّا قبل البعث لسهولته.

والواضح أنَّ الكافر يعذَّب في قبره والمؤمن يتنعَّم، وما في الأربعين وما يتصوَّر قبلها لبعض ليس موتا بل إنامة، وعلمهم بأنَّهم لا يموتون ناشئ من سماعهم من الأنبياء والعلماء والكتب أنَّهم لا يموتون، وقول الملائكة: ﴿ادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (سورة الزمر: ٧٣) ، وقولهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسلاَمٍ ــ امِنِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٦) ، أي بسلامة وأمن من الآفات والموت والخروج.

(نقد القصّة) ولا مانع عقلا أو شرعا أن يمثِّل لهم الموت بكبش أملح يعرفه أهل الجنَّة وأهل النار أنَّه الموت بعد استقرارهم فيهما يطَّلعون عليه فيذبح، ويقال: يا أهل الجنَّة ويا أهل النار خلود لا موت، فيتذكَّر من نسي أنَّه لا موت بل ذهل ويزداد أهل الجنَّة فرحا وأهل النار حزنا، ولا يتصوَّر لأهل الجنَّة أن ينسوا أنَّه لا موت فيصيبهم همٌّ خوف الموت، لأنَّ أهل الجنَّة لا همَّ لهم، وأمَّا أن يردَّ الله ﷻ الموت الذي هو معنى جسما فيكون كبشا فلا يجوز عندنا، ولا يصحُّ حديث به على ظاهره، بل على التمثيل.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما تعذَّب أنت أيـُّـهَا القرين وأصحابك من أهل النار، ومن أشدِّ العذاب زوال النعمة، فرزقنا المعلوم لا يزول ولا ينقص، وقوَّتنا وشبابنا لا يعقبهما نقص ولا ضعف ولا هرم.

وإنَّما قيل ذلك بدل أن يقال: نعيمنا دائم، لأنَّ دفع الضرِّ أهمُّ من جلب النفع، والتخلية قبل التحلية، ولأنَّ نفي العذاب أسرع خطورا ببال من ليس في عذاب عند مشاهدة من يعذَّب كالقرين. وقيل: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ...﴾ من كلام أهل الجنَّة المتقابلين.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ما ذكر من نفي الموت والتعذيب نفيا مستمرًّا الذي ليس كحالك أيـُّـهَا القرين الدائم الحياة في العذاب، وأمَّا تنعُّمه في الجنَّة فقد شاهده القرين فيه من النار، فلم يصرِّح له به.

أو الإشارة إلى هذا التنعُّم الذي علم بدوامه القرين وإلى نفي التعذيب والموت، وقيل: هذا من كلام الله تعالى تصديقًا لهذا القائل، وقيل: من كلام المتقابلين.

﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ إن كانت الإشارة إلى ما تشخَّص للقائل أو لجماعته فـ«مثل» غير زائد، وإن كانت لنعيم أهل الجنَّة عمومًا فزيدت للاحتجاج والبرهان، كقولك: مثلك لا يبخل، وهو متعلّق بقوله: **﴿فَلْيَعْمَلِ﴾**. والتقديم للحصر، والفاء صلة لتأكيد الربط، أي **لمثل هذا الأمر الجليل الدائم الكامل لا** الأمور الدُّنيويَّة المتكدِّرة بالآفات السريعة الزوال **فليعمل العاملون.**

﴿الْعَامِلُونَ﴾ أي من شأنه الواجب أن يعمل له، لكن من مات فاته العمل له، فكيف من في دار الجزاء، وهذا كلام من الله تعالى، وإن كان منهم فتَحَسُّر.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾

أنواع من عذاب أهل جهنَّم

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ لأهل الجنَّة **﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾** لأهل النار من كلام القائل أو المتقابلين، أو من كلام الله تعالى، وهو أولى عندهم، لقوله تعالى: **﴿إِنَّا**

جَعَلْنَاهَا فِتْـنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ نعم هو مقابل لقول: **﴿أُوْلَئِكَ لَهُم رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾**، والأكثرون أنّه من كلامه تعالى.

والإشارة لما أعْطِيَ أَهْلُ الجَنَّـةِ. و«نُزُلاً» تمييز، وهو ما يقدَّم للضيف على عجل، وذلك أنّ خير الجنَّة لا يزال يزداد كثرة وجودة، حتَّى إنّ ما هم فيه في الحال كنزل بالنسبة لما بعد، وهو استعارة أَصليَّة تصريحية تحقيقيَّة، وفسَّر بعض النُزُل بالفضل، وقيل: هو بمعنى الحاصل، فيكون حالاً.

وشجرة الزَّقوم: شجرة صفراء الورق، مُرَّة كريهة الرائحة، ذات لبن إذا أصاب جسدًا تورَّم، سمِّيت شجرة في أصل النار باسْمِها على الاستعارة المذكورة، وقيل: شجر مُرٌّ بتهامة، من أخبث الشجر.

وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش: إنّ محمَّدًا يخوِّفنا بالزقُّوم، والزقُّوم بلسان بربر الزَّبد والتَّمر، وليس في كلام العرب الزقُّوم بمعنى التمر والزبد، كما كَذَبَ أبو جهل أو سخر، فقال لعنه الله: «زَقِّمينَا يا جارية» مشيرًا إليهما.

والله قادر أن يخلق في النار شجرةً لا تأكلها النار كما لا تضرُّ الملائكة، وأن يخلق شجرة تنمو بالنار كالشجر بالماء. ومعنى كونها فتنة للظّالمين أنّها سبب للكفر بها، كما كفر بها أبو جهل لعنه الله، وأنّهم يعذّبون بها في النار.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ تدخل أغصانها في دركاتها بالارتفاع إليها **﴿طَلْعُهَا﴾** حملها [ثمارها] **﴿كَأَنَّهُ، رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾** في قبح الصورة وكراهة المنظر.

والعرب تكره الشياطين وتصفها بالخبث من كلّ وجه، ولا يرون فيها خيرًا البتَّة، وإذا كرهوا شيئًا قالوا: وجه شيطان، ورأس شيطان، مع أنّهم لم يروا شيطَانًا، ألا ترى إلى قوله:

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونة رزق كأنياب أغوالِ؟[١]

ولم ير الغول قطُّ، كما أنَّه طبع في الناس اعتقاد حسن المَلَك صورةً وخيره كقولهنَّ: ﴿إِنْ هَذَآ إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة يوسف: ٣١) ، ولم يَرَيْن الملك.

ويبعد ما قيل: المراد الشياطين بعد دخول النار تزداد أجسامهم شوهة، فشبِّه بها، لأنَّ المخاطبين في الدنيا، لَمَّا يعرفوا بحالها بعد الدخول، وإنَّما يحمل عليها لو لم نجد غير ذلك.

وكذا يبعد الحمل على شجرة كريهة المنظر بناحية اليمن، تسمَّى الأسْتَنَ وتسمَّى الصوم، لأنَّه لم تعرف تسميتها برأس الشيطان، ولو ورد اسمها في قوله:

تحيَّد عن اسْتن سودٍ أسافله مثل الإماء الغوادي تحمل الحزما[٢]

وقوله:

موكَّل بشـــذوف الصـــوم يرقبه من المغارب مهضوم الحشا زرم[٣]

يصف وعلا يظنُّ هذه الشجرة قنَّاصًا وهو يحاذره. ويبعده تفسيرها عند بعض بحيَّة ذات عَرْف، إذْ لم تسمَّ باسم شيطان ولو ورد كقوله:

عُجَيِّزٌ تحلف حين أحلف كمثل شيطان القماط أعرف

وقوله:

وفي البقل إن لم يدفع الله شـــرَّه شياطين يَعْدُو بعضهنَّ على بعض[٤]

١- البيت لامرئ القيس وهو من الشواهد.

٢- البيت للنابغة في ديوانه، ص٦٥.

٣- البيت لساعدة الهذلي كما في شرح أشعار الهذليين.

٤- لتحقيق معنى كلمة شيطان وإطلاقها على الحيات راجع لسان العرب مادة «شطن».

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ عطف على ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا...﴾ والفاء لمجرَّد التفريع لا للترتيب الاتِّصالي، وضمير الجرِّ للشجرة، و«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض.

فإن قيل: الأكل من طلعها فقد أكَل بعضها، لأنَّه بعضُها، كما لو أكلوا منها غيره، فصحَّ الابتداء والتبعيض بلا تقدير مضاف هكذا: لآكلون من طلعها، وبدون ردِّ الضمير للطلع بتأويل الشجرة، أو بإضافته للمؤنَّث في قوله: ﴿طَلْعُهَا﴾. وليس الآية ولا غيرها نصًّا في أنَّ الأكل من طلعها خاصَّةً، لا من سائرها، ولا مجاز ولا بعد في ردِّه إلى الشجرة.

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا اَلْبُطُونَ﴾ البطون لهم أو بطونهم، أو البطون هكذا فتكون «ال» للعهد الذهني، والعطف على «آكِلُونَ» بترتيب واتِّصال. يلقي الله ﷻ عليهم الجوع فيأكلون منها على كراهة، حتَّى يملؤوا البطون، أو يقهرون على الأكل حتَّى يملؤوها.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على الشجرة التي ملؤوا بطونَهم منها ﴿لَشَوْبًا﴾ شرابًا مشوبًا أي مخلوطًا، أو تسمية بالمصدر، أو تأويل بالوصف، أو تقدير ذي شوب ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مائع شديد الحرارة، هو المسمَّى في الآية الأخرى بالغساق [سورة النبأ: ٢٥] ، وهو ما يقطر من جروح أهل النَّار وجلودهم، وقيل: الشوب ما يسيل من صديدهم.

وقيل: الغسَاق عين في النار تسيل إليها سموم العقارب والحيَّات، أو دموع أهل النار، ولا مانع من أن يكون هذا الشوب منها يشربون مِمَّا ذُكِر لشدَّة عطشهم فتقطِّع أمعاءهم.

(بلاغة) و«ثُمَّ» للترتيب الرتبي، فإنَّ هذا الشرب أعجب في الكراهة من ملء البطون منها، أو للترتيب المتراخي، بأن يؤخِّر شربهم ليزداد عذابهم بالعطش،

وضررهم بالشرب، ولا ينافي الاتِّصال في قوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ (سورة الواقعة: ٥٤) ، لأنَّ ما هنا من الشوب وما في الآية من الحميم، أو لأنَّه تارة يَتَّصل وتارة يتأخَّر، أو التراخي باعتبار بدء الأكل، والاتِّصال باعتبار آخره.

﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني ﴿إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ رُجُوعَهُم من محلِّ الأكل ومَحلِّ الشُّرب من الحميم ﴿لَإِلَى اَلْجَحِيمِ﴾ إلى موضعهم الأوَّل منها، ولا دليل على أنَّهم يرجعون إلى موضع آخر منها، كما قيل، وأبعد منه ما قيل: إنَّهم يأكلون ويشربون ذلك قبل دخول النار، ولا دليل عليه.

وأولى منهما أن يقال: المراد بالجحيم النار لا خصوص أماكنهم بمعنى أنَّهم يعذَّبون بالأكل والشرب، ثمَّ يعذَّبون بالنار في مواضعهم الأولى، كما يتبارد، أو حيث شاء الله تعالى، **والحاصل أنَّهم يرجعون إلى العذاب بالنار بعد العذاب بالزَّقُّوم والشَّوْبِ.**

(بلاغة) وهذا الشرب لهم في مقابلة الكأس من معين لأهل الجنَّة، كالزقوم لهم في مقابلة الفواكه لأهل الجنَّة. ولو أنَّ قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأفسدت معايش أهلها كما روي عن ابن عبَّاس. أدخلنا الله الجنَّة معهم بشفاعته ﷺ .

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليل جمليٌّ لاستحقاقهم العذاب بتقليد آبائهم الضالِّين، وإهراع الشياطين، أو أنفسهم أو بعضٌ بعضًا، كما عطف بقوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ﴾ آثار آبائهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُسرعون إسراعًا شديدًا أو مع شِبْهِ رَعْدَةٍ.

﴿وَلَقَدْ﴾ والله لقد ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء الكفرة من قريش المعاصرين للنبيء ﷺ ﴿أَكْثَرُ الاَوَّلِينَ﴾ من قريش وغيرهم، ولا نقول شجرة الزقُّوم مختصَّة بهؤلاء المعاصرين كما قيل، بل هي عامَّة لأهل النار.

﴿وَلَقَدۡ﴾ والله لقد، وكرَّر القسم للتأكيد ﴿اَرۡسَلۡنَا فِيهِم﴾ في الأوَّلين، أو في أكثر الأوَّلين، والمرسلون في الأوَّلين مرسلون في أكثرهم، والمرسلون في أكثرهم مرسلون فيهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ أنبياء يذكرون لهم عاقبة من كَفَرَ بهم.

﴿فَانظُرۡ﴾ يا محمَّد ﷺ، أو يا مطلق من يصلح للنظر ﴿كَيۡفَ كَانَ عَاقِبَةُ الۡمُنذَرِينَ﴾ عاقبة سوء وخيمة، فَعِظْ بها قوْمَكَ وغيرهم، كما هو عادَتُكَ، والمراد عاقبة أهل النار المذكورة في السورة، أو عاقبة الأمم السابقة المذكورة في الآيات، أو المشاهدة في الأسفار والأخبار.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اَللهِ الۡمُخۡلَصِينَ﴾ الذين اختارهم لعبادته، والاستثناء منقطع، ومرَّ وَجْهُ الاتِّصَال، وذكر بعض تفاصيل الأوَّلين بذكر نجاة من آمن كأهل السفينة، وقوم يونس، وهلاك من كفر في قوله:

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٨٢﴾

قصَّة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدۡ﴾ والله لقد ﴿نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ قدَّمه لتقدُّمه زمانًا وتخويفًا بإهلاك من كفر به، ونداؤُه لله تعالى يتضمَّن الدعاء على المكذِّبين بالإهلاك حين أيس من إيمانهم، وكان لا يزيدهم دعاؤهُ إلاَّ فرارًا، وللمؤمنين بالنصر والنجاة والفوز كما قال: ﴿فَلَنِعۡمَ اَلۡمُجِيبُونَ﴾ نحن، واللام في المعطوف على جواب القسم، فكأنَّه جواب له، فقرن بلامه، أو لام ابتداء لجمود الفعل بعدها، كأنَّه اسم. وقدَّر بعض: فأجبناه فلنعم المجيبون.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى في بيتي فَمَرَّ بهذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَادَٰينا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال: «**صَدَقتَ ربَّنا أنت أقرب من دُعِيَ، وأقرب من نُوجِيَ، فنعم المدعوُّ ونعمَ المُعْطِي، ونعم المسؤول، ونعم المولى، أنت ربُّنا، ونعم النصير**» رواه ابن مردويه.

﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ**﴾ أي من آمن به ﴿**مِنَ ٱلْكَرْبِ**﴾ الغمِّ ﴿**ٱلْعَظِيمِ**﴾ وهو الغرقُ، وأذى قومه له بالألسنة والضرب ﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ**﴾ ضمير فَصْلٍ لاَ مَحلَّ لهُ، أو توكيد للظاهر ﴿**ٱلْبَاقِينَ**﴾ لا باقي ممَّن بَعْدُ سِواهم، و لم يلد من معه في السفينة إلاّ أولادُهُ الثلاثة سام وحام ويافت وأزواجهم.

[قيل:] ووجد قومًا لم يغرقوا فقال: من أنتم أجنٌّ أم إنسٌ؟ قالوا: «إنسٌ، قلت في دعائك: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (سورة نوح: ٢٦) ، و لَسْنَا كُفَّارًا».

وإن ولد غيرهم انقطع نسله قريبًا مِمَّن معه في السفينة أو في الأرض. وقيل: تنسَّل غيرهم واتَّصل، وإنَّ الحصر في الآية إضافيٌّ، أي لا ذرِّيَّة غيره من المغرقين، وقد قيل: إنَّ لولده الكافر كنعان ولدًا معه في السفينة، فهو مندرج في الذرِّيَّة.

ومن في الدنيا كُلُّها من ذرِّيَّة نوح على ما شهر، وعليه الأكثر، وقيل: فيهم من لا يرجع إليه، وإنَّ الدنيا لم يعمَّها الغرق كلَّها[1]، وإنَّ في أقطار الأرض من لم تصلهم دعوته، وأهل صين يزعمون أنَّه لم يصلهم الغرق.

وقيل: وهؤلاء المؤمنون الذين لم ينلهم الغرق صار الماء على أطراف أرضهم مرتفعًا كالسور وناداهم ملك: أن اقتسموا أرضكم لرعي دوابِّكم كذا وكذا يومًا قدْرَ بقاء ماء الغرق، فيحتمل أن يلدوا ولا ينقطع نسلهم.

١- وهذا ما تثبته الأبحاث الجيولوجية على ما يبدو والجغرافية.

قال سمرة بن جندب: قال رسول الله ﷺ : «**سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافت أبو الروم**»[1] رواه الترمذي وقال: حسن، والحاكم وقال: صحيح. وروى البزار بسنده إلى أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**وُلدَ لنوح ثلاثة: سام وحام ويافت، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافت ياجوج وماجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد حام القبط والسودان ولا أعرف فيهم حال الخير**»[2].

﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ**﴾ أي أبقينا عليه ذكرًا حسنًا ﴿**فِي الآخِرِينَ**﴾ الباقين بعده إلى يوم القيامة. ولفظ «عَلَى» بمعنى السِّمَة والعلامة عليه في الخير. ومفعول «تَرَكْنَا» محذوف كما رأيت. وقوله: ﴿**سَلاَمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ**﴾ مستأنف من الله تعالى تعليمًا للناس كيف يقولون، وقدَّر بعض القول: أي قيل سلام، أو قلنا سلام.

(**نحو**) وقيل: مفعول «تَرَكْنَا» هو قوله: ﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ نُوحٍ...﴾ مراد به اللفظ، أي تركنا عليه هذه الألفاظ التي هي: «سَلاَمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ». ولا بدَّ من مُسَوِّغ للابتداء بالنكرة يسبق إرادة اللفظ إن أريد اللفظ، فإذا كان منَّا فالدُّعاء، وإن كان من الله فإنشاء الله السلامة. أو نعت محذوف، أي سلام عظيم. و«في» متعلّق بمحذوف حال من المستتر في «عَلَى نُوحٍ» أو في متعلّقه المحذوف، على أنَّ المستتر فيه لم ينتقل إلى «عَلَى نُوحٍ»، أو «في» متعلّق بالمحذوف أو بـــ«عَلَى نُوحٍ» المتعلّق به النائب عنه.

١–رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصافات، رقم ٣٢٣١. **وأحمد** رقم١٩٥٩٤. من حديث سمرة بن جندب.

٢–إن صحَّ ا لحديث ففيه إدراج من الراوي في وصف هؤلاء بما ذكر.

والمراد بالعالمين الجنُّ والإنس والملائكة، وذلك كقولك: سلام على زيد في جميع الأمكنة وجميع الأزمنة. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستُّمائة وأربعون، وبينهما نبيئان: هود وصالح.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل جمليٌّ، ومن مقابلة الإحسان بالإحسان، ونوح من المحسنين إلى قومه بالدعاء إلى توحيد الله، وعبادته، مع الصبر على أذاهم في زمان طويل، أي فعلنا له ذلك لأنَّا نجزي مثل ذلك الإحسان العَلِيِّ المرتبة من أحْسَنَ به.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ﴾ تعليل لكونه من المحسنين، وفي ذلك إشارة إلى خلوص عبادته وكمال إيمانه، وإلى مدح نَفْسِ خُلُوص العبادة وكمال الإيمان من حيثُ هُما، وإلاَّ فالرسول لا ينفكُّ عنهما ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ الكافرين بنوح عليه السلام، و«ثمَّ» للتراخي الذكري.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَاكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ابْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

قصَّة إبراهيم عليه السلام

-١-

تحطيم الأصنام

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾ أتباعه في أصول الدين والتصلُّب في الدين، والمصابرة على عذاب المكذِّبين له ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ولو اختلفا في بعض الفروع، وجُوِّز أن يتَّفقا أيضا في الفروع كلِّها أو جلِّها وللأكثر حكم الكلّ، فيعمُّ كونه من شيعته الفروع والأصول، وقيل: لم يُرسل نوحٌ إلاَّ بالتوحيد ونحوه من العقائد.

وبينهما من الأنبياء هود وصالح، وهما رسولان، وقيل: إنَّ سامًا نبيء أيضًا، وبين نوح وإبراهيم ألف ومائة واثنتان وأربعون سنة، أو ألفان وستُّمائة وأربعون.

[قلت:] ويضعف ما قيل: إنَّ الهاء لسيِّدنا محمَّد ﷺ ، لأنَّ الكلام قبلُ على نوح، ولقلَّة كون المتقدِّم شيعةً للمُتأخِّر كقول الكميت الأصغر(١):

ومالي إلاَّ آلَ أحمد شيعةٌ　　　ومالي إلاَّ مشعبَ الحقِّ مَشْعَبُ

وذكر قِصَّة نوح وهو بعد آدم لأنَّه آدم الأصغر، والناس كلُّهم بعده منه، وذكر إبراهيم بعده لأنَّه كآدم الثالث بالنسبة إلى الأنبياء والرسل بَعْدَه لأنَّهم من ذرِّيته، وكان لوط كولدِه، وهو ابن أخته، وبين نوح وإبراهيم مناسبة في التنجية، إذ نجَّاه الله من الغرقِ ونَجى إبراهيم من الحَرقِ، فَذُكِرَ بَعدَهُ لذلك مع ما مرَّ.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ متعلّق بمحذوف دلَّ عليه «مِن شِيعَتِهِ»، أي شايعه إذ

١-هو الكميت بن معروف بن الكميت بن ثعلبة الأسدي شاعر مخضرم عاش أكثر حياته في الإسلام، ويقال له الكميت الأصغر تمييزا له عن جدِّه الكميت الأكبر الهجاء، والكميت بن زيد الأسدي شاعر الهاشميين ويقال له أيضا: الكميت الأوسط لتوسُّطه في الزمن، له ديوان. تُوُفِّيَ حوالي ٦٠ هـ. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٢٣٣.

جاء ربَّه، أو مفعول به لمحذوف، أي اذكر إذ جاء ربَّه.

(نحو) وأجيز تعليقُه بشيعة لما فيه من الحدث وهو المشايعة، ويبحث بأنَّه يكون المعنى حينئذ: وإنَّ من الذين شايعوه إذ جاء ربَّه، بتعليق «إذ شايَعُوه» الذي فُسِّر به بـ«شيعَته»، أي: وإنَّ من الذين شايعوا نوحًا لإَبراهيمُ إذ جاء إبراهيم، إلاَّ أن يراد أنَّ من اتَّبع إبراهيم أيضا هو من شيعة نوح، وَأَنَّ وقت مجيئه شامل لأوقات من اتَّــبَعَ إبراهيم بَعْدُ علَى التوسُّع.

وليس فيه إخراج لام الابتداء وهي التي في اسم «إنَّ» عن المصدر، لأنَّه لم يعمل ما بعدها فيما قبلها وهو الممنوع، بل عمل ما قبلها فيما بعدها وهو غير ممنوع، نحو: إنَّ زيدًا لقائمٌ، وأيضًا يتوسَّع في الظروف، فلا يضرُّ الفصل بها، وهي أجنبية، وقد قال الله ﷻ: ﴿إنَّ الانسَانَ لِربِّــهِ لَكَنُودٌ...﴾ (سورة العاديات: ٦) .

﴿بِقَلْب سَلِيمٍ﴾ من الشرك وما دونه من آفات القلب، كالحسد والغلّ وحُبِّ الدنيا، وقيل: حزين، مَجَازٌ من السليم بمعنى اللديغ، وكانوا يسمُّونه سليمًا تفاؤلاً له بالسلامة حتَّى صار حقيقة فيه، والمقام أنسب بما مرَّ.

(نحو) والباء بمعنى مع، وقيل: للتعدية أي أجاء ربُّه بقلبٍ سليم، وفيه أنَّ باء التعدية تدخل على المفعول به لا على الفاعل، تقول: ذهبَ الله بالسوء، بمعنى أذهب الله السوء.

(بلاغة) وفي «جَاءَ» استعارة تبعيَّة تصريحيَّة، شبَّه إخلاص قلبه لله ﷻ بالمجيء بتحفة، لجامع الفوز بالرضى وسلامة القلب عن الآفات، ولو كانت لا تكون بدون إخلاص من مثل إبراهيم، لكن تتصوَّر من سائر الناس العَامَّة، فبني الكلام على ذلك.

(بلاغة) أو الكلام استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه الهيئة المنتزعة من إخلاص قلبه

لربِّه، ومن علمه تعالى بإخلاصه، بالهيئة المنتزعة من المجيء بالغائب بمحضر شخص، ومعرفته إيَّاه، وعلمه بأحواله، فمعنى مجيئه ربَّه بقلبه أنَّه أخلص قلبه لله ﷻ، وعلم الله ذلك منه كما يُعلَم الغائب وأحواله بحضوره، **وحاصل معنى مجيئه حلوله في مقام الامتـــثال.**

﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى في أوجهها، أو متعلّق بـــ«سَلِيمٍ» أو بـــ«جَاءَ» **﴿قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾** أيَّ شيء تعبدون؟ **﴿أَيِفْكًا ـــ الِهَةً دُونَ اَللَّهِ تُرِيدُونَ﴾** الاستفهام للإنكار أو التقرير.

(نحو) و«إِفْكًا» مفعول من أجله لـــ«تُرِيدُ». و«آلِهَةً» مفعول لـــ«تُرِيدُ»، وقُدِّما للفاصلة، ولأنَّهما الغرض الأهَمُّ بالإبطال. و«دُونَ» نعت للآلهة. ويجوز أن يكون «إِفْكًا» مفعولاً به لـــ«تُرِيدُ»، و«آلِهَةً» بدل كُلٍّ مبالغة، كأنَّها نفس الكذب، وهو الإفك، أو يقدَّر مضاف، أي: عبادة آلهة.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ اِلْعَالَمِينَ﴾ الأوائل والأواخر، أظننتم أنَّه غير موجود، أو موجود راض بعبادة غيره، أو عاجز عن الانتقام مِمَّن عبد غيره، أو غير أهل لأن يعبد.

وكانوا يعظِّمون الكواكب، ويجعلون أصنامًا لها بحسبها، يعبدونها عبادة يتذرَّعون بها إلى عبادة الكواكب، واستنزال روحانيَّة يثبتونها لها، وجلب خيرها ودفع شرِّها، وينسبون الأمور إليها.

ودنا عيدهم فأرسل ملكهم إلى إبراهيم أن يحضره معهم، ففعل ﵇ ما ذكره الله عنه بقوله: **﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾** ليلاً بعينه، وهم مشاهدون، يوهمهم أنَّه يأخذ من النظر فيها ما يصلح له وما يكون، أو فعل ذلك دون حضورهم، فأخبرهم بعد حضورهم أنَّه قد نظر، وهذا معرضة بفعل، كإخفاء

يوسف الصواع في وعاء شقيقه، وتأخيره في التفتيش.

أو المراد أنَّه نظر في علم النجوم أو كتب النجوم وأحوالها. والنظر في النجوم مع اعتقاد أنَّه لا فاعل إلاَّ الله ولا تأثير لها وما هي إلاَّ أمارات [قيل:] جائز. والمراد بالنجوم الجنس ليصدق بالواحد، كما روى زيد بن أسلم أنَّه نظر في نجم طلع وقال: لم يطلع قطُّ إلاَّ بسقم.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ في الحال سُقْمًا مًّا، فإنَّ أقوى الناس لا يخلو ساعة عن خروج المزاج عن الاعتدال خروجًا مًّا، أو أراد سقم الموت فعبَّر عنه بعبارة الحال لتحقُّق الوقوع، ولو أراد الحقيقة والتصريح لقال: سأسْقمُ، أو أراد مستعدٌّ الآن لسقم الموت بالإيمان والعبادة من الآن، أو متضرِّر القلب لكفركم.

وعن سفيان الثوري وسعيد بن جبير: إنَّه فيه بعض سقم الطاعون، وكانوا شديدي الخوف منه لاعتقادهم العدوى منه، وكان أغلب الأسقام عليهم.

وهذا من معارض الكلام كقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (سورة الأنبياء: ٦٣) ، وقوله لسلطان في شأن سارة: «إِنَّها أُختي»، وكقول رسول الله ﷺ : من ماء، لمن قال له في هجرته: مِمَّن أنت؟ يريد بالماء نطفة أبيه، والسائل ظنَّ قبيلة، وقول الصديق رضي الله عنه فيها: إنَّه هاد يهديني، لمن قال: من هذا معك؟ يريده ﷺ ، لأنَّه يهديه في الدين، والسائل يظنُّه هادي الطرُقِ في الأرض.

وعن قتادة: إنَّ «نظر نظرة في النجوم» كلمة تقولها العرب حقيقة في التفكُّر، قلت: لعلَّ ذلك في عرف العرب، كما قال قتادة، ولا سيما إن أُيِّدَ بنقل عن أهل اللغة، ولا يتعيَّن في كلام إبراهيم عليه السلام ، ولعلَّه فيه على ما مرَّ من الأوجه ثمَّ نقلته العرب إلى ذلك المذكور من التفكُّر.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ بسبب قوله: «إِنِّي سَقِيمٌ»، تولَّوا تولِّـيًا عظيمًا في

إسراع، أكّد التولّي بـــ«مُدْبِرِينَ» وهو حال مؤكّدة لعاملها.

﴿فَرَاغَ﴾ مال عقب إدبارهم عنه، وهو في بيت أصنامهم لشدَّة رغبته في كسرها، وأصل الروغان الميل عن الشيء باحتيال واختداع وإخفاء، واستعمل في مطلق الميل لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو على طريق الاستعارة ﴿إِلَى ءَالِهَتِهِمْ﴾ ليخاطبها.

﴿فَقَالَ﴾ لها ﴿أَلاَ تَاكُلُونَ﴾ من هذا الطعام الذي وضع لكم؟ وكانوا يضعون الطعام لأصنامهم في أعيادهم يتبرَّكون به، وضمير العقلاء للتهكُّم بها لا تبعا لهم، لأنَّه لا يتابعهم في تعظيمها، ولا ينطق بلفظ يخلو فيه عن قصد ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ﴾ بإجابتي بأنَّ الآلهة لا تأكل أو بأنَّا شبعنا.

﴿فَرَاغَ﴾ مال ميل إرادة ضرب كما مال أوَّلا ميل إرادة خطاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إليهم، ولكن لفظ «عَلَى» للاستعلاء عليها ﴿ضَرْبًا﴾ مفعول مطلق لحال محذوفة أي ضاربًا لها ضربًا، أو لفعل مضمر هو مع معموليه جملة حالية، أي يضربهم ضربًا. وضمير «عَلَيْهِمْ» تهكُّم من الله ﷻ عليهم. ولا ينصب [ضربا] على التعليل، لأنَّ زمان الروغ والضرب غير متَّحد إلاَّ إن لم نشترط الاتِّحاد، أو لشدَّة تقاربهما عُدًّا واحدًا، وأراد بالروغ رفع اليد في الضرب وإمالَتها.

﴿بِالْيَمِينِ﴾ اليد اليمنى لأنَّها أقوى فهي أَشَدُّ ضربًا، أو اليمين القوَّة حتَّى قيل: إنَّ اليمين حقيقة في القُوَّة مجاز في اليد، وليس كذلك، أو اليمين الحلف، فالباء للسبب بسبب حلفه كما قال تعالى: ﴿تَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ (سورة الأنبياء: ٥٧) ، وما تقدَّم أولى. والباء للآلة.

﴿فَأَقْبَلُواْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ الفاء للترتيب بلا اتِّصَال، أو يقدَّر: مضت مدَّة فأقبلوا، وذلك أنَّهم رجعوا من عيدهم بعد فراغهم منه، فعلموا أنَّها مكسورة، وسألوا عن الكاسر، فقيل: إبراهيم، فأُحْضِرَ. ومعنى «يَزِفُّونَ» يسرعون.

﴿قَالَ﴾ بعد عتابهم له، وتوبيخه لهم، والإنكار عليهم **﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنحِتُونَ﴾** ما تنحتونه بالحديد من خشب أو حجر، والناحت أفضل من المنحوت، وهو ما كنتم من قبل تستحقرونه، وما زاد فيه شيء إلاَّ نَحتُكُم، حتَّى زعم بعض أنَّ «مَا» مَصدَرِيَّة، كأنَّه قيل: ماتعبدون إلاَّ نحتكم.

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الجملة حال من واو «تَعْبُدُونَ». و«مَا» اسم واقع على الأشكال والصور التي ينحتونها في الخشب والحجر، أو مَصدَرِيَّة، أي خلقكم وخلق عملكم الذي هو النحت، وما تولَّد منه من الأشكال، فالكلُّ مخلوق ولستم بخالقين لشيء، ولا تلك الأشياء المخلوقة خالقة لشيء، فكيف يعبد ما ليس بخالق؟ وكيف يعبد المخلوق المخلوق؟.

(أصول الدين) وأفعال المخلوق خلقها الله طاعةً، ككسر إبراهيم الأصنام، أو معصيةً كنحتهم، أو غير طاعة ولا معصية. ولا موجود إلاَّ خالق ومخلوق، والخالق الله تعالى والمخلوق ما سواه، وصفاته تعالى قديمة هي هو، وأفعاله مخلوقة له هو خلقها، وخَلَقَ قَصْدَ كُلِّ قاصد، وإرادةَ كلِّ مريد. ويجوز تفسير ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ **بكلِّ ما يعملون من النحت وغيره من المباحات وغيرها.**

ومن العبث جعل «مَا» مَصدَرِيَّة، وتأويل المصدر بمفعول، مع أنَّ جعل «مَا» اسمًا بمعنى مفعول كاف، ولا مانع منه معنويٌّ ولا صناعيٌّ، ويضعف جعل «مَا» استفهاميَّة إنكاريَّة، بمعنى: أيَّ شيء تعملون في عبادتكم أصنامًا تنحتونها؟ وجعلها نافية أي: وما تعملون شيئًا لم يخلقه الله، لعدم الدليل عليهما، وعدم الداعي إليهما.

﴿قَالُواْ﴾ أي قومه الناحتون للأصنام العابدون لها، كان نحتها بصنعهم أو بصنع غيرهم ﴿ابْنُواْ لَهُ، بُنيَانًا﴾ حائطًا، قيل: مستدير توقدون فيه نارًا، طوله ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون، وقيل: البناء استعارة أَصليَّة لنسج المنجنيق، اشتقَّ منه على طريق التبعيَّة التصريحيَّة التحقيقيَّة ابْنِ، والصحيح الأوَّل، والمنجنيق محتاج إليه من خارج.

﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي في النار الشديدة الاتقاد و«ال» بدل من الإضافة، أي في جحيمه، أي جحيم البنيان، أو للعهد الذي في أذهانهم. و«أَلْقُوهُ» أمرٌ.

﴿فَأَرَادُواْ﴾ الفاء للترتيب الذكري لا الخارجي، لأنَّ إرادة الكيد متقدِّمة على القول وما بعده ﴿به كَيْدًا﴾ سوءًا باحتيال، غلبهم بالحجَّة وخافوا الافتضاح أو أن يتَّبعه الناس، فأرادوا قَتْلَهُ بأَشَدِّ قتلة. والباء للإلصاق.

﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الاَسْفَلِينَ﴾ بالإذلال وإبطال سعيهم، وبإعلائه عليه السلام بالبرهان، إذ أحياه في النار وجعلها باردة سالمة من شدَّة البرد، يتصرَّف فيها، ويأكل من ثمار حطبها ثمارًا طارئة أحدثها الله فيها، كرطب حطب النخل، وعنب حطب شجر العنب، وهكذا، وقيل له: عن أنعم عيشه، فقال: عيشتي في النار، وذلك أنسب من تفسير ﴿الاَسْفَلِينَ﴾ بالهالكين، أو بالمعذَّبين بنار الآخرة في الدرك الأسفل.

﴿وَقَالَ﴾ في بعض أوقاته ولو بعد علمه بما أمروا به من البنيان والنار على أنَّه علم أنَّه يبقيه الله تعالى حيًّا، أو طمع أو ذهل غافلاً، ولو زمانًا قليلاً يعبد الله فيه، قبل قتله الذي يظنُّه، والإيَّاس من المخلوق جائز لا من الله عز وجل .

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ اِلَىٰ رَبِّــي﴾ مهاجر إليه مفارق لكم مقدارا أراده الله تعالى ، أو الذهاب بالقلب إلى الله تعالى في أيِّ مكان يكون، وقيل: المراد الشام، وقيل:

مصر. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه بقاء ديني وصلاحه، وزيادته من إرشاد ومكان صالح. والسين لتأكيد الوقوع في المستقبل، وجزمه لتقدُّم الوعد له بالهدى، أو على عادته مع الله تعالى وَقُوَّة رغبته وطمعه، وليس المراد بالذهاب الموت بنارهم، وبالهداية الهداية إلى الجنَّة، كما زعم بعض، لقوله:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ اَلصَّالِحِينَ﴾ فإنَّ من يموت قريبًا قبل خمود النار الموقدة، وهو بلا زوج وفي غير سنِّ الولادة لا يطلب له ولدًا، وشهر أنَّه في وقت قوله ذلك بالغٌ أوَانَ ذلك ومستعدٌّ له.

ولم يجزم موسى ﷺ بل قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيَ أَن يَّهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة القصص: ٢٢) ، لتفاوت مقامات الأنبياء، وإبراهيم أعلى منه عليهما السلام، ولأنَّه بصدد أمْرٍ دُنْيويٍّ وهو النجاة من فرعون، قيل: ولأنَّه قاله قبل البعثة، وفيه أنَّ إبراهيم كذلك على المشهور، ولعدم وعد الله له قبل وعدم تقدُّم اعتياده، وعبارة بعض أنَّ ابراهيم قال ذلك بعد البعثة.

و«مِنْ» للتَّبعيض، أي ولدًا من الصَّالحين، يعينني على الدُّعاء إلى توحيد الله وعبادته، ويؤنسني في الغربة.

[قلت:] والهبة مع العقلاء في الأولاد غالبة في القرآن وكلام العرب، ومن غير الغالب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ، مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيئًا﴾ (سورة مريم: ٥٣) ، والمراد هبة نبوءة لا هبة ذات.

ويدلُّ للولد قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهو مُقَوٍّ لمن قال: إنَّه حين قال ذلك بالغ كبير، بشَّره الله الرحمن الرحيم بالولد، وصرَّح له بأنَّه ذكر، وأنَّه يبلغ أوان الحلم، وهو سنُّ التكليف، وقد قيل: إنَّه حين تسليم نفسه للذبح مراهق، فكيف إذا زاد؟ وقيل: ما وصف الله نبيئًا بالحلم لعزَّة وجوده إلاَّ إبراهيم وابنه عليهما السلام.

والغلام إسماعيل على الصَّحيح، وقيل: إسحاق، والقولان عن ابن عبَّاس، ويروى أنَّه أمر بذبح إسحاق وهو بالشَّام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة مسيرة شهر إلى منى، ولَمَّا فدي بالكبش رجع في مسائه مسيرة شهر طوى الله له الأرض، وأكثر الروايات عن ابن عبَّاس أنَّه إسحاق، ويناسبه أنَّه بالشام، وأنَّه أمر بذبح من بشِّر به، وليس في القرآن أنَّه بشِّر بولد غير إسحاق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ (سورة هود: ٧١) ، وقال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيئًا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة الصافات: ١١٢) ، وهذا بعد قصَّة الذبح يدلُّ على أنَّه بُشِّرَ بالنبوءة، وأوَّل الآية وآخرها يدلُّ أنَّ الذبيح إسحاق.

وكذا روي أنَّ يعقوب كتب من الشام إلى مصر: «من يعقوب إسرائيل بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله» ودلَّ على أنَّ الذبيح إسماعيل أنَّه ذكر الله تعالى البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصَّة الذبيح، وأيضًا قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَّرَآءِ اِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ (سورة هود: ٧١) ، فإنَّ المناسب بحسب الظاهر أن لا يأمره بذبح إسحاق، وقد وعده بنافلة وهو يعقوب بن إسحاق، وأيضًا وصف إسماعيل في القرآن على الصبر لا إسحاق فهو الصابر على الذبح.

وقال عالم يهوديٌّ أسلم لعمر بن عبد العزيز: إنَّ الذبيح إسماعيل لَكنَّ اليهود حسدوكم، وأيضا قرني الكبش معلَّق بالكعبة، وقد رآه ابن عبَّاس مع بَقيَّة الرأس البالية. وسأل الأصمعيُّ أبا عمرو بن العلاء، فقال: أين ذهب عقلك يا أصمعي؟ متى كان إسحاق بمَكَّةَ، إنَّما بنى البيت مع إبراهيم إسماعيل، وقيل لرسول الله: يا ابن الذبيحين، فتبسَّم و لم ينكر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

–٢–

قصّة الأمر بذبح إسماعيل عليه السلام

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ عطف على محذوف، أي وهبنا له ولدًا من الصالحين ونشأ فَلَمَّا بَلَغَ... و«مَعَ» متعلّق بـ«بَلَغَ»، أو بمحذوف حال من المستتر، ولا إشكال في ذلك كما تُوُهِّم، لأنَّ إبراهيم مختصٌّ بالسعي قبل بلوغ إسماعيل السعي، وَلَمَّا بلغه كان مُشْتَرِكًا معه فيه.

(نحو) ولا داعي إلى تعليقه بالسعي مع وجود غيره، فإنَّ المصدر إذا كان على معنى الفعل وحرف المصدر كما هنا اجتنب تقديم معموله عليه، ولو كان ظرفًا مَا وُجِدَ وَجْهٌ آخر، وإذا لم يقصد استحضارُ معنى الفعل وَحرف المصدر جاز التقديمُ، وسواء عُرِّف أو نكِّر.

والمراد: السعي في مصالح الدين والدنيا، وذلك الوقت أفضل الأوقات للأب من الولد، لبلوغ الانتفاع به مع ذُلِّ الصِّغر، فإنَّه إذا كَبِر بلغَ وقتًا تدعُوه نفسُه فيه إلى عناد أبيه، ويقال: السعي معه إلى الجبل، ويقال: سنُّه يومئذ ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبع سنين.

﴿قَالَ يَابُنَيِّ إِنِّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ﴾ اسم زمان ميمي، أي في حال النوم ﴿أَنِّــيَ أَذْبَحُكَ﴾ أعالج ذبحك بتحديد الشفرة وتوجيهها إلى عنقك، والتعمُّد

بها عليه، وإن رأى أنّه لا ينذبح، أو كلّما انذبح موضع انغلق كما كان، فإنّه لم يذكر لابنه عدم الانذباح ليرى ما عنده من الصبر، ويبحث بأنّ الأصل في حقّه أن يذكر كلّ ما رأى[1]، ويحتمل أنّه رأى أنّه يذبحه وأتمَّ الذبح، ولا يلزم من هذا قدح بمخالفة أنّه لم يذبحه تحقيقًا في اليقظة، لأنّ لله تعالى أن يشير بما شاء إلى ما شاء، وفي ذلك أعظم الصبر.

أو رأى في المنام ما تأويله الذبح لا نفس الذبح فذكر التأويل، أو أُتي في المنام فقيل له: اذبح ابنك، أو لَمَّا بشَّرته الملائكة بالغلام قال: هو إذن ذبيح لله تعالى، ولَمَّا بلغ معه السعي قيل له في المنام: أوفِ بنذرك.

وروي أنّه رأى في الليلة الأولى أنّه أُمر بذبحه فأصبح يومه يفكّر أَمِنَ الله تعالى وهو يوم التروية، ومثل ذلك في الليلة الثانية، فعرفَ أنّه من الله، فيومها يوم عرفة، ومثله ليلة النحر فَهَمَّ بنحره، وذلك يوم النحر لعمده إلى نحره، ولنحر فدائه.

وفي ذلك كلّه مبادرة إلى تصديق الرؤيا لأنّها من الأنبياء حقٌّ، والمبادرة إلى إنفاذها أدَلُّ على كمال الإيمان، وحال الأنبياء سواء يقظة ومنامًا، ولم يقل: أنّي ذبحتك، استحضارًا للحال الماضية في المنام رؤيةً وذبحًا، ولا دليل على أنّ الرؤيا تكرَّرت فكانت بالمضارع والذبح لم يتكرَّر فكان بالمضارع للاستحضار، أو لمشاكلة ما تكرَّر معالجة الذبح بلا انذباح في المنام، وكيف تَتَصَوَّرُ الرؤية بلا تكرُّر ذبح؟.

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ مبتدأ وخبر وصلة، أي ما الذي تراه؟ والجملة مفعول لـ«انظُرْ» معلّق عنها، أو «ماذا» اسم واحد مفعول لما بعدُ، والمجموع معلّق عنه «انظر».

١- هذا على فرض أنّه رأى في المنام كلّ التفاصيل التي ستقع له، وهذا بعيد.

والكلام على صورة المشاورة ليرى ما عنده في الشدَّة فإن ظهر ضعفُه أو جزعُه ثبَّته وقوَّاه، وليوطِّن نفسه فيعظم ثوابُه. [قلت:] والمشاورة مشروعة، ولو شاور آدم الملائكة ما خرج، ولكن محال أن لا يخرج، وقد قضى الله ﷻ به.

﴿قَالَ يَآ أَبَتِ﴾ نداء توقير كَمَا ناداه أبوه نِدَاءَ تَرَحُّمٍ ﴿افْعَلْ مَا تُومَرُ﴾ الرابط محذوف على غير قياس لأنَّه مجرور بحرف جرٍّ بدون وجود شروط حذفه، نعم أجاز بعض النحاة حذف الرابط بلا شرط، إذا ظهر المعنى، وخصَّ بعض مَادَّة «أمر» بذلك، أي ما تؤمر به.

(نحو) وقيل: حذف الجارُّ وانتصب المحلُّ، فكان كالضمير المنصوب بالمتعدِّي، ففي مثل هذا للخروج به عن ذلك لا أعِيبُ على من يجعل «ما» مَصدَرِيَّة فلا تحتاج لرابط، والمصدر بمعنى مفعول، أي افعل مأمورك، ومأمورُه هو ما أُمر به.

وإنَّما علم الابن أنَّ الأب مأمور لعلمه أنَّه لا يُقدِمُ إلى ما لم يؤمر به، أو لعلمه بأنَّه رأى أبوه الرؤيا، وعلم أن رؤيا الأنبياء حقٌّ، ولا مانع من أن يريد: افعل ما أمرك الله به، وإن لم يأمرك فلا تفعل. ولم يقل: افعل ما أُمرت ليدلَّ بالمضارع على استحضار الحال الغريبة، أو على التكرار إن علم أنَّ أباه أمر مرارًا أو على الاستقبال بمعنى أنَّ ما مضى غير جزم فافعل ما تؤمر به على الجزم.

﴿سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اَللَّهُ مِنَ اَلصَّابِرِينَ﴾ على ما أراد الله ﷻ الذبح وما فوقه، وفي قوله: ﴿مِنَ اَلصَّابِرِينَ﴾ مع أنَّه المناسب للفاصلة رسوخ ليس في «صابرًا»، وفي ذلك إغراء لأبيه عنْ أن تأخذه شفقة.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ انقاد هو وأبوه لأمر الله، ويجوز أن يكون من أسلم المتعدِّي، أي: أسلم الابن نفسه للذبح وأسلمه أبوه ولم يَشُحَّ به ﴿وَتَلَّهُ،

﴿لِلْجَبِينِ﴾ صرعه، وأصله الصرع على التلّ، وهو مجتمع التراب، وصار حقيقة في الصرع مطلقًا. واللام للبيان، كقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (سورة الإسراء: ١٠٩) ، وقوله:

.... وخر صريعًا لليدين وللفم[١]

والجبين: أحد جانبي الوجه، فنقول: يختار الجبين الأيمن. وروي أنّه قال: يا أبت كبَّني على وجهي لئلاّ ترحمني برؤية وجهي فلا تجهز عليَّ، فلم يأخذ أبوه بكلامه، بل صرعه على الجبين مع أنّه لم يرد بالصرع ما يظهر من العنف لأنّهما معًا منقادان.

[وقيل:] وقال أيضا: يا أبت اشدد رباطي لئلاّ أضطرب واكفف ثيابك لئلاّ ترى أمّي دمي عليها، فتزداد حزنًا، وأسرع بإمرار السِّكين ليكون أهونَ عليَّ وأَقرئْ أُمّي السلام منّي، وكلٌّ منهما يبكي، وأبوه يقبِّله.

وأخرج أحمد في مسنده عن ابن عبَّاس أنّه قال: يا أبتِ ما عندك ثوب تكفنني إلاّ قميصي هذا وكان أبيض فانزعه وكفنيِّ فيه، ولعلّه لم يفعل لأنّه يؤخر النزع إلى ما بعد الموت، فجرَّ الشفرة جهده وهي حادَّة ولم تؤثّر شيئًا بإذن الله، [قلت:] ولا حاجة إلى ما يقال: إنّ الله ﷻ جعل منحره نحاسًا ولاَ إلى ما يقال ألبسه الله حلقة نحاس.

وروي أنّه حدَّها فأعاد الجَرَّ فلم تؤثّر فَعل ذلك مرَّتين، وروي أنّه لم يجرَّها بل قلبها جبريل عليه السلام ، وزعم بعض أنّه كلّما قطع موضعًا من الحلق ردَّه الله تعالى، ولعلّ الابن لا يحسُّ بذلك إن صحَّ.

١-صدر البيت: تناوله بالرمح ثمّ أتّنى له. البيت مختلف في نسبته وهو من الشواهد. معجم شواهد اللغة، ج٧، ص٣٩٢.

وقيل: **لَمَّا أراد الجرَّ قال ملك: يا إبراهيم لا تفعل بالغلام شيئًا، خذ ما وراءك**، وهو كبش ذكره الله ﷻ، أو قيل له: أمسك قد صدَّقت الرؤيا، فرفع رأسه فرأى كبشًا ينحطُّ حتَّى وقع عليه، كما قال الله تعالى:

﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ ناداه ملك من خلفه أو فوقه **﴿أَن يَآ إِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ اَلرُّءْيَآ﴾** فعلت ما رأيت في المنام. وجواب «لَمَّا» محذوف يقدَّر هنا أي: كان ما كان من شكر واستبشار بالنجاة والفوز بما لم يفز به أحد، وبعض قدَّره بعد الجبين هكذا: أجْزَلْنَا لهمَا الأجْرَ، وقدَّره الخليل وسيبويه قبل «وَتَلَّهُ»، وقيل: الجواب: «وَتَلَّهُ»، وقال الكوفيُّون: «نَادَيْنَاهُ»، بزيادة الواو في الموضعين على القولين، **﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي اِلْمُحْسِنِينَ﴾** من جملة الجواب أو مستأنف.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما ذكر من الرؤيا والعمل بها من جانب الأب والابن، **﴿لَهُوَ اَلْبَلَآؤُاْ﴾** الامتحان **﴿الْمُبِينُ﴾** الظاهر صعوبتُه لكلِّ أحد، أو المظهر مزيَّتهما على غيرهما من حيث ذلك، وفي ذلك تحقيق لإحسانهما وتأهُّلهما لنيل ما لم ينل غيرهما.

﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾ عقب معالجة الذبح على ما مرَّ، وذلك عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منى، وعن الضحاك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم، كما رواه عطاء بن السائب عن قريشي عن أبيه عنه ﷺ، وقيل: في جبل العبادة في الشام، وبعض: في بيت المقدس.

﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ كبش عظيم سمين أبيض أقرن أعين، وروي أملح بدل أبيض، وذلك مذهب الجمهور، وعن الحسن أنَّه وعل أهبط عن ثبير، ولعلَّه لم يصحَّ عنه، وقد روى عنه ابن أبي حاتم أنَّه كبش وأنَّ اسمه حرير.

وقيل: العظم في الآية عظم الشأن، وإنَّه كبش هابيل الذي تُقُبِّل عنه، يرعى في الجنَّة إلى ذلك اليوم، وقيل: عظمه لأنَّه خلقة من الله يرعى في الجنَّة أربعين

عامًا لم تلده نعجة، وقيل: خلقة من الله كذلك في وقته، وقيل: عظمه لأنّه متقبَّل عن هابيل ومتقبَّل عن إبراهيم، وقيل: لأنّه فدي به نبيء ابن نبيء، وقيل: لأنّه جرت ألسنة به إلى آخر الدَّهر، وعن ابن عبَّاس: كبش عن ثبير، وعن عليّ: وجده مربوطًا بسمرة في أصل ثبير.

وعن ابن عبَّاس: أرسل عليه كبش من الجنَّة، رعى فيها أربعين عامًا، فبعث إليه ابنه بعد فدائه به فرماه بسبع حصيات عند الجمرة الأولى، فهرب فرماه بسبع عند الوسطى كذلك، وبسبع عند الكبرى، فأتى به إلى المنحر من منى فذبحه أبوه وذلك سبب رمي الجمار.

والمشهور أنّ سبب الرمي أنّ الشيطان تمثّل له بصورة صديق ناصح فلم يتمكّن، وتعرَّض للابن كما في كتب القصص، وروي أنّه سَدَّ الوادي عند الجمرة الأولى، فأمر الملكُ إبراهيم، أن يرميه بسبع فرماه، فوجد الطريق، وكذا عند الثانية والثالثة.

وأسند الفداء إلى الله تعالى لأنّ المعنى: فككناه من الذبح بذلك الكبش، أو الفادي إبراهيم، والمعنى: أعطينا إبراهيم ما يفدى به ولده منّا.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أبقينا له ذكرًا بخيرٍ مستمرًّا، أو أبقينا عليه هذا اللفظ، وهو قوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ على حدِّ ما مرَّ، ولم يذكر في العالمين لأنّ نوحًا فيهم أشدُّ شهرة لأنّه آدم الثاني، وكان سببًا لنجاة من نجا من الطوفان، وليس ذلك لإبراهيم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى بقاء ذكره الجميل، وليس ما تقدَّم لهذا المعنى فلا تكريرَ. ولم يذكر «إِنَّا» لأنّ هذا في إبراهيم، وما قبلُ فيه وفي ابنه، فإنّ هذا سيق تعليلاً لجزاء إبراهيم وحده، وما قبلُ لجزائهما، أو لأنّ

القصَّة لم تَتِمَّ الآن كما تَمَّت كلَّما قال: ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، أو لم يذكر «إِنَّا» اكتفاءً بذكره قبلُ.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ﴾ في قَضَائنَا، وَمَرَّ مثلُهُ ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيئًا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ظاهر في أنَّ إسحاق ليس الابن المذكور المراد ذبحُه المُفَدَّى، بل هو إسماعيل، فإنَّه لو كان إسحاق السَّلامُ عليه أو أراد الإجمال والاحتمال لقال: وبشَّرناه بأنَّه نبيء من الصالحين، ولَمَّا ميَّز إسحاق باسْمِهِ ناسبَ أنَّه غيرُ الابن المذكور.

(نحو) و«نَبِيئًا» و«مِنَ الصَّالِحِينَ» حالان من إسحاق مقدَّرتان، أي سيوجد خارجًا، وهو نبيء راسخ في الصلاح، فإنَّ ذلك غير موجود حال التبشير، كما لم يوجد الخلود حين الدخول في قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (سورة الزمر: ٧٣) ، ولا يخرجها عن كونها مقدَّرة، فلو قلت: حكمتُ بزيد قاضيًا غدًا كانت مقدَّرة، والبشارة تكون بالأحداث لا بالأجسام، والمعنى بوجود إسحاق بعدُ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾ (سورة النحل: ٥٨) ، معناه بولادة الأنثى.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أفضْنا على إبراهيم وإسحاق بركاتِ الدين، كجعلِ أكثر الأنبياء والرسل منهم، وبركات الدنيا، كتكثير نسلهما وجعلهم ملوكًا، وإيتاء ما لم يُؤت أحدًا من العالمين. قيل: باركنا على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا من صلبه ألف نبيء، أوَّلهم يعقوب وآخرهم عيسى على نبيئنا وعليهم الصلاة السلام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ بالإيمان والعبادة والأمر والنهي ونفع عباد الله في دينهم ودُنياهم ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالإشراك وما دونه من المعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرُ الظلم، [قلت:] ولا يلزم أن تكون ذرِّيَّة الصالح صالحةً ولا عيبَ على الصالح بفساد ذُرِّيَّته.

(الحجّة على أنّ الذبيح إسماعيل) امتنَّ الله ﷻ على إبراهيم بالذبيح وهو إسماعيل، وبابنه إسحاق هذا الممدوح، وإسماعيل هو أكبرُ سنًّا، فما الحكمة في دعوى تعدِّي الذبيحيَّة عنه إلى من بعده؟ وأيُّ دليل وهو أيضا يذكر قبل إسحاق إذا ذكرا في القرآن كما يقدَّم إسحاق على ابنه يعقوب، وكما قدِّم إسحاق على يعقوب في الهبة إذ قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ، إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (سورة الأنعام: ٨٤) ، لتقدُّمه بالزَّمان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (سورة البقرة: ١٣٦) ، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (سورة البقرة: ١٤٠) ، وقال ﷻ : ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (سورة آل عمران: ٨٤) ، وقال ﷻ : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (سورة النساء: ١٦٣) ، وقال تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ (سورة البقرة: ١٣٣) .

وعلى أنَّ الذبيح إسماعيل عليٌّ وابنُ عمر وأبو هريرة وكثيرٌ من الصحابة والتابعين وغالب المُحدِّثين، ونسب لعلماء الصحابة، ويناسب ذلك وصفُه بالصبر في قوله ﷻ : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٥) ، وبصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ (سورة مريم: ٥٤) ، فناسب قوله: ﴿سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ويناسب ذلك أيضا شهرةً، لأنَّ قصَّة الذبح في مكَّة، وشهرة تَعليق قَرني الكبش بالكعبة حتَّى احترقا حين احترقت أيـّـام حصار الحجَّاج عبد الله بن الزبير، ويناسب توارث قريش لهما خلف عن سلف.

ويناسبه ما رواه الحاكم والطبري بسنده إلى معاوية: «كُنا عند رسول الله ﷺ ، فأتاه أعرابيٌّ فقال: يارسول الله خَلَفت الكَلأَ يابسًا والماء عابسًا، هلك

المال وضاع العيال، فعُد عليَّ مِمَّا أفاء الله تعالى عليك يا ابن الذبيحين» فتبسَّم رسول الله ﷺ [١].

(قصة الذبيح الثاني) وأحد الذبيحين أبو النبيء ﷺ ، استضعفت قريش عبد المطلب، وأيضا تمنَّى أن يجد من يُعينه على حفر زمزم حين أُمر بحفرها، فنذر إن رُزقَ عشرة أولادٍ أن ينحر عاشِرهم، فكان أباه ﷺ ، فأمرته كاهنة أن يقربه وعشرة من الإبل ويُقرع، فكلَّما وقعت القرعة عليه زاد عشرة، حتَّى تمَّت مائة وقعت عليها، فكانت فداء له وكانت ديَّة للرجل، وقيل: قال أخواله: ارض ربَّك وافدِ ابنكَ فبلغت مائةً.

والآخَر: إسماعيل، ويناسب ذلك أنَّ في التوراة: «خذ ابنك وحيدكَ الذي تحبُّه، وامض به إلى بلد العبادة، واصعدهُ ثمَّ قربَانًا على أحد الجبال الذي أُعرِّفك به» ألا ترى إلى قوله: «وحيدكَ»، ولا يصدق إلاَّ على إسماعيل إذ ولد له، وهو ابن ستٍّ وثمانين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة، وأيضا قوله: «الذي تحبُّه» أنسب بأوَّل ولد لأنَّه أشدُّ حبًّا عند أبيه.

ومعنى «وحيدك»: ولدك الذي لا ولد لك سواه لا الذي انفرد بحضوره، كما يقول المتأوِّل المبطل، إخراجًا لإسماعيل على أنَّه بِمَكَّةَ تأويلاً باطلاً، كما تأوَّل بعضٌ بأنَّه وحيد أُمِّهِ، وهو باطل إذ لم يقل وحيد أمِّه، بل قال: «وحيدك».

ويناسب ذلك أيضا قول ابن كثير إن في بعض نسخ التوراة: «بكرك» بدل «وحيدك»، وإنَّ عمر بن عبد العزيز قال لعالم يهوديٍّ قد أسلم: أيُّ ولدي إبراهيم الذبيح؟ فقال: إسماعيل قد علمت اليهُودُ ذلك، لكن حسدوكم يا معشر العرب.

١– رواه الحاكم في مستدركه عَلَى الصحيحين، ج٢، ص٦٠٤.

(نقد أحاديث موضوعة) ولا يصحُّ ما روي عن العَبّـــاس أنّه ﷺ قال: «**الذبيح إسحاق**» لأنَّ في سنده الحسن بن دينار وهو متروك، وشيخه منكر الحديث، وعن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ : «**إنَّ داود سأل ربَّه أن يجعله مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوْحَى الله إليه إنّي ابتليت إبراهيم بالنّار، وإسحاق بالذبح، وابتليت يعقوب فصبروا**»، و[قلت:] هو موضوع عنه ﷺ . وكذا ما روي عن ابن مسعود أنّه ﷺ قال: «**الذبيح إسحاق**» وكذا ما روي عن أبي هريرة أنّه ﷺ قال: «**لَمَّا فرَّج الله عن إسحاق كَربَ الذبحِ قيل له يا إسحاق سل تعطَ**» وأيضًا في سنده عبد الرحمن بن زيد، وحديثه غريب منكر، كما قال ابن كثير.

وكثر تحريفهم فَلَعَلّهم حرَّفوا إسماعيل بإسحاق، فالمرجع إلى ما مرَّ أوّلاً من الأدلّة على أنّه إسماعيل. واحتمال كون ذلك بالشام لا يدفع كونه بِمَكَّة. ودعوى أنَّ القرنين حملا من الشام خلاف الأصل، مع قُوَّة أهل الشام على أهل مَكّة في الجَاهليّة عددا وعدَّة وديانة، فكيف يتركون القرنين لهم؟. وخبر أنّه سار في غداة وأخذ بإسحاق إلى منحر مِنًى ورجع وبلغ أهله عشيَّة اليوم موضوع، عليه أثر الإهمال.

وخبر: «يا ابن الذبيحين» ولو زعموا أنَّ فيه من لا يعرف يُقوِّيه ظاهر الآية ونصُّ التوراة، فنقول: لو كذب القائل: يا ابن الذبيحين لزجره النبيء ﷺ ، ولو لم يعرف صحته ولا كذبه لم يتبسَّم له، بل يطلبه بالدليل، ودلَّ سكوته وتبسُّمه أنَّ أباه عبد الله لم يولد حين قال عبد المطلب ما مرَّ، فطلب كمال العدد به لا كما قيل: إنَّه ولد حين قال. وحَمْل الأب على إسحاق لأنّه عمٌّ خلافُ الأصل.

قال السيوطي: قد كنت أميل إلى أنَّ الذبيح إسحاق وَلَمَّا رأيت قوَّة الأدِلّة توقّفتُ، **وفي أدلّة أنّه إسحاق رائحة الأخْذ عن اليهود**، وظاهر الآية يكفي.

(فقه) ومن نذر ذبح ولده عصى، **ولا نذر في معصية الله** وذلك لإبراهيم خَاصَّةً [إن صحَّ أنَّه نذر ذلك].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٦ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢﴾

منن الله تعالى على موسى وهارون عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ بالرسالة والدين والدنيا، وذلك تخصيص بعد تعميم **﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ اَلْكَرْبِ اِلْعَظِيمِ﴾** ملك القبط وتعذيبُهم أو من ذلك والغرق **﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾** إيَّاهم وقومَهما أو إيَّاهُما، فعبَّر بالجمع تعظيمًا، وهو أولى، ويدلُّ له الرجوع إلى التثنية بعدُ، فإنَّما جمع هنا تعظيمًا وللفاصلة، وهما مستتبعان في الذكر لمن اتَّـبَعَهما في العمل.

﴿فَكَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ للقبط فرعون وغيره، و«هُمْ» توكيد للواو، أو فصل لا بَدَل كما قيل، إذ لا مفهوم له، ولو بالاسميَّة، ولا بدَّ في البدل من ذلك، تقول: جاء زيد أخوك، فأفاد كونه أخًا، وجاء أخوك زيد، فأفاد اسم زيد.

﴿وَءاتَيْنَاهُمَا﴾ بعد ذلك **﴿اَلْكِتَابَ اَلْمُسْتَبِينَ﴾** التوراة المبالغة في الظهور، من «أبان» اللازم، أو في الإظهار من «أبان» المتعدِّي، والمبالغة مستفادة من الاستفعال، فإنَّه أشدُّ في المبالغة من الفعل والإفعَالِ، وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى في الجملة وغالبًا.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ به ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الموصل إلى الأحكام الشَّرعيَّة الكثيرة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ أبقينا ذكرًا بالخير مستمرًّا ﴿فِي الآخِرِينَ﴾ في الأقوام بعدهما، أو المفعول لفظ قوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ...﴾.

﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ بالإحسان الأخرويِّ والدنيويِّ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مَن أحسنوا بالإيمان والعبادة ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ﴾ في قضائنا وحكمنا، ومرَّ مثل ذلك.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قصَّة إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى، فهو إسرائيليٌّ من سبط هارون عليه السلام ، وقيل: هو من سبط يوشع، وقيل: ابن عمِّ اليسع وأنَّه بعث بعد حزقيل، وقيل: ذو الكفل، والحقُّ أنَّه إلياس المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا...﴾ (سورة الأنعام: ٨٤) ، فهو من ذرِّية إبراهيم عليه السلام ، وقرأ ابن مسعود: «وإنَّ إدْرِيسَ» بدل ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾.

(قصص) [وقيل:] إلياس والخضر حيَّان، وُكِّلَ إلياس بالفيافي، والخضر بالبحار، وقال الحسن: ماتا، ويقال: يصومان رمضان في بيت المقدس، ويحجَّان كلَّ عام. قيل: مات حزقيل النبيء وعبدت بنو إسرائيل الأصنام بعده، وغضبت

امرأة الملك جنينةً من مؤمن، وقتلته وكان يستخلفها الملك إذا غاب، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أنّه إن لم يرُدَّ إلى ورثة المؤمن جنّته قَتَلَهُما وألقاهما جيفتين فيها، فتوعَّد إلياس بالقتل إن فعل، وفهَرب إلى الجبال والكهوف وبعث في طلبه سبع سنين، ولحقه ضرٌّ وحزن وسأل الله تعالى أن يميته وقال: ملّني بنو إسرائيل ومَلَلْتُهم، فقال الله تعالى: «أنت وليّي وأميني وما هذا وقت أُخلي منك الأرض»، قال: فأقحطهم سبع سنين، قال: أنا أرحم بعبادي، قال: فأربعًا، قال: أنا أرحم بعبادي، ولك ثلاث، وجاءهم بعدها، فقال: ادعوا أصنامكم، فدعوا و لم يمطروا، ودعا إلياس الله واليسع يقول آمين، فأمطروا بسحابة من جهة البحر كالترس فعمَّت وحسن حالهم، ثمّ ارتدُّوا فدعا الله تعالى أن يريحَهُ منهم، فأوحى الله تعالى إليه أن يركب ما يجد في موضع كذا فوجد فيه فرسًا بصورة نارٍ فركبه إلى السماء، واستخلف اليسع.

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ﴾ متعلّق بمتعلّق «من» أو بمن ومدخولها لنيابتهما عنه، ويجوز أن يكون مفعولاً به لـــ«اذْكر» محذوفًا مُسْتأنفًا، أي اذْكُرْ وقت ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ طائفة من بني إسرائيل، لَمَّا فتح يوشع الشام أسكنهم بعلبك، بَلدٌ رُكّب اسمهُ من لفظ بَعْل بمعنى مالك، وبكة وحذفت التاء أو بكٌّ بلا تاء.

﴿أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ تحذرون عذاب الله الذي استوجبتم بالإشراك والمعاصي ﴿أَتَدْعُونَ﴾ تعبدون أو تسألون حوائجكم ﴿بَعْلاً﴾ صنمًا طوله عشرون ذراعًا من ذهب، له أربعة أوجه، عظّموه وجعلوا له خادما، وسمُّوهم أنبياء لهُ، يكلّمهم إبليس من جوفه بأمور الضلال فيحفظونها ويبلّغونها الناس.

(نحو) وهو لفظ عربيٌّ ولذلك صرِّف مع العَلَميَّة، بل يجوز صرفه ولو عجميًّا لأنّه ثلاثيٌّ ساكن، وقيل: اسم امرأة تأتيهم بضلال، كما قرئ: «بعلاء» كحمراء، وصرِّف على هذا لأنّه ثلاثيٌّ ساكن الوسط.

وقال عكرمة وقتادة: البعل الربُّ بلغة اليمن، وعن قتادة بلغة أزْد شَنُوءَة، فهو عَلَم منقول من اسم نكرة، وقيل باق على التنكير بمعنى: أتدعونَ ربًّا من الأرباب، وهم يسمُّون أصنامهم ومعبوداتهم أربابًا، و«بعلبك» بالشام، وموضع الصنم «بك»، وأضيف إليه «بعل» و رُكّبا.

﴿وَتَذَرُونَ﴾ تتركون ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ عبادة أحسن الخالقين أو سُؤَالَه حَاجَاتكُم، والخالقين بمعنى المُقَدِّرين، وَمَرَّ كلام فيه، ولم يقل: «وتَدَعُونَ أَحْسَنَ» بفتح الدَّال بمعنى تتركون مع مناسبته لـ«تَدْعُونَ بَعْلاً» بإسكان الدال ومجانسته له، لأنَّ في هذه المجانسة ـ قيل ـ تكلُّفًا، وإنَّما يحسن منها ما أتى عَفْوًا، وهذا بظاهره كلام كفر، لأنَّه لا يعجز الله عن شيء فضلاً عن أن يتكلَّفه، ولعلَّ قائله أراد: إنَّ حمل الكلام عليه تكلُّفٌ.

وقيل: لم يجنِّس لِئَلاَّ يقرأهما من لا يعرف ضبط واحدٍ أو يعكس، لأنَّ المصاحف كانت غير مضبوطة ولا منقوطة، ويردُّه أنَّ هذا لا يعتبر كما لم يعتبر فتركوه بلا ضبط ولا نقط أوَّلاً. وقيل: لأنَّ التجنيس في مقام الرضى، ويردُّه وقوعُهُ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة الروم: ٥٥) ، وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ...﴾ (سورة النور: ٤٣) ، مع أنَّهما في غير الرضا. وقيل: لأنَّهم اتَّخذوا الأصنام آلهة وتركوا الله مع علمهم بأنَّه ﷻ ربُّهم، ويردُّه أنَّا لا نسلم أنَّ «تَدَع» بمعنى تترك مختصٌّ بالترك قبل العلم، و«تَذَر» بالترك بعده.

وقيل: لأنَّ لإنكار كلٍّ مِن دعاءٍ وإنكارِ ترْكِ أحسنِ الخالقين علَّةٌ غير علَّة الآخر فترك التجنيس لتغاير العلَّتين: علَّة الأوَّل أنَّه لا قدرة لبعل، والثاني: أنَّ الله قادر على كلِّ شيء. وقيل: لأنَّه لا مجانسة بين واجب الوجود وبعل. وقيل: لأنَّ «يَدَع» بفتح الدال نزل فيما لا يُذَمُّ تاركه لأنَّه من معنى الدعة أي الراحة،

بخلاف «يذر»، ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ (سورة البقرة: ٢٧٨) ، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢) ، وهما فيما لا يذمُّ تركه. وقيل: لأن «يَدَع» في ترك الشيء مع اعتناء به، كإداع الأمانة، و«يَذَر» في الترك مطلقًا، وقيل: لأنّ في «يَدَع» بالفتح ثقلاً لاجتماع حرف الحلق مع الفتح.

والحقُّ الاعتناء بعبادة من هو أحسن الخالقين ومن هو ربُّ الأوّلين والآخرين، كما قال ﷻ وتبارك وتعالى:

﴿اَللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ﴾ تصريح ببطلان رأي آبائهم الذين قلّدوا. و«اللهُ رَبُّكُمْ» مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، وقد يوجَّه الاتّصال بأن تجعل لفظ الجلالة خبرًا لمحذوف، أي هو الله، أي أحسن الخالقين هو الله، فـ«رَبُّكُمْ» عطف بيان أو بدل من لفظ الجلالة. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ كذّبوا إلياس في قوله: ﴿ اَللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ﴾ أو في الوعيد الذي يصرِّح لهم به على الإشراك والمعاصي، ويتضمَّنه كلامه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذاب لسبب تكذيبهم، وتقدَّم أنّ الإحضار في غالب القرآن للشرِّ، ووجهه أنّ الخير يحضر صاحبه بلا قهر أحد له على الحضور، بخلاف الشرِّ فإنَّه يتباعد عنه. ثمّ رأيت بعض المحقّقين قال: إنَّه في العرف العامِّ مخصوص بالشرِّ.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من واو «كَذَّبُوهُ» استثناء متَّصل على أنّ من قوم آل يس من لم يكذّب، وأسند التكذيب إلى مجموعهم، ولا يصحُّ استثناؤه من المستتر في «مُحْضَرُونَ» لأنّ الاتّصاف بالإحضار مع تعليله بالتكذيب وبنائه عليه لا يقبل احتمال الإيمان المخلص إلاّ على الانقطاع، كقولك: قام القوم إلاّ بعيرًا إذا كان البعير معهم حين قاموا، فإن لم نلاحظ أنّ المخلصين لا خلطة لهم بهؤلاء المكذّبين بالجوار ولا

بنحوه لم يَصِحَّ، كما لا يقال: قعد القوم إلاَّ ذلك الطائر في السماء، أو ذلك الوحش النافر، ولا بحث في ذلك.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الاَخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ، مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُومِنِينَ﴾ أي على أهل ياسين، وهم المؤمنون، فدلَّ على أنَّ من قومه من آمن، كما يقال: آل محمَّد وآل إبراهيم، وهذا هو الأصل، ولا حاجة ولا دليل على أنَّ «آل» مقحم. وليس ياسين هو إلياس، وقيل: هو لغة فيه، فإن صحَّ دلَّ أنَّ في قوم إلياس من آمن كما مَرَّ.

[قلت:] ولا دليل على أنَّ «ياسين» هو سَـــيِّدنا محمَّد ﷺ ، ولا على أنَّه اسم للسورة قبل هذه، ولا أنَّه اسم للقرآن كما قيل، فيكون «آل» هو هذه الأُمَّة، ولا على أنَّ «ياسين» اسم لكتب الله ﷻ كما قيل.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قصَّة لوط عليه السلام

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ، أَجْمَعِينَ﴾ قرابته المؤمنين سائر من آمن به، والاستثناء مُتَّـــصِل في قوله: **﴿إِلاَّ عَجُوزًا﴾** هي زوجُه، وكانت كبيرة السنِّ، التفتت وراءها وقالت: واقوماه فأصابها حجر، وكانت كافرة تنافق بإظهار الإيمان **﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾** نعت لــ«عَجُوزًا»، أي ثابتة في جملة الباقين في العذاب، لم تنج كما أنجي لوط ومن معه، أهلكت في محلٍّ آخر في حضرة لوط والمؤمنين إذ خرجوا عنهم.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿الآخَرِينَ﴾ بالرجم والخسف، وهم الغابرون المذكورون، و«ثُمّ» لفسحة بين خروج لوط ومن معه وبين وقوع العذاب عليهم، وليس كما قيل: مسخت حجرًا، بل أصابها حجر كأحجار قومها، ولعلّها خسفت بها الأرض كقومها.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ اعتبروا يا أهل مَكّة لأنّكم ﴿لَتمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم، وأعظمها سدوم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من «أصبح» بمعنى دخل في الصباح ﴿وَباللَّيْلِ﴾ متعلّق بحال محذوف جوازًا، أي: وداخلين في الليل، أو وجوبًا، أي: وثابتين في الليل، لضوء القمر أو النار، أو ضوء أوَّل الليل من آخر النهار في أسفاركم إلى الشام للتجر، أو يراد بـــالليل المساء، وليس المساء أوَّل الليل كما توهمه عبارة بعض. أو تلك المنازل في موضع يمرُّ بها المرتحل عنه صباحًا والقاصد إليه مساءً.

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أتشاهدونها فلا تستعملون عقولكم في التخوُّف من نزول العذاب عليكم لعنادكم الرسول كما نزل عليهم لعنادهم رسولهم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ۝١٤٨﴾

هروب يونس عليه السلام من قومه وإيمانهم

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قيل: أُرسل وهو ابن ثمان وعشرين سنة في ملوك الطوائف من الفرس، وهو ابن متَّى، بوزن حتَّى، وهو أبوه على الصحيح

وقيل: أمُّه. ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ شبَّه ذهابَه بلا إذنٍ من ربِّه بهروب العبد العاصي عن سيِّده، وهو غير عاصٍ لأنَّه تعالى لم ينهه عَن الذهاب، اللهمَّ إلاَّ عِصْيانًا ينسبه الله ﷻ للأنبياء.

(بلاغة) عدَّ الله عليه الذهاب بدون أمره كالعصيان، وليس ما فعله من شأن الأنبياء، وذلك على الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة التحقيقيَّة، ويجوز أن يكون استعمالاً للمقيَّد في المطلق، أي إذ ذهب، وأصل الإباقة الهروب من السيِّد عصيانًا، أو الهروب عصيانًا إلى حيث لا يهتدي إليه السيِّد.

﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء في البحر المالح، أو دجلة، أو النيل، روايات عن الآثار ﴿فَسَاهَمَ﴾ قَارع، فالمقارعة جائزةٌ، [قلت:] وكلُّ ما في القرآن، ولم يمنع منه مانع، فهو مشروع لنا، بل جاءت السنَّة أيضًا بها. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ من المغلوبين بالقرعة، وأصل الإدحاض الإلزاق.

(قصص) أوعَدَ قومَه بالعذاب إن لم يؤمنوا ثلاث ليال وخرج في اليوم الثالث بلا إذنٍ من الله ﷻ ، فغشيهم العذاب حتَّى اسودَّتْ سُقُوفُهم فآمنوا، وتضرَّعوا وبكوا ومنعوا الأكل والشرب، وقعد ملكهم على الرَّماد، ونزع حلَّته، وفرَّقوا بين الأولاد وأمَّهاتهم من الناس والدوابِّ، وضَجَّ الكُلُّ، فصرف الله الرحمن الرحيم العذاب عنهم، ولم يعلم يونس بذلك، ولم يرجع إليهم خَوفَ أن يُسَمُّوه كاذبًا.

(قصص) وركب السفينة وسارت ووقفت في اللجَّة والسفن تجري يمينا وشمالا، فقال صاحبها: فيكم مشؤوم وقفت به، فاقترعوا ثلاثا تقع كلُّها عليه بأن تطفو القرعة على الماء. ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه لَمَّا دخلها ركدت فقال: ما بال سفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكنِّي أدري أنَّ فيها آبقا، فقالوا: أمَّا أنت يا نبيء الله فلا نلقيك، فقال: اقترعوا، فوقعت عليه ثلاثا، فذهب إلى

كلّ جهة فوجد فيها حوتا فاتحا فاه، خارجا عن الماء ثلاثة أذرع، وقيل: اسمه نجم، فألقى نفسه، وقيل: ألقوه وذلك كلُّه بعدما أجهدوا جهدهم أن يردُّوا الفلك إلى الساحل فلم يقدروا.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ قبل وصول الماء أخذه كأخذ اللقمة للأكل على الاستعارة أو التجوُّز الإرسالِيّ لعلاقة الإطلاق والتقييد ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ اسم فاعل أفعل للنسب، أي فعل ما ينسب به إلى اللوم، أو للدخول، أي دخل اللوم، كأصبح دخل في الصباح، وأعرق دخل العراق، وأحرم دخل حرمة الصلاة، أو دخل الحرم، أو للصيرورة كأغد البعير صار ذا غدَّة، أو أفعل بهمزة التعدية، أي صيَّر نفسه لئيما ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ اَلْمُسَبِّحِينَ﴾ بإكثاره قول: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [كما ذكره في سورة الأنبياء آية٨٧] في بطن الحوت، و﴿مِنَ اَلْمُسَبِّحِينَ﴾ أبلغ من مسبِّحا.

وقيل: المراد بالتسبيح مطلق ذكر الله ﷻ، وقيل: مطلق العبادة. وعن ابن عبَّاس: الصلاة. وعنه: كلّ تسبيح في القرآن صلاة. قلت: لا يتمُّ، إذ يحتاج أن يكون معنى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء: ٤٤) : وإنْ مِن شيء إلاَّ يصلِّي بحمده ولكن لا تفقهون صلاتهم، وليس المقام لخصوص الصلاة بل لذكر كلّ شيءٍ اللّهَ أو تسبيحه.

وعن الحسن: من المصلِّين في بطن الحوت صلاة أحدثها، وعنه وعن قتادة: يكثر الصلاة قبل بطن الحوت في الرخاء. وعن الحسن: يكثرها في الرخاء، فظنَّ أنَّه مات في بطن الحوت فحرَّك رجله فتحرَّكت فسجد، فقال: يا ربِّ اتَّخَذت لك مسجدا في موضع لم يسجد فيه لك أحد. ولا يخفى أنَّ الذكر في الرخاء أشدُّ نفعا لما في الشدَّة، والأولى أنَّ المراد في الآية الذكر في الرخاء وبطن الحوت.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ حيًّا مع حياة الحوت أو موت الحوت مع حفظ الله

القادر ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم نفخة الموت فيموت، فإنّه يجوز إطلاق يوم البعث على ذلك لأنّه مفتاحه، إذ لا يبقى دون روح حيًّا بعد النفخ، لَكِنَّ الكلام بـ«لَوْلاَ»، وأيضا الله قادر أن لا يموت البتّة، وذلك من الجائز. وقيل: للبث ميّتا إلى يوم نفخة البعث.

﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ طرحناه، أمرنا الحوت بطرحه، فالإسناد مجاز عقليٌّ، والطارح بالفعل الحوت. والنبذ: الطرح قدّام أو أمام أو غيرهما مع عدم الاعتداء، والمراد: مطلق الإلقاء الشامل للإلقاء مع احترام، استعمال للمقيَّد في المطلق، وذلك أنّ الله ﷻ لم يطرح قدر يونس بما فعل، والحوت عارف لقدره بإعلام الله ﷻ.

﴿بِالْعَرَآءِ﴾ في موضع خال عن ساتر من بناء وشجر وصخر وغار ونحو ذلك، بأن مدَّ الحوت نفسه من البحر فألقاه بلين، أو مشى في البرّ فألقاه كذلك، ورجع حيًّا إلى البحر بإذن الله ﷻ.

روى أنس عن رسول الله ﷺ: «إنّ الحوت نزل بيونس حتّى وصل الأرض وسمع تسبيح الأرض، فنادى ﴿أَن لآَّ إِلَهَ إِلآَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فانتهى صوته إلى العرش، فقالت الملائكة: يا ربّنا إنّا نسمع صوتا ضعيفا من بلاد غربة! فقال ﷻ: وما تدرون ما ذاكم؟ قالوا: لا يا ربّنا ـــ والله عالم بأنّهم لا يدرون ـــ قال: ذلك عبدي يونس، قالوا: الذي كنّا لا نزال نرفع له عملا مقبولا ودعوة مجابة ؟ قال: نعم، قالوا: يا ربّنا ألا ترحمه بما كان يصنع في الرخاء وتنجيه من البلاء ؟ قال: بلى، فأمر الله ﷻ الحوت فلفظه».

وذلك في البحر المالح لما روي أنّه طاف به في البحار السبع، وروي أنّه نبذه على شاطئ دجلة، أي ممّا يلي البحر المالح. والله أعلم بمقدار مكثه، فقيل: ثلاث ليال، وثلاثة أيّام، وعن سعيد بن جبير: سبعة أيّام، وعن

الضحاك: عشرون يوما، وعن ابن عبَّاس: أربعون، ولا أكل له ولا شرب في ذلك كلِّه كالملك.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ بمكثه في البطن، ورقَّة جلده لذلك كالجنين، وزعم بعض أنَّه ما بين الضحى والعشية ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ حين النبذ ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَّقْطِينٍ﴾ شجرة الدبَّاء، أطال الله غصونها حتَّى تظلَّه، واستحقَّت اسم الشجرة لذلك الطول، يأكل من ثمرها بلا طبخ. [قلت:] وهو يزيد في الدماغ. وروي أنَّ الله ﷻ بعث له أروية وحشية تسقيه من لبنها بكرة وعشيًّا.

وكان رسول الله ﷺ يحبُّ الدبَّاء، وورق الدبَّاء أنفع شيء لمن انسلخ جلدُه، وكان يونس لمكانه من بطن الحوت ضعيفًا رقيقًا كالجنين المولود يؤلمه مَا مسَّه، وشجر الدبَّاء لا يقع عليها الذباب.

(لغة) واليقطين «يفعيل»، من قَطَنَ في المكان أقام فيه، قيل: إقامة زَوَال لا رُسوخ، وهو كلُّ نباتٍ لا ساق لهُ، فأخبرنا الله ﷻ بكرامةِ أنَّه جعل له شجرة ممَّا ليس شجرًا. وقيل: المراد شجر الموز، وقيل: التين. ونام يومًا فاستيقظ فوجدها يابسة فبكى، فأوحى الله إليه بَكيتَ على شجرة ولم تبكِ على مائة ألف أو أكثر.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ اَوْ يَزِيدُونَ﴾ هذا الإرسال قبل الهروب والالتقام، والعطف على «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ». و«أو» بمعنى بل، أو لشكِّ الإنسان الناظر إليهم لعلَّهم أكثر من مائة ألف، وفي معناه القول بمعنى الواو، كما قرأ به جعفر بن محمَّد[1]، وذلك في الزيادة القليلة.

١- تقدَّم التعريف به في: ج٧، ص٣٥٨ وهو الملقَّب بجعفر الصادق.

وأخرج الطبريُّ والترمذيُّ عن أُبيٍّ بن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فقال: يزيدون عشرين ألفًا، وهذا لرفعه واتِّصاله أولَى ممَّا روي عن ابن عبَّاس: ثلاثون ألفًا، وما في رواية عنه: بضعة وثلاثون ألفًا، وفي أخرى: بضعة وأربعون ألفًا، وما عن ابن جبير: سبعون ألفًا، وقيل: الزيادة كثيرة باعتبار المراهقين، وذلك كلُّه دليل على أنَّ «أو» بمعنى الواو أو بل.

﴿فَآمَنُواْ﴾ الفاء للترتيب الذكريِّ، أو لمجرَّد التفريع والسَّببيَّة، وذلك أنَّ بين إرساله إليهم وإيمانهم مدَّة غير قصيرة منها، تابوا إذْ رأوْا علامة العقاب، أو للترتيب في العرف بحسبه، كما يقال: تزوَّج فَوُلِدَ لَهُ، إذا لم يكن إلاَّ مدَّة الحمل.

وقيل: المراد آمنوا إيمانًا مخصوصًا غير الأوَّل، وإنَّ الإرسال إرسالٌ ثانٍ غير الأوَّل، أو بمعنى أخلصوا الإيمان لأنَّ الأوَّل كإيمان قهر.

ولم يختم هذه القِصَّة والتي قبلها بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الاَخِرِينَ﴾ تفرقة بينهما وبين قصص أصحاب الشرائع الكبرى.

﴿فَمَتَّعْنَاهُمُ﴾ بالحياة على الإيمان ولين العيش والأمن من الآفات ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى أجلِ موتهم، أو إلى قيام الساعة، أو إلى حيث يشرك الناس كلُّهم، ولا يوجد من يقول: الله.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ

ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

إبطال عقائد المشركينَ وتعجيزهم

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ إذا قرَّرت يا محمَّد للكفَّار من قومك ما ذُكِر من دلائل التوحيد وعقابِ من خالف الرُّسل فاستفتهم، على طريق الإنكار عليهم والتعجيز. ولا يصحُّ العطف على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَّنْ خَلَقْنَا﴾ (سورة الصافات: ١١) ، لطول الفصل ولو بالجمل المتناسبة، وليس كلُّ ما يجوز معنًى يجوز الإعراب به، بل لا بدَّ من مناسبة القواعد النحويَّة، ولا سيَّما إن جعل ذلك جوابًا لشرط محذوف، كما رأيت، يفيد ما يفيد العطف.

﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ محكيٌّ بـ«استَفْت» لأنَّ معناه: قل، وذلك أنَّ خزاعة وجهينة وسليم وبني المليحة يقولون: الملائكة بنات الله حاشاه، كقول اليهود: عزير ابن الله، والنصارى المسيح ابن الله، ولا يوجد أدنى عاقل إذا رجع إلى عقله يجيز ذلك إذا استعمل عقله.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ بل أخلقنا الملائكة الذين هم أشرف الخلائق وأبعد تنزُّهًا عن النقائص ﴿إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ حال، أي أَحَضَروا حين خلقناهم إناثًا، وصاحب الحال «نا»، أو عطف على «خَلَقْنَا» فهم قائلون ذلك بلا مشاهدة ولا نقلٍ ولا عقلٍ.

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنِ افْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي ولد الملائكةَ، تأكيد مستأنف،

أي لا شبهة لقولهم بل هو كذب صريح، من جملة كذبهم المشهور عنهم الكثير فيهم. و«مِنْ» متعلّق بـ«يَقُولُونَ»، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ديانتهم على الإطلاق لا يرجعون فيها إلى ما هو حقٌّ أو في دعوى الولادة، تأكيد لما قبل.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾؟ بفتح الهمزة للاستفهام الإنكاريِّ، وهمزة الوصل المكسورة حذفت في اللفظ والخطِّ، هذا هو الصحيح عن نافع، وروي عنه كَسْرُها على حذف همزة الاستفهام، [وهو] أولى من تقدير: «يقولون اصطفى»، أو «قائلون اصطفى»، ومن إبداله من «وَلَدَ ٱللَّهُ».

وفي مثل هذه الآية تنقيص الإناث وإقرار الناس على تنقيصهنَّ بالطبع دون أن يزيدوهنَّ تنقيصًا على تنقيصه تعالى لهنَّ، فقد نقصن في إعطاء الأب الأولاد، وفي الميراث.

[قلت:] والأولادِ نعمة من الله تعالى يجب شكر الله تعالى عليها، وكيف يعصي الإنسان فيما هو نعمة، يجب الشكر عليها بتفضيل الذكور بأكثر ممَّا فضَّلهم الله تعالى به كأنَّه يريد تقسيمًا غير قسمة الله تعالى، ولا يخفى أنَّ البنات أشدُّ إقامة على المريض والهرم من البنين، ولا تعص الله تعالى بهنَّ ولا بهم، وكم ولد سوء إذا حضرك الموت غابوا، ولم يحزنوا بموتك، وفرحوا بما من تركتك أصابوا.

﴿مَا لَكُمْ﴾ ما شأنكم في شأن عقولكم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يثبته عقل ولا نقل صحيح؟ والخطاب بعد الغيبة لزيادة الإنكار والتوبيخ ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أتلاحظون ذلك؟ وقد ركِّز في العقول انتفاؤه فلا تذَّكَّرون؟ والأصل تتذكَّرون أبدلت التاء ذالاً وأدغمت في الذال. والقرآن مشتمل تارة على الإدغام وعلى عدمه أخرى، مثل ﴿لَبِثْـتُمْ﴾ (سورة الإسراء: ٥٢) ، و﴿اتَّخَذتُّمْ﴾ (سورة البقرة: ٥١) ، بالفكِّ بيانًا للجواز. ولا يقرأ لفظ إلاَّ على ما ورد.

﴿أَمْ﴾ بل ﴿لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ برهانٌ قويٌّ نزل من الله ببنوَّة الملائكة لله تعالى وأنوثتهم، فإنّ ما لا يثبت بإحساس ولا عقل لا بدَّ له من نقل، وإلاّ لم يبق له وجه صحَّة ﴿فَاْتُواْ بِكِتَابِكُمْ﴾ بكتابكم الذي فيه من الله أنّهم أولاد الله وإناث، ولا كتاب لهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في كونهم بنات الله، ولا يظهر التهكُّم بإثبات الكتاب لأنّه قد شرط له الصِّدق تعجيزًا وهو منتف.

﴿وَجَعَلُواْ﴾ غيبة بعد خطاب لانقطاعهم عن الجواب بحيث يعرض عنهم إلى غيرهم لعجزهم ﴿بَيْنَهُ﴾ بين الله سبحانه ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ أولاد إبليس.

﴿نَسَبًا﴾ مصاهرة، قال كُفّار قريش: الملائكة بنات الله، فقال الصدِّيق: فمن أمَّهاتهم؟ فقالوا: بنات سروات الجنّ، وقيل: الجنُّ: الملائكة لأنّهم مستورون، ونسبًا: بنوَّتهم له، **تعالى عن ذلك**، أو كون بنات سروات الجنِّ أمَّهات الملائكة زوجات له، **تعالى عن كلّ نقص علوًّا كبيرًا**.

وقيل: «الجنَّة»: أولاد إبليس، والنسب: الأخوَّة بأنّ الله وإبليس أخوان، فالله سبحانه خيِّر وإبليس شرِّير، ويعبَّر عنهما بالنور والظلمة، ويردُّه أنّ هذا مذهب المجوس، والضمائر لقريش، ولا قائل عنهم بما قال المجوس.

وقيل: «الجنة»: الملائكة، و«نسبًا»: اشتراكهم مع الله تعالى في العبادة، وزعم بعض عن ابن عبَّاس أنّ نوعًا من الملائكة يسمَّون الجنَّ، تمكَّنت منهم المعصية، ومنهم إبليس، وبعض: أنّ الجنَّ والملائكة من النار، فالشياطين من دخانها، والملائكة من صافيها، وسائر الجنِّ من متردِّدها. وقالوا: لو لم يكن الملائكة بناته لم يسترهم، ويردُّ عليهم بأنّهم مقرُّون بالجنِّ وهم مستورون.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ الكُفّارُ إبليسُ وأتباعه منهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أنفسهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار للعذاب، لعلم إبليس ذلك وعلمهم ذلك بالسماع، ولو

ناسبوه باستحقاق العبادة، أو أخوَّة أبيهم له لم يعذِّبهم فكيف تثبتون لهم ما علموا بانتفائه؟ أو ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾: أي الملائكة أنَّ هؤلاء القائلين: إنَّ الملائكة بنات الله، ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾: في النار لقولهم هذا.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن وصفهم الله تعالى بما لا يليق به. و«مَا» مَصدَرِيَّة ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المستتر في «مُحْضَرُونَ»، أو من واو «يَصِفُونَ»، أو واو «جَعَلُوا».

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ إذا علمتم هذا فإنَّكم، أو إذا كان المخلصون ناجين فإنَّكم ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عطف على الكاف، أو معيَّة ﴿مَآ﴾ نافية ﴿أَنتُمْ﴾ خطاب للكفرة وآلهتهم على التغليب ﴿عَلَيْهِ﴾ على الله، متعلِّق بقوله: ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ لتضمُّنه معنى مستَوْلين مستعار من قولهم: فتن غلامه عليه إذا أفسده. والباء في خبر «مَا» للتأكيد، والجملة خبر «إِنَّ»، والمستثنى منه محذوف، أي ما أنتم بفاتنين على الله أحدًا.

﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ و«مَنْ» مفعول به لـ«فَاتِنِينَ» بمعنى: صادِّين عن دين الله، بعد أن حذف مفعوله، و«صَالِ» مرفوع بالضمَّة مقدَّرة على الياء المحذوفة للساكن، حذفت خطًّا أيضًا اتِّـباعًا للَّفظ، والغالب في مثله الإثبات في الخطِّ، وكذا يتنوَّع القرآن في القراءة والخطِّ.

ويجوز أن تكون الواو للمعيَّة فيكون «مَآ أَنتُمْ...» مستأنفا أو خبرًا لـ«إِنَّ»، وتكون الهاء لـ«مَا» على تقدير مضاف. ولا تغليب في الخطاب، أي إنَّكم وآلهتكم مقترنون، كقولك: كلُّ رجلٍ وضيعته، لا تبرحون تعبدونها، وما أنتم بفاتنين أحدًا بالردِّ إلى الكفر إلاَّ من كتب الله أنَّه من أهل النار، وحاصل المعنى: **إنَّكم مع معبوديكم لا يتيسَّر لكم أن تفتنوا إلاَّ من هو شَقيٌّ عند الله.**

﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أي قالت الملائكة، أو تقول الملائكةُ: ما أحدٌ ثابت منَّا، عطف على «عَلِمَتِ الْجِنَّةُ» إذا فسِّرت بالملائكة ﴿إِلاَّ لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في الرتبة عند الله، وفي نوع العبادة، والمسارعة إلى أمر الله تعالى، والخشوع لعظمة الله تعالى، والخوف والرجاء والمحبـّة والرضا، فمنهم راكعٌ لا يقيم صلبه، وساجد لا يرفع رأسه، جاء ذلك في الحديث.

وقال أبو ذرٍّ: قال ﷺ : **«إنِّي أرى ما لا ترونَ، وأسمعُ ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحقَّ لها أن يئطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع إلاَّ وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله»**[1] رواه ابن ماجه والترمذي قبله، والأطِيطُ: صوت القَتَبِ أو حنين الإبل.

وعن عائشة عنه ﷺ : **«ما في السماء موضع قدمٍ إلاَّ وعليه ملك ساجد أو قائم»**[1] وذلك قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ رواه ابن جرير.

أو [المعنى قول] الرسول: مَا مِن المسلمين أحدٌ إلاَّ له مقام معلوم عند الله، على قدر عمله يوم القيامة، وفسَّر بعضهم الآية به، على حدِّ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (سورة الإسراء: ٧٩) ، أو هو عائد إلى قوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾، كأنَّهُ قيل: فاستفتهم، وقُلْ: مَا مِنَّا. وجملة «لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» خبر المبتدأ الموصوف بـ«مِنَّا»، ويجوز كون «مِنَّا» خبرًا لـ«أحد» المقدَّر، وما بعد «إلاَّ» حال من ضمير الاستقرار.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ أنفسنا أو أقدامنا في الصلاة، أو في أداء الطاعة والخدمة، أو حول العرش ننتظر الأمر الإلهيَّ، أو في البرِّ داعين للمؤمنين، أو

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٨، ص٢٢٣. وقد أوردهما الشيخ في حديث واحد.

في الهواء منتظرين الأمر الإلهيّ، أو في كلّ ذلك.

وذلك بالملائكة أنسب منه بالنبيء ﷺ والمؤمنين، على الوجهين السابقين فيمن قال: ﴿مَا مِنَّآ﴾، وينصُّ على أنَّ ذلك قولُ الملائكة ما ذكره ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن مغيث: «إنَّهم كانوا لا يصفُّون في الصلاة حتَّى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾».

ويدلُّ على أنَّ الصفَّ صفُّ الملائكة في الصلاة ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن جابر بن سمرة عنه ﷺ : «**ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربِّهم؟**»[1] لكن لا حصر في الصلاة.

وروى مسلم عن حذيفة عن رسول الله ﷺ : «**فُضِّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدًا، وجعلت لنا تربتهاطهورًا، إذا لم نجد الماء**»[2].

وكذا يدلُّ علىأنَّ قائل: «مَا مِنَّا» الملائكة لا الرسول ﷺ ومن معه قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**﴾ لأنَّهم أبلغ في التسبيح وَدَوَامِهِ، أي المنزِّهُون الله عمَّا لا يليق به ﷻ ، بقول: سبحان الله، وبقول: سبحان الملك القدُّوس، وبقول: لا إله إلاَّ الله، وسائر الأذكار. وقيل: ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾: المصلُّون، وإذا فسِّر ﴿الصَّافُّونَ﴾ أو ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾: بشيء فسِّر الآخر بشيء آخر.

١- رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، رقم٤٣٠. و**النسائي** في كتاب الإمامة، باب حثّ الإمام على رصّ الصفوف، رقم ٨١٦. و**أبو داود** في كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم ٦٦١. من حديث جابر بن سمرة.

٢- رواه **مسلم** في كتاب المساجد ومواضع السجود، رقم ٥٢٢. و**أحمد** في مسند الأنصار، رقم ٢٢٧٤٠. من حديث حذيفة.

زعم بعض أنّ هذه الآية: ﴿وَمَا مِنَّآ...﴾ إلى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ و﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ...﴾ إلى: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥) ، و﴿وَاسْئَلْ مَنَ اَرْسَلْنَا...﴾ إلى: ﴿يُعْبَدُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٤٥) ، لا في الأرض ولا في السماء أي في الهواء، أو نزلن بلا ملك يجيئه في الأرض أو السماء، بل في قلبه، ولا دليل لذلك، إلاّ أنّه جاء: «أُعْطِيَ خواتم سورة البقرة عند سدرة المنتهى»[1].

﴿وَإِن﴾ مخفّفة واللام للتأكيد، فارقة عن النفي، أو نافية واللام بمعنى إلاّ، والأوّل أصحّ ﴿كَانُواْ﴾ كفّار قريش ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قبل بعثة النبيء ﷺ أو بعدها بأنّهم لم يعتدُّوا بالقرآن أنّه من الله، ويبعد أن يفسَّر الذكر بالعلم، بما صار للكفّار قبلهم في الآخرة من العقاب.

﴿لَوَ اَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ لو ثبت أنّ عندنا من الله تذكيرًا ﴿مِّنَ اَلاَوَّلِينَ﴾ من جنس تذكير الأوّلين كتذكيرهم بالتوراة والإنجيل والزبور، أو ﴿ذِكْرًا﴾ بمعنى كتاب، لاشتماله على التذكير ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اَللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ للعبادة، أي مثل العباد المخلصين المشهورين، فلاحصر لتقدير المضاف، أو ذلك على ظاهره من الحصر، فيكون إضافيًّا، أي كالعباد المخلصين لا المشركين.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِ﴾ جاءهم ذكر من الله هو القرآن فكفروا به بعد ما طلبوا قبل البعثة، أو ثبت عندهم حين طلبوا بعدها، ولم يكترثوا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بالمشاهدة ما جزاءُ كُفرهم بأفضل كُتُبِ الله والمهيمن عليها.

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **مسلم** وغيره في كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم١٧٣. من حديث ابن مسعود.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

وعد الله للمرسلين بالنصر وتهديد المكذِّبين لهم

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ أي وبالله أو بربِّنا، وإنَّما قدِّرت حرف القسم باءً لا واوًا لِئَلاَّ يجتمع واوان، واو العطف وواو القسم، والإضافة للجنس، فشملت كلمات، لأنَّ لله كلمات لا كلمة واحدة، كما قرأ الضحاك[1] بالجمع.

(بلاغة) ويحتمل أن يجعل كلماته كلَّها واحدة لارتباطها غاية الارتباط على الاستعارة التصريحيَّة الأَصليَّة التحقيقيَّة، والمعنى: وعدنا بالخير لِلمُرسلين وأتباعهم، وبالشرِّ لمخالفيهم جزمًا.

ووجهٌ آخر أنَّ الكلمة بمعنى الكلام المفيد المركَّب من كلمات، مجاز مرسل لعلاقة الكلِّـيَّة والجزئيَّة، وقيل: الكلمة بمعنى الكلام حقيقة لغويَّة، واختصاصها بالمفرد كـ«قام» و«زيْدٌ» و«باء الجرِّ» اصطلاحٌ لأهل العَرَبِيَّة، وليس كذلك، ألا ترى أنَّه يقال: كلمات وكلمتان.

١- الضحاك بن مزاحم الهلالي الخرساني أبو القاسم، تابعي جليل، ومفسِّر مشهور، روى عن أنس وابن عمر وأبي هريرة، وثَّقه أحمد وابن حبَّان، تُوُفِّيَ بخرسان عام ١٠٥هـ. معجم المُفَسِّرِينَ، ج١، ص٢٣٧.

﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وأتباعهم و لم يذكرهم للعلم عند كلّ أحد أنّ حكم التابع حكم المتبوع، وأيضًا دلّ عليهم ذكر الجند بعدُ، وفسَّر سبق الكلمة للمرسلين بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ مستأنف، قيل: أو بدل.

فإن أريد بالكلمة اللفظ الذي نتلفّظ به عنه معشر الخلق حاشاه عن التلفُّظ فالمرادُ ألفَاظُ «إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ...» وإن أريد بها الموعودُ بِهِ فالمرادُ معنى «إِنَّهُمْ لَهُمُ...». والإضافة إلى «نا» في الموضعين للتشريف.

والجند: الأتباع، أو هم المرسلون، ذكروا باسم المرسلين وباسم الجند وضعًا للظاهر موضع المضمر، وذلك تعظيم لهم بالإرسال والتبليغ، وبجهد طاقتهم في الذبِّ عن طاعة الله، فمقتضى الظاهر [أن يقال:] وإنَّهم لهم الغالبون. أو المراد بالجند مطلق المؤمنين تعميما بعد تخصيص.

(نحو) وفي الجملتين تأكيد باللام والضمير بعدها جُعِل فصلاً، أو مبتدأ، أو الجملة الاسمِيَّة و«إِنَّ» للحصر.

[قلت:] إلاَّ أنَّك كثيرًا ما ترى الكفرة غالبين، فنقول: إذا كان الكفرة غالبين فلاِختلاَل شرط في كون المؤمنين غالبين، كما أعجبتهم كثرتهم، وكما خرجوا عمَّا حدَّ لهم رسول الله ﷺ يوم حنين، وكذا يوم أحد لكن هزم الكفرة فيه آخرًا.

وعن الحسن: ما غلب نبيء في حرب قطُّ، ولأنَّ الغلبة تكون في الآخرة أيضًا كما تكون في الدنيا أيضًا، وتكون بالحجَّة وبعد موت الرسل، فالغلبة من أتباعهم غلبة منهم، وأيضًا لم يمت رسول ولا نبيء في القتال قطُّ، والغلبة تكون بالقتل والأسر والإجلاءِ والتشريد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ صبرًا وإعْراضًا فلا يهمَّـنَّك شأنهم فإنَّ مصيرهم إلى السوء ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لكلِّ أحَدٍ كآجال موتهم، أو إلى وقت الأمر بالقتال، أو إلى بدر، أو إلى يوم الفتح، أو إلى يوم القيامة.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ انظر إليهم الآن ما بين مأسُورٍ ومقتولٍ ومشرَّدٍ. أو معذَّبين في النار، جعل الله ﷻ ذلك واقعًا مشاهدًا قبل وقته لقربه وتحقُّقه في غير النار، ولتحقُّقه في النار، أو لتحقُّقه وقربه معًا باعتبار نار القبر، فإمَّا أن يَقدَّر حال، أي أَبْصِرْهُمَ وهم بتلك الأحوال، أو يقدَّر مضاف، أي اُنظُر بلاءهم أو أحوالهم.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ في أنفسهم ما أمرناك بمشاهدته، «فَسَوْفَ» للوعيد المؤكَّد لا للاستقبال المنافي للمشاهدة، ولا بأس بالاستقبال، ألاَ ترى أنَّ مُسمَّى الوعيد غير حاضر، ولا بأس في أنَّه يراه قريبا كالمشاهد، وهم لا يعتقدونه البتَّة، فضلا عن القُرب والبُعْد، أو فسوف يبصرون مَالَكَ ولأَتْبَاعِك من النصرة الدُّنيَوِيَّة وَالأُخرَوِيَّة. و«سَوْفَ» للتأكيد.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أأمنوا مكرنَا فَبِعَذَابِنَا يستعجلون؟ قُدِّم للفاصلة، ولأنَّه المقْصِدُ الأعظَمُ المكذَّبُ به، قالوا: أحضِر العذاب الذي تُخوِّفُنا به فنزل ذلك، وقيل: قالوه حين نزل: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وقالوا: «مَتَى هُوَ».

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾، العطف على محذوف، أي أخطأوا، فإذا نزل بساحتهم لم يقدروا على شيءٍ من ردِّه، وهو واقعٌ ولا بدَّ. والساحة: المكان الواسع عند الدُّور، أو في قربهم، وذلك المرادُ، أو المكان الواسع مطلقًا وليس مرادًا في الليل، ويقال: نزل بساحته أي نزل به، وهو المراد.

(بلاغة) شبَّه العذاب بجيش هجَمَ على قوم غافلين، مع أنَّهم أنذروا، وذلك مكنيَّة، والنزول تخييل باق، أو استعارة، والأوْلى حَمْل الكلام على الاستعارة المركَّبة، فإنَّه لا يعدل عنها ما وجدت بلا تكلُّف ولا تكلُّفَ هُنا.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ المخصوص بالذمِّ محذوف، أي صَبَاحُهُم، والصباح مطلق الوقت، ووجهه أنَّ أكثر وقائع العرب تكون صباحًا وكثيرًا ما يسمُّون الغارة صباحًا إطلاقًا لاسْم الزمان على ما وقع في الزمان، ويجوز حمل الآية عليه. و«ال» للجنس لا للعهد، لتفادي فائدة المخصوص بعد العموم.

وقيل: ضمير «نَزَلَ» للنبيء ﷺ ، فَيُرادُ نزوله يوم الفتح، ويجوز أن يفسَّر ببدر، لأنَّه لا يشترط في قولنا: نزل كذا بساحة كذا الدور أو المنازل، بل يكنَّى به عن مطلق نزول السوء مطلقًا، ولا سيما أنَّ للمشركين خيمًا ومنازل.

ولا يفسَّر بنزوله على خيبر، ولو قال حين نزوله عليها: «**الله أكبر خَرِبَتْ خيْبَرُ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾**»[1] لأنَّ آية السورة مع مشركي مَكَّة وهي متقدِّمة النزول على حِصَارِ خيبر، نزلت قبلُ فحاكاها عنده.

وزاده تسلية وتأكيدًا لعظم مَسَاره ومضارِّ عدوِّه بقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ حتَّى كأنَّها تسلية جديدة، ويُحسِّنها أيضًا الفصلُ بما يغيظهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا...﴾ إلى: ﴿الْمُنذَرِينَ﴾.

وأجيز أن يراد بالأوَّل عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة، ويناسبه التغاير بحذف مفعول: «أَبْصِرْ» في الثاني وهو بالآخرة أنسب لبعدها باعتبار الدنيا.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزِّهْهُ عمَّا لا يليق به من الصفات ممَّا ذُكر في هذه السورة أو غيرها، كإخلاف الوعد لَكَ، والوعيد لهم، مع أنَّه مُرَبِّيكَ وَمَالِكُكَ كيف يُضَيِّعُكَ وأنت مطيعه؟ ومع أنَّه ربُّ العِزَّة، وعزَّة

١- رواه **البخاري** في كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، رقم ٣٦٤. ورواه **مسلم** في كتاب النكاح باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها رقم١٣٦٥ من حديث أنس بن مالك.

غيره كلا عزَّة، إلاّ عزَّةً يعطيها مُطيعَهُ فإنَّها مُعْتَبرةٌ، ولا عزَّةَ لأحَدٍ مؤمن أو كافر إلاّ منه، وهو مَالكُها دُنيًا وأُخرى.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من كلّ المكاره في دينهم وآخرتهم، فائزون فوزًا لا يفي به التفصيل، ولو لَقَوْا مَكَارهَ في دنياهم، بل بها يزداد ثوابهم. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إكمال النعم الدِّينيَّة وَالدُّنيَويَّة وَالأُخروِيَّة، وإنجاز الوعد بالنصر لأوَانه للمرسلين وأتباعهم.

كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يُسَلِّمَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رواه أبو سعيد، وقال رسول الله ﷺ : **«من قال دبُرَ كلِّ صلاة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثلاث مرَّات فقد اكْتَالَ بالمكْيَال الأوْفَى منَ الأجْرِ»**[1] رواه زيد بن أرقم. وقال رسول الله ﷺ : **«مَن سَرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فَلْيَقُل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»**[2] اللّهُمَّ وفِّقنا.

وصلِّ وسلِّم على نبيئك محمَّد وآله وصحبه وسلِّم.

١-أورده ابن أبي زيد القيرواني في الفواكه الدواني، باب العمل في الصلوات المفروضة، فصل ما يستحب عقب كلّ صلاة. الموسوعة الفقهيَّة. (قرص مدمج).

٢-أورده عبد الرزاق في مُصنَّفه، كتاب الصلاة، باب التسبيح والقول وراء الصلاة، رقم٣١٩٦ أثرا عن عليٍّ كرَّم الله وجهه.

تفسير سورة ص وآياتها ٨٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾

مهاترات المشركين وتسفيههم

﴿صَ وَالْقُرْءَانِ﴾ الواو للقسم ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ صاحب الوعظ لاشتماله على ذلك، أو اسم مصدر، أي ذي التذكير، أو ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين والأحكام، والقصص والأخبار عن الأنبياء والأمم، والوعد والوعيد.

وجواب القسم محذوف، أي **إنّك لرسول من الله** كما جعلت الرسالة جوابًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس: ٢) ، وقد ذكر الإنذار هنا كما قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ (سورة يس: ٤) . أو يقدَّر: إنّه أي القرآن لمعجز، أو

السورة لَمُعْجزة، أو ما كفر من كفر لخلل في القرآن، أو لقد جاءكم الحقُّ، أو ما الأمر كما تزعمون، أو ما أنت بمُقصِّرٍ في التبليغ والتذكير.

وأضْرَبَ عن الجواب المقدَّر بقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ﴾ تَكَبُّرٍ عن الحقِّ مَعَ وُضوحِهِ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ مخالفة لله ﷻ ورسوله ﷺ ، كقولهم: أنت في شقٍّ غير شقِّ صاحبك، ومن قولهم: «شقَّ العصا» بمعنى فارق وخالف.

وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (سورة ص: ٦٤) ، ويردُّه كثرة الفصل، وأنَّ هذه الإشارة ما ذكر لها المشار إليه إلاَّ بعيدًا عن القسم، وقيل: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ (سورة ص: ١٤) ، وهو مروي عن الأخفش ويردُّه البعد واستئنافُ ما اتَّصل به هذا الجواب المُدَّعى، وأيضًا أيُّ فائدة في القسم على أنَّهم كلَّهم كذَّبوا الرسل؟ إلاَّ بتضمينه قوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وقيل: الجواب ﴿كَمَ اَهْلَكْنَا مِّن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ويردُّه أنَّه إنشاء والإنشاء لا يكون جوابًا للقسم بغير الباء، وأمَّا كون كمْ لا تقبل لامَ جواب القسم لأنَّها مفعول به مقدَّم فلا يعتبر لجواز كون جواب القسم بلا لام.

﴿كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيد لكفرة قريش أن يصيبهم لكفرهم ما أصاب قرونًا كثيرة قبلهم لكفرهم، وهو يتضمَّن التسلية له ﷺ ﴿فَنَادَواْ﴾ يا ربِّ أو يا قومُ أو يا فلان، كلٌّ ينادي بما أمكنه استغاثة حين رأوا العذاب، أو رفعوا أصواتهم بالتوبة.

(نحو) ﴿وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ «لاَ» حرف نفي عَمِلَ كَلَيْسَ، واسمها محذوف، أي لا الحينُ أو لا حينُهم، و«حِينَ» خبرها، و«مَنَاصٍ» تأخُّر أو فوات أو فوْتٌ، مصدر ميميٌّ. والتاء لتأكيد النفي كما أنَّها للتأكيد في علاَّمة وراوية، أو كلمة وضعت على حدة بالزيادة للتأكيد.

(نحو) ويشبه اللعب قولهم: زيدت لتأنيث الكلمة أو ليكون بوزن ليس، والجملة حال والرابط واو الحال، وربطت أيضا بهاء حينهم المقدَّر، أو «ال» في الحين المقدَّر للعهد أو نائبة عن الضمير.

(نحو) وقيل: «لا» عاملة عمل إنَّ و«حِينَ مَنَاصٍ» اسمها، ومضاف إليه والخبر محذوف، أي لهم، وقيل: دخلت على فعل ناصب لـ«حِينَ»، على المفعوليَّة، أي ولا يرون حين مناص، أو لا يجدون حين مناص.

(صرف) وفي تاء «لاَتَ» الضمُّ والكسر، فهؤلاء ثلاث لغات، والوقف عليها بالتاء كما هو المرسوم لا بالهاء، كما قيل عن الكسائي والفرَّاء، إن صحَّ، وقيل: على «لاَ» والتاء زائدة في أوَّل «حِينَ»، كتبت منفصلة خروجًا عن القياس، ويدلُّ له ما قال أبو عبيدة والسخاوي: إنَّهما رأيَاها مُتَّصلة بالحاء خطًّا، في مصحف عثمان، [قلت:] والأصل حمله على قياس الخطِّ لا دعوى أنَّها مع «لاَ» وأنَّها كتبت متَّصلة بالحاء شذوذًا، وقد وردت زيادتُها أوَّل حينَ والآنَ نثرًا أو نظمًا يقولون: اذهب تَحين، واذهب تلان، قال شاعر:

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مُطعِمِ[1]

(صرف) ولا دليل على أن «لاَتَ» هو ليس، أبدلت الياء ألفًا والسين تاء، والأصل عدم القلب، ولو كان أصل ليس كسر الياء فتقلب الفاء لتحرُّكها بعد فتح، لأنَّ ذلك أصلٌ مُلغًى، ولا دليل على دعوى أنَّه اعتبر جُمودُها فَسُكِّنت الياءُ واعتبر تحرُّكها فقلبت.

١– البيت لأبي وجزة السعدي وهو من الشواهد، ولعجز البيت روايات. انظر: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج٧، ص١٨٠.

﴿وَعَجِبُواْ﴾ عجب الكفرة قريشٌ عَجَبَ نفيٍ وإنكار ﴿أَن جَآءَهُم﴾ من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٌ﴾ أي من مجيئهم نذيرٌ، برفع نذير على الفاعليَّة للمجيء المضاف للمفعول. والنذير: الرسول يخبرهم بالعقاب على الكفر ﴿مِّنْهُمْ﴾ من جنسهم وهو البشر، أو نوعهم وهم الأمِّيون، الذين لا يكتبون ولا يقرؤونَ.

﴿وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ﴾ مقتضى الظاهر: وقالوا، لكن ذكرهم ذمًّا لهم باسم الرسوخ في الكفر ﴿هَذَا﴾ أي محمَّد ﷺ ﴿سَاحِرٌ﴾ فيما يقوله عظيمٌ لا يطاقُ ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله عن الله بأنَّه واحدٌ، وبالعقاب عن من قال بالتعدُّدِ.

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ﴾ المتعدِّدَةَ ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ هو الله ﷻ، كيف يبطلها ويثبت واحدًا؟ ولا يسمَّى إلها إلاَّ واحدا ﷻ. والاستفهام تعجُّب إنكار، ومعلوم أنَّ المتعدِّد لا يكون واحدًا وأنَّه لا تعدُّد في اعتقاده ﷺ، لَكِنَّ المعنى تَعَجُّبهم من نَفْيِ معنى الأُلُوهِيَّة عن غير الله البتَّةَ، ونفي اسمها عن غيره كذلك.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي هذا الجعل ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ما المانع أن تكون آلهة صغارٌ تحت إِلَه كبير ﷻ، نتوسَّل بها إليه، **وذلك منهم خطأٌ واضح لهم ولغيرهم تعمَّلوه تقليدًا لآبائهم،** ألا يرون أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعلم شيئًا؟ ولا تعين الله في علم ولا عمل؟ وليس فيها معنى الأُلُوهِيَّة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾ (سورة العنكبوت: ٦١)، وربَّما توهَّموا لإِلْفَتِهم لها أنَّها قد تضرُّ وقد تنفع.

(صرف) وفُعَالٌ بضمٍّ وتخفيف وارد في المبالغة، يقال: رجل طُوَالٌ وسُراع أي بليغٌ في العجب نادرة فيه، أو محال.

(سبب النزول) لَمَّا أسلم عمر ﷺ وقوي به الإسلام اجتمع أشراف من قريش، أبوجهل والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب بن عبد يغوث،

وعقبة بن أبي معيط، ونحوهم من الأشراف ومن العَامَّة، عند مرض أبي طالب، وشكوا إليه شتم رسول الله ﷺ لآلهتهم، وطلبوه أن يكفّه عنها، فدعاه، وفي قرب أبي طالب مقعد رجل واحد، فانتقل إليه أبو جهل لعنه الله خوف أن يقعد ﷺ فيه فيرقَّ له أبو طالب، وقعد عند الباب، وذكر له أبو طالب ما قال قومه، فقال ﷺ : «أطلب منهم كلمة واحدة يدين لهم بها العرب، وتعطيهم العجم الجزية»، قالوا: نزيد عليها عشرًا فما هي؟ قال: لاَ إِلَهَ إلاَّ الله، قالوا: سَلْنَا غَيْرَهَا، قال: لا ! ولو وضعتم الشمس في يدي. فقاموا غضَابًا قائلين: ﴿أَجَعَلَ اَلاَلِهَةَ إِلَهًا وَٰحِدًا انَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؟ لنشتمنَّك وإلَهَكَ الذي يَأمُرُكَ بهذا.

﴿وَانطَلَقَ﴾ ذهب من مجلس أبي طالب ﴿اَلْمَلأُ مِنْهُمْ﴾ الأشراف المذكورون آنفًا، قال رجل من المسلمين يوم بدر إذْ غَلَبُوا المشركين ذَمًّا لهم وإهانةً: ما قتلنا إلاَّ النساء، فقال ﷺ : بل هم الملأ، وقرأ: ﴿وَانطَلَقَ اَلْمَلأُ﴾ ﴿أَنِ امْشُواْ﴾ قالوا: سيروا على الأرض في مصالحكم، واتركوا قول محمَّد.

والانطلاق عن مجلس الكلام يقتضي التكلُّم بعده، ففيه معنى القول دون حروفه، فـ«أَنْ» مفسِّرة له، أو الانطلاق الشروع في الحديث، ففيه معنى القول، وهو مجاز مشهور في ذلك، حتَّى قيل: إنَّه حقيقة عرفيَّة، والمنطلق في ذلك ألسنتهم، فذلك تجوُّز بإسناد ما للبعض للكلّ.

قال الأشراف المذكورون لِلعَامَّة، وبعض لبعض: أعرضوا عنه إلى مصالحكم. أو «امْشُوا» دوموا على سيرتكم في شأن آلهتكم ﴿وَاصْبِرُواْ عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ على عبادتها والاعتناء بها، وتحمَّلوا تحقير محمَّد لها ولكم، وعلَّل الصبر بقوله:

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما يقوله محمَّد من التوحيد، أو تصلُّبُه فيه ﴿لَشَيْءٌ﴾

عظيمٌ مصمِّم عليه ﴿يُرَادُ﴾ يريده محمَّد، لا طمع في ردِّه بقهر ولا شفاعة أو تلطُّف، أو شيء من مصائب الزمان يراد بنا لا بدَّ فيه من تجرُّع الصبر، أو شيء يتمنَّاه ويريده، وما كلُّ مريد ينال مرادهُ.

أو إنَّ هذا الذي يريده محمَّد ﷺ من أن تدين له العرب، وتعطيه العجم الجزية أمرٌ يتمنَّاه هو وغيره، ويريدهُ، وَلَكِنَّهُ بعيدٌ، أو إنَّ هذا الدين الذي نحن عليه لشيء يريده محمَّد بالإبطال فاحذروا واصبروا، أو إنَّ هذا الصبر لشيء يطلب محمود العاقبة.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي التوحيد ﴿فِي اِلْمِلَّةِ الاَخِرَةِ﴾ ملَّة النصارى بالنسبة إلى ملَّة اليهود، لأنَّ فيها التثليث لا التوحيد، ويزعم أهلها أنَّ عيسى جاء بالتثليث، أو الملَّة الأخيرة العرب، بمعنى أنَّهم لم يدركوا عن آبائهم التوحيد، أو الأمَّة التي سمعنا عن أهل الكتاب والكهَّان قبل مجيء محمَّد أنَّها تأتي، وما سمعنا أنَّها تأتي بالتوحيد ولا بغيره، وذلك كذب، فإنَّهم سمعوا أنَّها تأتي به، وإن أرادوا أنَّهم سمعوا أنَّها تأتي بالإشراك فأشَدُّ قُبحًا.

﴿إِنْ هَذَآ﴾ ما هذا الذي يدَّعي محمَّد ﷺ ، [قلت:] وإذا ذكرت مُحَمَّدًا عن الكفرة وصلَّيت وسلَّمت عليه فاعتراض منِّي لا كلام منهم كما لا يخفى. ﴿إِلاَّ اَخْتِلاَقٌ﴾ كذب لم يتقدَّم له ما يبنى عليه.

﴿ا.نزِلَ عَلَيْهِ﴾ وهو نشأ يتيمًا لا مال له، ولا أنصار ولا رئاسة ولا شرف ﴿الذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ دُونَنَا ونحن غير يتَامَى و ذُوو مالٍ وأنصار ورئاسة وشرف.

[قالوا:] لو كان القرآن من الله لكان نازلاً علينا كذلك كما قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف: ٣١) ، وقالوا:

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ (سورة الأحقاف: ١١) .

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ لا يقتصرونَ على كلام واحد بل يتردَّدُون تردُّد الشاكِّ الحاسدِ الذي لا حجَّةَ له، فقالوا: سحر، وقالوا: افتراء، وقالوا: أساطير الأوَّلين، وربَّما شكُّوا أنَّه من الله ﷻ وأظهروا خلافه. وفي الإضافة إلى الياء زيادة تحقيق. و«بَلْ» للإضراب عمَّا قبلُ إضرابَ إبطالٍ.

وأَضْرَبَ عن هذا الإضراب وَمَا قَبْلَهُ بالإضراب الانتقالي العامِّ في قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ وسيذوقونه، فإذا ذاقوه زال الحسد والشكُّ، ولات حين إيمان، والآيات بعد تدلُّ على ما ذكرتُ، لا عَلى ما قيل: إنَّ الإضراب الثاني إضراب عن الأوَّل، بمعنى: إذا ذاقوه زال شكُّهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ اَلْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ مقابل لقوله: ﴿أَنزِلَ...﴾ مثل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ (سورة الزخرف: ٣٢) ، وأم للإضراب والاستفهام، أي بل أعندهم، منقطعة لا عاطفة، والعنديَّة التصرُّف وقدِّمت لأنَّها عمدة الكلام في النفي، أي لا يملكون تَصَرُّفًا فيعطون من شاءوا النبوءة، وإضافةُ ربٍّ للكاف تشريفٌ ولطفٌ به ﷺ .

والعزيز القهَّار الله لا أنتم، وكيف تترفَّعون عن رسولي بالتجبُّر؟ والملك الوهَّاب الله لا أنتم! وما عندكم خزائن الرحمة فتهبوا النبوءة لمن شئتم. والمبالغة في «وَهَّاب» تعمُّ الكمَّ والكيف، وكم نعمة في النبوءة!!.

﴿أَمْ لَهُم﴾ أم ألهم؟ ﴿مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ الأرضين أجرام ذلك ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو ما عليهما من الحيوان والنيِّرات وأملاك الأرض، أو ﴿السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾: الأجرام وما فيها، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: هو الهواء، فإنَّه ملك لله، والأمطار

والرياح والأطيار والبحر في الجوِّ، وإنَّما يكون إلهًا من ملك كلَّ شيء، وإنَّما يهب ما يشاء لمن يشاء، وينفذه مَنْ مَلَكَ ذلك، ومنه النبوءة والرِّسالة.

﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِي الأَسْبَابِ﴾ إن كان لهم مُلكُ ذلك فليصعدوا في المعارج ليتصرَّفوا فيه بالتدبير والإعطاء والمنع لينتفعوا بذلك، وليصدِّقوا دعواهم فيوحوا إلى من يشاؤونَ، وذلك تَهَكُّمٌ عليهم بالعجز كلَّ العجز وأن لا معِراج لَهم.

وعن مجاهد: ﴿الأَسْبَابِ﴾: أبواب السماوات، وقيل: السماوات، لأنَّ الله ﷻ خلق فيهنَّ أسبابًا عادية للحوادث السفليَّة، وعليه يكون مقتضى الظاهر: فليرتقوا فيهنَّ، فأظهرَ ليصفهنَّ بالسببيَّة، ويجوز أن يراد بالارتقاء في الأسباب معالجةُ الحيَل في الصعود فيفعلوا ما شاءوا.

﴿جُندٌ مَّا﴾ أي هؤلاء الكفرة جندٌ، و«مَا» مزيدة للتحقير والتقليل، وقيل: «مَّا» اسم نعت، والمعنى: حقير قليل، وقيل: للتعظيم بطريق التَهكُّم والاستهزاء بهم، وقيل: للتعظيم على ظاهره، فإنَّ المدحة للنبيء ﷺ بغلبته على الجمع العظيم أعظَمُ، ألا ترى الشعراء يمدحون الأعداء بنحو الشجاعة فيرجع لهم الفوز بأن غَلَبوا من هو قويٌّ، ولا يلزم ذلك، وللكلام مقامات واعتبارات وحالهم معروفة بالقوَّة، فيجوز أن يراد أنَّهم ذلُّوا بالله ﷻ .

﴿هُنَالِكَ﴾ نعت «جُندٌ»، أو متعلّق بقوله: ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي مغلوبٌ، وإشارة البعيد إلى مَكَّة، والآية في مَكَّة والبعد باعتبار بعده عنها حين إرادة فَتْحِهَا، لأنَّه يريده وهو في المدينة، وبهذا التأويل يَصِحُّ الكلام.

وقيل: الإشارة إلى بدر لبعده عن مكَّة، ولا يتوقَّف صحتَّه على جعل بدر من مَكَّة، فإنَّ كونه منها ينافي البعد، وتبعد الإشارة إلى الخندق.

وتجوز الإشارة إلى المرتبة تنزيلاً لها منزلة المكان، أي وضعوا أنفسَهُم حيث

لا يتأهَّلونَ، وتجوز إلى الزمان البعيد زمان الفتح، أو يوم بدر، أو يوم الخندق، أو زمان الارتقاء.

(نحو) وإذا كان الإشارة للزمان لم يكن نعتًا لـ«جُندٌ»، إذ لا توصف الجثّة بالزمان، ولا يخبر عنها به ولا يكون حالا لها. و«مَهْزُومٌ» نعت لـ«جُندٌ» لا خبر ثان لأنّ المبتدأ جمعٌ.

والوصف بالهزم لتحقُّق الوقوع كأنّه ماضٍ، أو يفسَّر اسم المفعول بالاستقبال. وأصل الهزم: فتُّ الشيء اليابس، أي وقومك الكَفرة كاليابس المتحطِّم.

﴿مِّنَ الاَحْزَابِ﴾ ثابتون من جماعات، ومع ذلك لا تخف ولا تبال بهم، وهو نعت لـ«جُندٌ»، أو حال من الضمير في «مَهْزُومٌ»، أو من المستتر في «هُنَا» إذا جعلناه نعتًا لـ«جُندٌ».

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةَ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

إنذار الكفار بما وقع للأمم المكذِّبة قبلهم

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الاَوْتَادِ﴾ أي وقوم فرعون ذي الأوتاد، على حذف مضاف، أو وصفه بالتكذيب كوصف قومه به فاكتفى الكلام بذكره، ولا سيما مع ذكر بطشه. والوتد وتد الخيمة، وصف به لكثرة خيمه.

(بلاغة) أو شبّه في رسوخ ملكه ببيت قويّ صحيح الأوتاد، ورمز بلازم المشبَّه به وذلك اللازم الأوتاد، ولا يجوز أن يشبَّه المُلْك الثابت بذي الأوتاد وهو البيت، وجعلُ فرعون اسمًا لُملكِه مبالغة لأنّ في ذلك مقابلة المُلك بذوي الأملاك.

وعن ابن مسعود: ﴿الاَوْتَادِ﴾: الجنود يُقَوُّونَ ملكه، وذلك على الاستعارة التصريحيَّة أو المجاز المرسل للزوم الأوتاد للجند، وقيل: **المباني العظيمة على الاستعارة أو الإرسال** [التي منها الأهرام].

ويقال: كان يشدُّ من يعذّبه بأربعة أوتاد على أطرافه الأربعة في أربع سوارٍ حتّى يموت، ويقال: يمدُّه بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات، وقيل: له حبال وأوتاد يُلْعَبُ بها بين يديه.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةَ﴾ الغيطة التي يسكنوها، أو البلد الذي سكنوه، وهم قوم شعيب ﴿أُوْلَئِكَ الاَحْزَابُ﴾ مبتدأ وخبر، أي هم المتحزّبون على الرسل، أو بدل من قبلُ وما بعده مستأنف، أو نعت ومنعوت وما بعدَه خبر، وهو قوله:

﴿إِن كُلٌّ﴾ كلُّهم أو كلٌّ منهم ﴿الاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما حزبٌ إلاّ كذّبوا رسولهم، أو ما حزب إلاّ كذّب الرسل كلّهم، لأنّ تكذيب رسول واحد تكذيب للرسل كلّهم، والحصر إضافيٌّ أي صدر منهم التكذيب الصريح، لا التردُّد ولا الظنُّ ولا التصديق، أو لَمَّا رغبوا في التكذيب جعلوا كأنّه لا فعل لهم إلاّ التكذيب.

﴿فَحَقَّ﴾ وقع ﴿عِقَابِ﴾ عقابي الذي يوجبه كفرهم، قومُ نوح بالإغراق، وفرعون بالغرق، وقومِ هود بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والرجم، وأصحاب الظلّة بالنار من سحابة استظلُّوا تحتها.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ ينتظر ﴿هَؤُلَآءِ﴾ الكفرة من قومك يا محمَّد المستوجبون العذاب

بكفرهم كمن قبلهم ﴿الاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ تُهْلِكُهم، وهم محتَقرون أذلاَّءُ.

(بلاغة) شبَّه تَحقُّقَها قطعًا بأمر أقرُّوا به أنَّه سكون فهم ينتظرونه، وتلك الإشارة للاحتقار، كما أهلكنا من قبلهم لكن لم نقضها عليهم تشريفًا لك ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَـهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (سورة الأنفال: ٣٣) ، أي وأنت نبيئهم، وإنَّما يعذَّبون في قبورهم وبعد الحشر.

أو إلاَّ صيحة واحدة صيحة البعث يعذَّبون بعدها كسائر الكفرة، لا تعذيبًا في الدنيا كهؤلاء الأمم. وقيل: الصيحة الواحدة مجاز لما أصابهم يوم بدر أو يوم الفتح، وتجوز الإشارة إلى هؤلاء الأحزاب يعذَّبون عند نفخة البعث، والعقاب المذكور قبله في الدنيا.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ الجملة نعت ثان على حذف مضافين، أي ما لها إذا حَضَرَ وَقْتُهَا من تَوقُّفٍ مِقْدَارَ فَواقٍ. والْفَوَاقُ: ما بين الحلبتين في موضع واحد، أو ما بين رضعتي الراضع في موضع واحد.

أو بلا حذف أي ما لها من رجوع لا تُثنى ولا تَرْتَدُّ، وفي زمان ما بين الحلبتين أو الرضعتين يرجع اللبن إلى الضرع. وأيضًا فواق المريض رجوعه إلى الصحَّة اسم للمصدر الذي هو الإفاقة، وفي ذلك مجاز مرسل بإطلاق اسم الملزوم وهو الفواق وإرادة اللازم وهو توقُّف ذلك المقدار، أو مقدار الرجوع.

﴿وَقَالُواْ﴾ حين ذَكَر لَهم عِقابَ مَن كفر عند الصيحة، قيل: وثواب من آمن. والقائل أبو جهل أو النضر بن الحارث أو كلاهما، ورضي الباقون فكان ضمير الجمع.

﴿رَبَّنَا﴾ نادوا الله لشدَّة الاستهزاء، كمن رغب في شيء نافع يرغب فيه إلى الله ﷻ ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ نصيبنا من العذاب على الكفر، وكلُّ ما قطع من شيء فهو قِطٌّ، فيجوز أن يريدوا صحيفتهم التي كتب فيها أعمالهم كالشيء المقطوع من القرطاس، وهو أكثر استعمالاً، والإضافة للجنس فالمعنى: قطوطنا.

﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هو وقت الصيحة الواحدة ولا تؤخِّرها إلى هذا الوقت لنَرى ما فيها فنوقنَ أو نرتدع، تَهكَّموا بذلك وبإثبات يوم الحساب، وهذا اللفظ يدلُّ على أنَّ المراد بالصيحة صيحة البعث.

وعن قتادة وسعيد بن جبير: ﴿قِطَّنَا﴾: نصيبنا أو صحيفتنا من نعم الجنَّة الذي لنا إن آمنَا لنؤمن فننتفع به في الدنيا، وهذا تَهكُّمٌ، ويناسبه نداء الله على وجه الرغبة، ولو أرادوا قِطًّا من العذاب لنادَوا رسول الله ﷺ وقالوه حين ذكر رسول الله ﷺ ثواب الإيمان.

[قلت:] ويبحث بأنَّ الكلام للعذاب والكفر وأمَّا نداء الله فلمزيد الاستهزاء كما مرَّ.

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ

ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

نعم الله على داود عليه السلام وامتحانه

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِمَّا يضيق القلب لمخالفة الحقِّ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي قصَّتهُ لَهُم إذ ناله ما ناله من الغمِّ على ارتكاب ما هو خلاف الأولَى، وأدام ندمه تائبًا مع ملكه العظيم ونبوءته، فكيف حالكم وقد أصررتم على الكفر؟ واذكرها لنفسك لتتحفَّظ عمًّا يكره، وتَصْبِر كما صَبَرَ ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي القُوَّة في الدِّين، فكن مثله، وهو اسم مفرد آخره دال وأوَّله همزة ووسطه ياء.

وكان ﷺ إذا ذكر داود قال: «**هو أعبد البشر**»[1] رواه أبو الدرداء، وعن ابن عمر عنه ﷺ : «**لاَ ينبغي لأحد أن يقول أعبد من دواد**» أي أن يقول إنَّ محَمَّدًا أعبدُ من داود أو أراد أحدًا من الأنبياء. ويروى أنَّه كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويقوم نصف كلِّ الليل، وجعل يومًا للعبادة ويومًا للقضاء، ويومًا لنفسه، ويوما للوعظ. وعنه ﷺ : «**أحبُّ الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحبُّ صلاة إلى الله تعالى صلاة داود ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**»[2].

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى الله ﷻ عن البطالة بالطاعة والتسبيح

١–رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات باب ما جاء في عقد التسبيح باليد... رقم ٣٤٩٠ من حديث أبي الدرداء بلفظ: «كان أعبد البشر».

٢–رواه **البخاري في** كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة... رقم٣٢٣٨. ورواه **مسلم** في كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر... رقم١١٥٩ من حديث عبد الله بن عمرو.

والاستغفار، ومن ذلك ما وري عن رسول الله ﷺ : «**إنّ داود** عليه السلام **أو غيره يذكر ذنوبه في الخلوة عن الناس فيستغفر الله تعالى**» وفسَّر الآية به.

[قلت:] ونفهم أنّ الخلوة ليست شرطًا في الأوب ولكنَّها واقعة حال داود. و[قلت:] من العجيب أن يوجد للكلمة معنى صحيح في العَرَبيَّة ويحملوها على العجميَّة، مثل أن يقال: الأوَّاب في الآية لفظ حبشيٌّ معناه المُسبِّح. والجملة تعليلٌ لقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الاَيْدِ﴾.

﴿**اِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ،**﴾ متعلّق بـــ«سخَّرنا» والمعنى متابعتها له في التسبيح، ولذلك لم يوت باللام بدل «مع» كما أتى بها في الريح لسليمان، إذ كانت له بطريق ملكه لها، واستعماله لها، حيث شاء ومتى شاء، وقدَّم «مع» في سورة الأنبياء [آية ٧٩] مسارعة لذكر داود إذ ذَكَر معه سليمان، ومسارعة للتعيين.

وتعليق «مع» هنا بقوله: ﴿**يُسَبِّحْنَ**﴾ أقرب منه في سورة الأنبياء، وليس لِلْحَصر لأنَّهنَّ يسبِّحن أيضًا بغير حَضرة داود، بل على طريق الاهتمام بالمعية، والله لا يهتمُّ حاشاه، والمراد الترجيح.

وتَسْبِيحُهُنَّ بنطق إذا شاء الله سبحانه، أسمعه أحدًا كما سمع تسبيح الحصا في يده ﷺ ، ثمّ في يد الصدِّيق رضي الله عنه ، وقيل: تسبيحهنَّ وجودُهُنَّ بإيجاد الله لهنَّ، وخضوعُهُنَّ لما يكون عليهنَّ، ويضعفه قوله: ﴿**بِالْعَشِيِّ وَالاِشْرَاقِ**﴾ إلاَّ أن يراد بهما عموم الأوقات، بل الأظهر أنَّ المراد العمومُ، كان التسبيح منهنَّ نطقيًّا أو حاليًّا هكذا: يسبِّحنَ إذا سبَّح ويَزِدْنَ وحدَهُنَّ.

(نحو) والمضارع للتجدُّد، والجملة حال من «الْجِبَالَ»، أو مستأنفة لبيان الوقت، وتتقوّى الحالية بمقابلة «مَحْشُورَةً».

والعشيُّ: من زوال الشمس إلى الصبح. و«الاشراق»: مصدر أشرقت، أي

صفا ضوءُها، وذلك وقت ارتفاعها عن الأُفق أفق البلد، وهو الضحى الصغير، وفيه صلّى رسول الله ﷺ ، فقال: «**هَذِه صلاة الإشراق**»[1]، سمِّي الوقت بالمصدر كما سمِّي بالإبكار.

ومرَّ عن ابن عبَّاس أنَّ كلَّ تسبيح في القرآن صلاة ما لم يمنع مانع، فأخذ صلاة الضحى من الآية. وتسبيح الجبال غير صلاة، وتسبيح دواد صلاة أو غيرها، وهو حقيقة في الكلّ.

(فقه) ويقدَّم قول مثبِتي صلاة الضحى، فَقُدِّم على قول عائشة لأنَّ الحافظ حجَّة، ولاسيما مع كونه أكثر، والمثبت مقدَّم على النافي، وسنَّة الفجر والمغرب والعشاء والتروايح أفضل من صلاة الضحى، وهي أفضل من غيرها.

(فقه) وذكر ابن حجر أنَّه لا تسنُّ صلاة الضحى جماعة ركعتين عقب الإشراق وقت خروج وقت الكراهة، أي ولا سيما أكثر من ركعتين، وفي الحديث: صلّى عام الفتح في مَكَّة صلاة الضحى ثمان ركعات في بيت أم هانئ بأربع تحيَّات وتسليم واحد، كأخفِّ ما يكون من صلاته بعد اغتسال.

ويروى أنَّه كان يغتسل وفاطمة رضي الله عنها تستره، وسلّمت عليه أمُّ هانئ فقال: من هذه؟ قالت: أنا أمُّ هانئ، فقال: مرحبًا بأمِّ هانئ، فصلّى، وقال: «**هذه صلاة الإشراق**» إشارة إلى ركعتين صلاّهما في بيتها في يوم آخر غير الثمان والغسل في بيتها، وقيل: في غيره.

﴿**وَالطَّيْرَ**﴾ عطف على الجبال ﴿**مَحْشُورَةً**﴾ حال من الطير يحشر الله تعالى له الطير تسبِّح معه، ولم يقل: تحشر له، بصيغة التجدُّد، ليدلَّ على قدرته

١- رواه **الطبراني** في الكبير، عن أمِّ هانئ. ج٢٤، ص٤٠٦.

على حشرها دُفعةً.

﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير وداود ﴿لَهُ،﴾ لله عَجَلَّ ﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاع بالتسبيح والذكر، أو كلٌّ من الجبال والطير إلى داود رجَّاع بتسبيحهنَّ إليه إذا سبَّح، أي يتابعنه، أو كلٌّ من الطير لداود أو لله تعالى رجَّاعٌ. واللام بمعنى إلى، أو للتعليل.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ،﴾ قوَّيناه بالهيبة والجنود ومزيد النعمة، وقيل: بالهيبة والنصر، ويقال: يحرسه كلَّ يوم وليلة أربعة آلاف، ويقال: يحرسه حول محرابه أربعون ألف رجل لابس لامة الحرب، والله يعلم هل صحَّ ذلك، ولله أن يفعل ما يشاء.

(قصص) وفي الطبري عن ابن عبَّاس: ادَّعى رجل بقرة على آخر عنده، فقال: قومَا أنظُرُ في أمرِكُمَا، فقيل له في المنام: اُقتل المدَّعى عليه، وقال بعد يقظته: لا أُعَجِّل للرؤيا، وكذا في الثانية، وقيل له في الثالثة: إن لم تقتله يترل عليك عقاب، فأحضره للقتل، فقال: أبلاً بيِّنة ؟ قال: أمرَني رَبِّــي، فقال: أخبرك أنِّي ما أُخذتُ بالبقرة بل بأنِّي قَتَلتُ أبا المدَّعي غيلَةً، فقَتَلَهُ، فعظمت هيبته بذلك.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ الزبور والتوراة والنبوءة وكمال العلم والعمل وموافقة الحقِّ ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي فصل الخصام بتمييز الحقِّ، وسمِّيَ الخصام خطَابًا لاشتماله عليه، أو لأنَّه أحد أنواعه، خُصَّ به لأنَّه المحتاج للفصل، والإضافة إضافةُ مصدر لمفعوله.

أو فصل الخطاب: الكلام الذي يفصل به بين ما صحَّ وما فسد في الحكم بين الناس، وأمْر الدنيا، فالخطاب الكلام المخاطب به، والفصل بمعنى الفاصل، أو

الخطاب: الكلام الذي ينبِّه على المقصود بلا لبس، والفصل بمعنى الفاصل المميِّز للمقصود، أو بمعنى المفصول وهو المقصود.

أو فصل الخطاب: الكلام المتوسِّط، لا إخلال ولا إملالَ، كما ورد: «إنَّ كلام سَـــيِّدنَا محمَّد ﷺ لانَزْرٌ ولا هَذْرٌ». والفصل بمعنى الفاصل، أو المفصول عند السامع المبين عنده. والإضافة إضافة صفة لموصوفها.

ودخل في فصل الخطاب قول داود عليه السلام : «البيِّنة على المدَّعي واليمين على المدَّعى عليه». ومن قوَّته في الحكم أنَّ أحدًا شكا إليه جاره أنَّه سرق وَزَّهُ فخطب، وقال: إنَّ منكم من يحضر الخطبة وعلى رأسه ريشة، فوضع السارق يده على رأسه خوف أن تكون عليه ريشة، فقال لصاحب الوزِّ: هذا هو السارق.

ومثله لإيَّاس بن معاوية إذ شكا إليه رجل آخر أنَّه أنكر وديعة له، فقال له: من يشهد لك؟ قال: لا شاهد، قال: في أيِّ موضع أودعته؟ قال: عند الشجرة، قال: فاذهب إِلَيْهَا لَعَلَّكَ تتذكَّرُ ما نسيتَ، ثمَّ قال للمنكر: هل بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا، قال إيَّاس لمديعه: قد أقرَّ لك المنكِر فخذهُ.

ومثله ما روي أنَّ رجلاً ادَّعَى أنَّه أسْلَم لرجل عشرة دنانير فأنكرَ، فقال القاضي: في أيِّ موضع؟ فقال: في مسجد من مساجد الكرخ، فقال: اذهب واتني بورقة من ذلك المسجد تُحَلِّفُهُ بها فمضى، ثمَّ قال للمنكر: أظننت أنَّه بلغ المسجد، قال: لا، قال القاضي للمدَّعي: خذهُ، فقد أقرَّ لكَ.

ولقوله: أمَّا بعد، فإنَّ أبا موسى الأشعري قال: هو أوَّل من قالها، فإمَّا أن يتكلَّم بهذا اللفظ العربيِّ ولو كان عليه السلام عجميًّا، وإمَّا أن ينطق بمعناه في لغته، فإنَّ في لغة العجم ما في لغة العرب، من الفصل والوصل والإضمار والإظهار والعطف والاستئناف والحصر والحذف والتكرار، وغير ذلك بألفاظ تُؤَدِّيها كأنَّها حكاية للعربيَّة إلاَّ أنَّ العَرَبِيَّة أفصحُ وأبلغُ وأحْلَى.

﴿وَهَلَ اَتَاكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ﴾ تشويق وتعجيبٌ إلى معرفة خبر الذي يخاصم داود عليه السلام. والخصم في الأصْلِ مصدر خَصَمه بمعنى خَاصَمَهُ أو غلبه، ولذلك صحَّ إطلاقه على الواحد فصاعدًا، والعطف على محذوف، أي وهل وصلك ما ذكر؟ أو عطف على «إِنَّا سَخَّرْنَا» عطف قصَّة على أخرى، أو عطف على «اذْكُرْ».

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ﴾ واو الجمع عائد إلى الخصم، لجواز استعماله للجماعة، أي إِذْ عَلَوْا سورَ المحراب ونزلوا إليه، من الأفعال المأخوذة من اسم الشيءِ كَتَسَنَّمْتُ البعير عَلَوْتُ سَنامه، وتَذَرَّيتُ الجبل علوتُ ذِرْوَتَهُ. والمراد بالجماعة الاثنان، بدليل قوله بعدُ: ﴿خَصْمَانِ﴾ قيل: ملكان، ويقال: جبريل وميكائيل، أو المراد فوجان خصمان.

(نحو) و«إِذْ» متعلّق بنعت محذوف لـ«نَبَأُ»، أي نبأ الخصم الواقع وقتَ تسوُّرهم على الاتِّساع في الوقت بما يلي ذلك، وعلى أنَّ الخبر ما يُخبَرُ به، أو بمضاف إلى الخصم محذوف، أي نبأ تحاكم الخصم «إذ...»، لا متعلّق بـ«نَبَأُ» لأنّه لم يخبر وقت التسوُّر، ولا بـ«أَتَى»، لأنّه ﷺ لم يأته الخبر وقت التسوُّر، بل بعد. وجاز [تعلُّقه] بـ«الْخَصْمِ» إذ تخاصموا وقت التسوُّر على الاتِّساع.

(لغة) ﴿الْمِحْرَابَ﴾ بوزن اسم الآلة وضع للغرفة، واستعمل بمعنى المسجد لجامع الشرف، أو لانفصاله عن المسجد كالغرفة عمَّا تحتها، أو أصله صدر المجلس، ومحراب المسجد صدره، أو أصله في المسجد، ويطلق على صدر البيت تشبيها به، أو لأنّه آلة لمحاربة الشيطان والهوى، أو من حرب عن كذا: خلا عنه، ومن شأن من في المحراب خلُوُّ قلبه عن أمور الدنيا.

[قلت:] وهذه المحاريب مأخوذة عن أهل الكتاب ولا توجد على عهد رسول الله ﷺ **والآن صارت أمرًا مُجْمَعًا عليه.**

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُردَ﴾ «إِذْ» بدل كلٍّ من «إِذْ» الأولى على الاتِّساع المذكور، لا بدل اشتمال، لأنَّ بدل الاشتمال ملابس للمبدل منه بغير الجزئيَّة والكلِّية، وإذا اعتبرنا وقت الدخول جُزْءًا من ذلك المتَّسع كانت الملابسة بالجزئيَّة والكليَّة، وجاز كونه مفعولاً به لـ«اذْكُر» محذوفًا.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ انقبض خوفًا من الأذى إذ دخلوا من غير الباب، وبلا إذنٍ مع كثرة الحرس، ومع طول الحائط، ولأنَّ ذلك ليلاً، ولأنَّ كلاًّ آخذ برأس الآخر، وقيل: خَافَ أن يكون قَوْمُهُ اجْتَرَؤوا على دين الله فدخلوا بلا إذن، وذلك بعد منع الحرس لهما يوم عبادته.

وكأنَّه قيل: فما وَقَعَ بَعدَ فَزَعِه، فأجاب ﷻ بقوله: ﴿قَالُواْ﴾ أي الاثنان المعبَّر عنهما بضمير الثلاثة فصاعدًا، ومن الجائز أن يكون معهما ملكان آخران كالشاهدين أو المعينين، فكان القول من أحد الأربعة.

﴿لاَ تَخَفْ﴾ منَّا ﴿خَصْمَانِ﴾ أي فينَا خصمان. أو القائل أحد الخصمين: نحن خصمان، وهو أنسب بقوله: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والمراد: إنَّا بصورة خصمين بغى أحدهما على الآخر وأبهما عنه ولا كذب في ذلك.

ويجوز: نحن فوجان خصمان كما مرَّ، وكلُّ ذلك إلى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ محكيٌّ بـ«قَالُوا»، قيل: يجوز أن يحكى به ﴿لاَ تَخَفْ﴾. وقوله: ﴿خَصْمَانِ ...﴾ إلى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ منصوب بقول محذوف، قالوا: «لاَ تَخَفْ»، فسكتوا فقال الَتَلِيْكِلاً : ما لكم؟ فقالوا: «خَصْمَانِ»، ولا دليل على هذا.

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾ لا تبعد عنه بأدنى جورٍ، وذلك منهما حرص في إظهار الحقِّ وتأكيدٌ في نُصح داود عمَّا صدر منه، ولا يرتابان في أنَّه

يعدل ويرجع إلى العدل. ﴿وَاهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ﴾ الصراط السواء، أي المستوي الذي لم يَعْوَجَّ بالجور.

﴿إِنَّ هَذَآ﴾ أي المتخيَّل بصورة الرجل وهو ملك نائب عن صاحب الحقِّ المدَّعي ﴿أَخِي﴾ في الدين أو في الصداقة والألفة، أو في العشرة، أو في النسب، يريد التمثيل لا الحقيقة ولا الكذب، واختارا ما يناسب، لأنَّ صاحب الحقِّ على داود قريب لداود في النسب أو العشرة أو الألفة أو الصداقة.

وزعم بعض أنَّ الخصمين رجلان من بني إسرائيل أخوان لأُمٍّ وأب، والخصام بينهما حقيقة لا تمثيل، والنعاج من الغنم حقيقةً، ظَلَمَ أَحَدُهما الآخر فيهاَ وقعَ بهما تَذَكُّر داود، **وهو خلاف المشهور.**

(نحو) و«أَخِي» بدل، والخبر الجملة بعده، أو هو الخبر، والجملة خبر ثان، أو حال من «أَخِي» تظهر الفائدة بها.

﴿لَهُ، تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أنثى بقر الوحش أو الضأن، أو المرأة، وهي المراد في قصَّة داود، وأنثى الضأن مثلا تمثيل، والمرأة أولى ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ اجعلني كفيلاً لها، أي قائمًا بها، وهو كِناية عن التمليك، أي مَلِّكْنيهَا أو اجعلها كَفَلِي أي نَصيـــبـــي.

﴿وَعَزَّنِي﴾ غَلبني، كقولهم: «من عزَّ بَزَّ» أي من غلب غيره سَلبه من بَزِّه، أي مِنْ كِسْوَتِه. ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ في الكلام بما لا أطيقه من الحجج وفصاحته.

وقيل: في خطابه المرأة للتزوُّج فتزوَّجت به دوني، مع أنَّ له تسعًا وتسعين امرأة غيرها، على تأويل ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ باتْرُكْهَا لي أَتَزَوَّجُها من وَلِيِّها، وهو بعيد مخالف لظاهر اللفظ، ولو كان أنسب بقصَّة داود.

﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَد ظَلَمَكَ﴾ والله لقد ظلمك في صورة كلامك إن

تحقّقت وصَدَقْتَ فيها، وهذا حكم قبل كلام المدَّعى عليه، وهو ضعيف، وخلاف الأصل ولو شرط له التحقُّق والصدق كما رأيته مُقَدَّرًا.

وإذا صرنا إلى التقدير ولا بدَّ فلنقدِّر هكذا: وأقرَّ المُدَّعَى عليه، أو نُقدِّر قال: ما تقول أنت؟ فقال: صدقَ خصمي، فقال داود: «لَقَد ظَلَمَكَ».

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ لئن لم ترجع أيُّها المدَّعَى عليه المُقِرُّ لأكسرَنَّ الذي فيه عيناك، فتَبَسَّمَا ولم يرهما، أو رآهما صاعدين إلى السماء، وقيل: ضحك، وقيل: قال: خُصِمَ الرجل، أي غُلب، أي داود، فعلم أنَّهما ملكان، وتمام ظنِّه أنَّه ابتلي بهما بعد تمام قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾. والسؤال الطلب، وَعُدِّيَ بـ«إلى» لأنَّه جلب النعجة إلى نعاجه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ اَلْخُلَطَآءِ﴾ المختلطين بالشركة في المال أو الملاصقة والجوار فيه ﴿لَيَبْغِي﴾ يتعدَّى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يأخذ ما ليس له من مال خليطه، كما ظلمك خَصْمُكَ ظُلْمًا عظيمًا بَـيِّـنًا، لكلِّ من علم به، إذْ أخذ نعجتَكَ الواحدة وَضَمَّها إلى نعاجه الكثيرة إعْرَاضًا عن حقِّ الله، وحقِّ الخلطة، وزاد داود التأكيد بالبيان إذ قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ اَلْخُلَطَآءِ...﴾.

(نحو) ﴿إِلاَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء متَّصل من «الْخُلَطَاءِ»، وإن كان من «كَثِيرًا» فمنقطع، لأنَّ ما استثني من الكثير هو القليل، والقليل هو مفهوم الكثرة فلا يستثنى منه الذينَ آمنُوا. ﴿وَقَلِيلٌ﴾ خبر مُقدَّم للحصر في القلَّة ﴿مَّا هُمْ﴾ «مَا» حرف مزيد لتأكيد القلَّة، أو مفعول مطلق للتأكيد، أي قلَّة عظيمة، وتفيد «مَا» في مثل ذلك التعجيب أو التعجُّب فيما قال بعض الْمُحَقِّقِينَ. «هُمْ» مبتدأ.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَـنَّاهُ﴾ ما أردنا بذلك إلاَّ فتــنته، ولو كان الحصر

في الهاء لقيل: إنَّما فتنَّا إيَّاهُ. والفتن: الابتلاء هل يعلم أنَّه المراد بذلك؟ أو الابتلاء بما فعل حتَّى كانت قصَّة الخصام. والمراد بالظنِّ العلمُ بدليل ما بعد.

[قلت:] واعلم أنَّ «أنَّمَا» بالفتح مثل «إنَّما» بالكسر في إفادة الحصر. والمعنى: أردنا فتنته لا غيرها، ولا تَهِم.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ،﴾ ممَّا صدر منه شبيهًا بقصَّة الخصمين ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أسرع كأنَّه سقط ولم يملك إمْساك نفسه كالجماد الملقى، والركوع الانحناء الموصل للسُّجود، فهو راكعٌ أوَّلاً ساجدٌ ثانيًا باتِّصال، وإنَّما يتمُّ هذا لو كان قضاؤهُ بينهما حال قيامه أو قام بعد قضائه فظنَّ أنَّه فُتِنَ، والأولى أنَّه قضى قاعدًا وظنَّ قاعدا أنَّه فُتِنَ، وأنَّه سمى السجود ركوعًا لجامع الانحناء، أو لأنَّ الركوع سبب السجود من القائم الذي لا يتمالك الإمساك، ولأنَّ مريد السجود من قيام لا بُدَّ له من الإنحاء كالرَّاكع، والعرب تقول: نخلة راكعة ونخلة ساجدة، ولو تساوى الانحناءان.

وقيل: خرَّ حال كونه راكعًا إلى السجود. أو ﴿رَاكِعًا﴾: بمعنى مُصلِّيًا وليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ داود في الصلاة، [قلت:] ولو جاء في شرعنا صلاة ركعتين عند التوبة من الذنب[1]. ولا يغني الركوع عن السجود في الصلاة، ولا في سجود التلاوة لما رأيت من تأويل الآية. ويروى أنَّ رسول الله ﷺ قرأ سجدة [سورة ص] فسجد فقال: «**سَجدَهَا داود توبة ونسجدها شكرًا**» ﴿وَأَنَابَ﴾ إلى الله بالتوبة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ، ذَٰلِكَ﴾ الذي قارف واستغفر منه.

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **ابن ماجه** في كتابة إقامة الصلاة وَالسُّنَّة فيها، باب ما جاء في أنَّ الصلاة كفَّارَة، رقم ١٣٩٥. من حديث عليٍّ عن أبي بكر الصدِّيق، ولفظه: «ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضَّأ فيحسن الوضوء ثُمَّ يُصلِّي ركعتين ويستغفر الله إلاَّ غفر الله له».

(قصص) كان لوزيره أوريا امرأة واحدة فطلبه أن يطلّقها ليتزوَّجها مع أنَّ له تسعًا وتسعين امرأة غيرها، فاستحيى أن يردَّه فطلّقها فتزوَّجها داود، وهي أمُّ سليمان فيما قيل.

وكان ذلك جائزًا عندهم غير مُخِلٍّ بالمروءة، كما كان الأنصاريُّ في أوَّل الإسلام ينزل عن إحدى امرأتيه أو نسائه للمهاجر يتزوَّجُها، ومع حِلِّ ذلك عُدَّ عليه ذنبا إذْ لم تغلبه الرأفة بأخيه وإذ لم يقهر نفسه.

ومثل ذلك أنَّه خطبها أوريا وخطبها مع علمه بخطبة أوريا فاختاره أولياؤُهَا على أوريا، فإنْ جاز ذلك في شرعه وإلاَّ فهو بعيدٌ عنه، كما نهى رسول الله ﷺ **أن يخطب الرجل على خطبة أخيه أو يساوِمَ على سومه**[1]. وقيل: خطبها و لم يعلم بخطبة أوريا، فعوقب بأنَّه لم يسأل لعلَّها في خطبة أحد قبله، وفي هذا تشديد، وقد يُسيغُهُ كثرةُ نسائه التي تدعوهُ أن يَتَوَرَّعَ.

ويقال: تَمنَّى أن يتزوَّجها إن مات زوجها أوريا في الجهاد، فعوقب إذ غلب حبُّها على حبِّ أخيه في ذلك. وأخطأ من قال: أعطاه الراية وقدَّمه ليموت فيتزوَّجها. وقيل: كان في شرعه أنَّ أولياء الْمَيِّت أولى بتزوُّج امرأته، وتزوَّجها وليس منهم، ولا يحلُّ أن ينسب ذلك إليه إن حُرِّمَ على غير الوليِّ، ولعلَّه كان ذلك ندبًا، فعوقب لاختياره غير الأولى. وقد قيل: إنَّه أمره بقتل البلقا مرارًا ليموت فيزوَّجها، وذلك **خطأ وضلال** من قائله.

وفي تلك الأقوال بدون التأويل الذي ذكرت يقع قول عليٍّ إن صحَّ

١- رواه **الربيع** في كتاب النكاح، باب ما يجوز في النكاح وما لا يجوز، رقم٥١٦ من حديث أبي سعيد الخدري. ورواه **الترمذي** في كتاب النكاح، باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، رقم١١٣٤، من حديث أبي هريرة.

منه: إنَّه **من حدَّث بحديث داود على ما قصَّه القُصَّاص جلدته مائة وَستِّينَ جلدة**، وذلك ضعف الحدِّ في الافتراء لأنَّه نبيء، وذلك حدُّ من افترى على نبيء.

(**نقد قصة**) وقيل: مالت نفسه طبعا إلى امرأة نظر إليها في الخصام ليتثبَّت منها فمنعته بعض نفله، وهذا بعيد عن منصب النبوءة. ويقال: إنَّه ظنَّ أنَّ الخصمين وهما آدميَّان أرادا قتله ولم يريداه، وقيل: أراد الانتقام منهما فندم، وهذان لا يناسبان التشديد عليه بحسب ما يظهر، فلا يفسَّر بهما، إلاَّ أنَّ لله تعالى أن يفعل ما يشاء، فإنَّه قيل: إنَّه بكى أربعين ليلة حتَّى نبت من دموعه نبات غطَّى رأسه، ولا يشرب إلاَّ وثلث شرابه دموع، وفيه بُعدٌ، ونقول: من أين هذه الدموع من داود؟ وهل الدمع ينبت النبات به كما ينبت بالماء؟.

﴿**وَإِنَّ لَهُ، عندَنَا**﴾ متعلِّق بـ«لَهُ» لنيابته عن ثابتة أو بثابتة ﴿**لَزُلْفَى**﴾ قربة بعد المغفرة ﴿**وَحُسْنَ مَئَابٍ**﴾ حسن رجوع، أي ذهاب إلى الجنَّة، أو «مَئَابٍ» اسم مكان، و«حُسْنَ» نعته، قدِّم وأضيف إليه بمعنى الوصف أي مئابًا حسنا بفتح الحاء والسين، أو ذا حسن بضمٍّ وإسكان.

﴿**يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً**﴾ عنَّا أو عن الأنبياء قبلك، وغيرُ الرسول خليفةٌ عمَّن قبله لا يقال عن الله إلاَّ توسُّعا ﴿**فِي الاَرْضِ**﴾ في الحكم بالحقِّ وقتال العدوِّ، كما قيل: ادَّعَى ابنه إيشا الملك في أيَّام بكائه وتبعه أهل الزيغ من بني إسرائيل وأفسد، ولَمَّا غُفر له وقام قاتلهم وهزمهم.

والجملة مفعول لحال من الضمير في «غَفَرْنَا» أي قائلين يا داود، أو مفعول لمعطوف، أي: غفرنا وقلنا يا داود، وفي الآية ــ كما قال ابن العربي ــ **دلالة على احتياج الأرض للخليفة**. ولا واجب على الله.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بما شرعه الله، ومن التكلُّف أن يقال الحقُّ اسم الله، فيقدَّر بحكم الله، إذا احتيج إلى تقدير المضاف وهو حكم، فاستغن عن تقديره بتفسير الحقِّ بالشرع وهو الحكم، ولا سيما أنَّ قوله: **﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾** يناسب تفسير الحقِّ بالشرع، وهو حكم الله تعالى.

والمراد: دم على الحكم بالحقِّ ومخالفة الهوى لا تتبعه في الدين ولا في الدنيا، كما كنت، فإنَّه ما حكم بالجور قطُّ، ولا اتَّبَعَ هواه فيه، وقد يقال: المراد بالهوى مثل ما صدر عنه وغفر له، ويقال: نقش خطيئته في كفِّه لئلاَّ ينساها وكلَّما رآها اضطربت يداه، وما رفع رأسه إلى السماء بعدها حتَّى مات.

وكلٌّ من الأمر بالحكم والنهي عن اتِّبَاع الهوى مفرَّع على جعله خليفةً في الأرض، لأنَّ استخلافه يقتضي أن لا يخالف مستخلِفه، ولأنَّ الاستخلاف يقتضي أن لا يعرض عن الحكم، ولأنَّ الاستخلافَ نعمة تقتضي الشكر بالعدل[1]، **﴿فَيُضِلَّكَ﴾** بالنصب في جواب النهي، وهذا أولى من كونه مجزوما بالعطف، وأنَّ الفتح تخلُّص من التقاء الساكنين. **﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾** طاعته والعمل بدينه، أو عن دلائله النَّقْلِيَّة وَالعَقْلِيَّة.

قال الحسن البصري: أخذ الله على الحكَّام بثلاثة أشياء: أن لا يتَّبعوا الهوى، وأن يخشوا الله تعالى ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ثمَّ تلا

١- في الطبعة العمانية: «لأنَّ استخلافه يقتضي أن لا يملكه غيرُه». ومن هَذَا الموضع تختلف الطبعة المذكورة عن نُسَخنا اختلافا كبيرا في تفسير الآيات الآتية، وتتَّفق ابتداء من قول الشيخ فيما سيأتي: «كما أنَّ الريح منها. وإنَّما طلب ذلك الملك العظيم لتجبُّر أهل زمانه...» عند تفسير قَوله تَعَالَى: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيَ} (الآية: ٣٥). ويبدو أنَّهُ سقطت من نسخة عُمان بضع ورقات، فعوِّضت بتفسير آخر من غير هَذَا الكتَاب، نظرا للاختلاف الواضح بين الأسلوبين. انظر: ط. عُمان، ج١١، ص١٩٤-١٩٧.

قوله تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ وقرأ: ﴿وَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (سورة المائدة: ٤٤) ، وَقَرَأَ: ﴿وَدَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ... فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٨) .

﴿إِنَّ الَذِينَ﴾ لأنَّ الذين، أو مستأنف ﴿يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ مقتضى الظاهر: يضلُّونَ عنه، وأظهر لزيادة التقرير ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ بما نسوه، أي تركوه ممَّا لا يجوز تركه، متعلّق بــ«لَهُمْ» أو متعلَّقه، أو بــ«عَذَابٌ». «يَوْمَ الْحِسَابِ» متعلّق بأحد ما ذكر. أو «مَا» مَصدَرِيَّة، و«يَوْمَ» مفعول للمصدر، أي بتركهم يوم الحساب، أي الاستعداد له.

وقرَّر أمر الحساب والبعث بقوله:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

إثبات البعث والثواب والعقاب وبيان فضل القرآن

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ مفعول مطلق، أي خلقًا باطلا، أو حال من «نَا»، أي ذوي باطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ (سورة الدخان: ٣٨) ، أو من السماوات والأرض،

أي ذوات باطل أي ملعوبا بها، والباطل العبث وهو ما لا حكمة فيه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ خلقهما باطلا **﴿ظَنُّ الذِينَ كَفَرُواْ﴾** أي مظنون الذين كفروا، أو ظنُّ ذلك ظنُّ الذين كفروا، **﴿أَفَحَسِبْتُمْ، أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ، إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾** (سورة المؤمنون: ١١٥) .

﴿فَوَيْلٌ لِّلذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأجل ظنِّهم المذكور الذي هو كفر، ومقتضى الظاهر: فويل لهم، وأظهر ليذكرهم باسم الكفر الذي هو علّة الويل، وذلك تأكيد، أي لهم الويل لذلك الظنِّ الذي هو كفر، **﴿مِنَ اَلنَّارِ﴾** خبر ثان، أو متعلّق بقوله: **﴿لِّلذِينَ﴾** أو متعلّقه. و«مِنْ» للابتداء، ويجوز أن تكون للبيان متعلّقة بمحذوف حال على حذف مضاف، أي من دخول النار، وصاحب الحال ضمير الاستقرار.

﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ للإضراب الانتقاليّ من الحساب، والاستفهام الإنكاري أو التعجيبي من التسوية بين المؤمنين والكافرين عند الله في الحبِّ والبغض، وفي الجزاء، أي بل أنجعل **﴿الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾** من شأنهم الصلاح والإصلاح **﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الاَرْضِ﴾** الذين من شأنهم الفساد في أنفسهم بالكفر وإفساد غيرهم بالإضلال والظلم؟ لا نفعل ذلك.

وحظُّ الكفرة في الدنيا أوفر من حظّ المؤمنين غالبا، فنجازي المؤمنين على طاعتهم وعلى نقص حظّهم من الدنيا لصبرهم ونعاقب الكافرين على كفرهم وعصيانهم، وعدم شكرهم بما أعطيناهم في الدنيا، واستعمالهم له في المعاصي.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ إضراب انتقاليٌّ إنكاريٌّ وتعجيبيٌّ، إلى ماهو أشدُّ استحالة في التسوية، وهو أن يستوي عند الله من بالغ في الإيمان والعمل الصالح، حتّى إنّه يحذر التقصير والمعصية وما يقرِّب منها، كما

يحذر السمَّ والاحتراق ونحوهما، وبين من بالغ في الإفساد ورسخ فيه واستحقَّ اسم فاجر، كما قال: ﴿كَالْفُجَّارِ﴾ ويجوز أن يراد بـ«الْمُتَّقِينَ» الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبـ«الْفُجَّارِ» المفسدون لحكمة الذكر بأسماء أخرى، والمراد العموم في الفريقين.

(سبب النزول) وفي رواية: نزلت في جماعة من المشركين قالوا للمؤمنين: «نعطى في الآخرة إن كانت ما لا تعطون من الخير». كما روى ابن عساكر: نزلت في حمزة وعليٍّ وعبيدة بن الحارث من المؤمنين، وعتبة وابنه الوليد وشيبة المشركين المبارزين لهم يوم بدر. وخصوص السبب لا ينافي العموم في الحكم.

(نحو) ﴿كِتَابٌ﴾ أي القرآن كتاب، أو هذا كتاب أو هو أي القرآن كتاب، أو هذه السورة كتاب، أو هي أي السورة كتاب، أو هو كتاب، أي السورة كتاب، ذكّر ضميرها لتذكير الخبر، أو هذا كتاب أي السورة كتاب، وذكّر الإشارةَ لتذكير الخبر ﴿اَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ نعت لـ«كِتَابٌ» ﴿مُبَارَكٌ﴾ خبر ثان، أو نعت ثان لـ«كِتَابٌ» على جواز تأخير النعت المفرد عن النعت الجملي أو الظرفي. والبركة: كثرة المنافع الدِّينيَّة وَالدُّنيَويَّة.

﴿لِّيَدَّبَّرُواْ﴾ متعلّق بـ«أنزَل»، أبدلت التاء دالا وأدغمت في الدال ﴿ءايَاتِهِ﴾ ما يترل الله تعالى، أي ليتعقّلوها ويتفكّروا في معانيها وشأن نزولها. والواو للمؤمنين والمتّقين، أو هم واحد، أو لهم كذلك وللفجار والمفسدين، أو هم واحد، وأجيز عوده لأولي الألباب على التنازع، وإعمال الثاني وهو «يَتَذَكَّر» من قوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ اَلاَلْبَابِ﴾ يتّعظ أصحاب العقول الخالصة عن الشوائب، فيدركوا أنّ إنزال الكتب وإرسال الرسل لحكمة لا بدَّ منها.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

توسعة الله على سليمان عليه السلام

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [قيل:] من النعجة الواحدة التي كانت لأوريا أو خطبها فيما قيل، ولعلّه لا يصحُّ أن يكون نبيء من امرأة عوقب في شأنها، والعلم لله سبحانه وتعالى. ولم يذكر سليمان بـ«اذْكُرْ» كما ذكر به داود وأيُّوب لكمال الاتِّصال بأبيه حتَّى إنَّه ذكره بالهبة.

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ هو أي سليمان ﴿إِنَّهُ﴾ أي سليمان ﴿أَوَّابٌ﴾ مقبل على الله بالتسبيح وطلب مرضاته، ويدلُّ على أنَّ العبد والهاء لسليمان لا داود رجوع الهاء إليه قطعًا في قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ولأنَّ مدح داود وكونه أوَّابًا قد مضيا، والتأسيس أولى من التأكيد، واتِّساق الضمائر أولى من انفكاكها. و«إِذْ» مفعول به لمحذوف، أي: واذكر إذ عُرِضَ عَلَيْهِ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه، وبعض النحاة يجعل ظرفًا لمحذوف، أي: اذكر الحادث إذ عرض عليه. ولو علّق بـ«أَوَّابٌ» أو بـ«نِعْمَ» لكان تعرُّضا لمدحه أو لأوْبه حال العرض مع أنّه أوَّاب مطلقًا، وهو سائغ إذ لا حصر لكن تَطلَّب حكمة للاقتصار على ذكر

الوقت وهو طَفِقَهُ يمسح بالسوق والأعناق. ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ في العشيِّ، وهو من الزوال، أو من آخر النهار ــ قولان ــ إلى الصباح.

﴿الصَّافِنَاتُ﴾ نائب فاعل «عُرِضَ»، و لم يؤنَّث للفصل، ولأنَّه ليس المراد خصوص إناث الخيل بل الجماعة، وأُخِّر على طريق العرب في التقديم للمهتمِّ به، والتأخير للاشتياق إلى المؤخَّر. والصافن من الأفراس الذي يرفع إحدى يَدَيْه، والمراد: صافن، وجمع بالألف والتاء لأنَّه غير عاقل، أو جمع صافنة، أي: جماعة صافنة. ﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جَواد للذكر و الأنثى، وهو الفرس الحسن مشيًا وإسراعًا وتأدُّبًا مع صاحبه إذا أطلقه لزم مكانه، و لم يَخْطُ خطوةً.

(قصص) [وقيل:] وهذه الخيل ألف فرس اجتمعت بالشراء أو بالهدية أو بهما أو نحو ذلك لا حبسا، ولو كانت حبسا لم يحلَّ له عَقْرُها، ولا غنيمة من دمشق ونصيبين، إذ غزاهما كما قيل، لأنَّ الغنيمة لا تحلُّ لغير هذه الأمَّة كما جاء عنه ﷺ ، إلاَّ أن يراد بغنيمة سليمان الفيءُ، ولا إرثًا من أبيه داود إذ غنمها من العمالقة ــ كما قيل ــ لذلك الحديث، ولقوله ﷺ : «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**»[1].

ولايصحُّ أن يراد بإرثه من أبيه حيازة التصرُّف، لأنَّه لم يملكها فلا يحلُّ له عقرُها، ولا يعارضُ بأنَّ عقرها إعراضٌ عن الدنيا وتوبة، لأنَّ التوبة والاحتياط بنحو ذلك إنَّما يحلُّ للإنسان في ماله، إذا أجازه الشرع لا في غير ماله.

(قصص) وقيل: ألف فرس بأجنحة أخرجت من البحر خصَّ بها، وقيل: عشرون ألف فرس بأجنحة من البحر، وكلاهما بعيدٌ والله يفعل ما

١- رواه **البخاري** في أبواب الخمس، باب فرض الخمس، رقم٢٩٦٩. ورواه **مسلم** في كتاب الجهاد والسير، باب قول النبيء: لا نورث ما تركناه صدقة، رقم١٧٥٨. من حديث عائشة.

يشاء، ثمَّ إنَّه كيف يصحُّ له عقرُها مع أنَّها معجزة له وخصوصيَّة؟!.

ومعنى عرضها عليه إخراجها إلى محضره تمرُّ عنه، ويراها فهو مشتغلٌ بعرضها عليه، ونظرِه إليها حتَّى فاتته صلاة العصر، وقيل: فاته صلاتُها أوَّل وقتها، وقيل: فاته نفل اعتاده آخر النهار، ويردُّ القولَ هذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ .

﴿**فَقَالَ**﴾ نَدَمًا عن الاشتغال بها حتَّى فاته ذلك ﴿**إِنِّيَ أَحْبَبْتُ حُبَّ اَلْخَيْرِ**﴾ يظهر لي أنَّ معنى ﴿أَحْبَبْتُ﴾: اخترت، ثمَّ رأيته عن الفرَّاء.

[قلت:] وجلُّ هذا التفسير على هذه الطريقة، أقُول فهمًا من عِندي وأوافق الحديث أو أثرًا أو قولاً هو الأصحُّ أصحِّحه بحجج منِّي وذلك فضل من الله عَجَّلَ .

(بلاغة) و«حُبَّ» مفعول به، والمراد: الإذعان إلى هذا الحبِّ، والبقاء معه، وإلاَّ فالحبُّ ضروريٌّ لا كسبيٌّ، واختيار الشيء فيه إعراضٌ عن غيره فناسبه التعدِّي بعن، وقيل: بمعنى على.

والخير: المال الكثير، وهو هنا الخيل، إذ هي مال عظيم. قال رجلٌ لعليٍّ: ألا أوصي قال: لا، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وليس لك مال كثير، وقد قيل: الخير من أسماء الخيل، ووجهه تعلُّق الخير بها كما قال ﷺ : «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[1]. وقيل: الخير المال ولو قلَّ، ومن الخير بمعنى المال قوله تعالى :﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (سورة العاديات: ٧) ، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٢) ، و﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ (سورة البقرة: ١٨٠) .

١-تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٣٥٧.

(نحو) ويجوز أن يكون مفعول «أَحْبَبْتُ» ضمير الصافنات أو العرض، أي: إنِّي أحببتها أو أحببته، فيكون «حُبَّ» مفعولا مطلقا، و«الْخَيْرِ»: المال، أي: حبًّا مثل حُبِّ المال لا الخيل في هذا.

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ عن ذكري رَبِّي بالصلاة وفيها لعدم دخولي فيها لاشتغالي بشأن الصافنات، أو ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾: صلاة ربِّي، أي: الصلاة التي شرعها، وزعم بعض أنَّ «عن» للتَّعليل و﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ هو التوراة، لأنَّ فيها مدح ارتباط الخيل، ولا ينافي هذا أنَّ المقام للندم، لأنَّه ولو أحبَّها لأجل ذكرها في التوراة لا يحسن له الاستغراق في ذلك إلى أن تفوت الصلاة، كما قال:

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ الباء ظرفيَّة أو آليَّة، وحينَ تَوارَتْ تذكَّر أنَّه فاتته صلاة العصر، أو نفل له آخر النهار وقد صلَّى العصر. وضمير «تَوَارَتْ» عائد إلى الشمس المدلول عليها بذكر العشيِّ. و﴿تَوَارَتْ﴾: استترت، أي: أحبَّها إحْبَابًا مستمرًّا إلى تواريها بالحجاب، وهو ظاهر الأرض.

(نقد بعض الأقوال) ولا خضرة للسماء، كيف ندرك خضرتها مع بعدها؟ وما يتخيَّل من الخضرة هو الجوُّ عجزت أبصارنا عن نفاذه، فلم يَصِحَّ خضرة السماء بحجاب من ياقوت أخضر هو الحجاب في الآية، ولو ذكر عن كعب، ولا صحَّة لجبل قاف، ولا لجبل دونه بسنة تغرب الشمس وراءه، وأنَّه الحجاب.

(بلاغة) شبَّه غروب الشمس باستتار العروس مثلا بحجابها، فاستحقَّت اسم التواري على الاستعارة الأصليَّة، واشتقَّ منه "توارى" على التبعيَّة، أو شبَّه الشمس نفسها بالعروس مثلاً ورمز لذلك بذكر لازمها وهو التواري، وإثباته تخييل.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ من جملة ما حكي بـــ«قَالَ»، فلا حاجة إلى تقدير: فماذا كان؟ فأجاب بقوله: «رُدُّوهَا»، والقائل سليمان المذكور في قوله: ﴿الْخَيْرِ﴾ وهو الخيل أو المال الكثير الذي هو الخير في «ردُّوها» للخيل وهي في نفس الأمر الصَّافنَات الجيَاد، لا في كلامه، لأنَّه ليس في كلامه ذكر الصافانات الجياد بل في كلام الله، فلا يصحُّ ردُّها إلى الصافنات الجياد في التلاوة إلاَّ بالتوسُّع.

﴿فطَفِقَ﴾ العطف على محذوف، أي: فردُّوها فطفق سليمان، أي: شرع، دلَّ على المحذوف قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ كما دلَّ «اضْرِبْ» [في الآية الكريمة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ (سورة البقرة: ٦٠)] على: فضرب قبل فانفجرت، وفي هذا الحذف إيذان بسرعة الامتثال. وخبر «طَفِقَ» محذوف ناصب لقوله تعالى: ﴿مَسْحًا﴾، أي: يمسح مسحا، أي: يقطع قطعا.

﴿بِالسُّوقِ وَالاَعْنَاقِ﴾ الباء صلة في المفعول به، و«ال» للعهد الذهني، أو عوض عن الضمير، أي: بسوقها وأعناقها. والسوق: جمع ساق. أو الباء للإلصاق، أو ظرفيَّة. وذلك القطع ذبح في شرعه، فيأكل الناس لحمها وذلك تقرُّب إلى الله تعالى، جاء الحديث بهذا.

أو قطع السوق لتسهل للذكاة أو النحر، وقيل: ضرب السوق والأعناق وسم لها، بأن يكون قد حبسها في سبيل الله تعالى، وكلُّ ذلك تقرُّب إلى الله تعالى إذ شغلته حتَّى فاتته عبادة مؤقَّتة، ولو كان ذلك العرض أيضا عبادة لأنَّه عرضت عليه ليعلم شأنها ويصلحه لأجل الجهاد، وَلَمَّا فعل ذلك عوَّضه الله الريح، غدوُّها شهر ورواحها شهر.

[قلت:] وأخطأ من قال: قتلها إتلافا لها لأنَّها شغلته، وهل فعل ذلك العقر ليلا كما هو الظاهر من رغبته فيه إذ شغلته.

وقيل: واو «رُدُّوا» للملائكة و«هَا» للشمس أمرهم بردِّ الشمس ليصلّي ما فاته أداء، [قلت:] وفيه أنّه لا سلطان له على الملائكة، ولا قدرة لهم على ردِّها، ولو كان كما قيل: الواو لله تعظيما لقال: أسألك يَا رَبِّ أن تردَّها، ونحوه من الخضوع.

وقيل: «هَا» وضمير «تَوَارَتْ» للخيل، وتواريها رجوعها في إصطبلاتها، وقيل: بالبعد في سيرها، وقيل: عرضت عليه الخيل في الصلاة فأشار لردِّها، ولَمَّا صلّى أمر بأن تردَّ إليه فأقبل يمسحها تكرمة بيده لا قتلا ولا ذبحا، وقيل: غسلها بالماء.

﴿**وَلَقَدْ فَتَـنَّا سُلَيْمَانَ**﴾ أصبناه بأمر يشقُّ عليه، إذ حلف و لم يستثن، أو مات ولده، أو أمرضنا سليمان وجعلناه كأنّه لحم بلا روح، فالإنابة بعدها هي الرجوع إلى الصحَّة، ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ شقَّ رجل لا روح فيه. قيل: حلف لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تأتي كلُّ واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ففعل فلم تحمل إلاّ واحدة، حملت بشقِّ رجل، رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة مرفوعا، قال ﷺ : «**والذي نفس محمَّد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فرسانا**» والذي في البخاري: «أربعين امرأة وإنّ الملك قال: قل إن شاء الله و لم يقل»[1].

(نقد قصص من الاسرائليات) ولا يصحُّ ما قيل: إنّه ولد له ولد فسمع الجنَّ يتوعَّدون بقتله لِئَلاّ يقوم مقام أبيه فيستخدمهم، فجعله ومرضعته في السحاب، فأماته الله وألقاه على كرسيِّه، لأنّ النبيء لا يحرص هذا الحرص.

١–رواه **البخاري** كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ}، رقم ٣٢٤٢. ورواه **مسلم** في كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم ١٦٥٤. من حديث أبي هريرة.

وبعض قال: إنّ شيطانا اسمه صخر أو حبقيق، أخذ خاتمه من تحت فراشه لأنّه يضعه تحت فراشه إذا ذهب إلى الحمام، أو من زوجه جرادة، إذا أراد الخلاء فقعد يحكم، وهذا الشيطان هو الجسد الملقى على كرسيِّه، لأنّه صورة جماد يدخلها الشيطان فيتكلّم. وهلك من قال: إنّ هذا الشيطان يجامع أزواج سليمان، وأيضا كيف يسلّط الله ﷻ على أمّته من يشتبه به ويخلط أمر دين الله بغيره. وقيل: الجسد الملقى على الكرسيِّ هو سليمان مرض حتّى صار كجسد بلا روح.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ تاب إلى الله من عدم الاستثناء، أو رجع إلى الصحّة بعد المرض، والأوّل أصحُّ. وعطف «اسْتَغْفَرَ» بالفاء و«أَنَابَ» بـ«ثُمَّ» لوجوب المسارعة إلى الاستغفار، ولا وقت يمتدُّ إليه.

والإنابة ولو كانت واجبة لكن «ثُمَّ» أنسب بها نظرا لأواخرها، وإشارة إلى استمرارها، وقيل: عطفت بـ«ثُمَّ» لمدَّة الفصل بين الإنابة وبين ما عنه الإنابة، بخلاف الاستغفار فإنّه علم في حينه ما يستغفر عنه، وقد قيل: إنّ الفصل للإنابة مدَّة، ووضعه شقًّا على كرسيِّه.

﴿قَالَ﴾ بدل من «أَنَابَ» مفسِّر له، أو كأنّه قيل: هل كان له حال مع الله؟ فأجاب: بنعم إنّه قال، على الاستئناف البياني، ويبحث بأنّه لا سؤال بعد إخبار الله تعالى أنّه أناب، ويجوز أنّه استئناف نحويٌّ في كلام قاله سليمان.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما لا يحسن صدوره منّي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيَ﴾ من دوني في زماني أو بعده، أن يكون لي في موضع وله في آخر بلا مزاحمة، أو له لا لي في زماني وبعده لعظم ذلك الملك. قال ﷺ : «**إنّ عفريتا يتفلت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي، وإنّ الله تعالى أمكنني منه، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتّى تصبحوا فتنظروا**

إليه كلّكم، فتذكّرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَد مِّنۢ بَعْدِيَ﴾ فردَّه الله خاسئا»[1] رواه البخاري ومسلم والنسائي، يعني أنَّ ربطَ العفريت من جملة ما عظم به ملك سليمان وداخل في مطلوبه أن لا يملكه غيرُه، كما أنَّ الريح منها.

وإنَّما طلب ذلك الملك العظيم لتجبُّر أهل زمانه جدًّا، فطلب الزيادة على ملك آبائه، والزيادة على معجزات أبيه، ولتكثر الطاعة، وليعْلم بحصول الإجابة قبول إنابته. والمعجزة أو زيادتها لا تختصُّ بأوَّل النبوءة، ولا سيما أنَّ رجوع ملكه بعد سلب كابتداء النبوءة.

وقد قيل: المعنى هب لي ملكا لا يسلبه أحد عنِّي في حياتي بعدُ، كهذه السلبة، كما تسلب الأملاك عمَّن قبلُ لمن بعد فلا يسلَّط عليه الشيطان مرَّةً أخرى كما قيل: إنَّه أخذ عفريت خاتمه فاستولى على ملكه، وقيل: أراد أن يختصَّ بهذا الملك كما اختصَّ أبوه بإلانَةِ الحديد، وعيسى بإحياء الموتى وشفاء الأضرار، وقد قيل: أقام قبل الفتنة عشرين سنة وبعدها عشرين. وليست الآية صريحة في أنَّ هذا الدعاء بعد الفتنة، إذ لا مانع من الدعاء بدوام الملك وزيادته.

[قلت:] ولا بأس باستخدام الجنِّيِّ، ولا على مدَّعيه إن صدق، لأنَّ هذا في بعض الجنِّ لا في الكلِّ أو الجُلِّ، وبالعلاج والأذكار، والذي لسليمان للكلِّ أو الجُلِّ، وبالله تعالى لا بعلاج.

﴿إِنَّكَ أَنتَ اَلْوَهَّابُ﴾ تعليل لـــ«هَبْ» كما ذكرت الهبة فيهما معًا، وأجيز أن يكون تعليلاً له، ولــ«اغْفِرْ»، كأنَّه قيل: استجب لي فيهما لأنَّك

١- رواه **البخاري** في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ}، رقم٣٢٥١. ورواه **مسلم** في كتاب بيان خلاف المجتهدين، رقم ١٧٢٠. من حديث أبي هريرة.

أنت الوَهَّاب، أو ربِّ اغفر لي لأنّك أنت الوَهَّاب، وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنَّك أنت الوَهَّاب.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ بسبب قوله: «وَهَبْ لِي مُلْكًا»، ولو انسحب القول على المغفرة والهبة، كأنَّه قيل: سخَّرنا له الريح لشمول دعائه ملك الدنيا الذي منه الريح، ولو أريد التفريع على القول كلِّه لقيل: فغَفَرْنا له وسخَّرنا له الريح.

ومع ذلك قد أجاب له في الغفران لأنَّه أمر متقَرِّر شرعًا لمن استغفر، ولو كان غير نبيء فلم يصرِّح به بخلاف طلب الهبة، فإنَّه لم يتقرَّر أنَّ الهبة لطالبها، وقد يقال: جعل إجابة الدعاء في الهبة علامةً على قبول الاستغفار.

والريح هنا في الخير مع إفرادها، إذ لا يلزم أنَّ الرياح في الخير كما قرأ بها بعضٌ هنا، وأنَّ الريح في الشرِّ، وجاء في الحديث: «**اللهمَّ اجعلها رياحًا لا ريحًا**»[1]، أي: لا ريح سوء، بدليل أنَّه قابلها بالجمع.

وتسخيرها تذليلها، وإدامتها على ما هي عليه غالبًا، أو تسخيرها جعلها مطاوعة له فيكون قوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حالا مقدَّرة مفسِّرة لتسخيرها، ويكون مستأنفا أو حالا أيضا إذا فسَّرنا التسخير بإبقائها ذليلة، وإنَّما قلت: مقدَّرة، لأنَّه تعالى يثبتها كما يشاء له ثمَّ يأمرها سليمان بما يشاء.

﴿رُخَآءً﴾ حال، بمعنى ليِّنة، وهو وصف لا مصدر، تجري رخاء إذا أراد وعاصفة إذا أراد بحسب أحواله، كما إذا أراد شدَّة السرعة أو ثقل الحمل فتعصف، وإذا أراد مطلق السير لانت. أو الجري بأمره رخاء معناه الانقياد له لا تخالفه، والعصوف بحسب أصلها وترخو إذا أراد رخاوتها، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ (سورة الأنبياء: ٨١) .

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج١، ص٣٣٦.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ متعلّق بـ«سَخَّرَ» أو «تَجْرِي»، قال الزجّاج: تقول العرب: أصاب الصواب وأخطأ الجواب، أي: قصد الصواب.

قصد رجلان ممَّن يطلب علم اللغة رؤبة ليسألاه عن «أَصَابَ» في الآية، فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ أي: تقصدان، فقالا: هذه طلبتنا، فرجعا إذ علما من كلامه أنّ «أَصَابَ» بمعنى قصد. وأجيز أن يكون همزه لتعدية "صاب يصوب" بمعنى نزل، أي: حيث يصيب جنده، أي: يترلهم.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على «الرِّيحَ» فهم مسخَّرون كالريح كلُّهم، يستعمل منهم من يشاء فيما يشاء، فقوله: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل بعض، أي: كلٌّ من يصلح بجودة البناء والغوص، وهما صفتان للمبالغة، أو الشياطين الصالحون لجودة ذلك، فـ«كُلَّ» بدل كلّ. والغوص: الدخول في البحر لاستخراج ما فيه من أنواع الجواهر، ولا يصحُّ ما قيل: إنّه أوَّل من استخرجها من البحر.

﴿وَءاخَرِينَ﴾ عطف على «كُلَّ»، فهو من جملة ما أبدل من الشياطين على وجهي الإبدال، لا على الشياطين، لأنّ «آخَرِينَ» شياطين أيضا، إلاّ إن لم يرد بالشياطين الجنس بل مخصوصون بالبناء والغوص على طريق العهد، فيجوز العطف عليه، ولا على «بَنَّاءٍ» لأنّه لا يقال: كلُّ آخرين، إذ لا يحسن إضافة «كلّ» لجمع مذكّر.

﴿مُقَرَّنِينَ فِي الاَصْفَادِ﴾ مجموعي الأيدي إلى الأعناق، في جوامع الحديد، جمع صفد، وهو جامعة الحديد، تجمع اليدين إلى العنق، ويطلق أيضا على ما يربط به ولو حبلا.

يقرن يدي الشيطان إلى عنقه أو يربطه مطلقا ليمنعهم عن الفساد، أقدره الله على ربطهم مع لطافتهم ومع شفافتهم، وكما أقدر الله رسوله ﷺ على ربط

العفريت و لم يربطه، ولو كانوا لا يدركون بالمسِّ فيما قيل، والمعروف أنَّهم يدركون به.

بل قال ابن العربي: إذا ظهر الشيطان متشكِّلا بشكل لم يمكنه الرجوع عن هذا الشكل إلى حاله، أو إلى شكل آخر إن استمرَّ ناظره على النظر إليه، وإن صرف نظره ولو صرفا قليلا وجد فرصة إلى الرجوع.

(لغة) ويقال : صفده ربطه، وأصفده أعطاه، ويقال أيضا: صفد في الشرِّ عكس وعد في الخير، وأوعد في الشرِّ، ويقال أيضا: وعد في الشرِّ. ووجه الصفد في الخير أنَّ فاعل الخير يجمع المفعول فيه إليه، كما قال عليٌّ: «من برَّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك»، ويقال: غلَّ يدا مطلقها وفكَّ رقبة معتقها.

﴿هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنَ اَوَ اَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لم يتقدَّم ما يحتمل أن يكون هذه الجمل محكية به فلا تَهِم، فتعيَّن أنَّها محكيَّة بقول مستأنف، أو معطوفة على «سَخَّرْنَا»، أو حال من فاعل «سخَّر»، أي: قلنا: هذا عطاؤنا، أو وقلنا هذا...الخ، أو قائلين هذا...الخ. والإشارة إلى مفرد لفظا، أي: هذا المذكور من الريح والشياطين والآخرين، أو ذلك والصافنات، على أنَّه قال فيهنَّ: ﴿امْنُنَ اَوَ اَمْسِكْ﴾ داخلة في هذا القول المقدَّر. والظاهر أنَّهنَّ قبله، إلاَّ أنَّ فعله فيهنَّ مأذونٌ له فيه، إذ لا يفعل بلا شرع، فهو مقول له فيهنَّ، أو الإشارة إلى ملك.

والعطاء اسم مصدر بمعنى مفعول، أي: معطانا، أو باق فتكون الإشارة إلى الإعطاء، أو التمليك، أو التسليط والإخبار بذلك امتنان وزيادة تذكير للنعمة، وتمهيد للتفريع عليه بقوله: ﴿فَامْنُنْ...﴾ عطف إنشاء على إخبار أو جوابا لمحذوف، أي: إذا تقرَّر لك ذلك فامنن أو امسك: اِعط من شئت منه، أو لا تعط.

[قلت:] ومن المنّ إطلاق الشياطين من الأغلال على شرط أن لا يفسدوا، فلا حاجة إلى جعل الإشارة لتسخير الشياطين، وأنّ المنّ الإطلاق من الغلّ كما قيل.

و«بغَيْرِ» تنازعه «امْنُن» و«اَمْسِكْ» وأعمل الثاني، أو حال من ضمير «اَمْسِكْ» ويقدَّر مثله لضمير «امْنُن» لا على التنازع.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قربة حبٍّ ومرتبة في الدنيا والدين، ولا ينقص ملكه بشيء من ذلك **﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾** إلى الجنَّة ودرجاتها، وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «**ما رفع سليمان رأسه إلى السماء تخشعا من حين أعطي الملك**».

قيل: وفي أيـــّام ملكه غزا من الشام كيخسرو بن سياوس، وهو سلطان عظيم من الفرس في العراق، فهرب إلى خراسان ومات فيه قريبا، وإلى مرو وإلى الترك، وجاوز بلاد صين، ورجع إلى فارس ونزل فيها أيـــّامًا، وإلى الشام فبنى بيت المقدس ثم إلى تهامة ثمّ إلى صنعاء، ثمّ [قيل:] غزا بلاد المغرب أندلس وطنجة وغيرهما، فمات في الشام.

(قصص) ويروى عن كعب الأحبار أنّه قال: وجدت في كتب الأنبياء عليهم السلام أنّ عمر آدم تسعمائة وثلاثون سنة، ونوح ألف سنة إلاّ خمسين عاما، وإبراهيم مائة وخمس وتسعون، وإسماعيل مائة وسبع وثلاثون، وإسحاق مائة وثمانون، ويعقوب مائة وتسع وأربعون، ويوسف مائة وعشرون، وموسى مائة وثلاث وعشرون، وداود سبعون، وسليمان مائة وثمانون، وزكرياء ثلاث مائة، ويحيى خمس وتسعون، وشعيب مائتان وأربع وخمسون، وصالح مائة وثمانون، وهود مائة وخمس وستون، وعيسى ثلاث وثلاثون، ومحمَّد ﷺ ثلاث وستون.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾

صبر أيوب عليه السلام ورحمته تعالى له

﴿وَاذْكُرْ﴾ عطف على قوله تعالى «اذْكُرْ»، أي: لتصبر على أذى قومك كما صبر أيّوب ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بن أموص بن روم بن إسحاق فهو إسرائيليٌّ، وذكر بعض أنّ أمَّه بنت لوط عليهما السلام، وأنّ أباه آمن بإبراهيم عليه السلام، وعلى هذا يكون قبل موسى عليه السلام، وقال الطبري: كان بعد شعيب، فهو معاصر لموسى أو بعده، وقيل: بعد سليمان.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ «إِذْ» بدل اشتمال من «عَبْدَنَا»، أو بدل الكلّ، أو عطف البيان بعده ﴿أَنِّي﴾ بأنّي ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ «ال» للجنس، وقيل: واحد اسمه مسوط، وقيل: هو إبليس.

﴿بِنُصْبٍ﴾ مشقّة وتعب، وهو المراد بالضرِّ في الآية الأخرى، وقيل: العذاب، وهو مفرد كَنَصَب بفتح النون والصاد، وقيل: جمعه كـ«وَثَن» بفتحتين، و«وُثْن» بضمٍّ فإسكان، أو أصله ضمُّ النون والصاد، كوُثُن بضمِّ الواو والثاء، فسكِّن تخفيفا، كما قرئ بضَمِّهما، وهو رواية عن نافع وهو مناسب لثقل المرض على أيّوب، وبضمِّ النون وإسكان الصاد تخفيفًا، كتخفيف المرض عليه بالفرج وهو المشهور عن نافع.

﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم، وهو المراد بالضرِّ في الآية الأخرى [في قَوله تَعالَىَ:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٣)]، وقيل: النصب والضرُّ في البدن، و العذاب في المال والأهل، وإنَّما قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وهذا المسُّ عبارة عن فعل الشيطان؟ أثنى الله على أيوب إلى ملائكته: فقال الشيطان إبليس: لو ابتليته لم يصبر، فَسَلَّطَهُ الله عليه، فنفخ إليه من تحت موضع سجوده، أو أمر إبليس من ينفخ فمرض المرض المشهور، وتلف أهله وماله.

[قلت:] وذلك غير بعيد، وأمَّا ما يذكر في القرآن العظيم من أنَّه لا يقدر إلاّ على الوسوسة فمعناه إذا لم يُقْدِرهُ الله على غيرها، فإذا أقدره على غيرها كان.

وقيل: مسُّ الشيطان وسوسته إليه أن يدعو بمرض يصبرُ له، وعرف أنَّ ذلك من الشيطان، فتألَّم بذلك، وتألُّمه هو النصب والعذاب، و لم يُطاوعه لأنَّه لا يجوز أن يدعو على نفسه بالمرض، ولو على وجه الصبر والثواب، ولا مرض في هذا الوجه.

وقيل: استغاثه رجل على ظالم فلم يُغثه فأصابه المرض، ولا يصحُّ هذا، وإنَّما قال: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ لأنَّ الشيطان وسوس له بترك الإغاثة، فلعلَّه وسوس له بتركها و لم يطاوعه، فشكا إلى الله بهذه الوسوسة المؤلمة له. وأخطأ من قال: إنَّه أصابه المرض لتركه غزو كافر مداهنةً له، إذ كانت مواشيه في ناحيته. وقيل: وسوس إليه كثرة ماله وولده فأعجبه ذلك، ولا تظهر صحَّته.

وقيل : النصب والعذاب مشقَّة مدافعة وسواس الشيطان في موضع بأن يجزع ويسخط ويقنط من الشفاء، وقيل: هما ما أصابه من الكراهة إذ قالت له امرأته: إنَّ طبيبًا عرض عليَّ أن يداويك فتشفى، فتقول: إنَّه شفاك، أو قيل: عن أن تذبح له، وعلم أنَّ ذلك من الشيطان.

وقيل: ارتداد أحد ثلاثة كانوا يعودونه قائلا: لوكان نبيئا لم يصبه الله بهذا المرض، وقيل: قولُ نفر من بني إسرائيل مرُّوا عليه: إنَّه لم يصبه هذا إلاَّ بذنب.

﴿ارْكُضْ﴾ أي الأرض في الجابية من الشام ﴿بِرِجْلِكَ﴾ مفعول لقول مستأنف، أو معطوف على «نَادَى»، أي قلنا له: اركض، أو نادى ربَّه فقلنا له اركض، أو نادانا فقلنا: اركض، أو قال له: اركض. والركض الضرب، ضرب الأرض برجله اليمنى فخرج ماء بارد اغتسل به وشرب، فلعلَّه قدَّم الشرب ليخرج الداء من باطنه.

وقيل: ضربها بيمناه فخرج ماء حار اغتسل به ومشى نحو أربعين خطوة فضربها بيسراه فنبعت عين باردة فشرب منه. وفي الآية الركض بلا قيد تعدُّد، واللفظ صالح له محتمل، لكن ما الدليل على وقوع التعدُّد؟ بل يدلُّ على عدم التعدُّد قوله تعالى:

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فركض فنبع الماء، فقيل له أو فقلنا له: «هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ»، فاغتسل وشرب وشفاه الله تبارك وتعالى. وقيل: الركض ليتناثر الداء من جسده.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ أحيينا ﴿لَهُ، أَهْلَهُ،﴾ من مات منهم في مرضه وعند مرضه، وقيل: ومن مات قبل ذلك، وشفي المرضى منهم.

ومال بعض المحقِّقين إلى أنَّ المعنى أرغد له الذرِّيـــَّة مِمَّن لم يمت منهم بأن تناسلوا، فمعنى الهبة إطلاقهم من مرض هم فيه فيتناسلوا.

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وليس المراد في الآخرة كما قيل، ﴿رَحْمَةً﴾ لأجل رحمة ﴿مِّــنَّا﴾ عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرا ﴿لِأُوْلِي الاَلْبَابِ﴾ ليصبروا عند المصائب، ويلتجئوا إلى الله تعالى كما صبر والتجأ، فيثابوا دنيا وأخرى كما أثيب.

(قصص) قيل: مرض سبع سنين وأشهرا، وقيل: ثماني عشرة سنة بمرض تجري به الدود من جسده عليه حتَّى بدا حجاب قلبه، وحتَّى ألقي في مزبلة، ولعلَّ هذا الإلقاء لا يصحُّ، وكذا هذا المرض المستقذر، ويقال: كان قرحة واحدة كلُّه و لم يصبر عليه غير زوجه، ودعته أن يطلب الله ليشفيه، وذكرت له فيما قيل إنَّها باعت شعر رأسها برغيف لتطعمه، فقال لها: اصبري كُنـــّا سبعين عاما في الرخاء، فدعا الله الرحمن الرحيم فأرسل إليه جبريل، فقال له: قم واركض برجلك...الخ كما مرَّ.

وجاءه بلباس من الجنَّة وقعد جانب موضعه في المزبلة، فجاءت تسأله عن أيـــُّوب، فقال: أنا أيـــُّوب، فردَّ عليه ماله وأهله وأمطر عليه جرادا من ذهب وبسط ثوبه يجمع فيه، فأوحى الله إليه: يا أيـــُّوب أما شبعت؟ فقال: يَا رَبِّ من ذا الذي يشبع من فضلك ورحمتك.

[قلت:] وهذا الجمع في ثوبه [إن صحَّت الرواية] أمر حسن إن لم يكن واجبا، لأنَّ الله تعالى أمطر عليه ليأخذه، وقوله تعالى: أما شبعت؟ لا ينافي هذا، لأنَّه ذكر لشيء طبع عليه الآدمي.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ﴾ اليمنى لقوَّتها في الضرب، والعطف على «اركض» ﴿ضِغْثًا﴾ جملة محزمة من حشيش أو ريحان أو عتكال النخل كما عن ابن عبَّاس، وهو الصحيح لمجيئه في الحديث، أو الأثل[1]، أو من ثمام فيها مائة عود لا تسعة وتسعون عودا نابتة على عود واحد، هو تمام المائة لأنَّ ذلك لا تصل معه الضرب بها كلّها الجسد.

﴿فَاضْرِب بِّهِ﴾ ظهر زوجك التي حلفت أن تجلدها مائه جلدة، رحمة بنت إفرائيم، أو رحمة بنت ميشا بن يوسف، أو ليا بنت يعقوب، أو ماخير بنت

١- شجر يشبه الضرفاء، وعتكال النخل شماريخ العرجون.

ميشا بن يوسف روايات. [قيل:] ذهبت لحاجة فأبطأت وحلف ليضربنَّها مائة، أو قال لها الشيطان: قل له يقل كذا، مِمَّا هو محرَّم، فقالت له: قل كذا واستغفر ربَّك فتشفى.

(فقه) ﴿وَلاَ تَحْنَثِ﴾ نهي عن الحنث، فضربها كذلك فبرَّ بيمينه، وذلك مختصٌّ بأيُّوب عليه السلام عند مالك، وقال الشافعيُّ: عامٌّ، ولا مانع من بقائه في المرضى فقط، لمَا روي أنَّ مقعدا أقرَّ بالزنى فأمر ﷺ أن يضرب بعتكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وكما روي أنّه ﷺ أمر أن يفعل ذلك بشمراخ فيه مائة في مريض أشفى على الموت أصاب فاحشة، فضرب به ضربة واحدة، وكذا في شيخ كبير ظهرت عروقه من الكبر قد زنى[1].

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ على ما أصابه في بدنه وماله وأهله. والدعاءُ بالشفاء مع عدم الجزع غير مخرج عن الصبر. ويروى أنّه كان يقول: «إلهي قد علمت أنّه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلاَّ ومعي يتيم، ولم أبت شبعانا ولا كاسيا ومعي جائع أو عريان» فشفاه الله تعالى. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيــوب ﴿إِنَّهُ، أَوَّابٌ﴾ لأنّه أوَّاب.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

١–الحديث في سنن أبي داود في كتاب الحدود، باب في إقامة الحدّ على المريض، من حديث أبي أمامة.

كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

جملة من الأنبياء أثنى الله عليهم وجزاء المؤمنين يوم القيامة

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ «أُولِي» نعت للثلاثة، أو نعت لـ«عِبَادَنَا». والأيدي: جمع يد بمعنى القوَّة، أي القوَّة في الدين، مجاز عن يد البدن، لأنَّه آلة القدرة. والأبصار: جمع بصر بمعنى العلم الجليل، أو الإدراك الدينيُّ التامُّ، مجاز عن بصر الوجه المُدْرِك للأشياء بالرؤية.

أو الأيدي: النعم، والمراد النبوءة والرياسة الدِّينيَّة وَالدُّنيَويَّة، والإحسان إلى الناس، والمفرد يدٌ، مجاز أيضا عن يد البدن، لأَنَّ الإعطاء بها والأخذ بها والكسب، والأبصار: كما مرَّ بمعنى البصائر.

وحاصل ذلك استعمال الظاهر والباطن في أمر الدين، **ومن لم يكن كذلك فهو كالمريض الذي لا يعمل ومسلوب العقل الذي لا يستبصر.**

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم﴾ اصطفيناهم عن غيرهم، أو جعلناهم خالصين عن الأَسْوَاء في الاعتقاد والأعمال. والجملة تعليل أو مدح مستأنف لهم **﴿بِخَالِصَةٍ﴾** بسبب خَصْلَةٍ فيهم، تفرَّع عليها ذلك بيَّنها بقوله تعالى: **﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾** بدل أو عطف بيانٍ على جوازه في المعرفة للنكرة وفي النكرات، وفي ذلك إغناء عن تقدير: هي ذكرى الدار.

والذكرى: التذكُّر. والدار: الدار الآخرة. و«ال» للعهد الذهنيِّ، وذلك أَنَّهم يذكرونها ويستعدُّون لها في الرخاء والشدَّة، ولا عبرة لهم بغيرها، وكأنَّه لا دار إلاَّ هي، وهذه الدار طريق إليها لاَ مَسكَنٌ.

(نحو) وإضافة «ذِكْرَى» للدار إضافة للمفعول، ثمّ تذكرت أنّ قراءتنا إضافة «خَالِصَة» إلى «ذِكْرَى» وهي قراءة نافع، فيكون من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي بذكرى الدار الخالصة، والخالصة نعت لـ«ذِكْرَى»، أو «خَالِصَة» مصدر، كالعاقبة والعافية، أي بخلوص ذكرى الدار عن ذكر الدنيا.

وقيل: في القراءتين المراد بالدار الدنيا، وذكراها ذكرهم فيها بالخير والاقتداء بهم.

(نحو) ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا﴾ متعلّق بخبر محذوف أي مصطفون عندنا، دلّ عليه الخبر الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿لَمِنَ اَلْمُصْطَفَيْنَ﴾ أو متعلّق بـ«الْمُصْطَفَيْنَ»، ولو كان فيه تقديم معمول الصلة على الموصول للتوسُّع في الظروف، ولا شكَّ أن «ال» موصول.

(أصول الدين) ومُصْطَفَيْنَ دالٌّ على الحدث والحدوث، واصطفاء الله قديم لكن يعتبر حدوث المتعلّق، وهو كتبه في اللوح المحفوظ، وإيحاؤه ونشره للناس، وفيه تأكيد لـ«أَخْلَصْنَاهُمْ» إذا فسَّرناه باصطفيناهم.

﴿اَلاَخْيَارِ﴾ الفائقين غيرهم في الفضل الدينيِّ والدنيويِّ.

(صرف) والمفرد «خيْر» بإسكان الياء مخفّف «خيِّر» بتشديدها مكسورة، لا جمع «خيْر» الذي هو اسم تفضيل، لأنّه في الأصل «أخْيَر» بوزن أفعل، وأفعل لا يجمع على أفعال، وقد يسوغ هنا، لأنّه لا يقال: أخير إلاّ شاذّاً أو ضرورة، فأفعل فيه مُلْغى.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَاعِيلَ﴾ فصله عن ذكر أبيه وأخيه إعلاءً لشأنه، إذ كان جدَّ سيِّد الخلق، ولم يشارك العجم فيه العرب، ولأنّه الغاية في الصبر، إذ صبر على الذبح، إذ الصحيح أنّه هو الذبيح، وصَبْرُ هؤلاء كلّهم دون صبره، فهو كصبر أبيه على الإلقاء في النار.

﴿وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثمَّ أوحى الله إليه بالنبوءة والرسالة، وهو اسم عربيٌّ سمَّوه به، مِن وسع يسع بالحذف والزيادة، و«ال» فيه زائدة. وقيل: لفظ عجميٌّ، كلٌّ حروفه أصول «ال» وما بعده، ولا حذف فيه، وُصِلت همزته تخفيفا إذ لا وصل في العجميَّة.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ هو شرف بن أيُّوب، نبَّأه الله تعالى بعد أيُّوب، وذو الكفل لقبه، إذ تَكَفَّل بالدعاء إلى التوحيد والقيام بالشرع، وهو في الشام حتَّى مات وعمره خمس وسبعون سنة، وعبارة بعض أنَّه نبيء تكَفَّل الله له في عمله بضعف عمل غيره من الأنبياء.

وقيل: هو زكرياء لقوله: ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّآءُ﴾ (سورة آل عمران: ٣٧) ، وقيل: إلياس، وقيل: يوشع، وقيل: رجل صالح تكفَّل بأمور فقام بها، وقيل: رجل صالح استخلفه اليسع فتكفَّل له أن يصوم النهار ويقوم الليل، وقيل: أن يصلى كلَّ يوم مائة ركعة، وقيل: رجل صالح تكفَّل بمائة نبيء ومؤونتهم وأخفاهم، هربوا من قتل جبَّار قد قتل ثلاث مائة نبيء، وذلك أربع مائة نبيء من بني إسرائيل.

ويضعف ما قد يقال: إنَّه اليسع، وإنَّه روعي الوسع في الخير الديني، والكفالة بما مرَّ، فساغ العطف باعتبار تغاير الصفات، كأنَّه قيل: والمتَّصف بالوسع والكفالة، كقولك: جاء العالم والعامل، تريد المتَّصف بالعلم والعمل.

﴿وَكُلٌّ﴾ من إسماعيل واليسع وذي الكفل ﴿مِّنَ الاَخْيَارِ﴾ المشهورين في الخير، ولعلَّ اتِّحاد اللفظ والمعنى في كثير من الفواصل مع القرب أو الاتِّصال نهي عن إكثار السجع والرغبة فيه، وعن المدح والتمدُّح به.

﴿هَذَا﴾ أي وصفهم بالمحاسن المذكورة ﴿ذِكْرٌ﴾ شرف لهم أو تشريف، وذلك أنَّ من لازم الشرف الذكر بين الناس. وقيل: الذكر القرآن، أي: هذا

قرآن، أي: بعض القرآن على سبيل الانتقال من كلام إلى آخر، المسمَّى مع المناسبة بالتخلُّص كما هنا، ومع عدمها بالاقتضاب.

ومن التخلُّص ما يقال بعد كلام: هذا وإنَّ كذا، وكما يقال: وبعد، ويقال: أمَّا بعد، وكقوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَئَابٍ﴾ وذلك أنَّه انتقل للكلام من قصصهم إلى ثوابهم وثواب من اتَّبَعَهم وعقاب من خالفهم كما قال: **﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾** الأنبياء وأتباعهم **﴿لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾** حسن مرجع.

(نحو) **﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾** بدل «مَئَاب»، فالكسر [في «جَنَّات»] جرٌّ، أو بدل «حُسْنَ» فالكسر علامة نصب، وعليه فإضافة «حُسْنَ» إلى «مَئَاب» إضافة صفة لموصوف على حذف مضاف، أي: لَمَئَابًا ذا حُسنٍ، أو يؤوَّل «حُسْنَ» بالضمِّ والإسكان مصدرًا بِحَسَن بفتحتين وصفًا، وجاز عطف البيان في ذلك.

و«جَنَّات عَدْن» نكرة، أي: أجنَّةُ إقامة، وليس عَلَمًا كما قيل، فالمراد مطلق الجَنَّات، ألاَ ترى أنَّ جنَّات جمع سلامة؟ وَسُمِّيَ المعدن معدنًا لإقامة ما يستخرج منه فيه.

(نحو) **﴿مُفَتَّحَةً﴾** نعت لـ«جنَّات» إن كان كسره نصبًا كما مرَّ، أو حال من ضمير الاستقرار. **﴿لَهُمُ﴾** متعلّق بـ«مُفَتَّحَةً» **﴿الأَبْوَابُ﴾** نائب فاعل «مُفَتَّحَةً»، والحال والنعت المذكوران سببيان، ورابطهما «ال» النائبة عن الضمير، أي: أبوابها، أو محذوف حال من «الأَبْوَاب»، أي: الأبواب لها، أو منها. ويجوز أن يكونا حقيقين، والرابط مستتر في «مُفَتَّحَةً»، و«الأَبْوَابُ» بدل منه بدل اشتمال، وإن قلنا: باب الدار جزء منها فبدل بعض، وإن فسَّرنا الجنَّة بحائطها وما ردَّ داخلاً فهو منها.

(نحو) ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من هاء «لَهُمْ» مقدَّرة، أي: مقدِّرين الاتِّكاء ﴿فِيهَا﴾ وكذا قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ أي: مقدِّرين الدعاء ﴿فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أو حالان من «الْمُتَّقِينَ» مقدَّرة، أو «يَدْعُونَ» حال من المستتر في «مُتَّكِئِينَ»، أو «مُتَّكِئِينَ» حال من واو «يَدْعُونَ»، و«يَدْعُونَ» حال كما مرَّ، قيل: أو مستأنف.

واقتصر من الطعام على الفاكهة لأنَّ طعامهم لمجرَّد التلذُّذ لا ليقووا ويحيوا، فإنَّ أجسامهم جعلت على أن لا يتخلَّلها ضعف أو مُنقص مَّا. ووصف الفاكهة بالكثرة لكثرة أنواعها والشراب واحد وهو الخمر، كذا قيل، ولا نسلِّم أنَّ شرابها الخمر فقط، بل متعدِّد كثير، كالحليب والنبيذ.

والشراب في الأصل مصدر يصلح للكثير، أو يقدَّر: وشراب كثير، فحذف كثير، ودلَّ عليه مناسبة كثرة الفاكهة.

[قلت:] ولأهل الجنَّة أقبال وأدبار بلا بول ولا غائط، ولا شعر ولا نتن، وليس كما قيل: إنَّه لا أدبار لهم لأنـــَّها للروث والريح ولا يوجدان في الجنَّة، قلنا لهم: أدبار وأقبال، والحجَّة آيات البعث وأحاديثه، فكيف يبعثون بنقص وتشويه خلقة، فالبعث كالنصِّ في إثباتها، وأقول: لهم نطف ترشفها أرحام نسائهم كما ترشف الأرض الماء.

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ نساء لا ينظرن إلى غير أزواجهنَّ كالشيء القصير الذي لا يصل إلى بعيد، من «قَصُر» اللازم، وإضافته إضافةٌ للفاعل. أو قصرن أعينهم عليهم، من «قصر» المتعدِّي، أو الإضافة إلى مفعول، وذلك أولى من أن يقال: قصرن أعينهنَّ حتَّى لا ينظروا إلى غيرهنَّ لكمال حُسنهنَّ.

﴿أَتْرَابٌ﴾ متساويات بعضهنَّ لبعضٍ، كمن وُلدن من بطون أمَّهاتهنَّ واتَّصلن بالتراب في وقت واحد، فكان سنُّهن واحد وأبدانهنَّ على طول واحد،

أو كترائب الصدر وهي أضلاعه في التساوي، أو مساويات لأزواجهنَّ كذلك، أمَّا تساويهنَّ ففيه مناسبة للتحابِّ بينهنَّ، فيتهنأن لأزواجهنَّ فلا تلحقهنَّ مضرَّة تغاير الضرائر.

[قلت:] وَأَمَّا مساواتهنَّ لأزواجهنَّ فلا يظهر لي أنَّه مِمَّا يزيد الحبَّ بينهم وبينهنَّ، والمعروف تفضيل كون الزوج أكبر، فتكمل اللَّذَّة باستعلائه عليها وذُلِّها، فالعِلِّـيَّة اللياقة والمناسبة بالمماثلة، ولا ذُلَّ مضرٌّ في الجنَّة.

والمتبادر أنَّ لكلِّ واحد أزواجًا أترابًا فيما بينهنَّ، أو أترابًا له، وذلك كلُّه في الآدميَّات كلِّهنَّ، وفي الحور كلِّهنَّ. وعن ابن عبَّاس: في الآدميَّات، وذكر بعض أنَّه في الحور، وذكر بعض أنَّ المراد التساوي في الأعمار بين الحور والآدميَّات.

﴿هَذَا﴾ ما ذكر من الجنَّات وطعامها وشرابها وأزواجها وأوصاف ذلك ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ مِنْ «وَعَدَ» الثلاثي، خطاب بعد غيبة ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ اللام للتوقيت متعلِّقة بـ«توعدُ»، أو بحال محذوف، أي: مؤجَّلاً إلى يوم الحساب ومضي الحساب، كقولك: كتبته لخمس مضين؛ أو بمعنى «في» متعلِّقة بالحال مقدَّرة، أي: منجزًا في يوم الحساب؛ أو للتعليل على حذف مضاف، أي: لحساب يوم الحساب، أو جعل يوم الحساب علَّة، وذلك أنَّه يظهر استحقاق ذلك بالحساب فيه.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: ما ذكر كُلُّه، لأنَّ الرزق ما ينتفع به، ولو سُكنى أو أزواجًا، ولا يختص بالمأكول والمشروب ﴿لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاع، هذا من كلام الله تعالى، فالمراد: إنَّ هذا لرزقنا الذي رزقناكم.

﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا

مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

عقاب الطاغين الأشقياء

﴿هَذَا﴾ الأمر هذا، أو هذا للمؤمنين، أو هذا كما ذكر، أو مضى هذا في علم الله فلا مردَّ له، أو خذوا يا أهل الاتِّقاء هذا، أو خذ يا محمَّد هذا باعتقاده.

(نحو) و«ها» حرف تنبيه، ولو كان اسم فعل بمعنى خُذْ أو خُذوا لَكُتب مُنْفَصلاً بألف. ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَئَابٍ﴾ عطف على ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ وقيل: على «هَذَا» وما قدِّر معه ـــ من مبتدأ وخبر أو جملة فعْلِيَّة وهي خذ أو خذوا ـــ عطفٌ للأخبار على الأخبار.

(بلاغة) ويبعد حمل ذلك على الاحتباك هكذا: إنَّ للمتَّقين لخير مئاب وحسن مئاب، وإنَّ للطاغين لقبح مئاب وشرَّ مئاب.

والطاغين: المشركون، أو أصحاب الكبائر مطلقًا. و«شَرَّ» وَصفٌ لا مصدر، أو اسم أضيف لموصوفه، أي: لمئابًا شرًّا، أو لو جعل غير وصف لقدِّر مضاف، أي: لمئابا ذا شرٍّ.

(نحو) ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل أو بيان من «مَئَابٍ»، على أنَّ فتحه جرٌّ، أو من «شَرَّ» على أنَّ فتحه نصبٌ، وذلك على جواز بيان المعرفة للنكرة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من «جَهَنَّمَ» مقدَّرة، أو من ضمير المستتر في الاستقرار، لأنَّ «شَرَّ مَئَابٍ» هو جهنَّم، وعليه فتكون «هَا» عائدة لـــ«شَرَّ». ﴿فَبِيسَ

﴿الْمِهَادُ﴾ الفِراشُ هي.

(نحو) والعطف على ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ عطف إنشاء على إخبار.
﴿هَذَا﴾ أي: العذاب هذا ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ عطف على قوله: العذاب هذا ﴿حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ﴾ أي: هو حميم وغساق، أو مبتدأ لمحذوف، أي: منه حميم، والأولى أنّه خبر «هَذَا»، و«فَلْيَذُوقُوهُ» معترض، وقال الأخفش: الفاء صلة و«لِيَذُوقُوهُ» خبر «هَذَا»، أو «هَذَا» منصوب على الاشتغال: لِيَذُوقُوا هذا ليذوقوه.

والحميم: الماء الشديد الحرارة. والغساق صديد أهل النار، أو ما يسيل من دموعهم، أو عين في جهنَّم يسيل إليها سموم عقارب النار وحيَّاتها، يغمس فيها الكافر فلا يبقى إلاَّ عظمه. وعن ابن عبَّاس: الزمهرير. وقيل: سائل، أي: ومذوق سائل من جلودهم، أو من العقارب والحيَّات. وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد عنه ﷺ : «**لَوْ أنَّ دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا**»[1].

﴿وَءَاخَرُ﴾ ومذوق آخر، أو وعذاب آخر، أو هذا مذوق آخر، أو وهذا عذاب آخر، أو منه مذوق آخر، أو منه عذاب آخر. وفسَّره ابن مسعود بالزمهرير، أو لَهُم مذوق آخر، أو لهم عذاب آخر.

﴿مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ مبتدأ وخبر، والهاء لـ«ءَاخَرُ». والشكل: المثل في الشدَّة. والأزواج: الأجناس. والجملة نعت لـ«ءَاخَرُ»، ويجوز عود الهاء للشراب، أو للحميم والغساق بتأويل ما ذكر، أو للغساق.

﴿هَذَا فَوْجٌ﴾ تقول الملائكة للطاغين عند دخول النار، أولى من أن يقال:

١- رواه **الترمذي** في كتاب صفة جَهَنَّم عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم٢٥٨٤. ورواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب الأهوال، رقم٨٧٧٩. من حديث أبي سعيد الخدري.

يقول الطاغون بعض لبعض: هذا فوج، أي: جمع كثير ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخل شدَّة النار، أو متوسِّط في النار ﴿مَّعَكُمْ﴾ لأتِّباعهم لكم في الضلال.

﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ داخل في الحكاية بالقول المقدَّر، لا على طريق النعت بل مجرَّد إخبار أو إنشاء، أو على طريق الإخبار والنعت، وإن جعل إنشاء صحَّ أن يكون مفعولا لنعت محذوف، أي: فوج مقول فيهم: «لَاَ مَرْحَبًا بِهِمْ».

والإفراد في «هَذَا فَوْجٌ» نظر للَّفظ، والجمع في «بِهِمْ» نظر للمعنى. و«مَرْحَبًا» اسم «لَاَ» و«بِهِمْ» متعلِّق به، والخبر محذوف، أي: عندنا، أو لهم. وهذا أولى من تقدير: لا أتوا مرحبا، أو لا رحبت بهم الدار مرحبا.

والمرحب: مصدر ميميٌّ بمعنى الوسع، لا نفع لنا فيهم، وإن كان القول المقدَّر من الملائكة فالمعنى: لا رحب لهم في قلوبنا، أو في رحمة الله تعالى. ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ﴾ داخلوها مقاسون حرَّها.

(صرف) والأصل: صاليوا بضمِّ الياء، نقلت ضمَّتها لثقلها إلى اللام فحذفت للساكن بعدها لفظا وخطًّا، وحذف الساكن بعدها وهو الواو لفظا لا خطًّا.

(نحو) والجملة من مقول القول المقدَّر بلا قصد تعليل مستأنفة، أو نعت آخر لـ«فَوْجٌ»، وإن قدِّر قول قبل «لَاَ مَرْحَبًا» صحَّ أنَّ هذه تعليل له.

﴿قَالُواْ﴾ أي: الفوج، وهذا يناسب أنَّ القائل «هَذَا فَوْجٌ» «الطَّاغُونَ» بعض لبعض، أو يقدَّر القول منهم قبل «لَاَ مَرْحَبًا». لَمَّا قال الطاغون لأتباعهم: لا مرحبا قالت الأتباع وهم الفوج: ﴿بَلَ اَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ وأمَّا أن يكون القول كلُّه من الملائكة، ويقصد الأتباع خطاب الطاغين فدون ذلك. خاطبوهم في النار بما لا يطيقون أن يخاطبوهم به في الدنيا.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ الهاء للعذاب المعلوم من الحال والمقام، أو للصلي

المعلوم من «صَالُوا»، أو للاقتحام المعلوم من «مُقْتَحِمٌ». ومقدِّم ذلك لهم هو الله تعالى، ولكن أسندوا التقديم إلى الطاغين الرؤساء لأَنَّهم السبب بالإضلال الذي قدَّمه الرؤساء و لم يقدِّموا العذاب، وَلَكِنَّ هذا الإضلال سبب لتقديم الله تعالى العذاب.

﴿فَبِيسَ اَلْقَرَارُ﴾ النار، من جملة ما تأذوا به من جانب الرؤساء أَنَّهم ضرُّوهم به، أو قالوه انتقاما من الرؤساء بأَنَّهم لم ينجوا منه مع أَنَّهم رؤساء.

﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع، كرَّروا القول لأَنَّهم قالوه لله تضرُّعا، والقول قبل قالوه للرؤساء جوابا لهم وذمًّا وخصاما.

﴿رَبَّنَا﴾ يا ربَّنا ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا﴾ وهم الرؤساء، وقال الضحَّاك: إبليس وقابيل لأَنَّهما سنَّا المعصية الموجبة لهذا. ﴿هَذَا﴾ أي: الكون في النار وعذابها، وذلك نفس ما تقدَّم قبل، و«مَنْ» موصولة، لأَنَّهم قصدوا مخصوصين، وقيل: شرطيَّة على فرض أَنَّهم لم يقصدوا مخصوصين، أو قصدوا وردُّوا العبارة إلى الإجمال.

﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي اِلنَّارِ﴾ أي: عذابا مثل ما هم فيه، وضعف الشيء في مثل هذا مثله، فهما اثنان لا ثلاثة، وعن ابن مسعود: الضعف الحيَّات والعقارب.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الطاغون الرؤساء بعض لبعض تعجُّبا وتحسُّرا، لأَنَّهم الذين قد يراجعون ما كان في الدنيا، من تسمية المؤمنين مطلقا أشرارا استخفافا بالإيمان، أو تسمية المؤمنين الفقراء أشرارا لفقرهم، وأَمَّا الأتباع فهم دون أن يستحضروا ذلك، ولو فعلوه في الدنيا مع الرؤساء، وقيل: الضمير لهم لأَنَّ الضمير في: «قَالُواْ بَلَ انتُمْ» وفي «قَالُواْ رَبَّنَا» لهم.

﴿مَا لَنَا﴾ وقوله: ﴿لاَ نَرَىٰ﴾ حال من «نا» ﴿رِجَالاً كُنَّا﴾ في الدنيا

﴿نَعُدُّهُم مِّنَ الاَشْرَارِ﴾ الذين لا خير فيهم لإيمانهم، أو له ولفقرهم. ووجه قولهم ذلك مع ما شهدوه من فوز المؤمنين في المحشر أنّهم نسوا ذلك الفوز لشدّة ما هم فيه من العذاب.

وسبب النزول لا يدفع عموم اللفظ، إذ سبب الآية قيل: استهزاء رؤساء قريش كأبي جهل وأمية بن خلف، وأصحاب القليب لعنهم الله. والهاء لفقراء المؤمنين كعمّار وصهيب وسلمان وخبّاب وبلال وهم الرجال، ولا يقدح ذلك في عموم اللفظ، مع أنّا لا نسلّم أنّ الواو لهؤلاء الكفرة و«رِجَالاً» لهؤلاء المؤمنين، بل هما للعموم من أوّل.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا﴾ وليسوا بأهل له فلم يحضروا في النار، وأخطأنا نحن فيهم؟ والهمزة مفتوحة ثابتة لاستفهام أنفسهم وبعض لبعض، وهمزة الوصل حذفت لفظا وخطًّا.

﴿اَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ الاَبْصَارُ﴾ فهم معنا في النار لكن لم نرهم؟ و«أَمْ» متّصلة، والعطف على مدخول همزة الاستفهام، ويضعف ما قيل: إنّ زيغ الأبصار عنهم تحقيرهم في الدنيا، وأنّه خلاف السخرياء لتقارب ما بينهما، وقيل: العطف على «مَا لَنَا»، أي: ما لنا لا نراهم لعدم كونهم فيها، أو هم فيها لكن لم نرهم، وقيل: «أَمْ» منقطعة للإضراب عن إنكار الاستسخار إلى إنكار أنّهم جعلوهم محضرين لا ينظر إليهم بوجه، وقيل: منقطعة، أي: بل ضلّ نظرنا فيهم وَهم على الحقّ فلا يُحضرون هنا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا يتخلّف وقوعه في المستقبل ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ خبر ثان، ومقتضى الظاهر تَقدُّمه على «حَقٌّ»، ولكن قدّم «حَقٌّ» لطريق الاعتناء بنفي الكذب والتكذيب.

(نحو) وقيل: خبر لمحذوف، أي: هو تخاصم أهل النار، ووجهه مع أنَّ جعله خبرا ثانيا مغن عن الحذف دَفْعُ ما يقال: الأولى تقديمه، لأنّه اذا استؤنف له كلام بالحذف لا يعترض بذلك، وقد جعله بعض بدلاً من «حَقٌّ» وهو في معنى كونه خبرا ثانيًا.

والتخاصم: التقاولُ، أو هو على ظاهره، فإنَّ قول الرؤساء «لاَ مَرْحَبًا بِهِم» وقول الأتباع: «بَلَ اَنتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُم» تنازعٌ وتخالفٌ في أيِّ الفريقين هو شرٌّ من الآخر، فسمَّى ذلك وما معه تخاصمًا. أو الاشارة إلى قول الرؤساء وقول الأتباع فقط، لا مع ما معهما.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الكلام كُلَّه من الخزنة فلا خصام، إذ لا تقول الخزنة: «أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا»، ولا حاجة إلى أن تقول الخزنة للرؤساء: «بَلَ اَنتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُم» اللّهم إلاّ أن يقصدوا التشديد على الرؤساء، فيقدَّر القول بعدُ هكذا: قالت الأتباع: أنتم قدَّمتموه لنا. و إن جعل «لاَ مَرْحَبًا» من كلام الرؤساء و«هَذَا فَوْجٌ» من كلام الخزنة فهو تخاصم مجاز.

﴿قُلِ اِنَّمَآ أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِ اِلَٰهٍ اِلَّا اَللَّهُ اُلْوَاحِدُ اُلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ اُلسَّمَٰوَاتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا اَلْعَزِيزُ اُلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ اَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ اِلَاعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

بعض أدلّة صدق النبيء ﷺ

(أصول الدين) ﴿قُلِ﴾ يا محمَّد لقومك ﴿اِنَّمَآ أَنَا مُنذِرٌ﴾ من الله وهذا حصرٌ إضافيٌّ، أي: لا ساحر ولا كاذب ﴿وَمَا مِنِ اِلَٰهٍ اِلاَّ اَللَّهُ﴾ من جملة

ما أمره الله تعالى أن يقوله: ﴿الْوَاحِدُ﴾ لا إله معه، ولا هو جوهر لا يقبل التجزيء، ولا جسم له أجزاء كسائر الأجسام، ولا عَرَض تشاركه الأعراض، بل هو لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيءٌ، سبحانه وتعالى.

﴿الْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء، ولو كان إلهٌ آخر لم يكن الله قهَّارًا لثبوت الأُلوهيَّة لغيره أيضا، بل قد يكون مقهورا، **حاشاه عمَّا لا يليق به.**

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خلقًا وملكًا وتدبيراً، ولو كان غيره إلهًا معه فِيهِنَّ لفسدتا بالاختلاف بعد وجودهما، أو قبله بالاختلال أو عدم الوجود. أو معنى ﴿السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: كلُّ موجود، فلا يكون مُوجِدٌ إلهًا إلاّ هُو. ﴿الْعَزِيزُ﴾ يغلب كلّ شيء، ولا يغلبه شيءٌ، ولا يزول فيخلفه غيره، فلا أُلوهيَّة لغيره تعالى مع ذلك ﴿الْغَفَّارُ﴾ لكلّ ما يشاء، فلو أراد المغفرة لأحد وعارضه مانع وانتقم فالمانع هو الإله، أو لم يؤثِّر منعُه فالله هو الإله.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لقومك، وكرّر القول إيذانًا بإنّ المقول أمر جليل يستأنف له الكلام، لا ممَّا يُدرجُ مع ما قبله، فربَّما غَفَلَ عنه السامع ﴿هُوَ﴾ أي: ما أخبرتُكُم به من أنّي رسول، وأن لا إله إلاّ الله الواحد القهَّار، مالك كلّ شيء العزيز الغفَّار. وعن ابن عبَّاس: المراد القرآن، لقوله تعالى ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ...﴾، ولِدُخول ما ذُكر فيه.

﴿نَبَؤٌا﴾ خبرٌ ﴿عَظِيمٌ﴾ ذَاتًا وفائدةً ﴿اَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ مع أنَّه لا يليق بكم الإعراض عنه، ولا عمَّن نَصَحَكُم به، والجملة نعتٌ ثانٍ، وقيل: مستأنفةٌ ناعِيَةٌ عليهم قُبحَ حَالِهِم.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الاَعْلَى﴾ الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ متعلّق بقوله: «لِي»، أو بـــ«عِلْمٍ» على التوسُّع في الزمان. والمضارع لاستحضار الحالة

الماضية. ويجوز أن يكون «إِذْ» بدل اشتمال من «الْمَلإِ» فتكون خارجة إلى الجرِّ بالحرف.

وضمير «يَختَصِمُونَ» للملائكة، وهم الملأ الأعلى. وزعم بعض أنّه لقريش، علىطريق الالتفات من الخطاب في ﴿أَنتُم عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ إلى الغيبة، وأنّ اختصامَهُم في رسالته والقرآن والبعث، وذلك بعيد.

[قلت:] والصواب أنّه للملإ الأعلى، وهم الملائكة، فيكون الإخبار باختصام الملائكة وفيما يختصمون فيه معجزةً عظيمةً، إذ لا يقرأ مكتوبًا ولا يكتب ولا ينظر في الكتب ولا يستمع من أهل الكتاب.

وقيل: الاختصام يوم القيامة، وعليه ابن عبّاس والحسن، كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة النبأ: ١-٢) ، وقيل: المراد أخبار الأنبياء، وقيل: المراد تخاصم أهل النار.

و«الملأ الاعلى»: الاشراف، يملؤون العيون عِظَمًا، وهم الملائكة وآدم، ومن قال: هما وإبليس فالعلُوُّ حِسِّيٌّ إذ اختصموا في السماء.

﴿إِنْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إلاَّ أنت نذير مبينٌ، أي: ظاهر أو مظهر لما خَفِيَ من الوحي. والجملة معترضة بين إجمال اختصامهم المذكور وتفصيله في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

خلق آدم عليه السلام والأمر بالسجود

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾ شامل لإبليس إذ نشأ فيهم كواحد منهم، أو هو من ملائكة يُسمَّون جِنًّا.

(نحو) ونائب فاعل «يُوحَى» المصدر من قوله: ﴿أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ». وإن جعلناه ضمير حال «الْمَلَإِ الأَعْلَى»، أو ضمير ما يُوحَى إليه على العموم، أو جعلناه «إِلَيَّ» قدِّر حرف التعليل قبل «إِنَّمَا»، أي: ما يوحى إليَّ حال الملأ، أو ما يوحى إليَّ ما يوحى، أو ما يوحى إليَّ إلاَّ لأنَّما أنا نذير مبين، أي: إلاَّ انحصار شأني في النذارة غير خارج إلى الكذب والسحر، فالحصر إضافيٌّ.

(نحو) وَ«إِذْ قَالَ» بدل من «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» بدل كلٍّ، أو بدل بعض، لأنَّه قد لا يحتاج بدل البعض أو الاشتمال إلى الرابط؛ أو مفعول لـ«اذْكُرْ»، وأسند الاختصام إلى الملإ الأعلى مع أنَّ التقاول كان بينهم وبين الله تعالى كما قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ لأنَّ القائل ملكٌ عن الله يختصم مع سائر الملأ.

(أصول الدين) وإسناد القول إلى الله مجاز، واعتقاد أنَّ الله من الملإ الأعلى حرام، فالملك قَاوِلٌ عن الله تعالى مع سائر الملائكة في جعل آدم خليفة، ومع إبليس في شأن السجود، ومع آدم في قوله: ﴿أَنبِئْهُم

بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ (سورة البقرة: ٣٣) .

وقيل: اختصام الملإ الأعلى اختصام الملائكة في الدرجات والكفّارات، أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أو ألهمهم: «إنّ الدرجات: إطعام الطعام، وإفشاءُ السلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وإنّ الكفّارات: إسباغُ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ونقل الأقدام إلى الجماعات، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وخرج من خطاياه كيوم ولدته أمُّه»[1]. وفي رواية: «قُلتُ لبَّيك وسعديك، فَعَلمت ما بين المشرق والمغرب».

ويروى: «فأوحى الله تعالى إليه: سل يا محمَّد، فقال: «اللهمَّ إنِّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقْبضني إليك غير مفتون، اللهمَّ إنِّي أسألك حبَّكَ وحبَّ من أحبَّك، وحبَّ عمل يُقرِّبني إلى حبِّك»، قال ﷺ : «تعلَّموهنَّ وادرسوهنَّ فإنَّهنَّ حقٌّ».

[قلت:] ومن الفتنة دعوى أنّ لله أنامل، وأنّهنَّ باردة وَأَنـــّهُ وضعهنَّ بين كتفيه ﷺ ، وأنّه وجد بردها بين ثدييه، وأنّه تعالى جاءه في صورة حسنة[2]، ومن أحياه الله وَرَدَّ مثل هذه البدع فلا بأس، وله ثواب عظيمٌ.

ومعنى اختصامهم في الدرجات والكفّارات اختلافهم في قدر ثوابهنَّ.

[قلت:] ولكن لا يظهر تفسير الاختصام في الآية بذلك، لأنّه لا يعرفه أهل الكتاب ولا يسلّمه المشركون، **فهو اختصام آخر غير مراد في الآية**، وقيل: اختصامهم مناظرتهم في استنباط العلوم كالعلماء الآدميين، والذي يظهر وينصُّ

١- يشير إلى الحديث الذي رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، رقم٣٢٣٣، من حديث ابن عبَّاس.

٢- يشر الشيخ إلى ما في حديث المنام المعروف لدى المحدثين، وقد أورده ابن كثير في تفسير الآية.

عليه الأحاديث أنّ شأنهم غير هذا، وأنّه في شأن آدم.

﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾ فيما يأتي، و«خَالِقٌ» أقوى من أخلق ﴿بَشَرًا﴾ جسما كثيفا ماسًّا ممسوسا، وظاهر الجلد غير مكسو بشعر أو وبر أو صوف، لا جسما لطيفا كالملك ﴿مِّن طِينٍ﴾ وفي آية أخرى: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ (سورة آل عمران: ٥٩) ، وفي آية: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (سورة الحجر: ٢٨) ، وفي أخرى: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ (سورة الأنبياء: ٣٧) ، في وجه، وذلك مختلف المفهوم متّحد المأصدق.

وظاهر الآية أنّه ذكره لهم باسم البشر، وفي آية أخرى باسم الخليفة، وذكر بعض المحقّقين أنّه لم يذكره لهم باسم البشر، إلاّ أنّه في نفس الأمر بشر، وعلى كلّ حال هو آدم عليه السلام .

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ صوّرته وعدّلت طبائعه على ما يجري عليه قضائي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أفضت فيه من الحياة التي هي ملكي ﴿فَقَعُواْ﴾ أمر من الوقوع بسقط حرف المضارعة المجزوم، وما بقي فهو فعل الأمر، وإن بقي ساكن أول جيء بهمزة الوصل فيكون الأمر، والمعنى: اعجلوا كالساقط.

﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ منحنين تكريما له، لا سجود عبادة له، بل انحناء عبدوا الله به، وقيل: كسجود صلاة عبادة لله عز وجل ، وفيه تكريم له كالقبلة.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لم يبق واحد، وأمّا أن يكون سجودهم بمرّة كأنّه قال: معًا فلا، بل تسابقوا، فإنّ الساجد من قعود قبل غيره، والقصير قبل غيره، هذا إن كان كسجود الصلاة، أو كان الانحناء إلى حدّ مخصوص، وأمّا إن كان مطلق انحناء فلا يتسابقون، إلاّ إن استغرق أحد منهم في عبادة أخرى، فقد يتأخّر كالمتنبّه، وخرّج بعضهم الآية على الوجه الأكمل،

وهو **اتّحادهم بدءً وانتهاء**، واللفظ صالح لذلك.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ استثناء منقطع، لأنّ إبليس من الجنّ، ولكونه من الجنّ أو كونه أباهم وقع منه العصيان، كما دلّت عليه الفاء في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّـهِ﴾ (سورة الكهف: ٥٠) ، وقيل: كان من جنس من الملائكة يسمّون الجنّ، يتوالدون فشمل هذا اللفظ اسم الملائكة، فكان الاستثناء متّصلا، وإن لم يشمله كان منقطعا، أو هو متّصل ولو كان من غيرهم، لأنّه نشأ فيهم، وعبد عبادهم أو أكثر، فكان واحد منهم، فاستثني استثناء الواحد من جنسه.

﴿اَسْتَكْبَرَ﴾ لكن إبليس تكبّر، على الانقطاع [أي للاستثناء]، وأمّا على الاتّصال احتمل أنّه ترك السجود للتأمّل، فأخبرنا الله ﷻ أنّه تركه استكبارا.

﴿وَكَانَ مِنَ اَلْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى وقضائه أنّه سيكفر، وهو في براءة الله في حين عبادته لِمَا ختم له به من المعصية، ولذلك لم يقل: فكان بالفاء المفيدة للسببيَّة والتفريع.

أو المراد: كان من الكافرين حين أبى من السجود، لظهور أنّ الكفر مترتّب على ترك السجود **﴿قَالَ﴾** الله ﷻ توبيخا وإنكارا.

﴿يَآ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ من أن تسجد، أي: من السجود، أو ما منعك السجود؟ فإنّه قد يتعدّى لاثنين **﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾** أي: لمن خلقت، فـ«مَا» واقعة على العاقل، كما تقع على الجماد وسائر الحيوان.

أو لَمَّا كان شيئا جديدا غير معروف عبَّر عنه بـ«مَا» أو «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر بمعنى مفعول، أي: لخلقي، أي: مخلوقي، وإنّما صرنا إلى هذا لتأويل «مَا» لا عبثا.

واليدان تعظيم له عليه السلام وتأكيد للقدرة، والشيء المعتنى به يعمل باليدين،

وهو من غير أب وأمّ، وفيه **علوم ومزايا ليست للملائكة**، وإنّه طين ثُمَّ لحم وعظم، ثمّ حياة وَقُوَّة وعلم، ومن كان ذلك حاله حقيق أن يعظّم ويسجد له إذ أمر الله تعالى بالسجود له.

أو اليدان لأنّ له أفعالا ملكيَّة تناسب اليمين، وأفعالا حيوانيَّة تناسب الشمال، ولا يد لله حقيقة.

أو اليد: النعمة، والتثنية لتأكيد النعمة، أو لنعمة الدنيا ونعمة الآخرة، [قلت:] ولا بأس أن تقول: «بِيَدَيَّ» تأكيد لكونه خلقه وتحقيق، كما يقال: هذا رأيته بعيني، أو هذا كتبته بيدي أو قلته بلساني، على أن يرجع هذا التأكيد لتعظيمه، كأنّه قيل: حقيق أن تسجد لما تحقّق أنّه خلقته بيدي.

قال ابن عمر: «خلق الله أربعة بيده: العرش، وجنَّات عدن، والقلم، وآدم، ثمّ قال لكلّ شيء: كن، فكان» رواه البيهقي. و«ثمّ» للترتيب الذكري والتراخي الرتبي. ويروى أنّ الله تعالى كتب التوراة بيده.

ولا يخفى أنّ ذا اليدين يباشر الأعمال، فغلب الفعل بهما على سائر الأعمال حتَّى يقال في عمل القلب: إنّه ممَّا عملته يده، ويقال لمن لا يدين له: عملته يداك، ومنه: ﴿مِمَّا عَمِلَتَ اَيْدِينَا﴾ (سورة يس: ٧١) ، و﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. ويروى أنّ الملائكة قالوا: اجعل لآدم وذرِّيته الدنيا ولنا الآخرة، فقال الله ﷻ : وعزَّتي وجلالي لا أجعل من خلقته بيديَّ كمن قلت له كن فكان.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾؟ بفتح الهمزة للاستفهام التوبيخي، وهمزة الوصل المكسورة محذوفة لفظا وخطًّا، أي: أتكبَّرت من غير استحقاق وهو فوقك؟ ﴿أَمْ﴾ متَّصل ﴿كُنتَ مِنَ اَلْعَالِينَ﴾ ممَّن هو في الحقيقة أعلى منه شأنا، فظهر لك أن لا

تسجد له ولو أمرتك بالسجود؟ أو أَحَدَث لك التكبُّر بعد الاتِّضاع لأمر الله؟ أو أحدث لك استحقاق رفعة وأنت قبل ذلك لم تكن برفيع؟ أم كنت عاليا عليه من أوَّل مرَّة حقيقة؟ أو مدَّعيا للرفعة من أوَّل مرَّة؟.

ولفظ «كُنتَ» أنسب بهذه الأوجه غير الأوَّل، إذ لم يقل: أم أنت من العالين، كذا قيل، وقيل: ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾ من الملائكة العالين على من سواهم من الملائكة، لا يعرفون أحدا معهم إلاَّ الله، والإكباب على طاعته، لم يؤمروا بالسجود لآدم، ويسمُّون المهيمين.

وقيل: ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾: من ملائكة السماوات، على أنَّه أمر بالسجود له ملائكة الأرض فقط، والصحيح أنَّ الملائكة كلّهم أمروا بالسجود له، وأجاب قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ...﴾ بقوله: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ﴾ كما قال:

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: أنا من العالين عليه حقيقة بأصل الخلقة، كما ذكره بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ، مِن طِينٍ﴾ والنار خير من الطين، والمساواة تمنع من أن أسجد له، فكيف وأنا أفضل؟.

واستواؤنا في أنَّ كلاًّ مخلوق لك يمنع من أن يعلو عليَّ بالسجود له، فكيف وأنا أفضل؟ وفي هذا حمق، فإنَّ الذي خلقهما أحقُّ بأن يطاع في الأمر بالسجود، والمخلوق باليدين أولى من المخلوق بـ«كُنْ»، والمخلوق ممَّا يثمر أولى لأنَّه ممَّا يثمر كأصله، وقيل: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله ﷻ ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ عطف على محذوف: عصيتني فاخرج منها، أو لا يسكن جنَّتي من عصاني فاخرج منها، فالضمير للجنَّة ولو لم تذكر لشهرة أنَّه من سكَّانها.

وقيل: كان في جنَّة في الأرض، وعن ابن عبَّاس: في جنَّة عدن، لا في جنَّة

الخلد، ولعلّه لا يصحّ، فإنّ الجنّات كلّها سواء في أن لا يخرج منها داخلها، والله ﷻ أمره بالخروج مع ذلك، لأنّه لم يدخلها ثوابا لعمله. والأولى أنّ معنى «اخْرُجْ مِنْهَا»: لا تدخلها، وكان يدخلها إذا شاء ويخرج.

وقد قيل له ذلك وليس فيها، بمعنى لا تعد إليها، كما تقول لمن ليس في الدار لكن قد سكنها: اخرج منها. وكثير قالوا هذه الجنّة التي أهبط منها إبليس وآدم في الأرض، وشهر أنّها جنّة الثواب، وناداه إبليس من بابها ليوسوس له بعد الطرد.

وقيل: «مِنْهَا» لزمرة الملائكة، وقيل: من خلقته، وكان يفتخر بها أبيض جميلا حسنا، فاعورّ واسودّ وقبح وأظلم، وهما ضعيفان، والصحيح أنّ الضمير للجنّة.

﴿فَإِنَّكَ﴾ لأنّك ﴿رَجِيمٌ﴾ مطرود من كلّ خير، والمطرود يرجم بالحجارة، فكنّى عن الطرد بلازمه وهو الرجم. و﴿رَجِيمٌ﴾: ذليل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣)، أو ذو ذرّيّة ترجم بالشهب لأنّك ذو خسّة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ شامل للعنة الملائكة وغيرهم له، لأنّها بخلق الله تعالى وأمره بها، وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الجزاء، فيجازى على مقتضاها يوم الجزاء، فهو في الدنيا ملعون فقط، وفي يوم الدين ملعون معذّب، وإذا لم يرحم في الدنيا دار الرحمة فكيف يرحم في دار العقاب؟ قال الله تعالى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٤٤)، وقد يلوح بالغاية في الآية إلى أنّه تنضمّ إلى اللعنة أنواع من العذاب تنسي اللعنة حتّى كأنّها انقطعت.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا ربّ ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ عطف على محذوف، أي: قضيت برجمي ولعنتي فأنظرني، أي: أمهلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يبعث هذا الذي فضّلت عليّ وذرّيته للحساب لأنجو من الموت ما دامت الدنيا، وآخذ ثأري

منهم، علم بالسماع من الملائكة أو عقله أنَّه لا بدَّ من يوم البعث بعد الموت.

﴿قَالَ﴾ الله ﷻ ﴿فَإِنَّكَ مِنَ اَلْمُنظَرِينَ﴾ طلبت الإنظار فإنَّك من المنظرين، من جملة من لا أميته قبل قيام الساعة، فإنَّ الملائكة لا يموتون قبلها فكذا إبليس.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقت نفخة الموت، واليوم يوم آخر الدنيا ينفخ فيه بالموت، والوقت المعلوم وقت النفخ للبعث، وأضيف إليه لأنَّه بابه.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ عطف على محذوف، أي: أجبتني في الإنظار فأقسم بسلطانك وقهرك.

(فقه) والقسم يجوز بالله وبصفته كعزَّته وعلمه وقدمه وبفعله، ومنه ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ (سورة الأعراف: ١٦) ، أي: بإغوائك، ولا يجوز بفعل غير الله ﷻ ، وتارة أقسم بعزَّة الله تعالى، وتارة أقسم بإغوائه، أو إقسامه بإغوائه إقسام بعزَّته، لأنَّ إغواءه من عزَّته لكن بلا إجبار.

﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ، أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ المصطفين للطاعة المعصومين من غوايتي. و«مِنْهُمْ» متعلِّق بـــ«مُخْلَصِينَ» ولو كان صلة لــــ«ال» للتوسُّع في الظروف، وللفاصلة.

﴿قَالَ﴾ الله ﷻ ﴿فَالْحَقُّ﴾ أي: قال إبليس الباطل، فالزموا يا آدم وذرِّيته الحقَّ، فهو مفعول لمحذوف، وخاطب بني آدم قبل وجودهم لأنَّهم سيوجدون، ويسمعون هذا الخطاب، أو أسمعهم وهم في صلب آدم عليه السلام .

﴿وَالْحَقَّ﴾ مفعول مقدَّم لقوله ﴿أَقُولُ﴾ وقدِّم للحصر والتأكيد، فصار كالقسم، فأجيب بقوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنهُمُ، أَجْمَعِينَ﴾ أو جواب لقسم محذوف، أي: والله لأملأنَّ جهنَّم.

وقيل: يجوز أن بنصب «الْحَقَّ» الأوَّل على حذف الجارِّ، وهو واو القسم، والجواب له، **فيكون الحقُّ الله، أو خلاف الباطل**، وجملة ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ معترضة. ومعنى «مِنْكَ»: من جنسك من الشياطين. ومعنى ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: وَمِمَّن تبعك من ذرِّيــَّة آدم في الضلال. و«أَجْمَعِينَ» تأكيد لكاف «منكَ» ولـــ«مَن تَبِعَكَ»، أو تأكيد لـــ«مَن تَبِعَكَ»، أي: وللتابعين لك من الناس، ولو كانوا من أولاد الأنبياء والصالحين، لا تفاوت بين أحد بالنجاة مع الإصرار على اتِّـــبَاعك، وهو أنسب لقرب المؤكَّد ولشدَّة رغبته في الانتقام من آدم.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

حال من الداعي وحال الدعوة ومعجزة القرآن

﴿قُلْ﴾ تذكيرا لهم بما عرفوه منك، من أنَّك لا تطلب أجرا منهم، وأنَّك لا تتكلَّف حلية ليست لك ﴿مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ لأجله، أي: لأجل القرآن، كما روي عن ابن عبَّاس ﷺ أو لتبليغ ما يوحى إليَّ، والدليل على الوجهين الحال، وقيل: للدعاء إلى الله تعالى، والدليل أيضا الحال، والدعاء إلى الله ممَّا تضمَّنه القرآن والتبليغ ﴿مِنَ اَجْرٍ﴾ دنيويٍّ ولو قليلا، من مال أو قُوَّة أو جاه أو ثناء أو غير ذلك.

﴿وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصنِّعين لما ليس لهم، مثل أن آتي بأقوال أدَّعي أنَّها من الله، وأنِّي بها رسول منه.

قال رسول الله ﷺ : «**ألا أنبِّئكم بأهل الجنَّة؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**هم الرحماء بينهم**» قال: ألا أنبِّئكم بأهل النار؟ قالوا بلى، قال: «**هم الآيسون القانطون الكذَّابون المتكلِّفون**» رواه ابن عديٍّ عن أبي بزرة.

وأخرج البيهقي عن ابن المنذر: «إنَّ علامة المتكلِّف أن ينازل من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم». وفي البخاري ومسلم عن ابن مسعود: «أيـــهَا الناس، من علم منكم علما فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله تعالى أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾».

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: القرآن أو التبليغ أو الدعاء إلى الله، والأوَّل الصحيح لأنَّه أنسب لظاهر الكلام ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ عظيم ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ الجنِّ والإنس. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ،﴾ خبره من الوعد والوعيد وغيرهما بتحقيق ومشاهدة بحقٍّ وصدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ يوم القيامة وهو بعد حين الدنيا، أو بعد حين العمر عند الموت، وذلك كلُّه للآخرة، وقيل: يوم بدر، فذلك في الدنيا، والله أعلم وهو المستعان الموفق.

وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم.

تفسير سورة الزمر وآياتها ٧٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④﴾

مصدر القرآن ووجوب إخلاص العبادة لله

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ القرآن على الصحيح، أو السورة، أو جنس كتب الله تبارك وتعالى. و«تَنزِيلُ» باق على معنى المَصدَرِيَّة، أو مؤوَّل باسم مفعول على إضافة الصفة للموصوف، أي الكتاب المنزّل، والخبر على كلّ حال قوله تعالى: ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فعلى أنّ المراد الجنس يكون تمهيدًا لقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن أو السورة وتوطئة له. وعلى أنّ المراد بالكتاب أو القرآن أو السورة يكون مقتضى الظاهر ثانيا الإضمار هكذا: «إنَّا أنزلناه إليك» ولكنّه أظهر لزيادة التفخيم، ولأنّ ما هنا شروع في بيان المنزّل عليه وما يجب عليه، وما قبله في نفس المنزل.

(نحو) وكما أخبر هنا عن المصدر بما يتبادر تعلّقه به كذلك يجوز في

«لا حولاً عن معاصي الله..»[1] الإخبار بما يتبادر تعلُّقه باسم «لاَ»، فَصَحَّ أن يُجعل «عن معاصي» خبر «لاَ»، وكذا ما أشبهه. وإن علّق بما بَعْدَ «لاَ» وقيل في نحو: «لاَ حَوْلَ عن معاصي الله» إنّه مشبَّه بالمضاف معرَب، وعدم تنوينه لشبْهِه بالمضاف.

﴿بِالْحَقِّ﴾ لأجل إثبات الحقِّ، أو مع الحقِّ، فإنّ معاني ألفاظ القرآن حقٌّ، وألفاظه حقٌّ، وألفاظ الخلق غير القرآن تكون معانيها باطلة وتكون حقًّا **﴿فَاعْبُدِ اللهَ﴾** بسبب كون القرآن الآمر بعبادته حقًّا **﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾** [أي مخلصا] العبادة عن الشرك والرياء والشبهة.

﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ كلام مستأنف لا تأكيد لما قبلُ، لأنّ ما قبل أمر بالعبادة لله وإخلاصها، وهذا إخبار بأنّ ذلك حقٌّ لله، والله أهلٌ لهُ ولا أهلَ لَهُ سِواه، وهو أقوى مِمَّا قبلُ، لأنّه برهان له، فإنّ المعنى: **اعبدني بإخلاصٍ فإنّه لاَ أهل لذلك غيري**، ولا سيما أنّه أكّدَ بالجملة الاسميَّة و«أَلاَ» والحصر، وذلك كقوله: اعطني كذا فإنّه حقٌّ لي عليك، وهذه شهودي. نعم اشتملت هذه الجملة على الأولى وأوجبتها ضِمْنًا، فإن أريد بالتأكيد للأولى هذا فصحيح. وأفادت أنّ الله تعالى لا يقبل ما هو عبادة أريد بها غيره، ولا عبادة أريد بها هو وغيره.

قال يزيد الرقاشي: قال رجل: «يارسول الله، إنّا نعطي أموالنا التماس الذّكر، فهل لنا من أجر؟» فقال رسول الله ﷺ : **لا**، قال: يا رسول الله إنّا

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي أورده صاحب سبل السلام، باب الذكر والدعاء فضل لا حول ولا قُوَّة إلاّ بالله... (الموسوعة الفِقْهِيَّة - قرص مدمج) وهو مِمَّا اعتاد أهل ميزاب قراءته جماعيا بعد صلاة الفجر.

نعطي التماسا للأجر والذكر فهل لنا أجر؟ فقال ﷺ: «**إنّ الله تعالى لا يقبل إلاّ عمَّن أخلَصَ لَه**» ثمّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿**أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ وفي ذلك ردٌّ على من قال: يقبل منه جانب التقرُّب إلى الله تعالى؛ وكذا أحاديث القدس: «**أنا أغنى الشركاء عن الشركة وإنّي قد ردَّدته كلّه**»[1].

والحديث يدلُّ على أنّ «الدِّينَ» في الموضعين العبادة، إذ سئل عن العبادة بالمال فأجاب بالعبادة، وقال قتادة: العبادة في الموضعين شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقال الحسن: الإسلام، فإمَّا أن يريد العبادة وإما أن يريد التوحيد لا إله إلاّ الله.

وقرَّر الله تعالى التوحيد بأنّ المشركين أقرُّوا بتحقيق الأُلوهيَّة لله تعالى، وأنّه المالك النافع الضارُّ، إذ قالوا: إنّما نعبد الأصنام لتقرِّبنا إليه، وأفسدوا بهذا إقرارهم وبقولهم: الملائكة بنات الله، ونحو هذا، [قرَّر] ذلك في قوله تعالى:

﴿**وَالذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمُ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اَللهِ زُلْفَى**﴾

ومعنى «أَوْلِيَآءَ» آلهة. والخبر قول محذوف، تقديره: يقولون، أو قالوا: ما نعبدهم. وهاء «نَعْبُدُهُم» عائدة إلى الأولياء. و«زُلْفَى» اسم مصدر بمعنى تقريبًا، مفعول مطلق. والآلهة المعبَّر عنها بـ«أَوْلِيَآءَ»: ما يعبد من دون الله، كالملائكة وعيسى والأصنام. والقائلون: الملائكة بنات الله بنو عامر وبنو كنانة وبنو سلمة.

(**نحو**) ويجوز أن تكون الجملة مفعولا به لحال محذوف من واو «اتَّخَذُوا» تقديره: قائلين: «مَا نَعْبُدُهُمُ إِلاَّ...»، أو يقدَّر: قالوا، بدل اشتمال من قوله: «اتَّخَذُوا»، وخبر المبتدأ هو قوله: ﴿**إِنَّ اَللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ وفي الكلام حذف، أي بينهم وبين المؤمنين.

والحكم بينهم: إدخال العابدين لغير الله تعالى النار وإدخال المؤمنين الجنَّة،

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٦، ص٣٥٧.

أو يميِّز بين المؤمنين والكافرين بعلامة. واختلافهم: قول المؤمنين بالتوحيد وأنَّه حقٌّ، وقول الكفرة بالإشراك وأنَّه الحقُّ.

وقيل: لا حذف، فالضمائر للكفرة وما عبدوه، والحكم بينهم: إدخال الملائكة وعيسى الجنَّة، وإدخال عابديهم النار، قيل: وإدخال الأصنام معهم النار تَحْسيرًا لهم بها وتعذيبا بها، ولا تتألَّم. واختلافهم: رجاء الكفرة الشفاعة، وقول الملائكة وعيسى: إنَّكم على باطل ولا نشفع لكم، ولعنهم باللسان أو الحال، والله قادر أن ينطق الأصنام باللعن.

ويبعد أن يكون «الذينَ» للمعبودين وضميرهم هاء محذوفة والواو للعابدين والخبر «إِنَّ اللهَ...»، و«مَا نَعْبُدُهُمْ...» محكيٌّ بقول محذوف بدل أو حال كما مرَّ، أي يقولون أو قائلين، والمعنى: والمعبودون الذين اتَّخذوهم أي اتَّخذَهم المشركون العابدون أولياء إنَّ الله يحكم بينهم بإدخال المعبودين الجنَّة الملائكة وعيسى، والعابدين والأصنام النار مختلفين برجاء الشفاعة وتبرُّؤ المعبودين منهم [وهو بعيد]، ووجه البعد أنَّه لم يجر للمعبودين ذكر، وأنَّ ذلك مخالفة للظاهر في الضمير وحذف الضمير، وعدم تقدُّم اختلاف الملائكة وعيسى معهم بالخصام حتَّى يحكم بينهم، وإنَّما ذلك للمؤمنين معهم في الدنيا.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي﴾ إلى ما يُنجِّي من العذاب إلى الجنَّة وهو الإيمان والعمل **﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾** راسخ بالذات في الكفر مستعدٌّ له، كما قال: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه: ٥٠)، و﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (سورة الإسراء: ٨٤).

أو لا يهدي من سبقت في علمه شقوته، أو لا يهدي يوم القيامة إلى الجنَّة من استمرَّ على الكفر في الدنيا. والكذب على العموم كذب أهل الشرك

بالإشراك، وبالقول بالملائكة بنات الله، وغير ذلك من أنواع الشرك وعلى عموم المشركين.

وإن قيل: المراد المشركون المتحدَّث فيهم فقوله: ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ إظهار في موضع الإضمار ليوصفوا بما أوجب هلاكهم، وهو الرسوخ في الكذب والكفر، ويناسب إرادة الخصوص كعامر وكنانة وبني سلمة القائلين الملائكة بنات الله، ومن يقول: عيسى ابن الله ﷺ قوله تعالى:

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لو أراد الله اتِّخَاذ أشياء عاقلة غاية في الحُبِّ والتقريب حتَّى تُسَمَّى أولادَه على سبيل المجاز في التسمية لاختار ما يشاءُ هُوَ، ولا ينتظر أن يتَّخذ له المشركون ما يختارون له كالملائكة وعيسى.

ولو شاء لاختارهم أو غيرَهُم بالتسمية كما سَمَّى آدم خليفة له [كما في سورة البقرة آية ٣٠]، وكذا الأنبياء، وكما سَمَّى السعداء أحبَّاءه، وكما سَمَّى القُدْرة يدًا، وكما قال: ﴿مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (سورة المائدة: ١١٦) ، أي عندك، ونحو ذلك من المجاز، ولكنَّه لا يريد ذلك ولو على التسمية والتجوُّز فقط، مع أنَّها جائزة على المجاز.

وإنَّما قلت أشياء، لأنَّ الولد يطلق على الجمع وما دونه، مع أنَّ المشركين نسبوا إليه الجماعة، ومنهم عيسى، ولو اختص به النصارى، والله أعلم سبحانه عن كلِّ ما لا يجوز في حقِّه.

(أصول الدين) وإن فسَّرنا الولديَّة بالولديَّة الحقيقيَّة على طريق النفي، فالمعنى: لو صحَّ أن يريد الله اتِّخَاذ الولد لم يجده [أي لم يُمكن ذلك] لأنَّ كلَّ ما سواه مَخلوقٌ، والمُباينة بين الخالق والمخلوق تامَّة، والوِلادة تنافي المباينة، فلم تثبت صحَّة الإرادة، إذ لا يريد ما لا يمكن فيكون حاشاه عاجزا.

أو لو فرضنا صحَّة إرادة اتِّخاذ الولد لانتقضت لتعلُّقها بالممتنع وهي الولادة المنافية للألوهيَّة، أو لو فرضنا صحَّة الاتِّخاذ لامتنع الاتِّخاذُ.

وجعل «لاَصْطَفَى» في هذين الوجهين بدل الجوابين اللذين قدرت فيهما، والولادة تسمية أو تحقيقًا منتفية، وأمكن الاصطفاء بلا ولادة، وقد اصطفى الملائكة وعيسى عليهم السلام على غير الولادة.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ على الولادة تسميةً وهي التبني، وحقيقةً، وعن كلّ نقص ﴿هُوَ اَللهُ الْوَاحِدُ﴾ بالذات لا يقبل الولادة والتبعيض والانفصال، وفيه مقابلة لقوله: ﴿اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾. ﴿الْقَهَّارُ﴾ **لكلّ شيء**، فهو غنيٌّ عن كلّ شيء.

واتِّخاذ الولد احتياج كما قال الله ﷻ : ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ (سورة يونس: ٦٨) ، أي الغناء الكامل، حتَّى لا يحتاج إلى جنس وفصل وصورة، ومادَّة وأعراض وأبعاض ونحو ذلك، والولادة تتضمَّن الانفصال والمثليَّة، والمنفصل شيء مقهور لا قاهر.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

من أدلة التوحيد وكمال القدرة

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لا خالق سواه ولا يعجزه شيء كما هو الواحد القهَّار، فهو واحد فعلا كما هو واحد ذاتا **﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾** يغرب الشمس كُلَّ يوم قبل إغراها بالأمس، ففي كلِّ يغطِّي الليل على بعض النهار فيطول الليل، ثم يطلع الفجر كلَّ يوم قبل إطلاعه بالأمس، فيطول النهار، وذلك كتغطية بعض العمامة ببعض.

[قلت:] وكذا ظهر لي، ثم رأيته لابن عبَّاس، إذ قال: يجعل بعض أجزاء النهار ليلا فيطول الليل، وبالعكس فيطول النهار، وفي معنى ذلك تأخير إطلاع الفجر فيطول الليل، وبالعكس فيطول النهار، وذلك كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾ (سورة فاطر: ١٣) ، وما نقص من الليل زاد في النهار، وما نقص من النهار زاد في الليل، ومنتهى النقصان تسع ساعات، ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة[١].

والليل والنهار عسكران عظيمان يكرُّ أحدهما على الآخر كرورا متتابعا شبيها بتتابع أكوار العمامة، وكلٌّ يغيِّب الآخر إذا طرأ عليه.

وقيل: المعنى يجعل الليل مكان النهار بزوال بياضه، وبالعكس بزوال الظلمة، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (سورة الليل: ١-٢) ، وقيل: يأتي بكلِّ واحد عقب الآخر، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ (سورة الفرقان: ٦٢) ، وقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (سورة الأعراف: ٥٤) . وفي التفسير الأوَّل مراعاة لَيِّ العمامة بعض على بعض كما مرَّ، وهو أولى.

١- هذا فيما بين مدار الجدي ومدار السرطان.

(صـرف) يقال: كار العمامة يَكُورُها كقال يقول. والتشديد في الآية للمبالغة. وفي الآية استعارة تمثيليَّة بتشبيه أشياء بأشياء، وهي أولى من جعلها مفردة في «يُكَوِّرُ» على حدة تبعيَّة، وفي النهار على حدة أَصليَّة، وفي الليل كذلك.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بجريان كما أراد في نفس الطلوع والغروب، وفي حركتهما، حتَّى لا يميلان عن مجراهما، وإن أريد أنَّ كلاًّ يجري لمنتهى دورته كان قوله تعالى: **﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** تفسيرا للتسخير، أي: لا يقصِّر عن دورته ولا يزيد عليها.

وأخطأ من يقول: الشمس ساكنة لا تجري مع أنَّ الله ﷻ يقول: **﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾**. ولا أحد يكوِّر الليل والنهار أو يسخِّر الشمس والقمر ويقهرهنَّ إلاَّ الله ﷻ ، فلا إله إلاَّ الله الواحد فعلا كما هو الواحد ذاتا، المتنزِّه عن الولادة.

﴿اَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على العصاة المصرِّين بالعقاب **﴿الْغَفَّارُ﴾** للتائبين لقوله تعالى: **﴿إِلاَّ مَن تَابَ﴾** (سورة الفرقان: ٧٠) ، وقوله ﷺ : «**هلك المصرُّونَ**» أو العفو عن المصرِّين بأن لم يعاجلهم بالعقاب.

(بلاغة) فعليه سمِّي عدم التعجيل بالعقاب مغفرة على الاستعارة الأَصليَّة، واشتقَّ لفظ «غَفَّار» على التبعيَّة والجامع ترك العقاب، ولو كان العقابَ في المشبه متوقَّعا، أو سمِّي عدم تعجيل العقاب مغفرة على المجاز المرسل الأصليِّ والتبعيِّ، لعلاقة الإطلاق والتقييد، لأنَّ الترك في المغفرة مطلق وفي التأخير مقيَّد بأَنَّ العقاب سيكون.

﴿خَلَقَكُم﴾ أَيـُّهَا الناس أو أَيـُّهَا المشركون، لم يعطف على «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ» لاستقلاله بالدلالة على أنَّه تعالى واحد قهَّار، ولتعلُّقه بالعالم

السفليّ، وقدَّم ذكر خلق الإنسان على خلق الأنعام لعقله وقبول التكاليف ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم عليه السلام بلا أب ولا أمٍّ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حوَّاء. «ثُمَّ» لتراخي الزمان إذ هو الأصل فيها. والمراد بخلقكم إخراجكم من آدم كالذرِّ، وهو متقدِّم على خلق حوَّاء، ويكفي في التراخي مدَّة ولو قصيرة، ولا سيما أنَّها طالت بين الإخراج كالذرِّ وحين خلق حوَّاء منه.

ويجوز أن يكون التراخي رتبيًّا على أنَّ خلقها من ضلع أعظم من خلقهم من نطفة، على أنَّ المراد بخلقهم خلقهم من نطفة، وهو متأخِّر عن خلقها زمانا، وقد يكون خلقهم من نطفة أعظم من خلقها من ضلع لأنَّ النطفة ميِّتة والضلع حيٌّ، ولكونها بتغيير بعضه عن حاله الأوَّل عبَّر بالجعل، فليس التعبير به لكون خلقها أعظم من خلقه.

روي أنَّه أخرج ذرِّيته من ظهره كالذرِّ، ثمَّ خلق زوجه من قصيري ضلعه الأيسر، أسفل الأضلاع، وبقي بعضه أو جعل كلّه حواء.

(نحو) فالعطف على «خَلَقَكُم» بمعنى أخرجكم مجازا، ويجوز عطفه على نعت ثان محذوف، أو على مستأنف للبيان، أي: خلقها ثمَّ جعل منها، ويجوز عطفه على «وَاحِدَة» ولو تغلبت عليه الاسميَّة، لجواز ملاحظة الحدث فيه، أي: وجدت ثمَّ جعل منها مع عدم شهرة فعل الوحدة الثلاثي.

(بلاغة) ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الاَنْعَامِ﴾ أثبت لكم في اللوح المحفوظ، وعبَّر بالإنزال عن الإثبات لأنَّ المثبت في اللوح المحفوظ تنزل الملائكة بإظهاره، على الاستعارة الأصليَّة، واشتقَّ منه «أَنزَلَ» على التبعيَّة، والجامع الظهور بعد الخفاء، فإنَّه ظاهر في الخارج بالإثبات في اللوح، أو على المجاز الإرسالي فالتبعيُّ لعلاقة السَّببيَّة أو اللزوم، فثبوته في اللوح سبب لنزوله وملزوم له.

ويجوز إبقاء الإنزال على حقيقته، وهو إنزال المطر الذي هو سبب حياتها، لأنّها لا تعيش إلاّ بالنبات ولا نبات إلاّ بالماء، وهو ينزل من السماء، وذلك غير متبادر. ولا دليل على ما قيل: إنّها خلقت في الجنَّة مع آدم ثمّ أنزلت منها.

و«مِنْ» للبيان متعلّقة بمحذوف حال من قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكور الضأن والمعز والبقر والإبل وإناثها، والعطف على «خَلَقَكُم» أو على «جَعَلَ» على أنّ «ثُمَّ» لغير ترتيب الزمان، لأنّ الصحيح أنّ الأنعام كغيرها من الحيوان خلقت قبل آدم، [قلت:] وَضَعُفَ القول بأنّ الأنعام [خلقت] بعد خلقه. وقدّم «لَكُمْ» بطريق الترغيب والاعتناء بما صدّر، والتشويق إلى ما أخّر.

﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ خطاب لبني آدم المخاطبين بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وإن جعلناه للأنعام ولبني آدم ففيه تغليب العقلاء على غيرهم في الضمير والمخاطبين على ما استحقّ كلام الغيبة من أن يقال: يخلقها.

﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ علقة بعد نطفة، ومضغة بعد علقة، وعظما بعد مضغة، ولحما وجلدا وعروقا بعد عظم، وهذه الأطوار في بني آدم والأنعام ونحوها. و«مِنْ» متعلّق بـــ«خَلْقًا» أو بـــ«يَخْلُقُ» أو بمحذوف نعت لــــ«خَلْقًا».

﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ لا يتعلّق بـــ«يَخْلُقُ»، لأنّه قد علّق فيه «فِي بُطُونِ»، وحرفا جرّ لمعنى واحد لا يتعلّقان بعامل واحد إلاّ على التبعيَّة، كما إذا جعلنا «فِي ظُلُمَاتٍ» بدلا من «فِي بُطُونِ»، ويجوز تعليقه بـــ«خَلْقًا». (نحو) ﴿ثَلاَثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، وقيل: ظلمة الصلب والبطن والرحم، وفي هذا إلغاء المشيمة، ولعلّ إلغاءها لأنّها لا يلزم أن تكون، وعلى كلّ حال ألغي صدر المرأة مع أنّ ماءها منه، كما أنّ ماء الرجل من ظهره، ولعلّ إلغاءه لقلّته.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الفاعل لما ذكر ﴿اللَّهُ﴾ المستحقُّ للألوهيّة لفظا ومعنى، ولا يستحقُّ الأُلوهيَّة لفظا ولا معنى غيره، لأنّه لا يفعل فعله، وهو خبر أو بدل أو بيان أو نعت على التأويل بالمعبود ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان أو خبر أو بدل أو نعت، بمعنى المربّي لكم في تلك الأطوار وبعدها.

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ خبر ثان أو ثالث أو خبر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر آخر أو خبر، والأولى أنّه مستأنف ﴿فَأَنَّىٰ﴾ كيف ﴿تُصْرَفُونَ﴾ عن عبادته؟ واعتقاد ألوهيّته؟ مع كمال الدواعي إليهما وانتفاء الصوارف.

﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ مع وجود هذه الدلائل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ لم تضرُّوه بكفركم، لأنّ الله غنيٌّ عن إيمانكم، وعن كلّ أحد فنابت العلّة عن هذا الجواب المقدَّر، وهذا أولى من تقدير: فأنا أخبركم وأقول: إنّ الله غنيٌّ.

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ المؤمنين والكافرين، وقيل: السعداء ﴿الْكُفْرَ﴾ لأنّه قبيح، وجور عن الحقِّ، وضرر عليهم، كفر الشرك وكفر النفاق.

(أصول الدين) تقول: خلق الله المعاصي وأرادها ممَّن تقع منه، ونهى عنها، ولا تقول: أحبَّها ولا رضيها ولو من الشقيِّ إلاّ على التوسُّع والتجوُّز، عن معنى أنّه لم يُعصَ مغلوبا، وعلى معنى الإرادة والخلق.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ يرضى الشكر المدلول عليه بـ«تَشْكُرُوا» لأنّه صلاحٌ لكم، وحقٌّ وحسنٌ شرعا. ولا نقول بالتحسين والتقبيح العقليَّين. ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ لا تتَّصف بوزر غيرها ولا تتأثّر به عقابا ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفسٌ وازرة مذنبة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ نفسٍ أخرى، لا تعاقب إلاّ بذنب نفسها، ومن ذنبها دعاؤها إلى الذنب بالقول أو بحاله، فيعاقب بما فعل غيره به لذلك، ولا يحمله عن فاعله.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالبعث للجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ حسابا للجزاء ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فكفركم أيُّها الكافرون لا يعدوكم عقابه إلى المؤمنين.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۞ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞ ﴾

حال الكفار المتذبذبة وثبات المؤمنين

﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ﴾ الجنس، وإن أريد به عتبة بن ربيعة أو أبو جهل ــ قولان ــ فاللفظ عامٌّ وبه يعمل ﴿ضُرٌّ﴾ مرض أو احتياج أو غير ذلك ممَّا يكره ﴿دَعَا رَبَّهُ، مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غير الله، لعلمه بأنَّه لا يكشف الضرَّ عليه غيره تعالى.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ عظيمة وهي مطلق نعمة، أو نعمة تضاد الضرَّ كإزالته، وأصل التخويل من الخَوَل بفتحتين، وهو تعهُّد الشيء بالخير مرَّة بعد أخرى، وأطلق على العطاء مرَّة بعد أخرى، كما هو شأن الله تعالى مع خلقه، وقد يطلق على العطاء ولو بلا تكرُّر.

وقيل: أصل «خَوَّلَهُ» أعطاه خَوَلاً بفتح الخاء والواو، أي: عبيدا أو خدما أو ما يحتاج إلى تعهُّد وقيام عليه، ثمَّ عمِّم لمطلق العطاء.

(صرف) ويجوز أن يكون من «خال يخول»: افتخر، كما يقال: خال يخيل ــ بالياء ــ افتخر، فــ«خَوَّلَهُ»: أعطاه ما يفتخر به، وحافظ الواو في هذا

مع الياء حجَّة، لأنَّ الحافظ المثبت مقدَّم، واعترض بأنَّه لو كان من «خال» بمعنى افتخر لكان لازما يتعدَّى بالشدِّ لواحد، وقد تعدَّى في الآية لاثنين، وأجيب بكون «خوَّل» بالشدِّ وضع في اللغة بمعنى أعطى متعدِّيا لاثنين.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ نسي الضرَّ الذي كان يدعو الله إلى إزالته ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل التخويل. ويجوز كون «مَا» بمعنى شيء مفخَّم هو الله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ (سورة الليل: ٣) ، وقوله ﷻ : ﴿وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مآ أَعْبُدُ﴾ (سورة الكافرون: ٣) . والهاء لـــ«مَا»، وعليه فعدِّي «يَدْعُو» بـــ«إلى» لتضمُّن معنى التضرُّع، أي: نسي الله الذي كان يتضرَّع إليه في إزالة الضرِّ، وهو معنى صحيح، إلاَّ أنَّه لَمَّا كان فيه «ما» مستعملا للعالم وتضمين فعل معنى آخر لم يتبادر.

﴿وَجَعَلَ لله أَندَادًا﴾ بقي على جعله الأنداد لله تعالى، أو زاد أندادا بطرا للنعمة، وهم أصنام تضادُّ الله، أو رجال في المعاصي يعاندون الله بها، ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِه﴾ من اهتدى، ويزيد الضالَّ ضلالا، وزيادة الضلال إضلال حقيقة لا مجازا. واللام للعاقبة، لأنَّه لم يقصد أن يكون الناس منصرفين عمَّا هو حقٌّ حتَّى يسمَّون ضالِّين، وهي هنا قريب إلى التعليل، لأنَّه قصد أن ينصرفوا عن كذا، وهو في نفس الأمر حقٌّ ولا يعرفه حقًّا.

﴿قُلْ﴾ تهديدا للإنسان ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ تمتُّعا قليلا أو زمانا قليلا ﴿إِنَّكَ مِنَ اَصْحَابِ النَّارِ﴾ من أهلها هكذا، والخلود من خارج أو من ملازميها، فكإنَّك لم تتمتَّع وتمتُّعك أورثك صحبة النار دائما.

﴿أَمَنْ﴾ الاستفهام تقرير، و«مَنْ» موصول مبتدأ، والخبر محذوف مع معادله، أي: الذي ﴿هُوَ﴾ على عمومه، ولو قيل عن ابن عبَّاس: نزلت في أبي

بكر وعمر. وعن ابن عمر: نزلت في عثمان. وقيل: نزلت في ابن مسعود وعمّار وسلمان، وسبب النزول لا يخصِّص. ﴿قَانِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الاَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ خير أم أنت أيُّها الكافر؟.

والقانت: القائم بما وجب من الطاعات وتطوع العبادات في السرَّاء والضرَّاء، و﴿ءَانَاءَ الَّيْلِ﴾: ساعات الليل ليتمكّن من تحقيق العبادة لخلوِّه، ومن عدم الرياء، فتكون أقرب للقبول، لا في حال الضرَّاء فقط، كعادتك أيُّها الكافر.

(نحو) و«سَاجِدًا» حال من المستتر في «قَانِتٌ». و«يَحْذَرُ» حال ثان، أو حال من المستتر في «سَاجِدًا»، أو مستأنف جوابا، كأنّه قيل: ما باله؟ قال: يحذر الآخرة، أي: عذابها، ويرجو رحمة رَبِّهِ في الآخرة.

عن أنس: دخل رسول الله ﷺ على محتضر فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو وأخاف، فقال ﷺ : «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلاّ أعطاه الذي يرجو وآمنه الذي يخاف**»[1].

(فقه) والآية تدلُّ على وجوب الكون بين الخوف والرجاء، فما جاوز حدَّ الخوف كان آمنا، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٩٩) ، وما جاوز حدَّ الرجاء كان آيسا، وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف: ٨٧) .

[قلت:] وتدلُّ الآية على فضل صلاة الليل لاجتماع القلب فيه، وعلى جواز الإيمان والعمل الصالح خوفا من النار، وعلى جوازهما لدخول الجنَّة، وعلى جوازهما للنجاة من النار ودخول الجنَّة، وجاز من الحديث القصد

١- رواه **الترمذي** في كتاب الجنائز، باب ما جاء في أنَّ المؤمن يموت بعرق الجبين، رقم٩٨٣. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ٤٢٦١. من حديث أنس.

بهما لإجلال الله تعالى لا خوفا من النار ولا طمعا في الجنَّة، كصهيب ورابعة العدوية[1].

[قلت:] ومن قال: لولا الجنَّة أو لولا النار أو نحوهما ما عبدت الله ذمًّا لنفسه إذ كانت لا تعبد إجلالا له تعالى بل لذلك فلا بأس، وإن قاله استخفافا بحقٍّ، أو لولا أنَّه يعاقبني ما عبدته، أشرك.

﴿قُلْ﴾ لذلك الكافر تقريرا وتصريحا بالحقِّ وتنبيها عن الإعراض والغفلة ﴿هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ يدركون الحقَّ فعملوا به، فلزموا الطاعات، وخافوا العقاب على التقصير، ورجوا الرحمة ﴿وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يدركونه، فعملوا بجهلهم وهواهم مثلك أيُّهَا الكافر الجاعل للأنداد، لا يستوون.

العالمون العلم الحقيق الذي أثمر العمل الصالح، وترك المعاصي في أعلى وفي خير، والذين لا يعلمون في أسفل وفي شر، [قلت:] **والعالم بلا عمل كالجاهل،** وقد يعتبر أنَّه أشدُّ عنادا من الجاهل.

والآية على العموم، ولو قال يحيى بن سلام[2]: المراد رسول الله ﷺ ، وقال ابن عبَّاس: أبو بكر وعمر، وقال مقاتل: عَمَّار وصهيب وابن مسعود وأبو ذرٍّ، وقال عكرمة: عَمَّار، وعن ابن مسعود في رواية المراد عَمَّار، وفي أخرى عَمَّار وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة.

١- رابعة بنت إسماعيل العدويَّة البصريَّة الزاهدة العابدة أمُّ عمرو، قيل عاشت ٨٠ سنة تُوُفِّيت سنة ١٨٠هـ. الحمصي: تهذيب أعلام النبلاء، ج١، ص٢٨٨.

٢- يحي بن سلام بن أبي ثعلبة التميمي بالولاء البصري ثم الإفريقي، مفسِّر فقيه محدِّث لغوي، ولد ونشأ بالبصرة، ورحل إلى مصر ثُمَّ إلى تونس، سمع الناس بها كتابه في تفسير القرآن وحجَّ في آخر عمره، وتُوُفِّيَ في طريق عودته. ودفن بمصر عام ٢٠٠ هـ. عادل نويهض: معجم المُفَسِّرِينَ، ج٢، ص٧٣٠.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالدلائل المذكورة فيزدجر عن الإشراك والمعاصي ﴿أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ العقول الخالصة عن الشبه لا هؤلاء الكفرة، فإنَّهم بمعزل عن التذكر.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

نصائح للمؤمنين في العبادة وما أعد لهم من كرامة
ووعيد عبدة الأصنام

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الذينَ ءامَنُواْ اتَّقُواْ رَبـَّكُمْ﴾، أي: قل لهم عنّي، بدليل إضافة عباد لضمير الله سبحانه، وهي إضافة تشريف، كأنَّه قيل: قل للمؤمنين يقول لكم ربُّكم: ﴿يَاعِبَادِ...﴾. ولا شكَّ أنَّ هذا لكونه حكاية كلام الله تعالى أقوى من أن يقول: يا عباد الله الذين آمنوا اتَّقوا ربَّكم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ...﴾ تعليل، أي: لأنَّ للذين أحسنوا ﴿فِي هَذِهِ﴾ متعلّق بـ«أَحْسَنُوا» أو بمتعلّق «لِلَّذِينَ». ﴿الدُّنْيَا﴾ بأداء الفرائض والنفل، والهجرة إلى الحبشة أو إلى المدينة، أو بالصبر على أذى المشركين أو التمسُّك بالدين ﴿حَسَنَةٌ﴾ مرتبة حسنة، هي موضعه في الجنَّة، أو هي الجنَّة، ومعلوم أنَّ الجنَّة على التوزيع، أو خير الدنيا والآخرة، وقيل: الحسنة المدينة، وقيل: الثناء الحسن في الألسنة المقبول عند الله، والصحَّةُ والسَّلامة، وقيل: ولاية الله.

﴿وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ﴾ لا عذر لمن أشرك أو عصى لتضييق المشركين عليه. والآية حثٌّ على الهجرة، وقد قيل: نزلت فيمن هاجر إلى الحبشة، وعبارة بعض: نزلت في جعفر بن أبي طالب ﷺ وأصحابه إذ هاجروا.

(فقه) وفسَّرها بعض بالحثِّ على الهجرة من البلد الذي ظهرت فيه المعاصي اقتداء بالأولياء، ولَمَّا فتحت مَكَّة لم تجب الهجرة، فمن أسلم في دار شرك وهي وطنه جاز له المقام فيها، إن كان يصل إلى إظهار دينه، وقيل: ولو كان لا يصل إلى إظهاره وقد أقامه سرًّا.

[قلت:] وإن لم يجد من يعلِّمه دين الإسلام أو يفتنوه ولو سرَّه ذلك وجبت عليه الهجرة ﴿أَلَمْ تَكُنَ اَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً﴾ (سورة البقرة: ٩٧) ، ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ...﴾ (سورة العنكبوت: ٥٦) .

وقيل: أرض الله المدينة، على أنَّ الإحسان الهجرة، فالحسنة الراحة من الأعداء، وقيل: أرض الله الجنَّة، وفيه أنَّ المقام يناسب وسع الدنيا، ولو ناسب التفسيرَ بالجنَّة قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الاَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ (سورة الزمر: ٧٤) ، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣) ، لكنْ مناسبةً لا تقرب أن تكون حجَّة في تفسير الآية.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى اَلصَّابِرُونَ﴾ على دينهم، وعلى المصائب، وعلى أذى المشركين ما داموا فيهم، وعلى الهجرة ومفارقة الوطن، ومن يعزُّ فراقه، وعن اللذَّات.

قال عليٌّ: «كلُّ مطيع يكال له ويوزن، إلاَّ الصابرين فإنَّه يحثى لهم حثيا». ويروى: «إنَّ أهل البلاء لا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصبُّ عليهم الأجر صبًّا بلا حساب» حتَّى يتمنَّى أهل العافية في الدنيا أنَّ أجسامهم قرضت بالمقاريض لِمَا يرون من ثواب أهل البلاء.

[قلت:] ومن العجيب تفسيره بالصبر على الصوم، وأعجب منه دعوى أنَّ تفسيره بالصوم أكثر الأقوال، مع أنَّه لا مدخل للصوم إلاَّ أنَّه من الدين، و لم يشهر أنَّ المشركين يضيِّقون عليهم لأجل الصوم فيقال: صبروا عليه، وإنَّما الكلام في الصبر على شدَّة المشركين، وقطع عذر من لم يصبر عليه فارتدَّ، مع أنَّ أرض الله واسعة، يغريهم على الصبر أو على الاقتداء بمن صبر قبلهم.

﴿أَجْرَهُم﴾ في الآخرة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من «أَجْرَ»، أو من «الصَّابِرُونَ»، أي: كائنين بغير حساب على ذلك الأجر، وعلى كلِّ حال المراد الكثرة، كما قال ابن عبَّاس: لا يهتدي إليه حساب. أو حال من «الصَّابِرُونَ» على معنى أنَّهم يدخلون بغير حساب.

ومقتضى الظاهر إن قلنا المراد بالصابرين من خوطبوا بقوله: ﴿يَاعِبَادِ﴾ وقوله: ﴿اتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ [أن يقول:] إِنَّمَا توفَّون أجوركم بغير حساب، بالإضمار، فأظهر ليذكر أنَّ العمدة الصبر، وأن لا ثواب مع عدمه.

قال أبو هريرة: «من رزق خمسا لم يحرم خمسا -وزيد سادس- من رزق الشكر لم يحرم الزيادة، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (سورة إبراهيم: ٧)، ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى...﴾

ومن رزق التوبة لم يحرم القبول، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عبَاده﴾ (سورة الشورى: ٢٥) ، ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ...﴾ (سورة هود: ٥٢) ، ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ (سورة غافر: ٦٠) ، والسادس: من رزق الإنفاق لم يحرم الخلف، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم...﴾ (سورة سبأ: ٣٩) ».

[قلت:] وفي الصبر على أذى السنِّ أجر كبير، كما روي أنَّ الله تعالى أوحى إلى رسول الله ﷺ وعلى آله أن قل لأبي بكر: علام أضمر؟ فسأله، فقال: على وجع السنِّ سبع سنين. فليس كما قيل: إنَّه لا ثواب لمن صبر على وجعها إذ كان له نزعها، لأنَّا نقول: الأصل عدم قطع الأعضاء، فنزعها جائز والصبر عليها له ثواب لمن قصده.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المؤمنين المخاطبين أو للمشركين، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِه﴾ (سورة الزمر: ١٥) ، أو للكلِّ **﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ اَللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾** مخلصا العبادة عمَّا يبطلها، كرياء وإشراك ومعصية، أو ينقضها. وأمره بذلك أمر لهم، فإن لم يمتثلوا لم ينتفعوا بشيء، وهذا حثٌّ. وبني الفعل للمفعول للعلم بأنَّ الآمر الله ﷻ ، وللإشارة إلى أنَّ إخلاص العبادة لله ﷻ أمر يجب امتثاله، من كُلِّ من صدر منه.

وكذا في قوله: **﴿وَأُمِرْتُ﴾** بذلك **﴿لأَنَ اَكُونَ أَوَّلَ اَلْمُسْلِمِينَ﴾** لأجل أن أكون أَوَّل المسلمين في الدنيا والآخرة، بكوني أوَّلهم في الإخلاص وهم مسلمو أمَّته، وأوَّل من أسلم في زماني ومن قومي، على وفق الأمر الموحى المذكور.

وكلُّ نبيء أوَّل من يؤمن من أمَّته بما يوحى، لأنَّه يوحى إليه، فيؤمن بما أوحي ثمَّ يبلِّغه. و[أن أكون] أوَّل من دعوهم إلى الإسلام، ورجَّحه بعض، أو

أوَّل من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره فأكون قدوة في قولي وفعلي. أو الأوَّليَّة في الشرف بالدين، وقد علمت أنَّ اللام للتعليل، وقيل: بمعنى الباء، فلا حذف كما حذف لفظ «بذلك» على وجه التعليل. وقيل: اللام صلة والباء مقدَّرة.

﴿قُلِ اِنِّيَ أَخَافُ﴾ بالعصيان ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّـي﴾ ولو معصية صغيرة، فكيف الإشراك وكيف أنتم وقد بسطتم الإشراك؟ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إسناد العظم إلى اليوم لعظم ما فيه من الهول مجاز عقليٌّ، أو من تسمية المحَلّ باسم الحالّ، والمحلُّ يوم القيامة، وهو زمان.

﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ﴾ قدَّم لفظ الجلالة للاهتمام والحصر المأمور بهما ﴿مُخْلِصًا لَهُ، دِينِي﴾ عبادتي مِمَّا يفسدها كالرياء والإشراك، قيل: ومَنْ طلب ثواب أو نجاةٍ من النار، فالحال مؤسِّسة، أو عن عبادة غيره معه، فهي مؤكّدة، لأنَّ التقديم أفاد أنَّه لا يعبد غير الله ويترك الله، ولا يعبد غير الله مع الله، بل الله تعالى وحده.

نزل ذلك ليظهر التصلُّب في دينه لقومه، وليدفع دعاءهم له إلى دينهم، وللتمهيد لتهديدهم بقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم﴾ عبادته ﴿مِّن دُونِهِ﴾ فأتشفَّى بما ينزل عليكم من العذاب، أو لينزل عليكم، بلام العاقبة منه ﷺ .

﴿قُلِ اِنَّ اَلْخَاسِرِينَ﴾ كاملي الخسران وهو إضاعة ما هو كرأس المال، وإضاعة فائدته إذ أضاعوا التوحيد وثمراته، أو أضاعوا أبدانهم وأموالهم وأعوانهم والعمل الصالح بها، وكان الصواب أن ينتفعوا بذلك في الإسلام.

﴿اَلذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ﴾ أتباعهم ووردوا معهم النار وما نجوا وما أنجوهم، وذلك بدخول النار أو بظهور ذلك، ولو قبل دخولها.

﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: ما لهم لو آمنوا من الأزواج والولدان والخدم في الجنَّة، أخذها

المؤمنون، وأخذوا المكان الذي للمؤمنين في النار لو عصوا، كما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما والحسن وقتادة وميمون بن مهران، **وليس متبادرا من الآية.**

وقيل: «أَهْلِيهِمْ»: من دخل الجنَّة من قرابتهم وأصحابهم لإيمانهم، ويردُّه أنَّه لم يفتهم شيء مطلوب لهم بدخول هؤلاء الجنَّة. والخاسرون هم المخاطبون بقوله ﷻ: ﴿فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ فمقتضى الظاهر: أنتم تخسرون أنفسكم وأهليكم، فعدل عنه إلى الإظهار للتأكيد، أو هم كلُّ خاسر، فيدخل فيهم هؤلاء المخاطبون أوَّلاً وبالذات.

﴿أَلاَ﴾ تأكيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد في السوء، وهو تأكيد، كما أكَّد بالجملة الاسميَّة ﴿هُوَ﴾ تأكيد بضمير الفصل ﴿اَلْخُسْرَانُ﴾ تأكيد بتعريف الطرفين للحصر، وبـ«فُعْلان» فإنَّه أبلغ من الخسر والخسارة ﴿اَلْمُبِينُ﴾ الظاهر لكلِّ أحد، أو المظهر كون الحقِّ مع النبيء ﷺ، وذلك تأكيد بالظهور أو الإظهار.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ متعلِّق بـ«لَهُمْ» لنيابته عن ثابتة أو بثابتة، أو بمحذوف حال من هذا المستتر العائد إلى «ظُلَلٌ» الذي هو مبتدأ في قوله: ﴿ظُلَلٌ مِّنَ اَلنَّارِ﴾ نعت «ظُلَلٌ».

(**بلاغة**) سمَّى ما يعلوهم من النار ظلالا لعلوِّها عليهم كالظلَّة، على الاستعارة تهكُّما بهم، لأنَّ الظلَّة ــ وهو مفرد الظُّلَل ــ ما يقي من الحرِّ، وأكَّد التهكُّم بلام النفع في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ إذ لم يقل: عليهم، كما هو مقتضى الاستعلاء فوقهم، وكما شاعت على في الضرِّ.

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، أي: فرش من النار، سمَّاها ظللا لمشاكلة الظلل المذكورة قبل، ووجه الاستعارة شبهها بما فوق في الانبساط والضرِّ، أو الفرش ظلل حقيقة لمن تحتهم، إلاَّ أن أخيرهم سفلا لا أحد تحته، يكون ما هو فيه ظلَّة

له إلاّ أن يقال: ظلّة لما تحتهم من الجوّ أو ما شاء الله، أو الظلل من تحتهم النار تلتهب وتعلو رؤوسهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ،﴾ مؤمنيهم، ليزدادوا خيرا ولا يرجعوا إلى وراء، وكافريهم ليؤمنوا. وادَّعى بعض أنّ المراد المؤمنون، وكذا الوجهان في قوله: ﴿يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ عطف على محذوف، أي: انتبهوا للدلائل فاتّقوني.

(صرف) ﴿وَالذِينَ اَجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَنْ يَّعْبُدُوهَا﴾ «فلعوت» من الطغيان بزيادة الواو والتاء، وأصل الألف ياء، أو واو من طغا يطغو أو طغى يطغى بفتحهما، كما يقال: الطغيان والطغوان، قدِّمت اللام على العين، واللام واو أو ياء مفتوحة هكذا: طوغوت أو طيغوت، فقلبت ألفا لتحرُّكها بعد فتح كما وقع التقديم في صاقعة من صاعقة.

(لغة) والطاغوت: الكاهن والشيطان، وكلُّ رأس في الضلال، والساحر والمتعدِّي، وكلُّ معبود من دون الله مريد للعبادة، أو صنم لا إرادة له، والمارد من الجنِّ، والصارف عن الخير. وقيل: حقيقة في الشيطان، يطلق على الواحد فصاعدا، أو لعلّ أصله مصدر جعل اسما للمبالغ في الطغيان، فصحَّ إطلاقه على القليل والكثير، كما استعمل في الآية للجماعة، فأنِّث بتأويل الجماعة إذ قال: ﴿أَنْ يَّعْبُدُوهَا﴾ وهي في تأويل مصدر بدل اشتمال، أي: عبادة تلك الجماعة من الأصنام، أو الجنِّ، أو الآدميِّين.

﴿وَأَنَابُواْ إِلَى اللهِ﴾ بالعبادة معرضين عن غيره ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ بالسعادة والجنَّة على ألسنة الرسل في الدنيا جزما لبعض، وعلى شرط البقاء على الحقِّ لبعض، وعلى ألسنة الملائكة عند الموت، وعند الحشر.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ اَلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ،﴾ أي: فبشِّرهم

بالإضمار، أي: الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله ﷻ، وأظهر ليصفهم باستماع القول واتِّباع أحسنه، وهم على العموم هنا وهنالك، وقيل: على الخصوص بحسب النزول.

(سبب النزول) وقيل: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل[1]، وسلمان وأبي ذرٍّ، كانوا في الجَاهليَّة يقولون: لا إله إلاَّ الله، وقيل: في عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقَّاص وسعيد بن زيد، والزبير، لَمَّا أسلم أبو بكر جاءوه وقالوا: أسلمت؟ فقال: نعم، فذكَّرهم بالله تعالى فآمنوا، ويعتبر عموم اللفظ.

و«القول» عامٌّ، و«أحسنه»: ما كان منه حَقًّا، وهو خارج عن التفضيل، أو باق عليه، فيتَّبعون العفو ويتركون القصاص والانتقام الجائز، ويتركون إظهار النفل إلاَّ لداع ويتَّبعون إسراره، ويتَّبعون الطاعة الواجبة قبل المندوب إليه، والقرآنَ قبل غيره، وهكذا كلٌّ حسن وأحسن يتَّبعون الأحسن، ومن الحسن المباح، وإذا عرض ندب وواجب سارعوا إلى الواجب.

والقول: قول الله تعالى وقول غيره، فما ذكر الله ﷻ أنَّه قبيح اجتنبوه، وما ذكر أنَّه حسن أو أحسن اتَّبعوا أحسنه، ويجتنبون قول الناس القبيح ويتَّبعون أحسنه وحسنه، ويقدِّمون الأحسن.

و«الذينَ» نعت، ولو وقف على «عِبَادِي» وأخبر عن «الذينَ» بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لكان العباد هم الذين اجتنبوا الطاغوت المعهودين، لكن لا يحمل الكلام على ذلك الوقف.

١- تَقَدَّمَ التعريف به، انظر: ج١١، ص ٢٠٨.

﴿أُوْلَٰئِكَ الذِينَ هَدَٰيهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ، أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ القلوب الخالصة التي لا يُؤَثِّرُ فيها الهوى ولا الشبهة.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، أي: قضاؤه أو قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ (سورة ص: ٨٥) ، وهم المخذولون ضدُّ المهتدين المذكورين، عليهم ضدُّ ما لهم. نزلت الآية — قيل — في أبي جهل ونحوه.

(نحو) والهمزة دخلت على محذوف عطف عليه الجملة بالفاء، أي: أأنت تملك أمر الناس فمن حقّت عليه كلمة العذاب تُنقذُهُ ؟. «فَتُنْقذُه» الذي قدَّرتُ جوابٌ «مَنْ» الشرطية. أو الهمزة ممَّا بعد الفاء قدِّمت لتمام صدارتها، ورجَّحه ابن هشام. والحذف أولى لسلامته من ذلك، ولو انفرد به الزمخشري فيما قيل وتوبع، وقيل: الجواب في قوله تعالى بعد:

﴿أَفَأَنتَ تُنقذُ﴾ من النار ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ والأصل: أفأنت تنقذه ؟ وقدِّمت الهمزة لتمام صدارتها على فاء الجواب، وإذا قلنا بهذا وقلنا همزة «أَفَمَنْ حَقَّ» ممَّا بعد الفاء، كان من تأكيد الاستفهام لأنَّ الأصل أن تدخل الهمزة على أداة الشرط فتنسحب عليه وعلى الجواب، أو تدخل على الجواب لأنَّه المقصود وبالذات.

والنار هي المحرقة، يقول ﷺ : لا أقدر على إنقاذه. وكذا إن قلنا: النار بمعنى الأعمال الموجبة للنار، وهي سبب للنار، والنار لازمة لها، وهي ملزومة للنار، وتلك الأعمال هي الضلال، أفأنت تهدي الضالَّ في قضائه تعالى؟ يقول: لا.

(بلاغة) والإنقاذ ترشيح لهذا المجاز الإرسالي، لأنَّ الإنقاذ من النار أظهر من الإنقاذ من الضلال، أو المعنى أنَّهم استحقُّوا العذاب وهم في الدنيا، وكأنَّهم في نار يوم القيامة، وأبدل جهده في دعائهم إبدالا شبيها بإنقاذهم منها على الاستعارة المركَّبة.

﴿لَكِنِ الذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾، أي: ثابتة لهم أيضا، قيل: والمراد تكرير طبقات الغرف، لا أفراد من الغرف فقط ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ على صفة تقبل جري الماء عليها كما قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ من تحت الغرف التحتيَّة والفوقيَّة ﴿الاَنْهَارُ﴾ لأنَّها تأتي من العرش فوقهنَّ فهي تحت كلِّ غرفة تجري إلى حيث شاء الله تعالى.

أو تصعد من تحت إلى فوق بقدرة الله تعالى فتجري فوق الغرف، أو المراد مبنيَّة قبل يوم القيامة، وليست تبنى في ذلك اليوم، وفي هذا تشريف بأنَّ بناءها فعل لله تعالى.

[قلت:] والمشهور أنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان قبل آدم، وإذا قامت الساعة مات ما فيها من الحور والولدان والملائكة، ثمَّ يبعثهم الله يوم البعث، وإنَّما يمتنع الموت عمَّن فيها إن دخلها جزاءً، وإذا بعثهم الله داموا فيها أبدا.

﴿وَعْدَ اَللهِ﴾ ذلك وعدًا ﴿لاَ يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾ لأنَّ خلفه نقص في الخير أو الشرِّ، وهو مصدر ميميٌّ على وزن مِفعال للمبالغة من وَعدَ، أُبدِلت الواو ياءً لكسر ما قبلها.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ ﴾

ضرب مثل لحال الدنيا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللهَ أَنزَلَ مِنَ اَلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى قوله: ﴿حُطَامًا﴾ تمثيل لسرعة زوال الدنيا وكأنَّها زالت فكيف يُطمأنُّ إليها ؟ وكأنَّكم بعدها

بتلك الدار التي فيها الغرف المذكورة، وبيانٌ لقدرة الله تعالى، فلا تنكر تلك الغرف.

والمياه المذكورة والسماء جهة العلوّ يترل الماء منها لأسباب خلقها الله، ويوجد الماء بها كالأبخرة تصعد إلى العلوّ فيقلبها ماء، وقيل: السماء الدنيا يترل الماء منها في مدَّة يسيرة بقدرة الله، أو مدَّة طويلة يترل فيها فيصل لأوقاته، وقيل: يحتبس البخار في الأرض فينقلب ماء، وإذا كثر بحيث لا تسعه الأرض انشقت فانفجر عيونًا، وهو قول قوم كثر بخار الجهل في قلوبهم فانشقّ إلى هذا الكلام.

وقيل: الماء ما في الأرض من الماء الذي أنزله الله تعالى من تحت العرش، وأسكنه الأرض حين خلقها، والمعروف أنّا نرى الماء ينعقد من أبخرة، وأنّ ماء الأرض من الأمطار يخزن فيها، يقلّ بقلّة المَطر ويكثر بكثرته، ويقال بعضه: من أوَّل خلق الأرض وبعضه من المطر، وعن ابن عبَّاس: لا ماء في الأرض إلاّ من السماء، ونحو ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لو كان بمعنى ألم تعلم كثيرٌ في الاستعمال، ولو فيما لم يشاهَد، لكن أصله فيما يشاهد، ولا مانع منه هنا.

﴿فَسَلَكَهُ﴾ أدخله ﴿يَنَابِيعَ﴾ مجاري كالعرُوق في الأجساد وهو ظرفٌ أو يقدَّر «في». والمفرد: ينبوع، ويبعد أن يجعل ينابيع بمعنى نوابع، فيكون حالاً وهو ضعيفٌ، لأنّه لم يقل: من الأرض، بل قال: ﴿فِي الاَرْضِ﴾ فنحتاج إلى أنّ «في» بمعنى «مِن» أو «إلى». والمعنى أنّه ينبع في مواضع النبع منها.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾، أي: بسببه إذ جعله الله تعالى سببا كلٌّ ذلك من الله خلق السبب والمسبب، وتأثُّره ولو شاء لأخرج النبات من النار، أو من الهواء أو من الحجر بلا ماء أو من حديد.

ولا بأس بجعل المدخلية للماء بأن نجعل الهاء للماء بلا تقدير مضاف، فيقال: يخرج الله تعالى الزرع بالماء، ولا بأس في ذلك لأنَّ تلك المدخلية لا يحتاج الله تعالى إليها في إخراج الزرع، وهو خلقها.

[قلت:] وجعل الله تعالى الأمور مرتَّبة على الأسباب ليستريح إليها القلب، وتعمل الجوارح ويثاب العامل، ولو لم يكن الأسباب لكان الإنسَان في غمٍّ مِمَّا يفاجأ من خيرٍ أو ضرٍّ لا يدري أيُّهما يكون ولا متَى يكون [ولا يرتقي ذهنيا ولا علميًّا].

﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أنواعُه كَبُرٍّ وشعيرٍ أو خضرته وصفرته وحمرته، أو الأنواع الكَيفيَّات الشاملة لذلك كلِّه، والزرعِ شامل لما يأكله الناس وما لا يأكلونه، وهو ما حرثه الناس لا ما نبت مطلقًا، ولو بلاحرث، وتحتمل إرادة هذا العموم على التجوُّز لعلاقة الإطلاق والتقييد.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ «ثمَّ» للتراخي في الزمان وكذلك ما قبلها ولا ينافي سوق الآية تمثيلاً للسُّرعة، لأنَّ في هذه الدنيا سريعًا وبطيئًا ويجوز أن تكون للتراخي في الرتبة. والهيجان: اليُبسُ حقيقةً لا مجاز من مجاز الأوْل، والمشارفة عن الهيجان بمعنى التفتُّت والذهاب باليبس كما قيل، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ مفتَّـتًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ تذكُّرا أو تذكيرا بهوان الدنيا ﴿لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ فلا يغترُّون بالدنيا ولا يستنكرون إجراء الأنهار من تحت الغرف. ولا يتبادر أنَّ المعنى: تذكيرًا أو تذكُّرًا بأنَّه لابدَّ لذلك من صانع حكيم، وليس كلُّ ما صحَّ معناه تُفسَّر به الآية إذا لم يكن دليل عليه ولا الآيةُ مسوقَةً له.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أوصاف من شرح الله صدره للإسلام

﴿**أَفَمَن**﴾ الهمز مما بعد الفاء أو داخلة على جملة معطوف عليها، أي: أكلُّ الناس سواء فمن شرح الله...؟ الخ. و«مَن» موصولة مبتدأ خبرها يقدَّر بعدَ ﴿مِّن رَّبِّـهِ﴾، أي: كمن قسا قلبه فهو على ظلمة الضلال ﴿**شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**﴾ شرحُ الصدر للإسلام توسِيعهُ له بأن يجعله قابلاً له بلا ضيق ولا كراهة كشرح اللحم.

روى البيهقيُّ والحاكم وابن مردويه عن ابن مسعود ﷺ : تلا رسول الله ﷺ الآية فقلنا: «كيف انشراح الصدر؟» قال: «**إذا دخل النورُ القلب، انشرح له وانفسح**»، قلنا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهُّب للموت قبل نزوله**»[1].

والمعنى: يجيء عليه النور فينفسح له، لأنَّه خلق منفسحًا له قابلاً، فذلك هو ما مرَّ من أنَّ الشرحَ توسيعُه فهو انفساخ للنور الوارد عليه. [قلت:] فلا حاجة

١- رواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب الرقاق، رقم٧٨٦٣. ورواه **البيهقي** في شعب الإيمان (٧١) باب في الزهد وقصر الأمل، رقم ١٠٥٥٢. من حديث ابن مسعود.

إلى جعل «مَا» في الآية بمعنى تمكُّن الإيمان فيه، أوَّلاً وما في الحديث بمعنى ما زاد بعد ذلك، وإلى جعل ذلك من الأسلوب الحكيم، وهو الجواب بما هو أولى بالسؤال عنه.

والصدر: القلب كما في الحديث من تسمية الحالّ باسم المحلّ، وقيل: الصدر عبارة عن النفس التي هي عبارة عن القلب الحالّ فيها، وفي تجويفه بخار لطيفٌ من الأغذية الصَّافية تتعلّق النفس به أوَّلاً، وبواسطته تتعلّق بسائر البدن تعلُّق التدبير، وتلك النفس تتَّصف بالإسلام.

﴿فَهُوَ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ عطف على ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ...﴾ وهذا النور هو الإسلام كقولك: أعطاه الله علمًا فهو عالم، أو أمر إلهيٌّ يدرك به الحقَّ، أو هو اللطف الإلهيُّ المشرف عليه بمشاهدة الدلائل المخلوقة والآيات المتلوَّة.

﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء في جواب شرط محذوف، أي: إذا كان النور محصورًا فيمن شرح الله صدره للإسلام لم يبق لمن لم يشرح إلاّ الظلمة المعبَّر عنها بالويل، لأنّ الظلمة هلاكٌ. أو الفاءُ سببيَّة، أي: فوَيْلٌ... بسبب أنّ الناجي هو من شرح.

﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ الصلبة عن الانشراح الممتنعة عنه بسبب سماع ذكر الله، الذي هو آلة للين القلوب إلى الإسلام كما قال: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: بسببه، وهذه القسوة هي المعبَّر عنها في آية أخرى بالاشمئزاز [سورة الزمر آية: ٤٥]، وقابل بها الانشراح لا بالضيق المضادِّ له، لأنّ الشيء الضيِّق قد يدخله شيء قليل ويتخلّله، بخلاف القسوة كحالة الصخرة الصمَّاء.

ولم يقل: فويل لمن أقسى الله قلوبَهم كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ ...﴾ إشارة إلى أنّه كأنّ قلوبهم قاسية بالذات بلا إقساء مقْسٍ، ولم يقل: للقاسية

صدورهم ليلوِّح إلى فساد قلوبهم الذي هو فساد لسائرهم، كما قال ﷺ : «**في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب**»[1].

والنفس التي خبثت تزداد بالقرآن والذكر خبثًا وقسوة، وكلّما حدث قرآن أو ذكر حدثت لها قسوة وخبث، فتنكره، كحرِّ الشمس يُلَيِّن الشمع ويُعقِّد المِلوحة، والقرآن يُلَيِّن قلب المؤمن ويزيد الكافر قسوة. قال مالك بن دينار: «ما ضرَّ عبد بعقاب أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله تعالى على قوم إلاَّ نزع منهم الرحمة».

وروعي لفظ «مَنْ» في المؤمنين لأنّهم كرجل واحد، لأنّ مقصدهم واحد، وهو دين الله، بخلاف الكفرة فبحساب ما يهوى بعض دون بعض، وبحسب ما يطلب منهم الشيطان، من أنواع الضلال ويتقلّبون أيضا في الضلال.

﴿**أُوْلَٰئِكَ**﴾ البعداء عن الخير بقسوتهم ﴿**فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ ظاهر لكلّ من سمع به أو شاهده، قال بعض: نزلت الآية في حمزة وعليّ في شرح الصدر، وأبي جهل وابنه في قسوة القلب. **والإنسان قد يشرح صدره ثمّ يقسو، أو يقسو ثمّ يشرح والعبرة بما يختم عليه، والتوبة مبسوطة فقد يزلّ ويتوب.**

﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾ هو القرآن، سمّاه الله ألفاظًا يُتَحَدَّثُ بها وهو مخلوق، ولا يشكُّ في ذلك عاقل، ولا في أنّه غير الله.

(سبب النزول) قال قوم من الصحابة: يا رسول الله حدّثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر، رواه ابن عبَّاس، وقيل: عن ابن مسعود، أصاب الملل بعض الصحابة فقالو له ﷺ : حدّثنا، فنزلت.

١- رواه **البخاري** في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم٥٢. ورواه **مسلم** في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم١٥٩٩. من حديث النعمان بن البشير.

(أصول الدين) ألا ترى أنّ الصحابة طلبوا حديثًا يتلفّظ به فأجابه الله تعالى بأنّ القرآن ألفاظ فَلْيَتَحَدَّثُوا به، وإنّما يصار إلى أنّه سَمَّاهُ حديثًا مشاكَلَة لقولهم: حدِّثنا لو صحَّ أنّ القرآن غير حديث. ومن الغريب قولهم: إنّ القرآن غير هذه الألفاظ، وأنّ هذه اللفظة ترجمةٌ له.

﴿كِتَابًا﴾ بدل من «أَحْسَنَ»، ولا داعي إلى جعله حالاً مع أنّه غير وصف لاحتياجه إلى التأويل بالوصف، وهو مكتوب، أو إلى أنّ وصفه بالمشتقّ وهو قوله: ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ يُنَزِّلُهُ منزلة الصفة، ومعنى التشابه شبه بعض ببعض في الفصاحة والبلاغة والصدق والحقّ ﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت ثان، أو حال من ضمير «مُتَشَابِهًا».

(صرف) والمفرد «مُثَـنَّى» بالضمّ والتشديد، جمع على غير قياس، والقياس: مثنَّيات، أو المفرد «مَثنى» بالفتح والتخفيف للتكرير، فإنّه يفاد من التثنية ككرَّتين ولبَّيك ومرَّة بعد أخرى للمرار الكثيرة. وفيه أنّ باب مَثْنَى وثُلاثَ ومثلث لا يتصرَّف فيه.

والمعنى في ذلك كلّه أنّه تُكرَّر قصَصُه ومواعظه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، فذلك بيانٌ لتشابُهِه، ويكرَّر بالتلاوة ولا يُمَلُّ بالتكرار.

(صرف) أو جمع «مَـثْـنِية» بفتح فإسْكان، بمعنى الثناء على الله ﷻ، أو عليها لإعجازها، وهو مصدر بمعنى الوصف، كَمَادِحات ومَمْدُوحَات، أو اسم مكان جُعل وصفًا للمُبالغَة، كأرض مقثَاة ومأْسَدَة، أي: كثيرة القثّاء والأُسُود. ويجوز نصبه على التمييز لـ«مُتَشَابِهًا» محوَّل عن الفاعل، كأنّه قيل: متشابهًا مثانيه، بإسكان الياء بعد النون.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾، أي: به، بيان لِتَأثيرِهِ في الظاهر بعد ذكر تأثيره في الباطن، إلاّ أنَّ تأثيره فيه بتوسُّط تأثيره في الباطن، وبعد ذكر أوْصافه في نفسه. والاقْشعْرَارُ: انقباض الجلد وقيام شَعْرِهِ لِوُرودِ مُخوفٍ عليه.

(صرف) وهو مادَّةٌ على حدة، والقشع مَادَّة على حدة، والأولى أبلغ، وليست الراء زائدة لأنَّها ليست من حروف الزيادة، لكن زاد المعنى بها لأنَّ زيادة الحرف تدلُّ في الجملة على زيادة المعنى، نعم تشديدها زيادة، ومعنى قول بعض المحقِّقين: إنَّه ضمَّ إلى القشع الراء أنَّه وضع «قشْعٌ» كلمة كلها أصول بالراء كما وضع القشعر كلمة وهو الجلد اليابس.

﴿جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يخافونه خوفَ إجلاَلٍ إذا سمعوا أو قرأوا آيات الوعيد مع خوف الرهبة ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ،﴾ تسكن مُطْمَئِنَّة ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ ذكر رحمته تعالى، كما أنَّها سبقت غضبه، وذلك كما ورد في الحديث أنَّها سبقت غضبه[1]، فهي لسبقها إلى القلوب تعلم ولو لم تذكر في الآية، ومنها عدم هلاك البدن أو بعضه بالاستغراق في جلاله تعالى، وعدم الإيَّاس من الرحمة من حيث أنَّه لا طاقة على القيام بحقِّ ذلك الجلال **فهم يخافون ويرجون.**

[قلت:] وقبَّح الله من يزيد الصفق والتواجد والتمايل ويتصنَّع بذلك، فإن كان ذلك حقيقة لا خداَعًا ورياءً فهو من الشيطان يعتاده لنحو الرياء، حتَّى صار فيه كالطبع إذا سمع، فليقعد على شفير البئر أو حائط ويقرأ آية الوعيد أو

١- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **البخاري** في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم٦٩٨٦، من حديث أبي هريرة. ولفظه: «إنَّ الله لَمَّا قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنَّ رحمتي سبقت غضبي».

تقرأ عليه أو القرآن كلُّه فننظر هل يملك نفسه على السقوط فيها؟ كما قال ابن سيرين، ولا يخلو عن عمد ولو ادَّعى الطبع، ألا ترى أنّهم يفعلون ذلك ولو لم يكن فيهم وَرَعٌ أو عبَادةٌ ؟!.

قال ابن عمر: ما كان ذلك صنع النبيء ﷺ وأصحابه، كنا نتحنّى ولا نصرع، ومع ذلك فلست أقصد العموم، فقد يكون الصدق على ما روي أنّ عمر يسقط ويغشى، ويروى أنّه مرض شهرًا يعوده الناس لذلك، ولا يدرون لم ذلك؟ ولا أرى إبراهيم الخوَّاص[1] إلاّ صادقًا في صَعْقِه، وكَم ميِّت من ذلك وكم من صاعق، ذكرهم في شرح التبيين.

قال سعيد بن جبير: الصعقة من الشيطان، قال بعض الصحابة: رأينا رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر يقرأون القرآن ويخشعون ويبكون، فهل هؤلاء الذين يغشى عليهم أفضل منهم؟.

(بلاغة) وإنّما ذكرت الجلود وحدها في الخوف، وقرنت بالقلوب في الرجاء لأنّ الجلد يقشعرُّ بذكر الوعيد خوفا، وإذا ذكر الله تعالى ومبنى أمره على الرحمة وقد سبقت غضبه حضر الرجاء فلانت القلوب، ومقام الرجاء أكمل، والنفس إليه مائلة، والخير مطلوب بالذات والمخوف منه ليس مطلوبا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكتاب، أو تذكيره، أي: التذكير الواقع به، أو ما ذكر من اللين والاقشعرار، والأوَّل أولى **﴿هُدَى اَللَّهِ﴾** إرشاد من الله وبيان **﴿يَهْدِي بِهِ﴾** هدى عصمة وتوفيق **﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾**، أي: من يشاءه الله، أي: من يشاء الله

١- إبراهيم الخوَّاص بن أحمد بن إسماعل أبو إسحاق: صوفيٌّ من أقران الجنيد، ولد في سر من رأى، ومات في جامع الري، له كتب مصنَّفة. والخوَّاص: بائع الخوص. الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٨.

هدايته. ويبعد ردُّ الضمير في «يَشَاءُ» إلى «مَن» بمعنى من يشاء الله، أي: من يشاء هداية الله.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ يخلق فيه الضلال لعدم استعداده للخير، ولإعراضه، بلا إجبار بل باختياره، مع أنّ هذا الاختيار أيضا مخلوق لله تعالى، إلاّ أنّه يجد من نفسه القدرة على الإيمان والعمل الصالح، أو المراد: من لم يؤثّر فيه هدى البيان لقسوة قلبه وإصراره **﴿فَمَا لَهُ، مِنْ هَادٍ﴾** يخلّصه من الضلال أو ما له من مؤثّر فيه اللين والاقشعرار على أنّ الإشارة إلى اللين والاقشعرار، والأوّل أولى.

﴿أَفَمَنْ يَــتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ اَلْعَذَابِ﴾ كأبي جهل، كما قيل نزلت فيه. والخبر محذوف يقدر بعد «اَلْقِيَامَةِ» هكذا: كمن هو ناج؟ والهمزة عند ابن هشام ممَّا بعد العاطف في مثل هذا، وعلى دخولها على محذوف يقدَّر: أكلُّ الناس سواء، فمن شأنه أن يتَّقي، أو استقبله أن يتَّقي بِوَجْهِهِ وهو أعزُّ أعضائه الظاهرة وكان يتَّقي عنه في الدنيا بسائر أعضائه، **ولا وقاية له تردُّ عنه، ولا يجد أن يتّقي بيديه لأنّهما غلّتا إلى عنقه، فيلقى في النار مكبوبا**، وفي عنقه صخرة كبريت تشتعل نارا، ولا إشكال في هذا.

ودون ذلك أن يفسَّر الوجه بالجسد كلّه، تسمية للكلّ باسم البعض، ويظهر لي أنّ المراد باتِّقاء النار بوجهه أنّ النار تحيط به حتَّى عمَّت أعزَّ الأعضاء إليه، وإلاّ فالاتِّقاء بالشيء اتِّقاء به غيره، مع أنّه ليس المراد أن يتَّقي بوجهه عن غير وجهه، كما يتَّقي الضرَّ باليد على الوجه، ولا أن يتَّقي بجسده كلّه عن غير جسده، نعم يجوز إذا فسِّر الوجه أمكن أن يراد: لا يتَّقي النار بجسده ببعضه عن بعض، وذكر الظهر مع الوجه في سورة الأنبياء [آية ٣٩] أنسب بأن يراد هنا خصوص الوجه.

و«سُوءَ اَلْعَذَابِ» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السوء، لأنّه كما يستعمل اسما يستعمل وصفا **﴿يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ﴾** متعلّق بـــ«يَتَّقِي» أو بالعذاب.

﴿وَقِيلَ﴾، أي: ويقال، لكن لَمَّا كان لا بدَّ منه كان كالواقع الماضي ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لهم، أي: لمن يتَّقي بوجهه، ووضع الظاهر ليصفهم بالظلم الموجب لذوق العذاب، كما قال الله ﷻ: ﴿ذُوقُواْ﴾ على الدوام، والتعبير بالذوق تلويح بأنَّ العذاب لا يزال يزداد، أو عبارة عن الشروع في العذاب، وكذا في غير هذا المحلِّ. ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا، أي: جزاءه.

وذكر عذاب بعض الكُفَّار في الدنيا بعد ذكر عذاب الكلِّ في الآخرة بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿فَأَتَاهُمُ﴾ أتى كلَّ أمَّة منهم ﴿الْعَذَابُ﴾ الذي قدِّر لها وتستحقُّه ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي: من جهة عدم الشعور بزمانه، ولا بمكانه، وذلك أشدُّ على النفس، فـ«حَيْثُ» هنا بمعنى شامل للمكان والزمان.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ﴾ الذلّ ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ عذَّب أمَّة بالغرق، وأمَّة بالريح، وأمَّة بالصيحة، وأمَّة بالخسف، وأمَّة بالقتل والجلاء وهكذا، والذلُّ غير العذاب في الآية بل لازم للعذاب، ولو كان من جملة ما يعذَّب به فليس «أَذَاقَهُمْ...» تفسيرا للعذاب كما قيل، وكذا قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٨) ، ليست التنجية تفسيرا للاستجابة، فإنَّ الاستجابة الوحي بِأَنَّا ننجِّيك، إليه أو إلى الملائكة، أو فعل ما يمهِّد للتنجية.

﴿وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لشدَّته أعظم من شدَّة عذاب الدنيا ودوامه ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الجواب محذوف، أي: لو كانوا من أهل العلم بالحقِّ، أو مِمَّن يعالج العلم لعلموا ذلك، أو أغنى عنه ما قبله، أي: أشدُّ عندهم لو علموه فإذ لم يعلموه فهو أشدُّ عند الله لا عندهم، وهكذا في مثل هذا، وهو الصحيح، ولو كان المفسِّرون يتجافون عنه إلى الحذف ويقولون: محذوف.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

الهدف من ضرب الأمثال في القرآن

﴿وَلَقَد ضَّرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا اَلْقُرْءَانِ﴾ تعريف القرآن ليس تعريفا للعلمية بل تعريف الجنس مرادا به مخصوص ولذلك تبع الإشارة [أي جاء بعد الإشارة] كهذا الرجل وهذا الشيء ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ موضّح لأمر الدين، فإنّ لله أمثالا يحتاج الناظر إليها في أمر دينه لا يحصيها إلاّ هو ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتذكّروا، أو ذلك كناية عن أن يرجو الراجي تذكُّرهم، أو عن الترجية، والأوّل أولى. ﴿قُرْءَانًا﴾ حال جامدة قياسًا بلا تأويل بمشتقّ لنعتها بمؤوّل بمشتقّ، كما إذا نعتت بمشتقّ، نحو: جاء زيد رجلاً صالحًا ﴿عَرَبِيًّا﴾ مؤوّل بمنسوب إلى العرب، ومنسوب مشتقّ، وبالنعت في مثل ذلك تحصل الفائدة، فإنّ القرآن ذكر قبل، وزيد رجلاً بلا خفاء. أو يقدَّر: ليقْرَأوا قُرءانًا، بلام الأمر، أو أخصُّ أو أمدح. ولا مانع من كونه مفعولاً به لـــ«يَتَذَكَّرُونَ» بل هو معنى راجح يناديه قوله ﷻ : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإنّ الاتّقاء نتيجة تذكُّر القرآن، وكذا ينادي على تقدير: «ليقرأوا».

(لغة) ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ اختلال مًّا، لا في لفظ ولا في معنى، وهو أقوى من «مستقيم»، لأنّ الشيء قد يكون مستقيمًا لكن لا من كلّ جهة. والعِوجُ: بالكسر فيما يُدرك بالعقل، وأمّا الفتح ففي المُحَسّ، وقيل: العوج في الآية الشكُّ واللبس، وعن عثمان: غير مضطرب ولا متناقض ولا مختلف، وقيل: غير ذي لحن.

(أصول الدين) وعنه ﷺ : «غير مخلوق» يعني أنّ كونه مخلوقًا من جملة العوج المنفيّ، وهو حديث موضوع ولو أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس، وقال به مالك، وتنزيلُه وتجزيئهُ تصريحٌ بأنّه مخلوق، والقديم واحد هو الله سبحانه، وأمّا صفاته فهو كما بسطناه في محلّه.

[قلت:] ومن الأضاحيك ما روي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين: «إنّ القرآن ليس خالقا ولا مخلوقا» يعني أنّه قديم مع الله حاشاه، وذلك خطأ بل مخلوق حادث.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علّة للعلّة في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أو ترجية للترجية، أو كناية مركّبة على كناية الرجاء.

﴿ضَرَبَ اَللَّهُ مَثَلاً﴾ مفعول ثانٍ مقدَّم ﴿رَّجُلاً﴾ مفعول أوَّل، أو تعدَّى [ضَرَبَ] لواحدٍ وهو «مَثَلاً» و«رَجُلاً» بدلُه، لكن لا يحلُّ محلّه. وأخَّر المفعول الأوَّل عن الثاني تشويقًا إلى الأوَّل وقصدًا لطَريق الاهتمام بالأوَّل، لأنّ ضرْب المثل تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها، وأيضًا أخَّر الأوَّل ليتَّصل به ما هو من تتمَّته التي هي المراد بالذات في التمثيل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ الجملة نعت «رَجُلاً» ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ مختلفون لسوء أخلاقهم فهو في شِدَّةٍ من خدمتهم.

﴿وَرَجُلاً سَلَمًا﴾ خالصًا ﴿لِّرَجُلٍ﴾ يستخدمه فهو في راحة من توزُّع ما يرد عليه. ولم يضرب المثل طفلاً أو امرأة لأنّ الرجل أعرفُ منهما بالمَصالح والمَضارّ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾؟ لا بل المشترك بين المتشاكسين في لَوْمٍ وتَعَبٍ وقَلَقٍ، والسلم لرجل في راحة ورضىً، كذلك المؤمن في راحة واطمئنان في أعلى علّيّين، والكافر أسفل سافل، هذا هو المراد.

وليس المراد أنّ الكافر يعبد أشياء تستخدمُه يرجو من كلٍّ منها خيرًا، نعم تستخدمه أنواع الهوى وشياطين الإنس والجنّ، وتُتْعِبُهُ ولا ينال منها ما ينال من استخدمه الله تعالى وأثابهُ. و«مَثَلاً» تمييز عن الفاعل بمعنى الصفة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الله أهل لأن يحمده المؤمنون ويدوموا على عبادته لتوْفيقه لَهم ومزيتهم، وأهل لضرب المثل لهم بالخير، وعلى المشركين بالسوء لعلّهم يتذكّرون.

﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ إضراب انتقالٍ عن نفي الاستواء إلى ذكر أنّ أكثر الناس وهم المشركون ليسوا من أهل الإدراك، مع سهولة إدراك ذلك، فلا يدركونه ولا يدركون أنّ الكلّ من الله، وأنّه أهل المحامد ولا شركة معه كما زعموا.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أراد المضيَّ لتحقُّق الموت، حتَّى كأنّه وَقَعَ، أو استعمل اللفظين في الاستقبال كما قرئ: «إِنَّك مَايِتٌ وَإِنَّهم مَايِتُونَ»، أي: سيحدث لك ولهم الموت.

وما من نفوس الورى خالده ‏ ‏ ‏ ‏ وللموت ما تَلِــــدُ الوالدة

ولاَ يصحُّ ما قال أبو عمرو بن العلاء: لا يطلق مَيْت بالإسكان إلاّ على من مات، وأنّ المشدَّد لا يطلق إلاّ على من سَيَمُوتُ، بل هما يصلحان في الكلّ، والتخفيف قاعدة مُطَّرِدَةٌ.

والمؤمنون دخلوا معه في الخطاب بالكاف تبعًا، والهاء للْكُفَّارِ، ويبعد أنّـهَا للمؤمنين والكافرين، ومحطُّ هذا الكلام هو قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ﴾ قُدِّم لإنكار الكفرة له ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قُدِّم للحصر، وتحقيق الحساب ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ ولكونهم لم ينتفعوا بضرب المثل أخبرهم بأنّهم سيموتون ويبعثون ويعاقبون، ويظهر المحقُّ من المبطل.

وقيل: كانوا يتربَّصون برسول الله ﷺ الموت، فقال الله ﷻ : إنّ الكُلّ ميِّت، ولا وجه للتربُّص وشماتة الفاني بالفاني، وقيل: ذلك نعيٌ إليه وإليهم بالموت.

(بلاغة) وأكَّد في «إِنَّهُمْ» لشدَّة غفلتهم حتَّى كَأَنَّهُم أنكروا الموت، أو لأنّ الموت مكروه للنفوس، فكان مظنَّة أن لا يلتفت إلى الإخبار به، وأكَّد في «إِنَّكَ» للمشاكلة، أو دفعًا لاستبعاد موته لعلّ بعضا من المسلمين يظنُّ أنّه ﷺ لا يموت، وذلك الاختصام أن يقول ﷺ بَلَّغْتُهُمْ ما أرسلت به إليهم، ولجُّوا في العناد، ويقولون: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ (سورة الأحزاب: ٦٧) ، ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ (سورة الزخرف: ٢٢) ، ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٦) ، ويناسب ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنَ اَظْلَمُ...﴾ ، ﴿وَالَذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ﴾ ، و﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾.

ولا مانع من أن يكون الكلام في الأُمَّة عمومًا، فالهاء في «إِنَّهُمْ» والخطاب في «إِنَّكُمْ» و«رَبِّكُمْ» و«تَختَصِمُونَ» للأمَّة، ويدلُّ للعموم في الأُمَّة لا فيه ﷺ والمشركين قول الزبير لَمَّا نزلت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ...﴾: يا رسول الله أنحاسب على ذنوبنا وعلى ما جرى بيننا؟ قال: «**نعم حتَّى يؤدَّى إلى كلّ ذي حقّ حقُّهُ**» فقال: إنّ الأمر إذًا لشديدٌ، رواه عبد الرزَّاق والترمذي والبيهقي.

وأخرج الطبريُّ وعبد الرزَّاق عن إبراهيم النخعي أنّه لَمَّا نزلت قال الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ وَلَمَّا قتل عثمان قالوا: هذه خصومتنا. وأخرج سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدريِّ: لَمَّا كان يوم صفّين علمنا أنّه خصومتنا، ومن قبل كُنَّا نقول: ربُّنا واحد وديننا واحد فما هذا الاختصام؟.

وفي الطبرانيّ والنسائيِّ عن ابن عمر: «كُنَّا نرى الاختصام بيننا وبين أهل الكتابين، لأنّ نبيئنا واحد وديننا واحد»، وفي رواية: «كُنَّا لا ندري فيمن نزلت

حتَّى وقعت الفتن، فعلمنا أنّ الآية فيها»، وهذه الروايات **صريحات في أنّ الآية في الصحابة ومَن بعدهم**. وأوَّل من يختصم: المرأة وزوجها، تشهد أيديهم وأرجلهم، ثمّ الرجل وخادمه كذلك، ثمّ أهل الأسواق ولا دانق ولا قيراط، لكن حسنات هذا تدفع إلى هذا المظلوم، وسيِّئاته توضع على هذا الظالم، رواه الطبرانيُّ عن أبي أيُّوب الأنصاريِّ عنه ﷺ .

(نقد الحديث) لكن وضع سيِّئات المظلوم على الظالم كلام موضوع لا يصحُّ، إلاّ أن يكون «على» بمعنى عَنْ، أي: توضع عن الظالم، أي: لا يؤخذ بها، وكذا حديث: «**إن فنيت حسناته وضع عليه من ذنوبه**» موضوع.

وعن عقبة بن عامر: «أوَّل خصمين يوم القيامة جاران» رواه الطبري مرفوعًا. وروي عن ابن عبَّاس موقوفًا: «أوَّل خصمين الروح والجسد»، ولعلّ الأولويَّة في ذلك إضافيَّة كلُّ واحد أوَّل لِمَا بعده، فيقدَّم ما هو أقرب كالرُّوح والجسد، فالزوجان فالجاران.

وجاء عنه ﷺ : «**لَيختَصِمَنَّ كلُّ شيء حتَّى الشاتان يقتصُّ للجماء من القرناء**»[1] وهذا تمثيل فإنّ مراده ﷺ ما يعمُّ اقتصاص القرناء من القرناء، إذا لم تنطح أو نطحت أقلّ ممَّا نُطحت.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن

١- روى أحمد ما يشبهه لفظا في مسنده رقم ٨٨٢٨. من حديث أبي هريرة.

يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

بشارة المصدقين وتأييدهم وتهديد المكذبين

﴿فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ بالشركة أو بالولد، والفاء عاطفة عطف قصَّة على أخرى على: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة ...﴾، والترتيب ذكريٌّ، أو في جواب شرط إن قلت: أيُّ مخصومٍ أَشَدُّ عقابا فَمَنْ أَظْلَمُ ؟ . ﴿وَكَذَّبَ بالصِّدْق﴾ مصدر بمعنى الوصف، أي بالأمر الصادق، أو باقٍ على المصدرية فإنَّه ﷺ صادقٌ وكَذَّبُوا بصدْقه ونفوه، ﴿إِذْ جَآءَهُ﴾ وقت مجيئه بلا تأخير، فهذا مُغْنٍ عن جعل «إِذْ» فجائيَّة مع أنَّ سيبويه يشترط لكون «إِذْ» فجائيَّة تقدُّم «بَيْنَا» أو «بَيْنَمَا» إلاَّ أن يُقال: هذا الشرط جَارٍ على الغالب لاَ لاَزِمٌ.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ اسم مكان، أي موضع إقامة، أو مصدر، أي: إقامة، أو ذلك من الثواء بمعنى الهلاك، أي: الضرُّ ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ عمومًا، فيدخل هؤلاء الكاذبون أوَّلاً وبالذات، ودخل فيهم أهل الكتاب، أو يراد مَنْ ذُكِرَ فوضع الظاهِرِ موضع المضمر ليصفهم بالكفرِ. وجواب «أَلَيْسَ...»؟ : بلى، أي: فيها كفاية لعقابهم على كفرهم، كما قال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ (سورة المجادلة: ٨) .

﴿وَالذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ المراد الجنس، فشمل النبيء ﷺ والمؤمنين، كما قرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «وَالذِين جَاءُوا بالصدق وصدَّقوا بهِ» وقدَّر بعضهم: الفوج الذي جاء بالصدق. ومعنى مجيء المؤمنين بالصدق إخبارهم به أهْلَهُم وأصحابهم وجيرانَهم وغيرَهم، فكلٌّ من ذلك، وتبليغ النبيء ﷺ مجيءٌ بالصدق وتصديق به، ولذلك كان الخبر جماعة في قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقيل: المراد بالذي النبيء ﷺ كما رواه البيهقي والطبري، وغيرهما عن ابن عبَّاس، وعليه فيقدَّر: الذي جاء بالصدق وصدَّق به وأتباعُه، وأمَّا أن يكتفى عنهم به بلا تقدير فلا يجوز، إنَّما يجوز حيث لا يستحقُّ رجوع الضمير إلى المكتَفَى به، نحو: نزل الأمر موضع كذا فأكرمناهم، وأمَّا أن يقال: الأمير نازلون، أو أكرمت الأمير الذي جاءُوا فَلاَ.

ويَجوز أن يراد [بالآية] النبيء ﷺ وأبو بكر على حذف الذي على القلَّة، وبقاء صلته، أي: والذي جاء بالصدق والذي صدَّق به، وبه قال الإمام عليٌّ، وقد أجاز بعض النحاة حذف الموصول وبقاء صلته إذا عطف على موصول، وعليه فقد أخبر بالجمع عن اثنين.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لم يقل: في الجنَّة ليشمل ما قبلها من خير القَبْرِ، وتسهيل أمره وسُؤَال مَلَكَيْه، والأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب، وأهوال المحشر، وتكفير السَّيِّئَات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ثبوت ما يشاءون لهم ﴿جَزَآؤُاْ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: جزاؤهم وأظهر تصريحًا بعلَّة الجزاء وهي إحسانهم بالإيمان والعمل، أو المراد العموم فيدخل ما خصَّ أوَّلاً وبالذات.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أظهر لفظ الجلالة تفخيمًا للتكفير، أي: تكفيرًا عظيمًا، وقدَّم التكفير على الجزاء بأحسن ما كانوا يعملون لأنَّ التخلية قبل التحلية. والمراد: إنَّ ذلك جزاء المحسنين لإحسانهم، كما أنَّ ما قبل ذلك جزاء الكافرين لإساءَتهم.

﴿أَسْوَأَ الذِي عَمِلُواْ﴾ «أَسْوَأَ» اسم تفضيل، وإذا كفَّر الأسوأ فأولى أن يكفِّر السيِّء، ويَجوز أن يكون خارجًا عن التفضيل، أي: السَّيِّء، فيكون أعمَّ

من اسم التفضيل. واللام في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ متعلّق بمحذوف، أي: وفّقهم الله للإحسان ليكفّر، وقيل: خصَّهم بذلك الجزاء ليكفّر إذ لا يكون بلا تكفير، أو وعدهم ذلك لينجز وعده.

واختار بعضُ المحقّقين تقدير المحذوف مؤخّرًا، لكن لا يحسن تقديره قبل قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُم﴾ وإن قدِّر بعد «يَعْمَلُونَ» طال الفصل، ويجوز أن يكون المعنى: ذلك جزاء الذين أحسنوا أعمالهم ليكفّر، فتعلّق بالمحسنين.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ﴾ يعطيهم ﴿أَجْرَهُم﴾ ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كما يقال: أعطيته حقّه بالكيل الأوْفى، واسم التفضيل هنا مضاف للمُفضَّل عليه، أي: بنوع من الخير أفضل من أعمالهم، فإنّها لا توجب ولو قليلا منه، لَكِنَّ الله جعل ذلك من فضله، فـ«أَحْسَن» هو خير الله لا أعمالهم.

ويجوز أن يكون «أحسن» هو أعمالهم، بمعنى بما هو الغاية من أعمالهم، أي: بعملهم الأفضل، أي: على أعمالهم الحسنة كلّها، ولو المفضول منها ثواب عملهم الأفضل، كأنّهم لم يعملوا إلاّ الأفضل. وقيل: الأحسن الواجب والمندوب إليه، والجزاء إنّما هو عليهما، والحَسَن المباح.

﴿أَلَيْسَ اَللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ،﴾ محمَّدًا ﷺ ؟ بلى، أي: يكفي عنه مضارَّ الأعداء، لا يقدر قومه ولا غيرهم على قتله أو مضرَّته في بدنه، وليس المراد أنّ الله تعالى يكفيه مضرَّة الأصنام التي يدَّعون أنّها تصيبه على ذَمِّه إيّاهَا والمنع من عبادتها، كما في قوله تعالى:

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِينَ مِن دُونِهِ﴾ وهي أصنامهم التي يعبدونها، لأنّ الله تعالى لم يخلق فيها قُدرةً على شيء، ولا بَنَى شيئًا من المضارِّ عليها، فضلاً عن أن يقول تعالى: يكفيك ضرَّها، لكن لَمَّا ذكروا أنّها تَضُرُّهُ ذكر الله ﷻ أنّه لا

يصيبه ضرُّها مطلقًا، هكذا كان لها ضرٌّ أو لم يكن، وقدْ علمتَ أنَّه لا ضرَّ لَهَا. وري أنَّهم قالوا: لَتَكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منها خبل.

وقيل: المراد بـــ«عَبْدَهُ» الجنس، وقيل: النبيء ﷺ والمؤمنون، وقيل: الأنبياء والمؤمنون. وذكر الأصنام بلفظ العقلاء وهو «الذينَ» مجاراة لزعمهم أنَّها عقلاء، أو كالعقلاء. والواو عاطفة على محذوف، أي: يجهلون أنَّ الله كاف عبده ويخوِّفونك بالذين، أو يعلمون أنَّ الجماد لا يضرُّ ويخوِّفونك.

﴿وَمَنْ يُّضْلِلِ اللهُ﴾ حتَّى توهَّم أنَّ الأصنام تضرُّ وأعْرَضَ عن أنَّ الله هو الضارُّ النافع الحافظ ﴿فَمَا لَهُ، مِنْ هَادٍ﴾ مَّا إلى خير مَّا ﴿وَمَنْ يَّهْدِ اللهُ﴾ بتوفيقه إلى اعتقاد أنَّ المضارَّ والمسَارَّ من الله تعالى، وأنَّه الحافظ لعبده ﴿فَمَا لَهُ، مِن مُّضِلٍّ﴾ صارف عن اعتقاد الحقِّ إلى الباطل.

﴿أَلَيْسَ اَللهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُرَدُّ عمَّا أراد من إضلال أو هداية، وأظهر لفظ الجلالة لتقوية ثبوت الهداية لمن أرادَها له والضلال لمن أراده له، ﴿ذِي اِنتِقَامٍ﴾ لأوْلِيَائِه من أعدائِه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ اَلسَّمَوَاتِ وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ قُلَ اَفَرَٰيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ إِنَ اَرَادَنِيَ اَللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦ أَوَ اَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ اَللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ اُلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨ قُلْ يَٰقَوْمِ اِعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمُۥ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَّأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾

إقامة الحجة على عبدة الأصنام وتهديدهم

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللهُ﴾ خلَقهنَّ، كما صرَّح به في آية أخرى، فهو أولى من تقدير: الذي خلقهنَّ الله. وقد أقرُّوا بأنَّه

خلقهنَّ و لم يجدوا محيدًا عن ذلك، لعلمهم أنَّ غيره عاجز عن ذلك، والعقل إذا استُعْمِلَ أدرك أنَّ كلَّ ما هو ممكن لا يتصوَّر إلاَّ بمن هو واجب الوجود.

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ يُقدَّر على قول الحذف: أتفكَّرتُم فرأيتم، أي: علمتم ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ «مَا» مفعول أوَّل. والثاني جملة الاستفهام المعلَّق عنها، وكذا في المعطوف وأداة الشرط، وجملةُ الشرط مقدَّرة التأخير عن جملة الاستفهام في قوله تعالى:

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ وجواب الشرط أغنى عنه جملة الاستفهام، وإن جعلنا الهمزة ممَّا بعد الفاء فالمعنى: أخبروني، وجملة الاستفهام مفعول له معلَّق عنه.

(بلاغة) وقال: ﴿كَاشِفَاتُ﴾ و﴿مُمْسِكَاتُ﴾ بالتأنيث ذَمًّا لها بالضعف، ولأنَّهم يسمُّونها بأسماء الإناث، ويقولون هي إناث ويعبِّرون عنهنَّ أيضًا بالذكور. وقدَّم الضرَّ لأنَّ دفعه أهمُّ والخير معه متكدِّر، والنفس مائلة إلى التخلِّي عنه قبل التحلِّي بالخير.

وَلَمَّا سألهم سكتوا، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في إصابة الخير ودفع الضرِّ ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ من أراد التوكُّل، أو من اعتاد التوكُّل عليه.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا وتحقيرًا لكيدهم ﴿يَاقَوْمِ اعْمَلُوا﴾ في كيدي ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ،﴾ تمكُّنكم وقوَّتكم فيه بأبدانكم وأموالكم وحيلكم وأعوانكم، وقيل: استعيرت المكانة من المكان المحسوس للحالة المعقولة عليها التي هي الشخص.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ لم يقل: على مكانتي، إشعارًا بأنَّ له من المكانات كلَّ زمان ما الله به عالم، لا مكانة واحدة متَّصفة بأنَّها لا تتغيَّر، فإنَّ ازدياد قوَّة

من الله تعالى أولى من هذه، وكيدُ اللهِ مَتِينٌ، فهو ﷻ غالب، كما قال ﷻ :

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَّأتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا كيوم بدر **﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾** في الآخرة عذاب النار، ويجوز أن يراد في الموضعين عذاب واحد إجمالاً مخزٍ ومقيمٌ من حين قَتْلٍ إلى ما لا نهاية له يعذَّب في قبره، ويبعث للعذاب، فذلك عذاب وصف بأنّه عذاب مخزٍ، وُوصف بأنّه عذاب مقيم يحلُّ عليه.

ومعنى «مُقِيمٌ» دائم، فلا مجاز، ودوام عذابِ نَفْسُ دوامها في العذاب، فلا حاجة إلى دعوى التجوُّز في الإسناد، أي: مقيم صاحبه، أو في الظرف هكذا: مقيم فيه صاحبه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

مظاهر القدرة التامة والعلم الكامل لله عَزَّ وَجَلَّ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ لأجل الناس، أو هو نفع لهم، وذلك أنّ فيه مصالح دينهم ودنياهم وأخراهم. و«بِالْحَقِّ» حال من «الْكِتَابَ» أو «نَا» «أَنزَلْنَا». ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ فاهتداؤه لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به أو عدم العمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ إذ هو المعاقَب لا غيره بذلك.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تجبرهم على الاهتداء، إن عليك إلاّ التبليغ وقد اجتهدت فيه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم عليه.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى﴾ يأخذ عن الأبدان كما تأخذ ما لَكَ على أحد حتَّى يكون عندك وافيًا ﴿الْأَنفُسَ﴾ الأرواح ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ في وقت قضى الله أن تموت فيه، فالروح في الحيوان حيَّة وفي خارجه ميِّتة، وإذا أراد الله حياتها أحياها وليست خارجة عن النائم البتَّة، بل لها اتِّصال به.

﴿وَالَّتِي﴾ عطف على «الْأَنفُسَ»، أي: ويتوفّى الروح التي ﴿لَمْ تَمُتْ﴾ أي: الروح التي لم تمت يَقبِضُها عن الظاهر والباطن، فالروح تموت وتحيى وتنام وتستيقظ ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ متعلّق بـ«يَتَوَفَّى»، أي: يَتَوَفَّى الأرواح وقت نومها، أي: إذا نامت فهو الذي توفّاها وأماتها عن الظاهر والتصرُّف فيه، وأبقاها حيَّة في الباطن.

والمنام اسم زمان ميميٌّ، ويجوز أن يكون مصدرًا ميميًّا، وكأنَّه صار النوم مكانًا، وإسناد الموت والنوم للروح حقيق لا مجاز، وقيل: مجاز عقليٌّ لأنَّهما للأبدان لا للروح، والنائم شبيه بالميِّت، قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ (سورة الأنعام: ٦٠) ، أي: يميتكم والوفاة الموت.

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا﴾ في الأزل ﴿الْمَوْتَ﴾ لأجلٍ لها تموتُ فيه حال نومها، فلا يردُّها إلى بدنها، فينقطع عنها تصرُّف الباطن أيضًا الموجود في النوم، كما انقطع عنها تصرُّف الظاهر بالنوم، [قيل:] وكذا من مات سكرانًا.

﴿وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ﴾ النفوس الأخرى، أي: الأرواح الأخرى النائمة إلى أبدانها ظاهرًا فتتصرَّف ظاهرًا وباطنًا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا تزال يُرسلها من النوم إلى البدن إلى أجل مسمًّى عند الله، تموت فيه موتًا حقيقًا فلا يرسلها بعدُ، سواء أُخذ في نوم أو في يقظة. وإنَّما تعلّق «إِلَى» بــ«يُرْسِلُ» لأنَّ المراد تكرُّر الإرسال، وفي معنى ذلك تقدير حال تتعلَّق به، أي: حافظًا لها إلى أجل مسمًّى، أو تضمَّن «يُرْسِلُ» معنى يحفظ، وما ذكرت من أنَّ النفس الروح قول لابن عبَّاس، وهو قول جماعة، وبه قال سعيد بن جبير.

وقيل: تلتقي أرواح الأحياء مع أرواح الموتى، فترجع أرواح الأحياء ويمسك أرواح الموتى، وقيل: للإنسان نفس وروح، فعند النوم تخرج النفس ويبقى الروح. وروي عن ابن عبَّاس أنَّ النفس غير الروح، ونسب للأكثر، وأنَّ بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح بها التحرُّك والتنفُّس، يقبضان عند الموت، ويقبض النفس وحدها عند النوم ترجع في الاستيقاظ بأسرع من لحظة.

قال أنس: كنت مع النبيء ﷺ في سفر، فقال : «من يكلؤنا الليلة»؟ فقلت: أنا، فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلاَّ بحرِّ الشمس، فقال رسول الله ﷺ : «**أيُّها الناس، إنَّ هذه الأرواح عارية في أجساد العباد، فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا شاء**»[1].

١- أورده **الزيلعي** في نصب الراية، كتاب الصلاة، باب إدراك الفريضة، وقال: رواه البزار. (جامع

ولفظ البخاري وأبي داود والنسائي وغيرهم عن أبي قتادة: «**إنَّ الله تعالى قبض أرواحكم حيث شاء، وردَّها حيث شاء**»[1]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنَّه لا يدري ما خلفه عليه، ثمَّ ليقل: اللَّهمَّ باسمك رَبِّي وضعت جنبي، وباسمك أرفعُه، إن أمسكت نفسي فارْحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين من عبادك**»[2] رواه البخاري ومسلم.

وذَكر عليٌّ لعمر أنَّ ما رأت الروح في السماء حقٌّ وصدق، فذلك هو الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا رجعت وتلقَّاها الشياطين خلطت عليها وكذبت، فذلك هو الرؤيا الكاذبة، فعجب عمر بذلك.

﴿**إنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من التوفِّي والإمساك والإرسال ﴿**لَأيَاتٍ**﴾ عظامًا ﴿**لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ في تعلُّق الأنفس بالأبدان وتوفِّيها وإرسالها حتَّى يتمَّ أجلها، وفيه تسعى في سعادة أو شقاوة. قيل: إنَّ القلب فيه بخار لطيف هو عرش لروح الحياة وحافظ لها، وآلة يتوقَّف عليها آثارها، وروح الحياة هذه عرش، ومرآة للروح الإلهيَّة التي هي النفس الناطقة، وواسطة بينها وبين البدن، بها يصل حكم تدبير النفس إليه.

﴿**أَمِ**﴾ منقطعة، للإضراب الانتقالي بمعنى بل، والاستفهام الإنكاري

=

الفقه الإسلامي- قرص مدمج).

١-رواه **البخاري** في كتاب مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت، رقم٥٧٠. ورواه **النسائي** في كتاب الإمامة باب الجماعة للفائت من الصلاة، رقم٨٤٦. من حديث قتادة.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الدعوات، باب التعوُّذ والقراءة عند النوم، رقم٥٩٦١. ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم، رقم٢٧١٤. من حديث أبي هريرة.

﴿اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ﴾ من دون رضائه وإذنه، ولا يشفع عنده إلاّ من أذن له، أو دون الله بمعنى غير الله ﴿شُفَعَآءَ﴾ ترفع عنهم عذاب الآخرة أو شفعاء في أمور الدنيا والآخرة، أو المراد آلهة شفعاء.

﴿قُلَ اَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أيشفعون مع أنّهم جماد لا يملكون شيئا ولا يعقلونه؟ ولا علم لهم بشيء؟ أو يقدَّر: أيشفعون لو كانوا يملكون ويعقلون، ولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلونه.

(بلاغة) ولعلّ الحكمة في ذكر الله سبحانه آلهتهم بألفاظ العقلاء ومجاراته لهم في ذلك لا بألفاظ السوء أن لا يشتدَّ نفارهم ويزدادُوا كفرًا، جَرْيًا على طريقة قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥) ، وليس ذلك تعظيمًا للأصنام ولا من باب المداهنة. ويجوز تقدير: قل أتَتَّخذونهم شفعاء ولو كانوا ؟ وجواب «لو» يغني عنه ما قبله، كما في: أتجيء ولو لم يجئ زيد ؟ والأصل: اَلَوَ لَمْ يجئ زيد تجيء؟ فقدِّم تجيء.

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ لا لغيره ولا مع غيره ﴿الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لا بعضُها، وذلك ردٌّ على من يجيب من العرب بأنـــا لا نرجو الشفاعة منها، بل من عقلاء مثّلوا بها، فقال الله جلّ وعلا: لا شفاعة لتلك الأشخاص ولا لغيرها، بل لله أو لمطيع له، يبغض الأصنام وعابديها، وإنَّما يشفع بإذنه.

﴿لَّهُ، مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ والعرش والكرسي، وغير ذلك، أو السماوات والأرض عبارة عن كلّ شيء، وعلى كلّ حال لا ملك لأحد غيره، فلا يملك أحد شفعة بدون إذنه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث، وحينئذ تكون الشفاعة العظمى النافعة، وتنحصر له وينقطع تصوُّر غيره بصورة المالك، وكان الناس في الدنيا بصورة المالكين، **والمالك حقيقة هو الله الرحمن الرحيم.**

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اَللهُ وَحْدَهُ﴾ بحصر الألُوهيَّة له، مثل أن يقال: لا إله إلاَّ الله، ويمكن أن يلتحق بذلك أن يقال: الله هو النافع الضارُّ، ونحو ذلك، وليس المراد إذا ذكروا لم تذكر آلهتهم، إذ لا يثبت أنَّهم يكرهون أن يذكر الله بدون ذكرها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ،...﴾ (سورة الإسراء: ٤٦) مثل هذه الآية.

﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الذينَ لاَ يُومِنُونَ بالاَخِرَةِ﴾ انقبضت ونفرت، كقوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (سورة الإسراء: ٤٦) ، لامتلاء قلوبهم غيظًا كما يشمزُ الجلد باليبس، أي: ينقبض، كأبي جهل والوليد وصفوان وأُبي بن خلف.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اَلذينَ مِن دُونِهِ﴾ مع الله أو وحدهم كاللات والعزَّى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون فرحًا عظيما لامتلاء قلوبهم سرورًا، حتَّى تنبسط له بشرة الوجه، أي: جلدته.

(نحو) واعلم أنَّ أسماء الشرط الظرفيَّة متعلِّقة بالجواب، وإذا وجد مانع صناعيٌّ أو معنويٌّ قدِّر له عامل يناسب الجواب، ودع عنك تعليقها بفعل الشرط، ولو بالغوا في الإيهام، فإن كان لـ«إِذَا» الفجائيَّة صدر فللظرف توسُّع، فتُعلَّق «إِذَا» الأولى الشرطيَّة بـ«يَسْتَبْشِرُ»، أو يقدَّر الجواب أَقْبَلوا، أو انتفى اشمئزازهم.

والآية حكاية لما وقع من المشركين يوم قرأ النبيء ﷺ : ﴿وَالنَّجْمِ﴾ عند باب الكعبة[1].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ عَالِمَ اَلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ

١– راجع ما تقدَّم عن ذلك في سورة الحج: ج٩، ص٤١٦.

بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بين النبيء ﷺ والمؤمنين والمشركين، أمر الله الرحمن الرحيم نبيئه ﷺ أن يدعوه بالتجاء وتضرُّع في تعسُّر قومه وتصلُّبهم عليه، وذلك وعيد عليهم، وتسلية له ﷺ .

(تضرع ودعاء تأوّه) اللهمَّ باسمك الأعظم، ونبيئك الأكرم، كن بنا أرحم. لَمَّا سئل الربيع بن ختيم عن قتل الحسين تأوَّه وتلا هذه الآية، وكان لا يتكلَّم وتكلَّم حينئذ، أعني أنَّه قليل الكلام. وعن سعيد بن المسيّب: لا أعرف آية قُرئت فدُعي عندها إلاَّ أجيب سواها، أي: سوى هذه الآية.

﴿وَلَوَ اَنَّ﴾ ولو ثبت أنْ **﴿لِلذِينَ ظَلَمُواْ﴾** أشركوا، والإشراك أعظم ظلم للنفس وأعظم جور **﴿مَا فِي اِلاَرْضِ جَمِيعًا﴾** من الأموال، أصول وعروض ما بين أيدي الناس، والخزائن المدفونة ولم يشعروا بها، وأنواع الجواهر التي لم تستخرج من معادنها.

﴿وَمِثْلَهُ، مَعَهُ،﴾ ذلك تمثيل، لأنَّهم لو ملكوا ما رَدَّ العرش إلى الأرض السابعة ذهبا وأكثر من ذلك لهان عليهم الافتداء به، لأنَّ العذاب لا يطاق **﴿لاَفْتَدَوْاْ بِهِ﴾** لم يبخلوا به أن يفدوا أنفسهم، ولكن لا يقبل منهم، **﴿مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ﴾** من العذاب السوء **﴿وَبَدَا﴾** ظهر **﴿لَهُم مِّنَ اَللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾** لم يكن في حسابهم من عدم إخلاف الوعيد، ومن كتابة ما فعلوا، ومن عدم الإهمال والنسيان، أو ما لم يكونوا يحتسبون من فنون العقاب.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ ولم يلتبس بما أبيح لهم، كأنَّه قيل: السَّيِّئَات من أعمالهم، وهذا أولى من جعل الإضافة للبيان، أي: سَيِّئَات هي ما عملوا، وسواء في الوجهين جعلت «مَا» موصولاً اسميًّا ـــ وهو أولى ـــ أو موصولاً حرفيًّا.

ويروى أنَّ محمَّد بن المنكدر جزع عند الموت فقيل له، فقال: أخشى آية في كتاب الله تعالى؟ وتلا الآية، وقال: أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب، وذلك إلحاقٌ وتمثيل لا تفسير، لأنَّ الآية في أهل الشرك، وكذا قول سفيان الثوري عند قراءتها: «ويلٌ لأهل الرياء، ويلٌ لأهل الرياء». ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ﴾ أحاط ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من رسالة رسول الله ﷺ والقرآن وما تضمَّنه من شرائع الإسلام والبعث، والمراد: أحاط بهم العذاب، وعبَّر عنه بسببه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

التجاء الإنسان إلى الله عند الشدَّة وجحوده للمنعم الحقيقي عند الفرج

﴿فَإِذَا مَسَّ الانسَانَ﴾ جنس الكفرة، وإن نزلت في حذيفة بن المغيرة، فمثله كذلك. والعطف على محذوف، أي: لا صبر للمشركين ولا شكر، أو لا يعرفنا المشركون إلاَّ حال الضرَّاء فَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ منهم، أو العطف على ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ...﴾ نسبة إلى الحمق إذا أصابهم ضرٌّ دعوا من اشمأزُّوا مِنْ ذِكْرِهِ دون من يستبشرون بذكره، كقوله: فلان يسيء إلى فلان، وإذا احتاج سأله فيعطيه، فيكون ترتيب دعائه تعالى إلى كشف الضرِّ مترتِّبًا على اشمئزازهم بذكر الله وحده تعالى، ففي الفاء استعارة تبعيَّة مبنيَّة على جعل الاشمئزاز يترتَّب عليه الدعاء.

والآية بالمعنى في الموحِّد أيضًا، إذا قال مثل ما قال المشركون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾ (سورة القصص: ٧٨) ، كقوله ﷺ : «**لتتَّبِعُنَّ سنن من قبلكم حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه...**»[1]، لا باللفظ والنزول، لأنَّ الكلام في المشركين، ولقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنَّه ظاهر في المشركين.

﴿ضُرٌّ﴾ فقر أو مرض أو غيرهما ممَّا يكره **﴿دَعَانَا﴾** لكشفه **﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾** أعطيناه تفضُّلاً، فالتخويل يختصُّ بذلك، ولا يستعمل فيما هو قضاء دين ونحوه أو جزاء **﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾** كَمَال وصحَّة وغيرهما ممَّا هو محبوب.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منِّي بوجوه التجر والمكاسب والحيل، أو معرفة الأدوية والطبِّ، وهكذا... أو على علم منِّي بأنِّي سأُعطاهُ لأنِّي أهلٌ لَهُ، أو على علم من الله بي. والهاء للنعمة، والتذكير للتأويل بالشيء المُنعم به، أو بالمحبوب، أو بالمطلوب، أو بتأويل ما ذكر، أو الهاء لـ«مَا» على أنَّها اسم «إِنَّ» وصلت في الخط شذوذًا، أي: إنَّ الذي أوتيته ثابت على علم، والأصل خلاف هذا، وهو أنَّ «مَا» حرفٌ كَافٌّ اتَّصَلَ بـ«أنَّ» للحصر.

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ الضمير للنعمة، لجواز اعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى، ولو كان الأكثر عكس ذلك، أو هي عائد إلى المذكَّر في قوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾ ولكن أُنِّث لتأنيث الخبر، أو عائد إلى الإيتاء المعلوم من «أُوتِيتُ» وأُنِّث لتأنيث الخبر، أو إلى الإيتاءة كالإكرامة. و«بَلْ» للإضراب الإبطالي إلى أنَّه أوتيه امتحانًا له، أيكفر أم يشكر؟ والإخبار بالفتنة مبالغة لأنَّ تلك الأشياء ليست فتنة بل آلة لها، إلاَّ إذا رجع الضمير إلى الإيتاء، أو الإيتاءة فلا مبالغة، فإنَّهما نفس الامتحان.

١– رواه **مسلم** في كتاب الدعوات، باب اتِّبَاع سنن اليهود والنصارى، رقم٢٦٦٩. ورواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم٨١٤٠، من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، وهذا يدلُّ على أنّ «الإنسان» الجنس، وإلاّ قال: لكنَّه لا يعلم، لا العهد، وإلاّ قال: لكنَّهم لا يعلمون.

﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي: هذه الكلمة أو هذه الجملة، وهي ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وإطلاق الكلمة على المركّب حقيقةٌ في اللغة ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قرون متقدِّمون، وهذا أيضًا يدلُّ على أنّ الإنسان الجنس لقوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ بضمير الجماعة، وليس قوم كلُّهم يقولون، بل يقول واحد ويرضى الباقون، فهم قائلون.

أو يراد بـ«الذينَ» جملة أفراد قالوها ولو من أقوام مختلفين، ولا مجاز فيه بخلاف ما قبله، فإنّه من إسناد ما للبعض للكلّ على التجوُّز العقليّ، أو حذف مضاف، أي: بعض الذين، أو يراد المجموع، لَمَّا شاعت فيهم قيل: قالوها. ثمّ إنّه لا شكَّ أن قولَ مَنْ في عهده ﷺ غيرُ قول من قبله، وقول كلّ أحد غير قول غيره، ولو في وقت واحد، فالمراد: قد قال مثلها، أو اعتبرت هذه الكلمة كجسم موضوع يتناوله من تقدَّم ومن تأخَّر، كأنَّها متشخِّصة باقية وذلك شائع في العرف.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ما دفع عنهم عذاب الدنيا إذ جاء ولا عذاب الآخرة إذا جاء ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال والأصحاب والأعوان وهي بعض النعمة.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: جزاء سيِّئات، أو سمَّى الجزاء سيِّئةً لأنَّها سببه، أو سمَّاه سيِّئة مشاكلةً على ملاحظة ذكر السيِّئة معه، بمعنى العمل السيِّء، كأنَّه قيل: فأصابهم سيِّئات السيِّئات التي كسبوها، أي: جزاء السيِّئات، كالمشاكلة الظاهرة في قوله: ﴿وَجَزَآؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (سورة الشورى: ٤٠).

﴿وَالذينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَؤُلَآءِ﴾ الكفرة، و«مِنْ» للبيان، أي: وهم هؤلاء، أو للتبعيض على أنّ «الذينَ ظَلَمُوا» المصرُّون، أو الإشارة لقريش، فالتبعيض ظاهر. **﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾** مثل ما مرَّ، كما أصاب من قبلهم، وقد أصابهم القحط سبع سنين، وقتل صناديدهم ببدر، فالمراد عذاب الدنيا، وهو أنسب بما قبل، وقيل: المراد عذاب الدنيا والآخرة **﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾** لنا عمَّا أردنا بهم، أو لا يعجزوننا أن نعذّبهم بعد ذلك عذاب الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أتجاهَلوا ؟ أو أتعامَوا ؟ أو أبالغوا في الإنكار و لم يعلموا ؟. وإذا جعلنا الهمزة في مثل هذا ممَّا بعد العاطف فالعطف على ما قبل، ولو عطف قِصَّة على أخرى، مثل أن يعطف هنا على **﴿مَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾** عطف إنشاء على إخبار.

﴿أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ البسط له **﴿وَيَقْدِرُ﴾** يضيِّق الرزق لمن يشاء ولقدرته على ذلك، قَدَّرَ لهم سبعًا وبَسَطَ لهم سبعًا كما فعل لقوم يوسف، وتناسب الآية السبع أنّه حين بسط لهم قد قدر لغيرهم وبسط أيضا، وحين قدر عليهم قد بسط لغيرهم وقدر أيضًا، وأيضًا قد بسط لمن لم يحضر القدر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر **﴿لَأيَات﴾** على أنّ الحوادث كلّها من الله سبحانه، والأسباب أشياء خلقها الله مع تلك الحوادث، ولو شاء خلق غيرها، ولو شاء لكانت بلا سبب **﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾** وغيرهم لكنّهم المنتفعون، أو أراد آيات مؤثّرات فيهم.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

مغفرة الذنوب بالتوبة وإخلاص العمل والتحذير من الغفلة

﴿قُلْ﴾ عنّي ليقوَى الطمعُ ويزُولَ الإيَّاسُ ﴿يَاعِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرطوا في المعاصي كائنة ما كانت.

(أصول الدين) فلا معصية تخرج عن الآية، فتقبل توبة الزاني، وآكل الرِّبا، وقاتل النفس المؤمنة، ولو كانت سعيدة عند الله وغيرهم، إذا تابوا، والمرائي إذا تاب فيرجع عمله كأنّه لم يراء. ومن الإسراف الإصرار على صغيرة واحدة. والإسراف: الإفراط في شيءٍ، مَالٍ أو غير مالٍ حقيقةً ولو كثر في المال.

ولَمَّا كان مَضَرَّةً عدِّيَ بـــ«عَلَى» أو ضمِّن معنى الجناية، والعباد على العموم، والإضافة للجنس، وقيل: المؤمنون، فالإضافة للتشريف وعموم المؤمنين، أو للعهد في قوله المتقدِّم: ﴿يَا عِبَادِي﴾.

﴿لاَ تَقْنَطُواْ﴾ لا تيأسُوا ﴿مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ من مغفرته فإنّها رحمة، أو مغفرته إدخال الجنَّة، أو رحمته الجنَّة، لأنَّ المذنب يقنط من الجنَّة بدخول النار، وداخل الجنَّة مغفور له لا يدخلها بلا غفران.

(قصص) ويروى أنَّ أخوين أحدهما مجتهد في الطاعة والآخر مسرف في المعاصي، واجتهد المطيع لله تعالى في نهيه حتَّى قال له: والله إنَّك من أهل النار. وماتا، وقال الله تعالى للمطيع: أُدْخل النار لأنَّك أقنطت عبدي من رحمتي

الواسعة، وقال للمسرف: ادخل الجنَّة. ومعنى ذلك [إن صحَّت الرواية] أنْ العابد لم يقل للعاصي: تدخل النار إن شاء الله ﷻ ، أو إن لم تتب، والعاصي ختم عصيانه بالتوبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لأنَّ الله ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ صغائر وكبائر ﴿إِنَّهُ، هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ المغفرة: السِّتر، فإذا غفر الذنب فقد ستر إذ لم يُرَ عقابُه، فكأنَّه لم يكن، وكأنَّه غير ذنب، أو المغفرة محوُه من صحيفة المذنب.

(أصول الدين) والتوبة شرط كما شرطت في مواضع من القرآن، والمطلق يحمل على المقيَّد، ولو لم يحمل على المقيَّد لرجعت هذه الآية إلى كلِّ ما شرط فيه التوبة، فيبطل اشتراط التوبة فيتناقض الكلام، والقرآن ككلامٍ واحد.

روى أبو داود والترمذي عن أسماء بنت يزيد: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي ﴿إِنَّهُ، هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

(سبب النزول) قال قوم: يا محمَّد، إنَّ ما تقول حقٌّ، لكن أشركنا وزنينا وقتلنا، فلو أخبرتنا بكفَّارة لذلك، فنزل: ﴿وَالذِينَ لاَ يَدْعُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿...يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (سورة الفرقان: ٦٩) ، ونزل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...﴾[2].

١-رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن عن رَسُول الله، باب: ومن سورة الزمر، رقم ٣٢٣٧. **وأحمد** في مسند القبائل، رقم ٢٧٠٢٢. من حديث أسماء بنت يزيد.

٢-رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...}، رقم ٤٥٣٢. من حديث ابن عبَّاس.

ويروى: سمعوا الآية إلى قوله تعالى: ﴿مُهَانًا﴾، فأيسُوا فترل: ﴿إلاَّ مَن تَابَ...﴾ يبدِّل الله إشركهم توحيدًا وزناهم إحصانًا. ويروى أنَّهم قالوا: «هذا شرطٌ وهو العمل الصالح»، فترل: ﴿إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ (سورة النساء: ١١٦) ، ونزل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي...﴾ كأنَّهم توهَّموا أنَّه لا يغفر لمن أسلم وتاب وعمل صالحًا وعصى بعدُ، فأخبرهم أنَّ التوبة تقبل أيضا بعد هذا العصيان، لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي...﴾.

ورجع بهذه الآية قوم ارتدُّوا فأسلموا، وكان الصحابة يقولون: إنَّ حسناتهم مقبولة لا يبطلها شيء، فترل: ﴿ولاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم﴾ فكانوا يخافون ولا يرجون لمن فعل كبيرة، فترل: ﴿لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ فخافوا ورجوا.

(أصول الدين) ومعنى «لا يبالي» أنَّه يكتفي بالتوبة، ولو كثرت الذنوب وعظمت، ولم يرد به أنَّه يغفرها ولو بلا توبة، بدليل دلائل اشتراط التوبة، ويؤيِّد اشتراطها قوله تعالى:

﴿وَأَنِيبُواْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ، مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ عطف على ﴿لاَ تَقْنَطُواْ﴾. ومعنى ﴿وَأَنِيبُواْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ارجعوا إلى ربِّكم بالإعراض عن المعاصي، والتوبة عَمَّا صدر منها، وقيل: بالانقطاع إليه بالعبادة فهو أخصُّ من التوبة على هذا القول، وقيل: التوبة من خوف العقاب، والإنابة استحياء لكرمه تعالى. والإسلامُ لهُ: إخلاصُ العبادة له تعالى.

(سبب النزول) قال عطاء: نزلت الآية في وحشيٍّ وأصحابه، رواه ابن جرير. وروى أيضًا عن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ أهل مَكَّة قالوا: يزعم محمَّد أنَّ من قتل النفس وعبد غير ا لله لا يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد فعلنا ذلك؟ فترلت الآية، وأيضا ارتدَّ عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفرٌ لَمَّا

عَذّبهم المشركون فكان المسلمون يقولون: لا تقبل توبتُهم، فنزلت فكتبها عمر ﷺ إليهم فأسلموا وهاجروا.

﴿وَاتَّبِعُواْ﴾ أيُّها الناس المؤمنون والكافرون ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو القرآن، وأحسنُه ما فيه الإرشاد إلى الديانة من واجب ومستحبٍّ ووعظ، وقيل: الواجب دون القصص، وقيل: الواجب الذي على الفور، فإنّ ذلك كلّه أحسن ممَّا يقابله.

وزعم بعضٌ أنّ المراد الناسخ، وقيل: ﴿مَآ أُنزِلَ﴾: هو كتب الله كلُّها، وأحسنه القرآن، **وما ذكرته أوَّلاً أوْلَى**، [قلت:] وكتب الله كلُّها أنزلت إلى الكافرين كما أنزلت إلى المؤمنين بمعنى أنَّهم خوطبوا بالعمل بها.

﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ وأنتم لا تشعرون بمجيئه، وذلك أشدُّ عليهم، ولو علموا لم يجدوا ما يدفعونه به، وإنَّما يدفع بالتوبة قبل مجيئه.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ عند الموت ويوم القيامة عند مشاهدة أهوالها، وعند تطاير الصحف، وظهور ما للمؤمنين من الخير، وخفّة الحساب.

(نحو) ومصدر «تَقُول» مفعول من أجله على حذف مضاف وناصبه محذوف، أي: أمرتكم باتِّباع أحسن ما أنزل كراهةَ قولِ نَفْس، والمراد بالكراهة عدم الرضى، وقيل: منصوب بـ«اتَّبِعُوا» أو «أَنِيبُوا» بناء على عدم اشتراط اتِّحاد الفاعل في نصب المفعول من أجله، ويغني عن أن يقدَّر المضاف تقدير لا النافية ولام التعليل، وأن شرط فقد باللام بللام[1]، أي: لئلاً تقول.

(بلاغة) وتنكير «نَفْسٌ» للتبعيض، أو للجنس وكُلُّ نفس تخاف أن

١- في الطبعة العمانية: «وان شرط فقد فاجرره باللام». والعبارة غامضة. تأمَّل.

تكون مرادةً أو داخلةً في هذا الجنس، وكفى بهذا وعيدًا، ولا يظهر أن يكون المراد التكثير، لأنَّه لا يتبادر من العبارة، ولا يدلُّ عليه دليل، ولو صحَّ المعنى، وأمَّا الكثرة في قوله:

وربَّ بقيع لو هتفت بجوِّه أتاني كريم ينغض الرأس مغضبا[1]

فإنَّما هو من تقدير فوج لا من لفظ كريم، أي: من فوج كريم.

﴿يَاحَسْرَتَىٰ﴾ يا حسرتي من فوت الجنَّة أو من دخول النار، أي: أُحضُري فهذا وقتك. أبدلت الياء ألفا، والمراد جنس الحسرة، وقيل: المراد الكثرة. **﴿عَلَىٰ مَا﴾** مَصدَرِيَّة **﴿فَرَّطْتُ﴾** بسبب تفريطي، أي: تقصيري **﴿فِي جَنبِ اللهِ﴾**، أي: جانبه، أي: جهته، مجازا على حذف مضاف، أي: في جنب طاعة الله، أو في حقِّه تعالى، وهو عبادته، وترك معاصيه، فأطلق الجنب على الحقِّ على الاستعارة التصريحيَّة، وذلك أنَّ ما للشيء يكون بجانبه، تعالى الله عن كلِّ ما لا يوصف به.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ اَلسَّاخِرِينَ﴾ «إن» مخفَّفة واللام بعدها فارقة، و**﴿كُنتُ لَمِنَ اَلسَّاخِرِينَ﴾** عطف على **﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾** وتَقُولُ إن كُنْتُ... وذلك أولى من كونه حالا من تاء «فَرَّطْتُ»، والمراد التحزُّن لا مجرَّد الإخبار بأنَّه من الساخرين، أي: المستهزئين بدين الله عَزَّ وَجَلَّ وأهله في الدنيا.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ في الآخرة وعند الموت إذ لم تؤمن ولم تتَّق في الدنيا **﴿لَوَ اَنَّ اَللهَ هَدَىٰنِي﴾** لو ثبت أنَّ الله هداني هداية توفيق **﴿لَكُنتُ مِنَ اَلْمُتَّقِينَ﴾** بأن أومن وأخلص العبادة وأجتنب المعصية.

١- البيت من الشواهد وهو بلا نسبة في كتاب مقاييس اللغة ج١ ص٢٨٢. وينغض الرأس أي يهزها غضبا.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى اَلْعَذَابَ﴾ عذاب القبر وعذاب يوم القيامة ﴿لَوَ اَنَّ لِي كَرَّةً﴾ «لَوْ» للتمنِّي، أي: لو ثبت أنَّ لي كرَّة، أي: رجعة إلى الدنيا أو إلى الحياة ﴿فَأَكُونَ﴾ بالنصب بـ«أَنْ» في جواب التمنِّي، أي: لو ثبت ثبوت كرَّة فكوني، فالكون معطوف على ثبوت، أو في العطف على اسم خالص هو «كَرَّةً»، أي: لو أنَّ لي كرَّة، فكوني عُطفَ على «كَرَّةً» ﴿مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ﴾ بالإيمان والعمل كما قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ...﴾ (سورة الأنعام: ٢٧) .

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفاه بقوله: ﴿لَوَ اَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ إذ عذر نفسه بأنَّه لم يهد هداية توفيق، وجعل هُدَى البيان كَلاَ هُدى، فقال الله ﷻ : بلى قد هديناك هدى بيان، وفيه كفاية، وأهلكت نفسك بعدم اتِّباعه. وإن فسَّرنا قوله: ﴿لَوَ اَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بهدى البيان إنكارا لوقوعه فهو نفي صريح. و«بَلَى» لإثبات ما نفي.

﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾ ذكر النفس هنا بكاف مفتوحة، لأنَّها في معنى الشخص، وكذا فيما بعد بتاء مفتوحة، وإنَّها فيما مرَّ على الأصل فيها [الذي هو التأنيث].

﴿ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عنها ﴿وَكُنتَ مِنَ اَلْكَافِرِينَ﴾ ولا عذر لك، و«أَوْ» بمعنى الواو في الموضعين، لأنَّها تقول ذلك، أو لمنع الخلوِّ، للتنبيه على أنَّ كلَّ واحد يكفي صارفا عن اختيار الكفر على الإيمان.

﴿وَيَوْمَ اَلْقِيَامَةِ تَرَى اَلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اَللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ اَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّي اِ۬للَّهُ اُ۬لَّذِينَ اَتَّقَوْاْ بِمَفَازَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ اُ۬لسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾

حال المشركين المكذبين والمؤمنين يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلّق بما بعده وهو قوله تعالى: ﴿تَرَى﴾ قدِّم على طريق الاهتمام بذكر البعث ﴿الذين كَذَبُواْ عَلَى اللهِ﴾ بنسبة الشركة إليه والولادة وإنكار البعث وغير ذلك ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ الجملة حال من «الذينَ»، والسواد على ظاهره، وهو أشدُّ فضيحة، ولا حاجة إلى جعله مجازا في الذمّ، أو إلى توهُّم السواد فيها لجهلهم بالله، وذلك مجاز، والمجاز لا بدَّ له من قرينة ولا قرينة هنا.

(نحو) ولا داعي إلى أن تجعل الرؤية عِلميَّة، والجملة مفعولا ثانيا، لأنَّ المشاهدة أولى، فيها علم وزيادة، وأمَّا قراءة نصبهما فــ«وُجُوهُ» فيها بدل من «الذينَ» و«مُسْوَدَّةً» حال من وجوه، ومقتضى الظاهر: تراهم وجوههم مسودَّة، ووضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالكذب على الله سبحانه.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مقام للمتكبِّرين عن قبول الإيمان وتوابعه، وهم من ذكر، أظهر ليصفهم بالكبر، وقيل: المراد أهل الكتاب، إذ تكبَّروا عن رسالته ﷺ، وعن القرآن بالإنكار.

وقيل: المراد القَدَريَّة، لقولهم: إن شئنا فعلنا ولو لم يشأ الله تعالى، وإن شئنا لم نفعل ولو شاء، وليس في هذين القولين وضع الظاهر موضع المضمر، **وأولى من ذلك كلّه الحمل على عموم كلّ من كذب على الله تعالى فلا يكون من** وضع الظاهر موضع المضمر، فيكون وَعَظَ بهذا العمومَ ومَن عُهِد قبل.

﴿وَيُنَجِّي اللهُ﴾ من جهنَّم ﴿الذينَ اتَّقَواْ﴾ اجتنبوا ما اتَّصَفَ به المتكبِّرون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى الفوز، قرن بالتاء على القلّة، لا اسم مصدر كما قيل، وقيل: أخصُّ من الفوز، وأنَّه الفوز بالمراد على أتمّ وجه، والباء

للملابسة متعلّقة بمحذوف حال من «الذينَ» فلهم النجاة من النار والفوز بالجنَّة مقاما لهم، كما أنّ للمتكبِّرين النار والحرمان من الجنَّة.

(صرف) ويجوز أن يكون اسم مكان، أي: موضع الفوز وهو الجنَّة، أي: ينجيهم بدخول المفازة، أي: الجنَّة، أو المفازة الصالح، أي: ينجِّهم بالعمل الصالح، والمفازة عليه اسم مكان بالتجوُّز، أو مصدر ميميٌّ على تسمية السبب باسم المسبَّب.

﴿لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ خروج من الجنَّة أو مرض أو ملل أو مكروه مَّا ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بشيء لعدم الأشياء المحزنة، وذلك مستأنف ومعطوف عليه، أو حال من هاء «مَفَازَتِهِمْ» مقدَّرة.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

دلائل ألوهيَّة الله ووحدانيَّته

(أصول الدين) ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أجسام وأعراض، وطاعة ومعصية وغيرهما من الأفعال، أفعال الجوارح وأفعال القلوب، وكيف يخلق الفاعل فعله مع أنّه ذاهل، ومع أنّه لا شعور له بأجزائه كلّها.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ بإبقائه ولو أهمله لفني، كما أنَّه لو لم يخلقه لم يوجد، فالأشياء تحتاج إلى إيجاده وعناية حفظه، أو ﴿وَكِيلٌ﴾: متولِّي التصرُّف فيها.

﴿لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ مستأنف، أو خبر ثان.

(لغة) والمفرد مقلاد، أو مقليد، استعمل أو لم يستعمل، فيكون جمعا لا واحد له، وهو عربيٌّ من التقليد، وهو الإلزام، ولا يقال: إنَّه معرب من إقليد معرب أكبيد من لغة الروم، لأنَّ إفعيلا لا يجمع على مفاعيل، ولأنَّا قد وجدنا له مادَّة في العَرَبِيَّة وهي: قلَّد يقلِّد تقليدا وسائر تصاريفه، وهو من معنى الإلزام، تقول: قلَّد القضاء، أي: ألزم نفسه النظر في أموره.

(لغة) والمقاليد: المفاتيح، كمفتاح الباب للزومه للباب، والقلادة لازمة للعنق، فقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ﴾ مجاز عن كونه مالك أمر السماوات والأرض، ومتصرِّفا فيها، والعلاقة اللزوم، ولا يملك أمرهما غيره، ويكنَّى به عن معنى القدرة والحفظ، تقول: فلان له مفتاح كذا. وقيل: ﴿مَقَالِيدُ﴾: خزائن، لأنَّ الخزانة بالقفل والمفتاح.

روى ابن مردويه وابن أبي حاتم وغيرهما عن عثمان بن عفَّان: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ فقال: «لا إله إلاَّ الله والله أكبر، سبحان الله، والحمد لله، أستغفر الله الذي لا إله إلاَّ هو، هو الأوَّل والآخر والظاهر والباطن، يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير، يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرَّات وإذا أمسى، حرس من إبليس وجنوده، وأعطي قنطارا من الأجر، ويزوِّجه من الحور العين ويغفر ذنوبه، ويكون مع إبراهيم عليه السلام ، ويبشِّره اثنا عشر ملكا عند الموت بالجنَّة، ويزفُّونه من قبره إلى الموقف، وإن أصابه هول فيه قالوا: لا تخف إنَّك من الآمنين، ويحاسب

يسيرا، ويزفُّ إلى الجنَّة كالعروس، والناس في الحساب». وذكر ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**هنَّ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله**».

﴿**وَالذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ الحصر باعتبار الكمال، أي: الكاملون في الخسران، أو بالإضافة للمؤمنين، إذ زعموا أنَّ المؤمنين خاسرون، فقال الله سبحانه: هم الخاسرون لا المؤمنون، والحصر في الوجهين إضافي، وذلك أنَّه وجد الخاسرون غير هؤلاء المكذِّبين بالآيات، وهو من لم يكذِّب وعاند أو لم يكذِّب و لم يعمل.

(نحو) والعطف على قوله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: الله تعالى متَّصف بصفات الجلال، وهؤلاء متَّصفون بصفات الخسران والضلال، أو على قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ...﴾، أي: وينجِّي الله المتَّقين والذين كذبوا هم الخاسرون لا نجاة لهم، وعليه فلم يقل: ويهلك الذين كفروا كما قال: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ...﴾، لأنَّ العمدة فضله المحض، فأسند النجاة إلى نفسه، وعَطْفُ الاسميَّة على الفعليَّة والعكس جائزان، وصرَّح الله ﷻ بالوعد للمؤمنين وعرَّض بالوعيد لِلْكُفَّارِ إذ قال: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾، و لم يقل: الهالكون أو المعذَّبون على عادة الكرم.

﴿**قُلَ**﴾ يا محمَّد ﴿**اَفَغَيْرَ اللهِ تَامُرُونِيَ أَعْبُدُ**﴾ يقدَّر على الحذف: أأعرض عن دلائل الوَحْدَانيَّة القائمة فأعبد غير الله ؟ .

(نحو) فـ«غَيْرَ» مفعول به لـ«أَعْبُدُ» و«تَامُرُونِي» معترض، ومعموله محذوف، أي: تأمروني بعبادة غيره، دلَّ عليه ما قبل وما بعد. ويجوز أن يكون معموله «أَعْبُدُ» على حذف «أَنْ» ورفعه بعد الحذف، أي: فتأمروني بأن أعبد غير الله، وفيه أنَّ معمول الصلة لا يتقدَّم على الموصول، وأجيب بأنَّ الموصول محذوف وهو «أَنْ» فجاز، وفيه أنَّ حذفه لا يمنع صدريَّته.

طلبوا رسول الله ﷺ أن يتمسَّح ببعض آلهتهم فيؤمنوا، فذلك التمسُّح هو العبادة المذكورة، وذلك لفرط غباوتهم، ولذلك قيل: ناداهم الله ﷻ بعنوان الجهل فقال ﷻ: ﴿أيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ والمحذوف في «تَامُرُونِي» نون الوقاية، لأنَّ التكرار حصل بها، أو نون الرفع، لأنَّها عهد حذفها للجازم والناصب، ولئلاَّ يلزم تغيُّر حركتها.

﴿وَلَقَدُ اوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الأنبياء الذين من قبلك ﴿لَئِنَ اَشْرَكْتَ﴾ بالله شيئا مَّا، ولو بالتمسُّح على صنم ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المقصود هذا اللفظ وهو قولك: ﴿لَئِنَ اشْرَكْتَ...﴾ وهو نائب فاعل «أُوحِيَ» وذلك جائز إجماعا، وإنَّما المختلف فيه نيابة الجملة باقية على معناها، لا مرادا بها اللفظ.

و لم يقل: لئن أشركتم ليحبطنَّ عملكم ولتكونُن بضمٍّ هذه النون، لأنَّه أوحي إلى كلِّ نبيء على حدة: «لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ...» بالإفراد، وهذا أولى من أن يجعل ﴿لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ...﴾ مختصًّا بالنبيء ﷺ مرادا به اللفظ، ويقدَّر لهم: لئن أشركتم ليحبطنَّ عملكم ولتكونُنَّ من الخاسرين، بضمِّ النون الأولى من «تكوننَّ» مرادا به اللفظ.

(نحو) ويجوز أن يكون نائب الفاعل «إِلَيْكَ»، أي: ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك بالتوحيد، واستأنف له ﷺ وحده قوله: ﴿لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ...﴾، فيكون مرادا به المعنى لا اللفظ، ويكون ما قبله حجَّة وبرهانا، ولا ضعف في ذلك كما قيل.

[قلت:] والأنبياء لا يتصوَّر منهم إشراك، وإنَّما ذلك تهييج له ﷺ ، وإقناط للكفرة من أن يتبعهم في شيء من الكفر.

(نحو) ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ﴾ الفاء صلة، ولفظ الجلالة منصوب

بــ«اعْبُدْ» وقدِّم للحصر، أي: اعبده وحده ولا تعبد معه صنما بالتمسُّح عليه، كما طلبوا. وقيل: الفاء رابطة لجواب شرط محذوف، ولفظ الجلالة مِمَّا بعد الفاء قدِّم للحصر، والأصل: إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبد الله، وقدِّم للحصر، وفيه أنّ الأصل أن لا يتقدَّم معمول الجواب على فائه إلاّ أداة الشرط، ولو كان ذلك مرادا لقيل: إن كنت عابدا فالله أعبد، بالتقديم للحصر على «اعبد» لا على الفاء.

(نحو) وعن سيبويه: تنبَّه فاعبد الله، فالفاء عاطفة، وفيه تقديم مفعول المعطوف على العاطف، وهو لا يجوز، وقال الكسائي: اللهَ أعبد فاعبده على الاشتغال، وفيه حذف الضمير الشاغل، وهو لا يجوز إلاّ إن كان ياء المتكلّم قبلها نون الوقاية، نحو: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (سورة البقرة: ٤١) ، أو حذف للساكن، نحو: إيَّاي أكرموني اليوم.

﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ من الذين شكروا نعم الله سبحانه التي لا يحصيها إلاّ هو، الموجبة لاختصاصه بالعبادة، ولا نعمة إلاّ منه تعالى. ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما أعطوه حقَّ شأنه، وهو القدر الذي يستحقُّه، قاله المبرِّد بالمعنى، كما تقول: مقدار فلان، ورتبة فلان، ونصيب فلان، إلاّ أنّ الله سبحانه لا يوصف بالمقدار والرتبة والنصيب.

وليس قول المبرِّد خارجا عن قولك: ما عظَّموا الله حقَّ عظمته، وقولك: ما وصفوا الله حقَّ وصفه، وذلك أنّهم طلبوا شركة آلهتهم بالعبادة بالمسح، وقالوا: هو عاجز عن البعث، وقالوا: خلق الخلق لا لحكمة ولا ليعبدوه وحده، وهم قريش، لأنّ الكلام فيهم، وقيل: المراد اليهود إذ وصفوا الله بالجسم والأعضاء والحلول.

(نحو) ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ حال من المبتدإ على جوازه،

وعلى المنع يقدَّر له ناصب من جملة معترضة، أي: أثبتها جميعا، فـ«جَميعًا» حال من ضمير النصب في «أثبتها»، أو حال من ضمير في نعت مقدَّر، أي: والأرض المعتبرة جميعا، أو المقصودة جميعا، أو حال من المستتر في «قَبْضَتُهُ»، لأنَّه مصدر مراد به اسم المفعول، أي: مقبوضته، ولا مانع من تقديم معموله، لأنَّه ليس على معنى انحلاله إلى الفعل و«أن» المَصدَرِيَّة، ولأنَّه بمعنى مفعول.

ويجوز أن يراد بالأرض الأرضون، والإعراب واحد، وجاء الأرضون في الحديث[1] تفسيرا لقبض الأرض فتعيَّن التفسير بهنَّ.

و﴿قَبْضَتُهُ﴾ أي: ذات قبضة له، أو مقدار الأرض قبضته، أو بمعنى مقبوضة، أي: مطويَّة كما جاء في الحديث، ويجعل الله بدلها إذا طويت أرضا بيضاء خبزة في حقِّ المؤمن يأكل منها لا في حقِّ الكافر، كذا قيل، وذلك قبض طيٍّ وإتلاف، تحقيقا لقوله تعالى:

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وفيه مع ذلك التصريح بقدرته، وليس المراد بيان القدرة فقط، وإلاَّ لم يذكر يوم القيامة، لأنَّه قادر قبل وبعد، ويجوز أن يراد الملك، وذكر اليوم لأنَّه وقت الهول، بمعنى لا تصرُّف لأحد فيه، كما قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ﴾ (سورة الحج: ٥٦) .

﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ تطوى وتفنى على حدِّ ما مرَّ في الأرض، ﴿بِيَمِينِهِ﴾ بقدرته، وقيل: بقسمه لأنَّه ﷻ أقسم أن يفنيها، وهو قول ضعيف، والصواب أنَّ الطيَّ على ظاهره لا بيان لقدرته وملكه فقط دون طيٍّ حقيق، ففي الطيِّ الحقيق جري على الظاهر وإظهار للقدرة.

١– يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر عبد الله بن عبَّاس، رقم٦٢٩٧.

(أصول الدين) وذكر القبضة واليمين مراد بهما القدرة خطابا لنا بما نفهم، لأنَّ أفعالنا بالأيدي، ولَمَّا كانت السماوات أفضل من حيث اعتبار الوسع والعلوِّ ذكرها باليمين، لأنَّها أقوى في العمل، ولأنَّها المستعملة فيما يكرم، وكأنَّه قال: الأرض قبضته بالشمال، سبحانه عن صفات الخلق.

وطيُّ السماوات قبل قبض الأرض، ففي مسلم عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ : «**يطوي الله تعالى السماوات يوم القيامة ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجَبَّارون ؟ أين المتكبِّرون ؟ ثمَّ يطوي الأرضين بشماله، ثمَّ يقول: أين الجَبَّارون ؟ أين المتكبِّرون ؟**»[1] والمراد القدرة.

وفي مسلم عن ابن عمر حكاية عن رسول الله ﷺ بتحريك يديه لأخذ الله السماوات والأرض بيديه، وأصابعه يقبض الله أصابعه ويبسطها، **وهو موضوع** وإن صحَّ فتمثيل للقدرة، ومثل ذلك في البخاري والنسائي وابن ماجه.

(سبب النزول) وذكرت اليهود ذلك على ظاهره من التجسيم فنزلت الآية فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. أو نزلت في غيرهم كما مرَّ، لا بهذا المعنى، ولَمَّا قال اليهود ذلك قال لهم رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قالوا: يحمل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع.

وفي الترمذي والبيهقي: مرَّ يهوديٌّ على رسول الله ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه -وأشار بالسبَّابة- والأرضين على

١-رواه **مسلم** في كتاب صفة القيامة والنار (...) رقم ٢٧٨٨. ورواه **أبو داود** في كتاب السنَّة، باب في الردِّ على الجهميَّة، رقم٤٧٣٢. من حديث ابن عمر.

ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه، يشير بأصابعه يعني الترتيب من السبابة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

﴿سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عَمَّا يشركونه من الآلهة، والأوَّل أولى، لأنَّه أعمُّ، يدخل فيه الإشراك بغير الآلهة، كالوصف له تعالى بالأصابع واليدين والجنب تحقيقا لا مجازا.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

نفختا الصور والفصل في الخصومات وإيفاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه

﴿وَنُفِخَ﴾ الماضي للتحقُّق، وكذا ما يأتي، أي: نفخة واحدة، كما في آية أخرى، ولقوله بعد: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ ﴿فِي الصُّورِ﴾ رأيت في كتاب للقرطبي[1]: النافخ إسرافيل ومعه غيره ينفخ، وعبارة بعض حكاية الإجماع عنه أنَّ النافخ إسرافيل وحده. وأخرج أحمد والحاكم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : النافخان في السماء الثانية، رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب، ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور، فينفخا.

وفي ابن ماجه عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ : إنَّ النافخ اثنان. وزعم بعض أنَّ النافخ غير إسرافيل، ينظر إلى إسرافيل منذ خلقه الله حتَّى يأمره بالنفخ،

١– اسم الكتاب: التذكرة بأحوال الآخرة.

قلت: ليس كذلك بل المراد أنّ ملكا ينظر متى يأمره إسرافيل فينفخ بعد أن ينفخ إسرافيل.

وقيل: الصور قرن عظيم كدورة السماوات والأرض، فيه ثقب دقيقة بعدد الأرواح في صفاء الزجاجة من لؤلؤة بيضاء، وقيل: **جمع صورة.**

﴿فَصَعِقَ﴾ مات بسبب صيحة النفخ الشديدة، أو غشي لذلك، ثمّ يكون الموت، يستعمل الصعق بمعنى الغشيان وبمعنى الموت. وأوّل من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس بعده.

﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ جهة العلوّ، ليشمل حملة العرش ومن لا يصدق عليه أنّه في السماء **﴿وَمَن فِي الاَرْضِ﴾** أعاد «مَن» لاختلاف من في السماوات ومن في الأرض، لأنّ أهل السماوات الملائكة، والله أعلم.

﴿إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ﴾ جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل، أو حملة العرش، قولان، ثمّ يموت هؤلاء كلُّهم بعد، أو رضوان والحور ومالك خازن النار والزبانية، ولا يصحُّ أنّهم لا يموتون، وأخطأ من قال ذلك، بل يموتون بعدُ، أو من مات قبلُ فإنّه لا يموت مرّة ثانية.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ في الصور بمعنى القرن المذكور، ودون هذا في الصور جمع صورة الأجسام، وذكّر لجواز تذكير الجمع الذي مفرده بالتاء وأفراده، والأوّل أولى **﴿أُخْرَىٰ﴾** نفخة أخرى بالرفع على النيابة عن الفاعل، أو النصب على المَصدَرِيَّة، والنائب «فيه»، [قيل:] وبين النفختين أربعون عاما كما جاء في حديث: «**ينزل الله عليهم ماء كالطلّ** -ويروى: كمنيّ الرجل- **فتنبت أجسادهم**»، أي: بلا روح، ثمّ يحضر الروح بالنفخ. ويروى أنّ النفخ في الأرض النفخة الأولى من باب إيلياء الشرقي، أو قال الغربي، والثانية من باب آخر، أي: أحد البابين من البلد.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون بم يؤمرون؟ أو ما يفعل بهم، وقيل: يقلّبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت المفاجإ بأمر عظيم، ويردُّه أنّهم يقولون عند بعثهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (سورة يس: ٥٢) ، إلاّ أن يقال: قولهم «مَن بَعَثَنَا» بعد بهتهم.

وفسَّر بعضهم القيام بالوقوف عن المشي، ويعترض بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الاَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (سورة يس: ٥١) ، أي: يسرعون في المشي، وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الاَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُوفِضُونَ﴾ (سورة المعارج: ٤٣) .

وأوَّل من يخرج من القبر سيِّدنا محمَّد ﷺ ، فيرى موسى آخذا بقائمة من قوائم العرش، قال ﷺ : «**فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممَّن استثنى الله**»[1] يعني لم تمت روحه، وأخطأ من قال: موت الأنبياء والشهداء غشية فإذا نفخ في الصور أفاقوا وحيي غيرهم.

ولا يشكُّ ﷺ في أنّه أفضل من موسى، وقد قال ﷺ : «**أنا أفضل ولد آدم**»[2] وإن شكَّ بأخذ موسى بقائمة العرش فقبل أن يعلم أنّه أفضل من موسى وسائرِ الأنبياء، كما كان ينهى أن يفضَّل على الأنبياء، وَلَمَّا علم بأنّه أفضل ترك النهي.

والنفخات أربع: نفخة الفزع، ثمّ نفخة الموت، ثُمَّ نفخة البعث، ثُمَّ نفخة فزع، وهي صوت انشقاق السماوات بعد البعث.

١– رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الزمر، رقم٣٢٤٥. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر البعث، رقم ٤٢٧٤. من حديث أبي هريرة.

٢– تقدَّم تخريجه، انظر: ج١، ص٩٢. بلفظ: «أنا سيِّد ولد آدم».

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾ أرض المحشر، وهي قيل: كخبزة بيضاء بدل من هذه الأرض وأوسع منها، لا من فضَّة كما قيل ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ نور يخلقه الله تعالى فيها، لا من شيء كقمر وشمس.

وقيل: النور العدل في حكمه يومئذ بالحساب، على الاستعارة، يقولون لمن يعدل: أشرقت الآفاق أو البلد بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، قال ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[1] فيكون العدل فيه نورا فيه، [قلت:] ووضع الكتاب والمجيء بالنبيئين والشهداء والقضاء بالحقّ تناسب العدل لا النور الحسيَّ، إلاّ أنّ الحقيقة أولى، وهي النور الحسيُّ، أخبرنا الله تعالى به لذهاب النيِّرات كالشمس والقمر.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أحضر الحساب وشرع، يقال: وضعت المائدة بمعنى أحضرت، وسمَّى الحساب كتابا لأنَّه من شانه أن يكتب، ولأنّ الكتاب ظرفه، وذلك مجاز إرساليٌّ لعلاقة اللزوم والتسبُّب، والوضع ترشيح، وأولى من ذلك أن يحمل الكلام على الاستعارة التمثيليَّة.

وقيل: «الْكِتَابُ» صحائف الأعمال، و«ال» للجنس فكأنَّه جمع، ووضعُها إحضارها بأيدي أصحابها، وذلك هو المتبادر، ودونه أن تجعل للاستغراق، ووجهه دفع أن يتوهَّم أحد أنّ صحيفة من الصحف تضيع، وقيل: اللوح المحفوظ يجاء به ليقابل بالصحائف، فـ«ال» للعهد.

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيئِينَ﴾ ليحضروا الحساب، ويشهدوا على أممهم ولهم ﴿وَالشُّهَدَآءِ﴾ شهداء كلّ أمَّة مع نبيئها، وفي ذلك فضل الشهداء إذ قرنوا

١- رواه **البخاري** في كتاب المظالم والغضب، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم٢٣١٥. ورواه **مسلم** في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨. من حديث جابر بن عبد الله.

بالأنبياء، وذلك ليشهدوا على أممهم ولهم، وقيل: شهداء هذه الأمَّة يشهدون على الأمم كلّها ولهم.

والمفرد شهيد، وهو من قتل في سبيل الله ومن التحق به، وقال الجمهور: جمع شاهد، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَابَ الشُّهَدَآءُ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٢) ، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَاتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ (سورة النور: ٤) ، وقوله تعالى: ﴿لَوْلاَ جَآءُواْ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِالشُّهَدَآءِ﴾ (سورة النور: ١٣) ، وهم مؤمنو هذه الأمَّة كما قال الله ﷻ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وقيل: عدول كلّ أمَّةٍ يشهدون عليها.

وقيل: كلٌّ من يشهد يوم القيامة من الملائكة والأنبياء، ومؤمنو هذه الأمَّة، والجوارح، كما قال الله ﷻ : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَتُهُمْ...﴾ (سورة النور: ٢٤) ، والمكان يشهد بالمعصية على العاصي فيه.

(قصص) ويقال: يجاء باللوح المحفوظ يرتعد على أنّه حيوان، أو جبهة ملك، أو جماد، يخلق الله تعالى فيه العقل، فيقال: هل بلّغت إسرافيل؟ فيقول: نعم يَا رَبِّ بلّغت، ويقال لإسرافيل مرتعدا: هل بلّغك اللوح؟ فيقول: نعم يَا رَبِّ، فيسكن اللوح، ويقال لإسرافيل: هل بلّغت جبريل؟ فيقول نعم، فيقال لجبريل هل بلّغك إسرافيل؟ فيقول نعم، فيسكن إسرافيل، ويقال لجبريل مرتعدا: هل بلّغت؟ فيقول: نعم يَا رَبِّ، فيقال للمرسلين: هل بلّغكم جبريل؟ فيقولون نعم، فيسكن جبريل، ويقال للمرسلين مرتعدين: هل بلّغتم؟ فيقولون: نعم، ويقال للأمم: هل بلّغكم الرسل؟ فتقول كفرهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيشتدُّ الأمر فيقال لهم: من يشهد لكم؟ فيقولون: محمَّد ﷺ وأمَّته فيشهدون لهم فيسكنون، وتقول الأمم: من أين علمتم وأنتم آخر الأمم؟ فيقولون: من كتاب أنزله

الله علينا ذكر سبحانه فيه أنّ الرسل بلّغوا أممهم، ويزكّيهم النبيء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَالِكَ جَعَلْنَاكُمْ، أُمَّةً وَسَطًا...﴾.

﴿وَقُضِيَ﴾ قضى الله ﴿بَيْنَهُم﴾ بين العباد المفهومين من الكتاب بمعنى الحساب، أو الصحائف أو اللوح المحفوظ، إذ فيه الأعمال، ومن قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب على ذنب لم يفعلوه، أو نسبة ذنب إليهم لم يفعلوه، أو بعقاب لم يستحقّوه، لعدم الذنوب لأنّها موجودة، أو بأنّ الذنب لا يستحقّ العقاب فإنّه يستحقّه أو بنقص ثواب.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أعطيت الجزاء من خير أو شرّ كاملا، فسمّى الجزاء باسم سببه أو ملزومه، أو يقدّر مضاف، أي: جزاء ما عملت. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لا يخفى عنه شيء من طاعة أو معصية.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أحوال أهل العقاب وأهل الثواب

﴿وَسِيقَ﴾ بعنف وإهانة وقهر كسوق الدَّابة بإسراع، ولو لم يساقوا لم يمشوا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أشركوا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جماعات مرتَّبات على قدر ضلالهم.

(لغة) والمفرد: زمرة، وهي الجماعة القليلة، ومن ذلك شاة زَمِرَةٌ: قليلة الشعر، ورجل زمر: قليل المروءة، وامراة زمارة: فاجرة قليلة الخير، أو شاذّة عن سائر النساء. أو سمِّيت الجماعة زمرة لأنَّها لا تخلو عن زمر، وهو الصوت.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء ولا تخلو عن غاية، وهي غاية للسوق، ويوافوها بالسوق مغلقة، وتفتح بحضرتهم مجتمعين حولها كما قال: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِّحَتَ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها، وذلك أشدُّ عليهم إذ شاهدوا حدوث شيء مضرٌّ في شأنهم، فإذا دخلوها أغلقت، وإذا جاءت زمرة فتحت ودخلوا وهكذا...

﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ عند الباب قبل الدخول توبيخا ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ من الملائكة ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ﴾ من الله تعالى ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم تفهمون كلامهم، ويمكنكم استفامهم ومراجعتهم، ولو بترجمان، ولو عمَّن يأخذ عنهم بوسائط، وكلُّ نبيء أو رسول يكون بلغة قومه، ولو أرسل إلى غيرهم أيضا من أهل لغته وغيرها.

﴿يَتْلُونَ﴾ بأنفسهم أو بواسطة ﴿عَلَيْكُمْ، ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾ كالقرآن والإنجيل والزبور والتوراة والصحف ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وقتكم هذا، وهو وقت دخول النار، أو يوم القيامة لاشتماله على وقت الدخول، وعلى عذابهم وأهوالهم وهو يومهم ويوم المؤمنين أيضا، ولا حصر بالإضافة. وعدِّي «يُنذِرُ» إلى مفعولين لتضمُّنه معنى الإعلام المتعدِّي لاثنين، وهو التعريف، وقدَّر

بعضهم الباء، أي: بلقاء يومكم. و«هَذَا» بدل أو بيان، ويجوز أن يكون نعتا لأنّه بمعنى الحاضر، والحجَّة الرسل والعقل والكتب.

(أصول الدين) والظاهر أنّه من لم يبلغه خبر التوحيد مكلّف بالتوحيد، لأنّ الله أوجد دلائل العقل، وقد قال قوم: إنّ الحجَّة العقل، وأمَّا الكتب والرسل فتفصيل وبيان لما يجب استعمال العقل فيه، ولا تقول بالتقبيح والتحسين العقليين، ولا نقول: العقل يدرك التفاصيل الشَّرعيَّة ولو لم ينزل الوحي، ومن قال بذلك أخطأ.

(أصول الدين) وكذلك اختلف في أهل الفترة، والحقُّ أنّهم في النار، ولعلّ الملائكة لا تقول لهم ولا لمن لم يصله أمر التوحيد: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ﴾ فلو قالوا لهم لقالوا: نعم لا بلى، وقيل: لا يخلو أهل الفترة من مخبر، ولو كان لا يوجد عنده تفاصيل الشرع **فهم مكلّفون بالتوحيد وما وصلوا إليه فقط،** ولعلّهم يقولون لمن لم يصله الأمر: ألم ينصب لك دلائل التوحيد في بدنك وسائر الخلق ؟ فلزمه أن يقول: بلى.

﴿**قَالُوا بَلَى**﴾ ليس لم يأتنا رسل منّا وينذرونا لقاء يومنا هذا بل أتونَا وأنذرونَا لقاء يومنا هذا ﴿**وَلَكِنْ حَقَّتْ**﴾ وجبت ﴿**كَلِمَةُ الْعَذَابِ**﴾ قضاء الله تعالى به، أو قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ (سورة ص: ٨٥) ، ﴿**عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ عمومًا، فدخلوا في العموم، أو حقّت كلمة العذاب علينا ووضع الظاهر موضع المضمر تلويحًا بموجب العذب وهو الكفرُ، وذلك اعترافٌ بالشقاوة لا اعتذار.

﴿**قِيلَ**﴾ قال الخزنة لهم لدلالة قوله: ﴿وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا﴾، ويحتمل أنّ القائل غيرُهم مثل الملائكة الحفظة، أو لا قول تحقيقًا وَلَكِنَّ المقصود إنجاز الوعيد، فالقائل الله، و لم يذكر القائل على غير الوجه الأوّل لأنّ المراد بالذات المقول لا القائل، وليس كما قيل: إنه أبهم القائل لتهويل المقول. واستأنف الكلام

بهذا اللفظ لأنه في أهل النار كُلّهم عمومًا قبل القرب من الأبواب، وما قبل في أهل كلّ باب خصوصًا والله أعلم، وهو المرجوُّ.

﴿ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة، أي: طبقاتها، لا أبواب الدخول، لأنّ الخلود ليس في أبواب الدخول **﴿خَالِدِينَ﴾** حال مقدَّرة، لأنّ الخلود بعد الدخول لا وقت الدخول، وهي راجعة إلى الحال المقارنة، لأنّهم حال الدخول معتقدون الخلود ناوون له، ومعتقدون لعلمهم بصدق الرسل، ولهذا القول المقول لهم كأنّه قيل: ادخلوا أبواب جهنّم ناوين الخلود **﴿فِيهَا﴾** أي: في الأبواب بمعنى الطبقات، ويجوز أن يراد بالأبواب أبواب الدخول، و«ها» من «فِيهَا» عائدة إلى «جَهَنَّمَ» لا إلى الأبواب.

﴿فَبِيسَ﴾ بسبب استحقاقهم النار **﴿مَثْوَى﴾** مقام، وهو مناسب للخلود **﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾** بئس مثواهم جهنّم، وحذف المخصوص ووضع «الْمُتَكَبِّرِينَ» موضع الضمير لعلّية التكبُّر عن الحقّ لدخول النار.

﴿وَسِيقَ الذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ جماعات على مراتبهم، قال رسول الله ﷺ : «**أوّل زمرة من أمّتي تدخل الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، ثمّ الذين يلونهم على أشدّ نجم في السماء إضاءةً، ثمّ هم بعد ذلك منازل**»[1]. ومعنى «سِيقَ»: زُفَّ كزفّ العروس، كما جاء الحديث **بأنّ أهل الجنّة يزفّون إليها كما يزفّ العروس**. ولكن عبّر بـ«سِيقَ» لمشاكلة «سِيقَ» السابق، ولا تتوهّم الإهانة هنا، لأنّ كون السوق إلى الجنّة يدفع توهّم الإهانة، **والإسراع إلى الجنة إكرام.**

١- رواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم٧٤٣٧، من حديث أبي هريرة، بدون لفظ: «ثم هم بعد ذلك منازل».

وقيل: تساق دوابُّهم، ولا مانع من أنَّهم يدخلون الجنَّة كلُّهم ركبانًا أو غالبهم، كما ورد: «**إنَّ آخر من يدخل الجنَّة رجل يمشي مَرَّة ويكبو أخرى**»[١]، ولا يخفى أنَّ المقام لذكر أهل الجنَّة عمومًا لا خصوص من يدَّعى أنَّه يختصُّ بالركوب لمزيد إخلاصه، كما أنَّ العموم قبلُ فيمن يدخل النار.

(أصول الدين) وأخطأ من قال: إنَّ الله يُرَى في المحشر وفي الجنَّة، ومن قال: يتصوَّر بصورة قبيحة فيه، فيقولون: لست ربَّنا، ثمَّ بصورة حسنة فيقولون: أنت ربُّنا. وأخطأ من قال: يتجلَّى الله لأهل الجنَّة أو لأهل الموقف، أو لأحدٍ إلاَّ تجلِّيًا بشيء يخلقه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِّحَتَ اَبْوَابُهَا﴾ فتحًا عظيمًا بالتوسعة وأنواع الكرامات فيها، والواو عاطفة فتفتح بمحضرهم، وقيل: تفتح قبلَ حضورهم إكرامًا، والملائكة ينتظرون عندها بعد فتحها مجيئهم، والأنسب على هذا كون الواو على تقدير قد أو المبتدأ، أي: وقد فتحت، أو هي فتِّحت. وجاء عنه ﷺ : «**أنا أوَّل من يقرع باب الجنَّة**»[٢]، فهو يجد بابها مغلقًا فيفتح له، ويبقى مفتوحًا فيدخل، أو يقف ثمَّ تحضر الجماعة الأولى فيدخل، فيغلق، ثمَّ يجيء من يقرعه أيضًا، لأنَّه قال: « **أوَّل من يقرع**» وكلَّما قرع فتح، وأبقيَ مفتوحًا ثمَّ يغلق.

وشهر أنَّ هذه الواو واو الثمانية تذكر مع الثمانية الجملة كما هنا، ومع العدد الثامن، كقوله تعالى: **﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** (سورة الكهف: ٢٢) ، وقوله

١-رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم١٨٧. **وأحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم٣٨٨٩. من حديث ابن مسعود.

٢-رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب قول النبيء ﷺ : أنا أوَّل الناس... رقم١٩٦. من حديث أنس بن مالك.

تعالى: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (سورة التوبة: ١١٢) ، وقوله تعالى: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ (سورة التحريم: ٥) ، ولا بأس بذكر أنّ الواو تكون واو الثمانية مع اعتقاد أنّها عاطفة، ولا منافاة في ذلك، وكذا تذكر ثامنة وهي حالية نحو: جاءوا سبعة مشاة وثامنهم راكب.

وجواب «إِذَا» محذوف يقدَّر بعد «خَالِدِينَ» هكذا: لقوا أو رأوا ما لا تكفيه العبارة، أو ما لا يكيف قبل مشاهدته، وقدَّره بعض: سعدوا، أو يقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿وَفُتِّحَتْ﴾، وهذه واو الحال دخلت على الماضي المجرَّد عن نفي وقد، أو على قد، أو مبتدأ محذوف، أي: حتَّى إذا جاءوها وافوها وقد فتِّحت، أو حتَّى إذا جاءوها وقد فتِّحت، أو وهي فتِّحت.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ إخبار بأنَّهم سالمون ممَّا يكره، أو دعاء، ولو كان أهل الجنَّة سالمين، كما أنَّهم يسلِّمون عليهم في الجنَّة، ويسلِّم أهل الجنَّة بعض على بعض ﴿طِبْتُمْ﴾ نفسا، استئناف أو حال، والطيب بالأعمال الصالحة في الدنيا وبالتوبة، وهذا أولى من قول مجاهد: طبتم نعيما دائما.

﴿فَادْخُلُوهَا﴾ بسبب طيبكم ﴿خَالِدِينَ﴾ فيها، وحذف [فيها] للعلم به، مع ذكر ما يوهم ولو إيهاما زائلا، بخلاف قوله: ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ...﴾ فإنَّه ذكر فيها ليفيد أنَّ الخلود في جهنَّم لا في الأبواب على ما مرَّ، والحال مقدَّرة كما مرَّ.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على جواب «إِذَا» أو على «قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا»، قيل: أو على محذوف، أي: فدخلوها وقالوا، والحكمة في تقديره ذكر الحمد على الدخول، والمناسبة لقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾، وهذا المقدَّر عطف على ﴿قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

﴿الْحَمْدُ للهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث وإدخال الجنَّة ﴿وَأَوْرَثَنَا الاَرْضَ﴾ أرض الجنَّة، جعلنا مالكين لها كما يملك الوارث ما يرث، ولا فرق بين الجنَّة والدنيا، فإنَّ كلّ ما فيهما ملك لله حقيقة يملكه لمن يشاء، بمعنى يجعله متصرِّفا فيه، أو جعلنا الله وارثين لها من الأشقياء، فإنَّ لكلِّ شقيٍّ في الجنَّة ملكا وأهلا يرثهما السعيد، ولكلِّ سعيد مكانا في النار يرثه الشقيُّ، وقيل: لا ملك لأحد في الجنَّة كملك الدنيا إنَّما هو في الجنَّة إباحة التصرُّف الدائم فقط، ألا ترى أنَّه لا يبيع أحد من أهل الجنَّة شيئا من ملكه لغيره، ولا يهبه ولا يبدِّله ؟ .

قلت: بل هو تمليك أعظم من تمليك الدنيا، وعدم نحو البيع لغبطة كلِّ أحد بملكه، وعدم اشتهاء هذا ملك هذا، وعدم أن يرى أنَّه دون غيره.

﴿نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّةِ﴾ ننزل في الجنَّة، أو نتبوَّأ أمكنة ثابتة من الجنَّة، أي: بعض الجنَّة ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ بدل من «أمكنة» المقدَّر، ولا بأس باتِّخاذ موضع في موضع أوسع، تقول: اتَّخذت موضعا في بلد كذا، يبقى من الجنَّة مواضع واسعة، من شاء اتَّخذَ منها ما شاء، والآية في هذا.

﴿فَنِعْمَ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بأمر الله، والمخصوص محذوف، أي: صدق وعد الله، وإيراثه إيَّانا الأرض والتبوُّؤ، بخلاف أهل النار فلا عمل لهم بأمر الله تعالى، فلم يستحقُّوا ذلك بل النار، وذلك من كلام أهل الجنَّة، وقيل: من كلام الله ﷻ، وعليه فالعطف على محذوف، أي: هنئ لكم ذلكم فنعم أجر العاملين.

﴿وَتَرَى﴾ بعينيك يا محمَّد، أو أيُّها الرائي بعينيه ﴿الْمَلآئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ حال، محدقين محيطين بجهات أهل الجنَّة، [تقول:] حفَّ الإكرام بزيد: أحاط به من جوانبه. واستعمال «حَافِّينَ» مؤذن بمفرده، وهو حافٌّ، وإن لم يَرِدْ استعمل قياسا. ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ «مِنْ» للابتداء فـ«حَوْلِ الْعَرْشِ» مبتدأ الحفوف

على أهل الجنَّة، يتصَوَّرُ إليهم الحفوف من حول العرش، تقول: رأيته وأنا في داري من ذلك الجبل، وقال الأخفش: «مِنْ» زائدة في الإثبات مع المعرفة، لجواز ذلك عنده. **﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** ملابسين لحمد ربِّهم، والجملة حال ثانية، أو حال من المستتر في «حَافِّينَ».

روي عن أبي هريرة: «بينما نحن وقوف في المحشر سمعنا صوتا شديدا، فترل أهل سماء الدنيا ضعف أهل المحشر الجنِّ والإنس، ولهم نور يشرق به الموقف، ثمّ أهل كلِّ سماء يترلون ضعف الملائكة الذين تحتهم والجنِّ والإنس، وكلٌّ له نور وكلٌّ يأخذون مصافهم».

وعن أبي سعيد عنه ﷺ : «**إنّ في السماء الدنيا آدم تعرض عليه أعمال ذرِّيته، وفي الثانية يوسف، وفي الثالثة يحيى وعيسى، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم**» ولعلّهم مع أهل سماواتهم، والمشهور أنّ في السماء عيسى وإدريس، وإنّ إلياس والخضر في الأرض، إلياس موكَّل بالفيافي، والخضر بالبحار.

وجاء الحديث: «**إنّ الأعمال تعرض يوم الجمعة على الأنبياء والآباء والأمّهات، فيتأذّون بأعمال السوء، ويفرحون وتشرق وجوههم بأعمال الخير، فاتّقوا الله ولا تؤذوا موتاكم، وتعرض على الله تعالى في يوم الاثنين ويوم الخميس وهو عالم بها**»[1].

وهؤلاء الملائكة كلُّهم يقول: «سبحان ذي العزِّ والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا

١-أورده المنذري عن أحمد، وقال: رواته ثقات. بالاقتصار على الجزء الأوّل منه بلفظ: «إنّ أعمال بني آدم تعرض كُلّ خميس ليلة جمعة...». المنذري: الترغيب والترهيب، ج٣، ص٣٤٣.

يموت، سبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح، سبحان ربِّنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت». ثم يوحي الله جَلَّ جَلَالُهُ : «قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فانصتوا إلي، فإنَّما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه».

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بين العباد بإدخال أهل الجنَّة الجنَّة، وإدخال أهل النار النار. كما أنَّ ضمير «يُسَبِّحُونَ» لهم، وقيل: للملائكة، بأن يقيم كلُّ واحد في مرتبته بحسب عمله، فإنَّهم متفاوتون فيه، ولو اجتمعوا في العصمة، والأوَّل أولى.

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هذا القضاء، أي: وقال المؤمنون أو الملائكة، والأوَّل أولى، فالحمد الأوَّل على إنجاز الوعد، وهذا على القضاء، فلا تكرير، ودون هذا أنَّ الأوَّل على الفصل بين الفريقين بحسب الوعد والوعيد، والثاني للتفصيل بحسب الأبدان، فريق في الجنَّة وفريق في السعير.

وقيل: القائل ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المؤمنون لظهور حقِّهم، والكافرون لعدله واستراحتهم من انتظار الفصل، كما يفعله الخصمان الغالب والمغلوب بعد الخصام عند القاضي أحيانا، وقد قيل: يشتدُّ الموقف حتَّى إنَّ الإنسان يقول: يا ربِّ أرحني من موقفي هذا ولو إلى النار، وقيل: يحمده الكلُّ إظهارا للرضى والتسليم، وقيل: المراد ختم الأمر، ومن هذا جعلت الكلمة خاتمة المجالس، والله أعلم، وهو الموفِّق.

وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة غافر آياتها ٨٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنۢبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَٰدِ ④ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ النَّارِ ⑥﴾

القرآن تنزيل من الله وحال المجادلين في آياته

(مبحث صرفي) ﴿حم﴾ يقال للسور ذوات حاميم وحواميم لأنّ حاميم اسم للسورة في عبارتنا مركّب من اسمي حرفين الحا بالقصر والميم، ولا يضرُّنا أنّ وزن فاعيل كقابيل لا يوجد في العَرَبِيَّة، لأنّه لا يمتنع إذا كان بالتركيب، فجمع على القياس على فواعيل، بإبدال ألف حا واوا فهو جمع عربيٌّ، وأنشد أبو عبيدة اللغوي:

حلفت بالسبع التي تطوَّلت ... وبمئين بعدها قد أمنيت
وبثمان ثــنِّيت وكرِّرت ... وبالطواسين اللواتي تليت
وبالحواميم اللواتي سبِّعــت ... وبالمفصل التي قد فصلت

والظاهر أنّ الشعر مصنوع، أو صاحبه مولد، لا يكون حجَّة، إلاّ أنّه وافق الحقَّ، ومما يدلُّ على ضعفه في العَرَبِيَّة جعله تاء التأنيث رويًّا.

(لغة) قال الجوالقي[١] والحريري، وابن الجوزي، وأبو منصور[٢] والجوهري عن الفرَّاء: إنَّ الحواميم ليس من كلام العرب، وإنَّه خطأ، ويجوز حاميمات عندهم قال شاعر:

هذا رسول الله في الخيرات   جاء بياسين وحاميمات

وهو حقٌّ، ولو احتمل أنَّه مصنوع أو موضوع، ومن العجائب أنَّهم أجازوه ولم يجيزوا حواميم، فإنَّه إذا كان اسما واحدا بالتركيب لا جملة، وهو هنا مركَّب غير جملة يجوز جمعه تكسيرا كما يجوز جمعه سلامة، ولو كان جملة في الأصل أو لا يتأتَّى جمعه كمعدي كرب لم يجمع تكسيرا ولا سلامة، بل بذوات وبآل، فإنَّك إذا أردت جمع تأبَّط شرًّا قلت: ذَوُو تأبط شرًّا، وآل تأبَّط شرًّا، وذَوَا تأبَّط شرًّا، وذواتا تأبَّط شرًّا، أي أهل هذا اللفظ. قال الكميت بن زيد[٣]:

وجدنا لكم في آل حاميم آية   تأوَّلها منَّا تقيٌّ ومعرب

ويقال أيضا: طواسيم بالميم بدلا من نون سين، أخذ الاسم من قوله: ﴿طَسِ﴾ ويجوز ذوات حاميم، وذوات طاسين.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ مرَّ كلام فيه، وذكره بالعزَّة والعلم من صفات الله ﷻ لغلبة القرآن على غيره، ولأنواع علومه، ومن شأن عظيم العلم أن يكون حكيما إلاَّ أنَّه ذكر الحكم بلفظ العلم تفنُّنا.

١- الجوالقي موهوب بن أحمد أبو منصور البغدادي اللغوي النحوي، ولد ببغداد ٤٦٦هـ وتُوُفِّيَ ٥٠٤ هـ من كتبه: «المعرَّب» و«شرح أدب الكاتب». الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٣٥.

٢- عبد القاهر أبو منصور، ولد ونشأ في بغداد ورحل إلى خرسان، وتُوُفِّيَ في الإسرافين سنة ٤٢٧هـ. كان يدرس ١٧ فنا، وكان ثريا، من تصانيفه: تفسير في القرآن، وتأويل المتشابهات في الأخبار والآيات. الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٤٨.

٣- تقدَّم التعريف به في هذا الجزء في معرض تفسير الآية رقم ٨٣ من سورة الصافَّات.

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ نعت لفظ الجلالة بستَّة. و«شَدِيد» ولو كان صفة مشبَّهة إضافته غير محضة فكأنَّه نكرة لا ينعت به المعرَّف، لكن قد يكتفى بظاهر اللفظ فلا يضرُّنا أنَّ الأصل: «شديد عقابه» بتنوين شديد ورفع عقابه على أنَّه فاعل له.

(نحو) والكوفيون أجازوا نعت المعرَّف بالصفة المشبهة المضافة للمعرفة، ويبعد ما قيل: إنَّه بمعنى مُفْعِل بإسكان الفاء ومثّلوه بأَذِينٍ ومُؤْذِن بإسكان ما بعد الميم، فـ«الْعِقَاب» مفعول به مضاف إليه، كفعيل بمعنى مفاعل بضمِّ الميم، نحو: جليس بمعنى مجالس بضمِّها، والمعنى على هذا: مصيِّر العقاب شديدا، وفيه أنَّ هذا مع قلَّته وكونه خلاف الأصل يقال: إنَّه أضيف للمفعول، فتكون إضافته لَفْظِيَّة، مع أنَّه على هذا التقرير لا يقبل أن يكون غير مراد به التجديد، كما نقول في «غَافِرِ» و«قَابِلِ»، فصحَّ نعت المعرَّف بهما.

و«التوب» مصدر صالح للقليل والكثير، ولا سيما مع «ال» الجنسية، ولا دليل على أنَّه كشجر وشجرة، بل على أصله كالضرب والضربة.

و«الطَّوْل»: الفضل بالإنعام وترك العقاب، ولا ينافيه «شديد»، لأنَّ الشدَّة ونفس العقاب باعتبار من قضي عليه بالعقاب، وشدَّته غير تركه. وعن ابن عبَّاس: «الطَّوْل»: الغنى، وقيل: النعم، وقيل: القدر. وقرن «قَابِلِ» بالواو لإفادة أنَّ المذنب التائب يجمع له بين رحمتين: مغفرة الذنب وعدِّ التوبة طاعة محَّاءة للذنوب. وقدِّمت المغفرة لأنَّها تخلية، والرحمة تحلية. وذكر صفة العذاب مرَّة واحدة في وسط صفات الرحمة تنبيها على زيادة الرحمة وسبقها.

﴿لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فيخصُّ بالإقبال على عبادته وترك معاصيه، والجملة مستأنفة لا نعت، لأنَّ المعرفة لا تنعت بالجملة ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيره، ولا إليه مع غيره فهو المجازيُّ. و«المصير» مصدر ميميٌّ.

(سيرة) فقد عمر رجلا شجاعا شاميًّا، فقيل له: تتابع في الشراب، فأمر أن يكتب إليه كاتبه: «من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليكم، أمَّا بعد، فإنِّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاَّ هو ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمِ... إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾». وقال للرسول: إذا صحا فادفعه إليه، وأمرهم أن يدعو له بالتوبة، فقرأها مرارا يقول: وعدني ربِّي أن يغفر لي، فتاب، وقال عمر: إذا رأيتم أخاكم زلّ فادعوه للتوبة وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا للشيطان أعوانا عليه.

(أصول الدين) ومعنى الدعاء له بأن يتوب الله عليه الدعاء له بالهداية، وقد قيل: بجوازه لغير المتولّى لهذا، وقوله ﷺ : «**اللَّهُمَّ اهد قومي فإنَّهم لا يعلمون**»[1].

﴿مَا يُجَادِلُ﴾ بالردِّ والإنكار **﴿فِي ءَايَاتِ اللهِ إلاَّ الذِينَ كَفَرُواْ﴾** كالحارث بن قيس السلمي كما قيل: نزلت فيه، وأمَّا جدال المؤمن المشركين وأهل البدع فجدال به لا جدال فيه، وكذا جدال المؤمنين فيما بينهم استنباطا، أو إيضاحا للعلم فجدال به لا فيه.

والجدال عليه بالحديث أو غيره جائز وعبادة، وهب أنَّه جدال فيه لكن لا بإنكاره فهو عبادة، وقد قال ﷺ : «**إنَّ جدالا في القرآن كفر**»[2]. ويروى: «**المراء في القرآن كفر**»[3] فمعناه أنَّ نوعا منه كفر وهو الجدال بإنكاره، ولذا قال: «جدالا» بالتنكير، وقال: ﴿فِي ءَايَات اللهِ﴾ و لم يقل: فيه، بإضافة جنسية لأنَّ الجدال ولو في آية واحدة كفر، كذا قيل.

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٧، ص٤٤٨.

٢- رواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم٧١٩٥. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **أبو داود** في كتاب السنَّة، باب النهي عن الجدال في القرآن، رقم٤٦٠٣، ورواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم٧٥١٢. من حديث أبي هريرة.

وفيه أنّه لو قال: ما يجادل فيه لاحتمل الجدال في كلّه أو بعضه إلاّ أن يقال: «فيه» والمراد في شأنه.

وروي أنّ رسول الله ﷺ سمع قوما يتمارون فقال: «**إنّما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنّما أنزل الله ﷻ الكتاب بعضه يصدّق بعضا، لا تكذّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه**»[١].

ويروى أنّه ﷺ سمع صوت رجلين اختلفا في آية، فخرج يعرف الغضب في وجهه، فقال: «**إنّما أهلك من كان قبلكم اختلافهم في الكتاب**»[٢].

﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾ الشام واليمن، أو مع غيرهما في الشتاء والصيف، كما قال: **﴿لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ﴾** مع إمهالهم وتوسيع رزقهم، عطف على ما قبله عطف طلب على إخبار، أو جواب لمحذوف، أي إذا علمت تصمّمهم على الكفر فلا يغررك، أي لا يوهمنّك أنّ إمهالهم والتوسيع عليهم لرضى الله عنهم، بل استدراج يزدادون به شرًّا على أنفسهم، فإذا تمّ أجلهم أهلكهم كمن قبلهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ بدأ بنوح لأنّه أوّل رسول بعد آدم عليهما السلام، وأنّه طويل العمر في تعذيبهم إيَّاهُ عذابا شديدا، وقبله نبيئان شيت وإدريس، وقيل: هما رسولان أيضا. **﴿وَالاَحْزَابُ﴾** الأقوام المتحزّبون، أي: المجتمعون على الرسل ومن معهم، كعاد وثمود وفرعون **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** حال.

١– رواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم٦٤٥٣. من حديث عبد الله بن عمر.

٢– رواه **مسلم** في كتاب العلم، باب النهي عن اتّباع المتشابه القرآن... رقم٢٦٦٦، من حديث عبد الله بن عمر.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأحزاب **﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَاخُذُوهُ﴾** يقبضوه ليقتلوه أو يحبسوه، أو يضربوه، أو يضرُّونه بما شاءوا من الضرِّ.

﴿وَجَادَلُواْ بِالْبَاطِلِ﴾ خلاف الحقِّ، مثل قولهم: **﴿مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْـلُنَا﴾** (سورة يس: ١٥) ، **﴿ايتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾** (سورة الأعراف: ٧٧) ، وغير ذلك من أنواع الشرك. **﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾** يزيلوا بالباطل، أو بالجدال المعلوم من جادلوا **﴿الْحَقَّ﴾** الأمر الشرعي من الرسالة والشرع.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ استأصلتهم بالإهلاك بسبب التكذيب والهمِّ بالأخذ والجدال بالباطل، أو بسبب الهمِّ بالأخذ والجدال بالباطل، لأنَّهما اللذان نصَّت الآية بأنَّهما فعلوهما، وأمَّا الأخذ والإدحاض فلم تنصَّ أنَّهما فعلوهما.

[قلت:] ولزم من قال: السبب الهمُّ فقط أن يعدَّ الجدال لأنَّهما فعلا جميعا، ولزم من عدَّ الأخذ سببا أن يعدَّ الإدحاض لأنَّهما جميعا سيقا تعليلا بمستقبل قصدوه، لكن لم أر من عدَّه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان لا يعلم كنهه إلاَّ الله كما تعاينون أثره في أسفاركم إلى الشام واليمن، والاستفهام تقرير وتعجيب.

﴿وَكَذَالِكَ﴾ كما حقَّت كلمات ربِّك على هؤلاء الأمم المتحزِّبين وقوم نوح بالعذاب **﴿حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّـكَ﴾** بالإهلاك، وكلمات ربِّك قوله تعالى: **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ﴾** (سورة الروم: ٤٧) ، فإنَّه كلام مشتمل على كلمات، أو **هنَّ كلُّ كلام في القرآن يتضمَّن نصره ﷺ ، وهذا أولى.**

﴿عَلَى الذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قومك أهلكوا يوم بدر لتكذيبهم لك، وهمِّهم بأخذك، وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحقَّ.

﴿أَنــَّهُمْ﴾ لأنّهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ناب التعليل بكونهم من أصحاب النار مناب التعليل بأنّهم مكذّبون، هامُّون بالأخذ، مجادلون بالباطل، لأنّ النار ثمرة ذلك، وصحبتها آخر أوصافهم وشرّها.

أو «أَنَّهُم...» بدل «كَلِمَاتُ» بدل اشتمال، فيفيد أنّ قومه ﷺ مهلكون في الدنيا وفي الآخرة على طريق الإخبار، لا على أنّ الإهلاك على الإخبار، وأنّ عذاب النار بالتعليل.

ويجوز عود الكلام على هؤلاء الأحزاب و«أَنَّهُم...» بدل كذلك، أي: كما حقّت كلمات ربِّك على هؤلاء بهلاك الدنيا حقَّ عليهم أنّهم أصحاب النار، أي: سبق القضاء بذلك، أو ثبت ذلك.

وسلاّه ﷺ بأنّ الملائكة الذين هم بالمحلّ الأعلى على ما هو عليه وفي نصرته، وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ ﴾

محبة الملائكة حملة العرش للمؤمنين والدعاء لهم

﴿الذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾...الخ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾. والواو في «يُسَبِّحُونَ» للذين يحملون ولمن حول العرش، لأنّ من حول العرش عطف على «الذِينَ يَحْمِلُونَ» لا على العرش، فهم مسبِّحون لا محمولون كما

حمل العرش.

[وقد قيل: إنَّه] جسم عظيم من جوهر أخضر بين كلِّ قائمتين خفقان الطائر المسرع ثمانين ألف عام، ويروى ثلاثين ألف عام، قيل: لو مسح مقعره بجميع مياه الدنيا مسحا خفيفا لقصرت عن استيعابه، وحمله حقيق على أكتافهم، وقيل: قيام بأحوال العرش.

أخرج أبو داود عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ : «**أذن لي أن أخبر عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام**»[1]. وهم ثمانية أملاك، أو صفوف، يتجاوبون بصوت رخيم يقول أربعة: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد عفوك، وأربعة منهم: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

وعن ابن عمر: حملة العرش ثمانية بين موق أحدهم إلى مؤخَّر عينيه مسيرة خمسمائة عام، ويقال: ما بين أصلافهم وركبهم ما بين السماء والأرض، وعن ابن عبَّاس: ما بين الكعب وأسفل القدم خمسمائة عام.

وقيل: اليوم كانوا أربعة لكلِّ واحد جناحان ستر بهما وجهه لِئَلاَّ يذوب، أو يصعق بالنظر إلى العرش، وجناحاه يحرِّكهما في الهواء، ويوم القيامة ثمانية مدَّت الأربعة بأربعة لهوله، وهم على صورة الوعل، وقيل: ملك كالإنسان، يشفع لأرزاق الناس، وآخر كنسر لأرزاق الطير، وملك كالثور لأرزاق البهائم، وملك كالسبع لأرزاق السباع، وقعوا على ركبهم لثقل العرش، فلقَّنهم الله: «لا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله» فقاموا.

قيل: هم ثمانية أقدامهم في الأرض السابعة ورؤوسهم فوق السماء

١– رواه **أبو داود** في كتاب السنَّة، باب في الجهميَّة، رقم ٤٧٢٧. من حديث جابر بن عبد الله.

السابعة، لهم قرون كطولهم حملوا العرش عليها، وهم خشوع، وقيل: فوق العرش، ويقال: الأرضون والسماوات إلى أحجازهم لا يرفعون طرفهم. وفي صحيح ابن أبي شيبة: كلامهم بالفارسية، أي: إلاّ التسبيح فبالعربية، **والله أعلم بصحّة ذلك**[1].

وعن وهب: لا كلام لهم إلاّ قولهم: قدُّوس الله القويُّ ملأت عظمته السماوات والأرض، وقيل: تسبيحهم كلّهم: سبحان الحيِّ الذي لا يموت، سبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح، سبحان ذي الملك والملكوت سبحان ذي العزَّة والجبروت.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة لا يعلم عددهم غير الله سبحانه، وقيل: سبعون ألف صفٍّ يطوفون بالعرش مهلّلين مكبِّرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفٍّ وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم سبعون ألف صفٍّ وضعوا الأيمان على الشمال، كلُّ ملك من هؤلاء كلُّهم يسبِّح بما لا يسبِّح به الآخر.

ومن تسبيح ملائكة العرش: سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلّك، أنت الله لا إله غيرك، أنت الأكبر والخلق كلُّهم إليك راجعون». ويروى: «سبحان ذي العزَّة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت، سبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والروح».

ويقال: العرش قبلة لأهل السماوات بينه وبين السماء السابعة سبعون

١-هذا وما يشبهه من الغيبيّات، والله تعالى هو المستأثر بالغيب ينبغي السكوت عنه، ولعلّ الذي جعل الأقدمين يوردون هذا وأمثاله ممَّا هو مبثوث في كتبهم ليدفعوا المؤمن إلى التأمُّل في ملكوت الله واستشعار عظمته وسعة علمه، وجلاله وجبروته، ولا يوردون ذلك تلهيا وإغرابا في الخيال وإيرادا للأحاجي، فانتبه لذلك رعاك الله وحفظك من التشطط والزلل.

ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة، وهكذا، ويقال: مخلوقات البرِّ عُشُر مخلوقات البحر، والكلُّ عُشُر مخلوقات الجوِّ، والمجموع عُشُر ملائكة السماء الدنيا، وكلُّ سماء عُشر سماء فوقها، والمجموع عشر ملائكة الكرسي، وكلُّ ذلك عشر الحافِّين حول العرش، ولا نسبة بين ذلك وسائر جنود الله إلاَّ عند الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (سورة المدثر: ٣١) .

والكروبيُّون جمع كَرُوبِيٍّ، بفتح الكاف وتخفيف الراء، هم حملة العرش والحافُّون، وقيل: هم حملة العرش، وإنَّهم أوَّل الملائكة خلقا. نسب إلى الكرب بمعنى القرب منزلة عند الله تعالى، أو بمعنى الشدَّة والحزن، وهم أشدُّ الملائكة خوفا، ومن هذا ذكر البيهقي أنَّهم ملائكة العذاب.

وأفضل الملائكة حملة العرش، لأنَّهم يلون العرش، ثمَّ حملة الكرسي، وهم أخشع من حملة الكرسي، وحملة الكرسي أخشع من ملائكة السماء السابعة، وكلُّ أهل سماء أخشع من أهل سماء تحتها، وملائكة السماء الدنيا أخشع من ملائكة الأرض، والعرش قبلة لأهل السماوات.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِ﴾ الإيمان التامَّ، وهم في نصرة المومنين.

(أصول الدين) واعتقاد أهل الحقِّ أنَّ الله موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا يحويه مكان ولا زمان، ولا العرش ولا الكرسيُّ، ولا تراه الملائكة الحاملون العرش ولا غيرهم، ألا ترى أنَّهم موصوفون بالإيمان، والإيمان إنَّما هو في غير ما يشاهد، وإذا كان فيما يشاهد فلا مرية في شأنه، كالرسالة للنبيء المشاهد ﷺ .

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُوا﴾ من الإنس والجنِّ، لأنَّ الإيمان أفضل

الأشياء، وهو [أي الإيمان] جامع بين الملائكة وبين الإنس والجنّ، مع تغاير نوع الملائكة ونوعيهما، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ (سورة الشورى: ٥) ، فعلى العموم، وفي المؤمن والكافر، لكن بمعنى إدرار الرزق والمنافع ودفع المضارّ، والأصل في ذلك المؤمنون، ويجوز أن يكون المراد الذين آمنوا، ويستغفرون لهم بذلك ومحو الذنوب، أو به.

قال شهر بن حوشب[1]: حملة العرش ثمانية: أربعة يقولون «سبحانك اللّهُمَّ وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك»، وأربعة يقولون: «سبحانك اللّهُمَّ وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»، قال: كأنّهم يرون ذنوب بني آدم.

(نحو) ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ مفعول به لـ«يَسْتَغْفِرُ» لتضمُّنه معنى القول، كأنّه قيل: ويقولون في شأن الذين آمنوا «رَبَّنَا وَسِعْتَ...». واللام للاستحقاق والنفع، وتؤول إلى ما رأيت، وقدَّر بعضهم القول حالا من واو «يَسْتَغْفِرُونَ» ناصبا، أي: قائلين: ربّنا وسعت كلّ شيء، أو يقدَّر: «يقولون ربّنا...» عطف بيان من قوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على جواز عطف البيان في الجمل.

(نحو) ونصب «رَحْمَةً» و«عِلْمًا» على التمييز المحوَّل عن الفاعل، أي: وسعت رحمتك وعلمك، أي: رحمتك وعلمك واسعان كلّ شيء، وذلك مبالغة إذ جعل ذاته واسعا لكلّ شيء، والوسع للرحمة والعلم، وكأنّه قيل: أنت

١- شهر بن حوشب (٢٠-١٠٠ هـ) الأشعري، فقيه قارئ، من رجال الحديث شامي الأصل، سكن العراق، وكان يتزيًّا بزي الجند، ويسمع الغناء بالآلات، ولي بيت المال مدّة، وهو متروك الحديث، وكان ظريفا. قال له رجل: إنّي أحبُّك، فقال: و لم لا تحبُّني وأنا أخوك في كتاب الله، ووزيرك على دين الله، ومؤنتي على غيرك. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٩٧٨.

ذو الرحمة والعلم الواسعين كلّ شيء.

﴿فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ﴾ من الذنوب كبارها وصغارها، بمعنى أنّه أتوا بصالح الأعمال، أو لا عمل لهم صالح إلاّ التوبة النصوح آخر أعمارهم. ﴿وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ الفاء سببيّة وتفريعيّة على قوله: ﴿رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ لأنّ الرحمة سبب للغفران، والرحيم يعفو، لأنّ علمه شامل لتوبتهم، وكأنّه قيل: اغفر لهم فقد علمت توبتهم واتّباعهم سبيلك. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ تأكيد، لأنّ المغفور له لا يعذّب.

﴿رَبَّنَا﴾ يا ربّنا، متعلّق بقوله: ﴿وَقِهِمْ﴾، أو بــ«وَسِعْتَ»، كأنّه قيل: ربّنا ربّنا، أو بمحذوف، أي: افعل ذلك يا ربّنا ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التِي وَعَدتَّهُم﴾ أي: وعدتهم إيّاها، والمراد دخولها، أو يقدّر هذا المفعول لفظ الدخول، أو الإدخال المدلول عليهم بــ«أَدْخِلْهُمْ»، أي: وعدتهم إدخالها أو دخولها، فإنّ الإدخال أيضا يدلّ على الدخول.

﴿وَمَنْ﴾ معطوف على هاء «أَدْخِلْهُمْ» قيل: أو هاء «وَعَدتَّهُمْ»، كما تقول: اعطني ما وعدتني أن تعطينيه وزيدا، تريد حصّتك ﴿صَلَحَ مِنَ ـــ ابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّـــاتِهِمْ﴾ والدعاء لمن صلح...الخ صريحٌ، إذا عطف على هاء «أَدْخِلْهُمْ»، وضمنيٌّ إذا عطف على هاء «وَعَدتَّهُمْ» وهذا الدعاء لهم تذييل للدعاء للمذكورين في «أَدْخِلْهُمْ»، لأنّ السرور يتضاعف بالاجتماع في الجنّة مع الآباء والأزواج والذُّرِّيَّـــة، **لا حرمنا الله من ذلك.**

وطلبوا ما علموا بأنّه موعود لهم مع أنّه لا يخلف الله الميعاد للتأكيد أو زيادة الدرجات، أو أرادوا من ظهر خيره في الدين، ولا يدرون أهو سعيد؟ والصلاح الديني متفاوت، والقول شامل للكلّ، والرحمة واسعة للتائبين.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ لا يعجزه شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلاَّ صوابا ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوبات لأنَّها تسوء وتضرُّ أو المعاصي، أي: جزاء المعاصي، أو تجوَّز باسمها عن اسم لازمها ومسبِّبها، أو قهم نفس المعاصي فلا يفعلوها، وإن فعلوها تابوا فكأنَّهم لم يفعلوها، وفيه ضعف، لأنَّ الأنسب عليه التقديم على «اغفِرْ» بأن يقال: قِ الذين آمنوا السيِّئات فاغفر للذين تابوا.

[قلت:] ولا يتكرَّر الدعاء هنا مع قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ لأنَّ عذاب الجحيم أخصُّ من العقوبات، لأنَّ العقوبات تشمل عذاب النار وعذاب القبر، وعذاب السخط في الدنيا كالخسف والمسخ ممَّا يختصُّ في الدنيا بأهل النار، وأمَّا ما لا يختصُّ بهم فلا تفسَّر به السيِّئات، لقوله تعالى:

﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ،﴾ أي: يوم إذ يكون الجزاء، وهو يوم القيامة. والسيِّئات: العقاب بتقديرِ مضاف والتجوُّز في التسمية كما مرَّ آنفا، ولا يتبادر أنَّ «السيِّئات» هنا المعاصي وأنَّ «يَوْمَئِذٍ» إذ كانوا في الدنيا يعملون ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي هو الرحمة، أو المذكور من الرحمة والوقاية، أو من الوقاية ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ الظفر بالمطلوب الكامل ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي لا مطلب وراءه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

اعتراف الكفار بذنوبهم والتذكير بقدرة الله وفضله

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يناديهم الملائكة خزنة النار بعد دخولهم، أو يناديهم المؤمنون بعد الدخول، وذلك إعظام لحسرتهم، والمؤمنون والملائكة علموا أنَّهم مقتوا أنفسهم، فيقول الملائكة أو المؤمنون: يا أصحاب النار أو يا أعداء الله.

(نحو) ﴿لَمَقْتُ اللهِ﴾ اللام للابتداء، وهي للتأكيد، ولا دليل على أنَّ هنا قَسَما محذوفا واللام في جوابه، والأصل عدم الحذف، أي: لَبُغضُ الله لكم، والمفعول به محذوف، أي: لبغضكم اللهُ، برفع لفظ الجلالة على الفاعليَّة للمصدر، والكاف مفعول به مضاف إليه، وأجاز بعضهم أن يقدَّر لَبُغضُ الله إيَّاكم.

والمراد بالأنفس في الآية الأجساد الشاملة للنفس الأمَّارة بالسوء، وقيل: المراد النفوس الأمَّارات بالسوء، وبغض الله عدم الرضى عنهم، وإعداده العذاب لهم، والمقت أشدُّ البغض، وفسِّر هنا بأشدِّ الإنكار.

﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمُ، أَنفُسَكُمُ،﴾ مقت كلِّ واحد منكم نفسه، أو مقت بعضكم بعضا، تمقت الأتباع الرؤساء لأنَّهم أضلُّوهم، والرؤساء الأتباع لأنَّهم حملوا مثل أوزارهم لإضلالهم، **والأوَّل أولى**. اشتدَّ بغضهم لأنفسهم إذ دخلوا

النار بأتباعها حتَّى إنَّهم يعضُّون أناملهم حتَّى تسقط، فترجع ويعضُّوها كذلك، وهكذا... أو ذكر أنَّهم يأكلونها كذلك، وبه قال الحسن، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ (سورة العنكبوت: ٢٥) .

ويحتمل أنَّه أراد العضَّ الشديد، ولا يخفى أنَّهم يمقتون أنفسهم من حين ماتوا إلى الأبد، وعبارة بعض: حين يعلمون أنَّهم من أصحاب النار، فيحتمل حين يعطون كتبهم بشمائلهم، ويحتمل حين الموت ففي حينه يعلمون، وقيل: حين يقول لهم الشيطان: ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢) ، ويجمع ذلك **أنَّ مقتا في وقت أشدُّ منه في آخر.**

(نحو) والجملة مفعول لحال محذوفة، أي: ينادون مقولا لَهم: ﴿لَمَقْتُ اللهِ...﴾. وأجاز بعض أن يقدَّر: ينادون فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللهِ...﴾. وأجيز أن يكون مفعولا به لـ«يُنَادَوْنَ» لتضمُّنه معنى القول، ويبحث بأنَّ القول لا يتعدَّى لمفعولين إلاَّ إن كان بمعنى الظنِّ، وقد أخذ مفعوله وهو الواو النائب عن الفاعل.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الايمَانِ﴾ يدعونكم الأنبياء وغيرهم من أتباعهم. و«إِذْ» متعلّق بـ«أَكْبَرُ». وزمان المقتين واحد، إلاَّ أنَّ مقت الله أزليٌّ مستمرٌّ. والمضارع للتجدُّد، ويجوز تعليقه بـ«مَقْت» الثاني، مع أنَّهم لم يمقتوا أنفسهم حال الدعوة لأنَّها سبب كفرهم الموجب للمقت، أو يقدَّر: إذ تبيَّن أنَّكم دعيتم إلى الإيمان فكفرتم، وزمان المقتين واحد كذلك.

وإذا جعلت «إِذْ» للتعليل فليس التعليل بالدعاء إلى الإيمان بل بما ترتَّب عليه من الكفر به. وقال الحسن: زمان المقتين مختلف، أي: لمقت الله أنفسكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أشدُّ من مقتكم إِيَّاهَا اليوم وأنتم في النار، أو وأنتم متحقّقون أنَّكم من أصحابها.

(نحو) لم يجيزوا الفصل بين المصدر وخبره لأنَّ الأخبار عنه يؤذن بتمام المعنى، وقيل: لا بأس بالفصل بين المصدر وما في صلته بأجنبي، وهو الخبر، للتوسُّع في الظروف. ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ تحدثون كفرا كلّما حدَّثكم الرسول ﷺ، أو تصرُّون على الكفر.

﴿قَالُواْ﴾ إذعانا لقدرة الله على البعث ﴿رَبَّنَآ﴾ يا ربّنا ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إماتتين اثنتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إحياءتين اثنتين، فالنصب على المفعوليَّة المطلقة، على القياس من لفظ الفعل.

(نحو) ولا حاجة إلى دعوى خلاف الأصل من تقدير اسم مصدر الفعلين هكذا: موتتين اثنتين، وحياتين اثنتين، وتفسير اسم المصدر بالمصدر، فليقدَّر المصدر من أوَّل أولى من تقدير فعل ثلاثيٍّ ومصدره، والأصل عدم الحذف، أي: أمتنا فمتنا موتتين اثنتين، وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين.

روى ابن جرير عن ابن عبَّاس، والحاكم عن ابن مسعود: أنَّ الإماتة الأولى خلقهم أمواتا، والثانية إماتتهم لأجلهم، والإحياءة الأولى نفخ الروح فيهم وهم في البطون، والثانية نفخ الروح فيهم يوم البعث، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٨) .

ويجوز اعتبار موت النطفة بانفصالها عن الصلب وهي فيه حيَّة، حال خروجها، أيضا.

(بلاغة) وإطلاق الإماتة على خلق الشيء بلا روح مجاز، والحقيقة سلب الحياة ممَّا هي فيه، وذلك من باب حمل الفعل على الصرف عن غيره، فمعنى إماهم أوَّلا صرف الحياة عنهم، أي: تركها، كوسَّع الدار ووسَّع الباب بمعنى أنَّه بناهما من أوَّل الأمر واسعين.

(لغة) ولا يشترط في ذلك القدرة على المصروف عنه كما يوهم كلام بعض المحقّقين، وذلك كقولنا: سبحان من صغَّر البعوضة وكبَّر جسم الفيل، وليس في ذلك نقل من كبر إلى صغر، ومن صغر إلى كبر، وذلك أنّ الكبر والصغر جائزان في الشيء وإذا صرفه عن أحدهما، فصَرْفه كنَقْله عنه.

(بلاغة) وجعل بعضهم ذلك استعارة بالكناية يترتَّب عليها المجاز المرسل، وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، وإن جعلنا الصرف في ذلك حقيقة ـــ كما قيل ـــ لزم استعمال المشترك في معنييه، ومن منع الجمع بين الحقيقة والمجاز جعل ذلك من عموم المجاز وهو عدم الحياة هكذا مطلقا.

[قلت:] والإحياء والحياة لا يحتاجان إلى سبق موت مسبوق بالحياة، فلا جمع بين الحقيقة والمجاز في الإحياء المذكور، فإفاضة الروح على الجنين إحياء حقيقة، وعلى الموتى يوم البعث حقيقة أيضا.

قال السدِّي: الإماتة الأولى إماتتهم لأجَلهم، والإحياءة الأولى إحياؤهم في القبر للسؤال، والإماتة الثانية إماتتهم إلى قيام الساعة بعد الإحياء للسؤال، والإحياءة الثانية إحياؤهم للبعث، ولا يبحث بأنّ في ذلك ثلاث إحياءات لأنّه لم يذكر حياة الدنيا، لأنّ إنكارهم في الدنيا إنّما هو لإحيائهم في القبر، وإحيائهم للبعث، ولم يفسر كلامهم بالثلاث وهو في الآية باثنين، ولا إشكال في ذلك.

وقال ابن زيد[١]: إحياؤهم نسما عند ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) ، وإماتتهم بعد أخذ العهد، وإحياؤهم في الدنيا وإماتتهم فيها، ثمّ

١-ابن زيد: أحمد بن محمد شهاب الدين أبو العَبّـاس: محدِّث مفسِّر له اشتغال بالتاريخ، من علماء الحنابلة، ولد في الموصل سنة ٧٨٩هـــ وعاش في دمشق، وتُوُفِّيَ بها سنة ٨٧٠هـــ. عادل نويهض: معجم الْمُفَسِّرِينَ، ج١، ص٧٢.

إحياؤهم، أي في القبر، على أن يعدَّه ويعدَّ إحياء البعث واحدا، أو أراد إحياء البعث، ولا يبحث بأنَّ فيه إحياءات وإماتات، لأنَّه لم يفسِّر الآية بذلك بل أراد ذكر ما كان.

(تصوف) وعبارة بعض الصوفية: عدُّوا أوقات البلاء والمحنة أربعة: الموتة الأولى في الدنيا، ثمَّ الحياة في القبر للسؤال، والموتة الثانية في القبر ثمَّ الحياة للجزاء، ولم يعدُّوا الحياة الدنيا لأنَّها ليست من أقسام البلاء، وقيل: حياتان حياة الدنيا وحياة الآخرة، وموتتان الموتة الأولى في الدنيا، ثمَّ الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال، ولم يعدُّوا حياة السؤال لقصرها.

[قلت:] ويشكل في الباب ما ورد من الأخبار في تعذيب الكُفَّار في قبورهم استمرارا، وتعدُّد حياتهم وموتهم فيها مع العذاب كلَّما رجع إليهم أرواحهم، ولا يصحُّ أن يقال: التثنية في الآية للكثير فتشمل الإحياءات كلَّها والإماتات كلَّها مثل: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (سورة الملك: ٣) ، وفلان يفعل كذا مرَّة بعد أخرى، يراد أنَّه يكثر فعله، لأنَّ ذلك يصحُّ إذا لم يذكر لفظ اثنين أو اثنتين، أمَّا إذا ذكر فلا.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بسبب الإماتتين والإحياءتين التي شاهدنا من إنكار البعث وسائر المعاصي ﴿فَهَلِ اِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ مَّا من النار إلى الدنيا، أو موضع من المواضع ندارك فيه ما فات؟ والظاهر أنَّهم أرادوا الخروج العاجل، ويحتمل أن يريدوا العاجل والآجل، وهو خبر. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ مبتدأ و«مِنْ» صلة للعموم، أي: إلى سبيل مَّا ولو ضيِّقا أو قليلا أو عسيرا.

وأجيب طمعهم في الخروج بالإقناط في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾...الخ، أي: تستمرُّون في النار كما استمررتم على الشرك حتَّى متُّم، لا خروج لكم، وهذا أولى من أن يقال: أرادوا بقولهم: «فَهَل...» غير ظاهره من طلب الخروج، بل

كلاما يقوله القانط تعلُّلا وتحيُّرا، ولا يقال: لو أريد الخروج ليتداركوا لقال: اخسؤوا فيها، لأنّ في معناه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾.

وقد يناسب إرادة التحسُّر دون الطمع في الخروج قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ،...﴾، أي: ذلكم الذي أذعنتم لدوامه من العذاب وتحسَّرتم فيه، أو ذلكم المقت بأوجهه السابقة ﴿بِأَنَّهُ،﴾، أي: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه ثابت دائم بسبب أنّه، أي: إنّ الشأن.

﴿إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ،﴾، أي: عبد وحده أو ذكر بالألوهيَّة وحده، و«وَحْدَهُ» في معنى اسم مفرد غير مضاف هو حال، أي: منفردا، أو هو مصدر مفعول مطلق لمحذوف هو حال، أي: يوحِّده وحده ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده تعالى ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُومِنُواْ﴾ بالإشراك وتعتقدونه ﴿فَالْحُكْمُ للهِ﴾ الذي لا يقضي إلاّ بالحقّ ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ المتّصف بغاية العلم والحكمة، وعلوّ الشأن، فيشتدُّ عقابه على العصاة بحسب ذلك، فيكون بنار دائمة.

﴿هُوَ الذِي يُرِيكُمُ، ءَايَاتِهِ﴾ دلائله على وجوده وألوهيَّته، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقًا﴾ سبب رزق، وهو المطر، وهو من جملة آياته فذكره تخصيص بعد تعميم، ووجهه أنّه من آثار نعمه الموجبة للشكر. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الظاهرة المركوزة في العقول ﴿إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾ لانهماك غيرهم في التقليد والهوى.

﴿فَادْعُواْ اللهَ﴾ اعبدوه أيُّها المؤمنون، دوموا على اعتقاد أنّه لا إله إلاّ هو، وعلى ذكره والصلاة والصدقة وغير ذلك ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم وشقَّ عليهم. وليس الخطاب للمشركين وحدهم، أو مع المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ هو رفيع، أو مبتدأ خبره «ذُو»، ولو كانت إضافته لَفْظِيَّة، أو خبر لـ«ذُو» أو هما و«يُلْقِي» أخبارٌ لـ«هُوَ» السابق.

(بلاغة) ولفظ «رَفِيعُ» صفة مشبَّهة مضافة لفاعلها، ولا مفعول له، لأنَّه لازم، وفعله «رَفُع» بضمِّ الفاء بمعنى علا.

والدرجات: صفاته وأفعاله، أو درجات ملائكته إلى عرشه سبحانه، وقيل: سماواته لأنَّها معارج، وفيه أنَّ المتبادر من ذلك أن لا تكون درجات بين السماء والسماء، وبين السماء والعرش، وهو خلاف الظاهر ولو جاز.

ويجوز أن يكون المراد الكناية عن عزَّة شأنه، وهو الذي يتبادر إلى الفهم، وأن يكون من رَفَع المتعدِّي بفتح الفاء صفة مبالغة، مضافة إلى مفعولها، بمعنى أنَّه رفع درجات من أطاعه، درجات الدنيا، ودرجات الآخرة، وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿فَادْعُواْ اللَّهَ...﴾. أو رفع سماء فوق سماء، أو رفع درجات ملائكته إلى العرش على ما مرَّ.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ ذو الملك، ومنه العرش المحمول، أو هو المراد، وهو أنسب بتفسير ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ بعزيز الشأن.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ الوحي، وعن ابن عبَّاس: القرآن، وهمَا للقلب كروح الحياة، وكالرزق للجسد، وفسَّره بعض بفهم الشريعة. ويبعد تفسيره بجبريل، وعليه فالمعنى: إنَّ الله ينزِّل جبريل على من يشاء أنَّه نبيء ﴿مِنَ اَمْرِهِ﴾ من قضائه أو ملكه. و«مِنْ» للابتداء، وقيل: بيان للروح، أي: هو أمره ولو فسِّر الروح بجبريل لكانت سَبَبِـيَّة، أي: لتبليغ أمره، وقيل: بأمره.

﴿عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو الأنبياء والرسل، ويتوسَّط أيضا أتباعهم في التبليغ داخل المئات وعلى رؤوسها، كما روى أبو داود عن أبي هريرة عن

رسول الله ﷺ : **«إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها»**[1]، أي: **بإحياء ما اندرس من العلم، والعمل بالكتاب والسنّة وما استخرج منهما.**

﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلّق بـ«يُلْقِي»، والضمير لله، لأنّه المحدَّث عنه، وهو المتبادر، أو لمن يشاء لقربه، ولأنّه منذر بلا توسُّط، ولو كان بتوسُّط الأتباع، ويبعد عوده للروح أو للأمر.

﴿يَوْمَ التَّلاَقِي﴾ مفعول ثان لـ«يُنذِرَ»، والأوَّل محذوف، أي: لينذرهم، أي: العباد، أو لينذر الناس، أو يقدَّر الباء، أي: بـ«يَوْمَ التَّلاَقِي»، أو متعلّق بمحذوف، أي: الانتقام أو العقاب يوم التلاقي، وهو تلاقي الخالق والمخلوق لقوله ﷻ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّـــهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ (سورة الكهف: ١١٠) ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ (سورة يونس: ٧) ، وقوله ﷻ : ﴿وَقَالَ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ (سورة الفرقان: ٢١) ، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّـــهِمْ﴾ (سورة هود: ٢٩) ، وقوله ﷻ : ﴿تَحِيَّـــتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٤) ، ونحو ذلك.

وقيل: تلاقي الخلائق فيه لجريان الكلام على الحقيقة، ونفي توهُّم استواء الخالق والمخلوق، وقيل: التقاء أهل السماء والأرض، وقال ميمون بن مهران[2]: التقاء الظالم والمظلوم، وقيل: التقاء كلّ أحد وعمله، وقيل: التقاء العابدين

١-رواه **أبو داود** في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم٤٢٩١، من حديث أبي هريرة.

٢-أبو أيُّوب الجزري الرقي، من التابعين، نشأ بالكوفة، عالم الجزيرة ومفتيها، وقد تولّى خراج الجزيرة وقضاءها، وكان من رواة الحديث، توفي سنة ١١٧هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٧٥.

والمعبودين، ولا مانع من الحمل على الالتقاءات المذكورة كلّها، إلاّ أنّ لقاء الله مجاز، ومرَّ كلام في الجمع بين الحقيقة والمجاز.

(نحو) ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ بدل من «يَوْمَ التَّلاَقِي»، و«هُمْ» مبتدأ و«بَارِزُونَ» خبر، والجملة أضيف إليها «يَوْمَ»، ومنع سيبويه إضافة الزمان المستقبل للجملة الاسميَّة، فيقدِّر فعلا بعد «إِذَا»، مثل كان الشأنية.

والبروز: الظهور لا يسترهم بناء ولا جبل، ولا شيء ولا لباس، قال ابن عبَّاس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّكم ملاقو الله حفاة عراة غرلا**»[1] وقيل: خارجون من قبورهم، أو ظاهرة أعمالهم وسرائرهم ﴿لاَ يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أبدانهم وأعمالهم وأحوالهم.

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ من جواب سؤال، كأنّه قيل: فما يكون حينئذ؟ فقيل: يقال: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»، أو فيقال: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ». يخلق الله قول ذلك حيث شاء، أو يقوله عن الله تعالى مَلَكٌ.

وكأنّه قيل: فبم أجيب؟ فيقال ما ذكر الله ﷻ من قوله: ﴿للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: هو لله الواحد القهار، والقائل «للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» ملك، أو صوت يخلقه الله ﷻ، أو أهل المحشر، وتمام هذا الجواب المقول قوله: ﴿...الْحِسَابِ﴾.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بارَّة أو فاجرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شرّ ﴿لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ لا ينقص من عمل ولا يزاد عليه، بخلاف الدنيا، ففيها ظالم ومظلوم ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا آخر الجواب.

١- رواه **البخاري في** كتاب الرقائق، باب كيف الحشر، رقم٦١٥٩. ورواه **مسلم في** كتاب الجنّة ووصف نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم٢٨٦٠. من حديث ابن عبَّاس.

والسؤال والجواب بين نفخة الموت ونفخة البعث من واحد، وهو الله تعالى، وقيل: ملك وهذا على أنَّ ذلك في المحشر، أو قرب قيام الساعة جدًّا، وقيل: السائل الله أو ملك والمجيب الناس. وعن ابن عبَّاس: «ينادي مناد بين السماء والأرض عند قرب الساعة، يا أيُّها الناس أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء والأموات، فيقول الله: لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهَّار» ولعلَّ ذلك يكون مرَّة بين يدي الساعة ومرَّة بين النفختين ومرَّة في المحشر. [أو لسان الحال يُعَبِّرُ عن ذلك].

قال ابن مسعود ﷺ: «يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء، كأنَّها سبيكة فضَّة، لم يُعْصَ الله تعالى فيها قطُّ، ولم يُخْطَأْ فيها، فأوَّل ما يتكلَّم أن ينادي مناد: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فأوَّل ما يبدأون به من الخصومات الدماء وحسابه كلحظة، ويفعل الله ما يشاء»، قال ابن عبَّاس: «إذا أخذ في الحساب لم يقل أهل الجنَّة إلاَّ فيها، وأهل النار إلاَّ فيها».

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

أوصاف أخرى رهيبة ليوم القيامة وعاقبة المكذبين

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ﴾ يوم القيامة، فالآزفة اسم فاعل «أزِفَ» بمعنى قرب، جعل اسما للقيامة لقربها، وإن شئت فهو باق على الوصفيَّة نعت لمحذوف، أي: يوم القيامة القريبة، أو الساعة الآزفة، أو الخطَّة الآزفة.

والخِطَّة بضمِّ الخاء وشدِّ الطاء: الأمر العظيم، الذي من شأنه أن يخطّ، أي: يكتب، وهو الأمور الصعبة في المحشر، وقربها باعتبار أنَّ كلَّ ما هو آت قريب، أو باعتبار ما مضى من الدنيا.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ «إِذْ» بدل من «يَوْمَ الآزِفَةِ». و«الْحَنَاجِر» جمع حنجرة لا جمع حنجور، وإلاَّ قيل: الحناجير، بالياء بعد الجيم، أو يدَّع التخفيف بالحذف. والحنجر والحنجور رأس الغلصمة، لحمة بين الرأس والعنق، والمعنى أنَّه تبلغ قلوب الكفرة حناجيرهم، ولا يموتون كما يموت في الدنيا إنسان إن بلغ قلبه حنجرته، والأولى أنَّ الكلام يعمُّ المؤمن والكافر، وبلوغ القلوب الحناجر مجاز عن شدَّة الخوف أو الألم.

﴿كَاظِمِينَ﴾ حال من ضمير الاستقرار في «لَدَى» العائد إلى «القلوب». جمعت صفة «القلوب» جمع المذكَّر السالم تنزيلا لها منزلة العاقل، لوصفها بصفته، والمعنى: كاظمة على الغمِّ والكرب، ممسكة لهما، غير خارجين عنها، وكاظم القربة كاظم على الماء ممسك لها عليه. أو حال من هاء «أَنذِرْهُمْ» مقدَّرة، أي: مشارفين الكظم ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب مشفق ﴿وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، أي: لا شفيع البتَّة فضلا عن أن يطاع، فلا شفاعة ولا طاعة شفيع، قال الحسن: والله ما يكون لهم البتَّة شفيع، وهذا هو المراد، ولو احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة.

(نحو) وجملة «يُطَاعُ» نعت «شَفِيعٍ» على لفظه، فهو في محلّ جرّ، وعلى تقديره فهي في محلّ رفع، لأنَّه معطوف على «حَمِيم»، و«حَمِيم» مرفوع تقديرا على الابتداء أو الفاعليَّة لقوله: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾، و«مِنْ» صلة. و لم يقتصر على نفي الشفيع ليكون نفيه شاهدا على نفي طاعته مستحضرة بالاعتبار.

ومقتضى الظاهر: ما لهم من حميم، فوضع الظاهر موضع الهاء ليصفهم بالظلم، إن رجعنا هاء «أَنذِرْهُمْ» لِلْكُفّارِ، وإن رجعناها للناس كلّهم فالإظهار على بابه، بأن عمَّ أَوَّلاً ثمّ خصَّ بعضا بحكم مجدَّد. والظالمون: المشركون، قال ﷻ : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان: ١٣) ، ويجوز أن يراد الظالم مشركا أو موحِّدا، فالإظهار على بابه أيضا ذكر الخاص بحكم مجدَّد.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، وإفراد «خَآئِنَةَ» لتأويل الجملة، كما نقول: بتأويل الجماعة، أي: الأعين الخائنة، على حذف مضاف، أي: خيانة الأعين الخائنة، فيناسب قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي: وما تخفيه، ولا سيما إن جعلنا «مَا» مَصدَرِيَّة، أي: وإخفاء الصدور، فهو أشدُّ مناسبة، فاندفع ما يقال: إنّه لو كان التقدير: الأعين الخائنة لقال: والصدور المخفية، لمراعاة الملاءمة في علم البيان.

(نحو) ويجوز أن تكون الإضافة للتبعيض، أي: الخائنة من الأعين، والبحث كذلك، فيقدَّر: خيانة الخائنة، كما قيل: «خَائِنَة» مصدر كعافية، وقيل: الخائنة نعت لمحذوف، أي: النظرة خائنة الأعين.

(بلاغة) وإسناد الخيانة إلى الأعين أو العين أو إلى النظرة في تلك الأوجه مجاز عقليٌّ. أو الكلام على الاستعارة المصرَّحة أو المكنية، بجعل النظرة أو العين بمنزلة شيء يسرق من المنظور، وقد شاع استراق النظر والعين.

ووصف الله تعالى نفسه بعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور تحذيرا عن الخيانة بالعين والقلب، كالنظر إلى ما لا يحلُّ النظر إليه من النساء والمرد، وتكييف القلب للمعصية.

﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لا بغيره، وليست هذه الجملة على صيغ الحصر وإنَّما أفاد الحصر بقوله: **﴿وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِه﴾** من الأصنام **﴿لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾** لا بِالْحَقِّ ولا بباطل، وكأنَّه قال: يقضي هو لا هنَّ.

وجمع العقلاء في الأصنام مرَّ توجيهه[1]، وظهر لي وجه آخر هنا وهو أنَّه على التهكُّم بها، كما قيل: إنَّه قال: ﴿لاَ يَقْضُونَ﴾ تهكُّما، لأنَّ الجماد لا يقال فيه: يقضي، ولا لا يقضي، وَلَكِنَّ الظاهر أنَّه يقال: لا يقضون بلا تهكُّم، وأنَّه يجوز أن ينفي عن الجماد ما لا يتصوَّر منه، فلا تهكُّم، مثل أن تقول: لا يمشي ولا ينطق.

وقيل: المراد لا يقدرون على شيء، فعبَّر بـ«لاَ يَقْضُونَ» لمشاكلة قوله ﷻ : ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾.

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وعيد لهم على ما يقولون وما يفعلون، بأنَّه سميع للقول، أي: عالم به، وبصير بالفعل، أي: عالم به، وتقرير لعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتعريض بآلهتهم أنَّها لا تسمع ولا تبصر.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف حال المكذِّبين قبلهم، كعاد وثمود. و«يَنظُرُوا» مجزوم بالعطف على «يَسِيرُوا»، أو منصوب في جواب نفي النفي، لأنَّ الاستفهام إنكار، والإنكار بـ«في» دخل على نفي آخر.

١- انظر تفسير سورة الزمر آية رقم٤٤ في هذا الجزء.

﴿كَانُواْ هُمْ﴾ توكيد للواو، ومثل هذا من باب التوكيد اللفظي، ولو اختلف اللفظان.

(نحو) وهو نائب عن الواو لَمَّا كانت الواو لا تُكرَّر، أو ضمير فصل لجوازه قليلا ولو لم يكن بين معرفتين، والغالب كونه بينهما ويتقوَّى هنا باسم التفضيل بعده، مقرونا بــ«مِنْ» التفضيلية، كأنَّها عوض عن «ال»، إذ لا يقرن بــ«ال» معها.

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كبار الأجسام صحيحها، قادرين بها على التصرُّفات العظيمة ﴿وَءَاثَارًا فِي الاَرْضِ﴾ كالقرى و المدن، وكانوا ينحتون الجبال بيوتا، وقيل: الآثار آثار أقدامهم في الأرض، وهو قول ضعيف إذ لا يبقى إلى زمان الآية.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء بمعنى الواو، وللترتيب الذكري، ولا تفريع لها إلاَّ إن كان العطف على محذوف، أي: كفروا أو كذبوا فأخذهم، ولا تسبُّبَ لها لِئَلاَّ تتكرَّر مع تسبُّب الباء بعدها.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ وَّاقٍ﴾ «مِنَ اللهِ» متعلِّق بما بعده، على حذف مضاف، أي: من عذاب الله تعالى، ويجوز أن لا يقدَّر، كأنَّه قيل: هم في قبضته، يفعل فيهم ما يشاء، أو بمحذوف حال من «وَاقٍ» قدِّم بطريق الاهتمام وللفاصلة، أو متعلِّقة بــ«لَهُمْ» أو متعلِّقه، وهي للابتداء في ذلك كلِّه، ويجوز أن تكون للبدل متعلِّقة بــ«لَهُمْ» أو متعلِّقه، والمعنى بدلا من الله و«مِنْ» صلة. و«وَاقٍ»: مانع، لا قدرة لشركائهم على المنع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّـهُمْ﴾ بسبب أنَّهم ﴿كَانَت تَّاتِيهِمْ﴾ فيه ضمير مستتر عائد إلى قوله: ﴿رُسُلُهُم﴾ لأنَّه اسم «كان» في نية التقديم، كأنَّه قيل: كانت رسلهم تأتيهم، أو بالعكس على التنازع ﴿بِالْبَـيِّـنَاتِ﴾ الدلائل المتلوَّةِ والمعجزات.

﴿فَكَفَرُواْ﴾ بها ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ لكفرهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ متمكّنٌ مِمَّا يريد لا يعجزه شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كلٌّ عقاب بالنسبة إلى عقابه كلا عقاب.

وسلاّه ﷺ بفرعون وجنوده مع جواز أن يكونوا أشدَّ من عاد في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

قصّة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون

– ١ –

تعذيب بني إسرائيل والتهديد بقتل موسى

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ معجزاته عليه السلام ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ حجّة ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر، هو المعجزات.

(نحو) وصفت بأنّها دلائل وأنّها برهان، فنزّل تغاير الصفتين منزلة تغاير الذات، كجاء زيد العالم والعاقل، أي: المتّصف بالعلم والعقل، فساغ العطف مع أنّ الشيء لا يعطف على نفسه. ويجوز أن يكون عطف خاصٍّ على عامٍّ لمزيته، ولو كان نكرة لأنّها موصوفة بما يناسب المزية، نحو: جاءني بنو تميم ورجل كريم منهم، فيراد به العصا مثلا.

أو الآيات: التوراة وسائر حجج التوحيد، والسلطان: المعجزات الدَّالَّة على رسالته، وقيل: الآيات: المعجزات، والسلطان: قُوَّة قلبه على الإقدام على الجبابرة بدون اكترات بهم في التبليغ.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وزير فرعون، واليهود ـــ لجهلهم وتحريفهم واختلال أمر كُتُبهم وتواريخ فرعون لطول العهد وكثرة محِنهم ـــ ردُّوا ما أنزل الله تعالى في القرآن، من أنّ هامان في عهد موسى وفرعون، وزعموا ـــ لعنهم الله ـــ أنّ هامان ظالم جاء بعد فرعون بزمان طويل[1].

﴿وَقَارُونَ﴾ هو الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم، وقيل: غيره وكان مقدَّم جنود فرعون. وذَكَرَ الرجلين مع فرعون لرسوخهما في الكفر وكونهما أشهر أتباعه ﴿فَقَالُواْ﴾ أي الثلاثة، أو هم وقومهم، ﴿سَاحِرٌ﴾ موسى ساحر فيما أظهر كاليد والعصا ﴿كَذَّابٌ﴾ في دعوى الرسالة ودعوى أنّ التوراة من الله ﷻ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ الفاء للترتيب الذكري، أو يقدَّر: أرسلته إليهم فلمَّا جاءهم، أو المعنى: فلمَّا استَمَرَّ على المجيء بالحقٍّ من عندنا غير مكترث بتكذيبهم ﴿قَالُواْ﴾ لعجزهم عن معارضته بالحجَّة ولحنقهم، ويقال: لم يقله قارون معهم إلاَّ غلبة عليه.

﴿اقْتُلُواْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ،﴾ أطفالهم ﴿وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ اعملوا في حياتهنَّ بترك قتلهنَّ، ومعالجة من شقّ بطنها كما فعلتم بهم وبهنَّ، حين قال الكهنة والمنجِّمون: يولد في بني إسرائيل من يسلب ملك فرعون.

١-لمزيد من البيان انظر: التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور في تفسير آية القصص، رقم٥، ج٢، ص٧٢.

﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ عمومًا، فيدخل فرعون ومن معهُ أوَّلاً. و«ال» للجنس أو الاستغراق. أو المراد هم، أي: وكيدهم، أي: وكيد فرعون وهامان وقارون، وأظهر ليصفهم بالكفر الموجب لضلال كيدهم، و«ال» للعهد.

كان يقتل الأولاد فكفَّ، ولَمَّا بعث موسى وأحَسَّ بأنّه قد وقع ما يحذر أعاد القتل غيظًا وظنًّا بأنّهم يعينون موسى. ﴿إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ ضياع وعدم إدراك مرادهم به، كالشيء الذي تلف ولا يوجد، فوقع إهلاكهم وسلب ملكهم بموسى عليه السلام.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لم يرد قتله خوف أن يعاجله الله بالعقاب، وهو معتقد لوجوده تعالى، أو علم أنَّ موسى نبيء لما يرى منه، وكتم وجحد، أو لم يقتله خوفَ أن يقال قتله عجزًا عن مقاومته بالحجَّة، كما قيل له: إن قتلته توهَّم الناس عجزك عن الحجَّة فدعه، فإنَّه أهون من ذلك، ويقابله ساحر مثله. لكنَّه لعنه الله أظهر للناس أنّه أراد قتله، وأنّه قادر عليه، ولكنَّه منعه الناس.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: ينجِّيه منِّي، أو أن يعاقبني على قتله الذي سمع باهتمامي به، هذا إقرار منه بأنَّ لموسى ربًّا يدَّعيه ويدعُوه، وفي ذلك أيضا عدم اكترائه به تعالى وبعقابه لفظًا لا اعتقادًا.

﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ عبادة أصنام أمرهم بنحتها يتقرَّبون بها إليه، وقيل: سلطانكم وعزَّتكم، كقول زهير:

لئن حللت بجي من بني أسد   في دين عمرو، وحالت بيننا فدَكُ

﴿وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الاَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ذلك تعليل لـ«ذَرُونِي» أو لـ«أَقْتُلْ»، ذروني لأنّي، أو أقتله لأنّي. والفساد: الاختلاف والشقاق المؤدِّي إلى تعطُّل

مصالحكم، وتعطُّل المزارع والمتاجر، وإلى القتال، وقال قتادة: الفساد ما عليه موسى من الدِّين، و«الأرض» أرض مصر.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لبني إسرائيل لَمَّا سمع بتوعُّد فرعون بقتله لا لفرعون وقومه، لأنَّه لم يحضر وقت توعُّد فرعون له، ولقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ﴾ (سورة الأعراف: ١٢٨) في هذه القصَّة بعينها، ولقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فإنَّهم لا يقرُّون بالله تعالى، ولو كان هو ربُّهم حقًّا ولو اعتقده فرعون، والمقام مقام لإنكاره والضرِّ في شأنه، ويجوز أن يكون خطابًا لهم ولو أنكروا الله تعالى إقرارًا بالحقِّ، ولو غابوا، وأن يخاطبهم بذلك تصلُّبًا في دينه وإظهاره.

﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ اعتصمت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ذكر اسم الرُّبُوبِيَّة لأنَّه في مقام طلب الحفظ والتربية، والملك والسيادة، واستجمعهم في الخطاب ليكونوا معه على قصد واحد في الدعاء، واستجلاب الإجابة.

[قلت:] ولذلك شرعت الجماعة في العبادة، فيكمل بعض ببعض، فنقول: إذا قرأوا جماعة ففات بعض بعضا بحرف وكلمة مثلا فإنَّه لمن فاته ذلك أجرُ ما فاته لأنَّه قد قصده.

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ من شرِّ كلِّ مستكبرٍ عن الإذعان للحقِّ، فهو يتوسَّع في المعاصي لأنَّه لا يعتقد أنَّ عليها عقابًا. و لم يقل: إنِّي عذت منه، توسيعًا لدائرة الدعاء بالتنجية، وتصريحًا بالعلَّة التي أحضرته إلى الاستعاذة، وإيذانًا بأنَّ شرَّ المتكبِّر أعظم من شرِّ غيره، وأمَّا تربية فرعون فلا تستحضر هنا.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

-٢-

قصّة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى عليه السلام

﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾ اسمه شمعان، وقيل: خربيل، وقيل: حزبيل، وقيل: حبيب، والأوَّل أولى ﴿مُّومِنٌ مِّنَ ـــ الِ فِرْعَوْنَ﴾ من القبط، ابن عم فرعون، وكان يجري مجرى وليِّ العهد ومجرى صاحب الشرطة، وقيل: كان إسرائيليًّا، وقيل: كان غريـــبا فيهم لا إسرائيليًّا ولا قبطيًّا، فمعنى كونه من آل فرعون على القولين أنّه فيهم بالتقيَّة مُظهرًا أنّه على دينهم. و«من» يتعلّق على القولين بقوله تعالى:

﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ بخلافه على الأوَّل، فإنّه يتعلّق بمحذوف نعت ثان لـــ«رَجُل»، ويجوز تعليقه بـــ«يَكتُمُ» ولو على الأوَّل، واعترض تعليقه

بـ«يَكْتُمُ» بأنّ كتَم يتعدَّى بنفسه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء: ٤٢) ، وأجيب بأنّه ذكر في المصباح أنّه يتعدَّى لاثنين، وأنّه تجوز زيادة «مِنْ» في المفعول الأوَّل، لكن فيه فرعان التقدُّم والتعدِّي بـ«مِن»، وهو قليل، أو تأويل «مِنْ» بـ«عن» لتضمُّن «يَكْتُمُ» معنى يستر، وظاهر قوله: «يَاقَوْمِ» أنّه منهم ويحتمل أنّه سَمَّاهُم قومه لأنّه فيهم.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً﴾ الاستفهام إنكار لصوابيَّة قتله، والمراد: أتقتلونه في المستقبل أو أتقصدون قتله؟ وعليه فقد عبَّر عن السبب بالمسبَّب ﴿اَنْ يَّقُولَ﴾ لأن يقول، أو كراهة أن يقول، لا منصوب على الظرفيَّة في تأويل المصدر، أي: أتقتلون رجلا وقت أن يقول بلا تفكُّر في قوله؟ لأنّه ينوب عن الزمان المصدر الصريح، أو المؤوَّل عن دام، وليس كما ادَّعَى بعض أنّ كل إمام أجازه بل أجازه قليل منهم كابن جنِّي.

﴿رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الشاهدة له الكثيرة.

(نحو) وجمع المؤنَّث السالم ولو كان من جموع القلَّة، لكن يجوز استعماله في الكثرة، ولا سيما إذا كان فيه «ال» فإنَّه لا إشكال، وقد يقال: إنَّه حين قال الرجل ﷺ هذا لم يجئهم موسى إلاّ بقليل. والجملة حال من واو «تَقْتُلُونَ» لا من «رَجُلاً»، لأنّ الاستفهام لم يدخل عليه بل على «تَقْتُلُونَ»، وأجاز بعض ذلك.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ممَّن هو ربُّكم كما هو ربُّه، وهذا استدراج إلى الاعتراف لله تعالى بالربوبيَّة، وتلويح بأنّه من قال ربِّي الله لا يقابل بالقتل، كما في معتادكم أنّ من قال: ربُّنا فرعون لا يقابل بالقتل، ولا سيما أنّه جعل ربَّه من هو ربُّكم، فعليكم أن تكرموه لا أن تقتلوه. واستعمل الرجل تقيَّة على نفسه ما ذكر الله ﷻ عنه بقوله:

﴿وَإِنْ يَّكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ،﴾ إلى قوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾ وهو آخر كلامه ﷺ، ومعنى «عليه كذبه» أنّه لا يتخطّاه وبال كذبه من الله تعالى فضلا عن أن يحتاج في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِنْ يَّكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ،﴾ ولا بدَّ إن لم يصبكم كلُّه. وقدَّم الكذب تليينا لشدَّتهم. والرابط محذوف، أي: يَعِدُكُمُوهُ، أو يعدكم به.

وقيل: البعض هو ما يجيء في الدنيا على تكذيبه كلُّه، والبعض الآخر ما في الآخرة، وليس بعض بمعنى كل كما قيل، واستدلّ له بقوله:

قد يدرك المتأنّي بـــعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل[1]

وقوله:

إنّ الأمور إذا الأحـــداث دبَّرها دون الشيوخ ترى في بعضها خللا[2]

وقوله:

تراك أمكـــنة إذا لـــم أرضـــها أو يرتبط بعـــض النفـــوس حمامها[3]

قلت: البعض في الأبيات على ظاهره لا بمعنى الكلّ، ومراده ببعض النفوس نفسه أو جنس البعض.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فإن كان موسى كاذبا فقد أسرف في شأنه وكذبهُ كثيرٌ أو عظيم فهو كذّاب، فإنّ الله يكفيكم مؤونته، فهو يتولّى إهلاكه.

أو إن كان مسرفا كذّابا لم يقوّه بالبيِّنات، وَلَمَّا قوّاه بها وجب أن تتفكّروا

١- البيت للقطامي في ديوانه، ص٢٥. انظر: المعجم، ج٦، ص٢٦٧.

٢- البيت بلا نسبة في الإنصاف: ج٢، ص٧٦٧. وفي الشواهد، ج٢٦ ص١١٣.

٣- البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه، ص٣١٣. انظر: المعجم، ج٧، ص١٤٣.

وتدركوا الحقَّ، ولعلَّه أراد هذا الوجه وأوهمهم أنَّه أراد الأوَّل تليينا لشدَّتهم، ولوَّح بذكر ذلك إلى أنَّ فرعون مسرف في القتل والفساد، كذّاب في ادِّعاء الألُوهيَّة ليس على هدى من الله ﷻ .

﴿يَاقَوْمِ﴾ يا هؤلاء، وسمَّاهم بالقوم لأنَّه فيهم ومنهم في الدين بحسب ظاهره، ولو لم يكونوا قومه في النسب، ولا سيما إن كان منهم في النسب ﴿لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ عالين على بني إسرائيل ﴿فِي الاَرْضِ﴾ أرض مصر.

﴿فَمَنْ يَّنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِن جَآءَنَا﴾؟ لا تتعرَّضوا لقتله فتهلكوا ويزول ملككم ببأس من الله ﷻ . والاستفهام إنكار، والفاء عاطفة للإنشاء على الإخبار قبله، ولا حاجة إلى تقدير: ألكم الدوام والسلامة؟.

(بلاغة) ونسب الملك والظهور إليهم، وأدخل نفسه معهم في البأس المتوقَّع تليينا لهم وتلويحا بأنَّه مناصح لهم، مريد لهم ما يريد لنفسه جهده، لعلَّهم يعملون بنصحه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد سماعه كلام هذا الناصح ﴿مَآ أُرِيكُمُ﴾ ما أظهر لكم وأدعوكم إليه ﴿إِلاَّ مَآ أَرَىٰ﴾ من قتله، وقتله هو الصواب لا ما قاله الرجل، أو إلاَّ ما أرى من عبادتي وعبادة الأصنام ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمُ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلاَّ سَبِيلَ اَلرَّشَادِ﴾ الصلاح، لم أخف عنكم منه شيئا. وهو كاذب، بل خاف الانتقامَ، لأنَّ له قدرة، وقد اعتاد القتل فيما دون إبطال دينه وإزالة ملكه، وقد صدَّق المنجمين والكهنة في قولهم بذلك، و لم يكذِّبهم فما هذا القول إلاَّ تشجُّع وإزالة للقول عنه أنَّه عاجز.

﴿وَقَالَ اَلذِي ءَامَنَ﴾ الرجل الذي من آل فرعون يكتم إيمانه، وقيل: هو

موسى عليه السلام لقُوَّة كلامه وكثرته، والصحيح الأوَّل وعليه الجمهور، وقُوَّة كلامه وكثرته لا تنكر، فقد ذكر الله تعالى عنه كثرة وقُوَّة إذ قال: ﴿وَقَالَ الذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ .

﴿يَاقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ لتكذيبه ﴿مِّثْلَ يَوْمِ الاَحْزَابِ﴾ الأقوام المتحزِّبين على الرسل وأتباعهم، ويوم الأحزاب الشرُّ الواقع عليهم، يقال: يوم كذا للوقيعة من حرب أو غيرها، وهو حقيقة عرفيَّة عامَّة، والإضافة للجنس، فاليوم في معنى الأيَّام، أي: وقائع الأحزاب.

وقيل: يوم على ظاهره من الزمان، فيقدَّر مضاف، أي: مثل حوادث يوم الأحزاب، أي: أيَّام الأحزاب.

﴿مِثْلَ﴾ عطف بيان، أو بدل من «مِثْلَ» ﴿دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: مثل جزاء دأبهم، أي: عادتهم الدائمة في الكفر بنوح وفي إيذائه، أو الدأب سنَّة الله في قوم نوح، وهي عذابه.

﴿وَعَادٍ﴾ في إيذاء هود ﴿وَثَمُودَ﴾ في إيذاء صالح ﴿وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط، عادة هؤلاء كلِّهم الكفر وإيذاء الرسل وأتباعهم إلى أن أهلكهم الله لذلك.

﴿وَمَا اَللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ نفي إرادة الظلم هنا أبلغ من نفي الظلم، في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصِّلت: ٤٦) ، ومن كان بعيدا عن إرادة فعل الشيء كان أبعد من فعله، فهو تبارك وتعالى بعيد عن إرادة ظلم مَّا، فإهلاكه عدل لكفرهم.

ويبعد أن يكون معنى الآية: وما الله يريد للعباد ظلم بعض بعضا، كقوله: ﴿وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (سورة الزمر: ٧) ، فأهلك الله هؤلاء لظلمهم لغيرهم.

و«لِلْعِبَادِ» معمول لـ«ظُلْمًا» كما في التفسير الأوَّل، أو لـ«يُرِيدُ».

﴿وَيَاقَوْمِ﴾ كرَّر النداء لزيادة التنبيه والإيقاظ عن سِنَة الغفلة، وجيء بالواو في هذا النداء الثالث دون الثاني، لأنَّ الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل خلاف الثالث ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي﴾ يوم القيامة ينادي فيه الناس بعضهم بعضا للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، فسمَّى التصايح نداء، لأنَّ بعضا يصايح إلى بعض كصورة النداء، أو سمِّي يوم القيامة يوم التنادي لأنَّه ينادى فيه: ألا إنَّ فلانا قد سعد سعادة لا يشقى بعدها، وإنَّ فلانا قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها.

أو سمِّي لأنَّه ينادى فيه: يا أهل الجنَّة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، وذلك حين يمثَّل لهم الموت بكبش ويذبح[1]، وفيه لا تفاعل في ذلك.

(بلاغة) ولعلَّ صيغة التفاعل تأكيد أو تشبيه لنداء أصحاب الجنَّة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنَّة، كما في سورة الأعراف [ابتداء من آية ٥٠] قيل: أو لأنَّ الخلق ينادون إلى المحشر، ويبحث بأنَّه لا تفاعل فيه، فإنَّه نداء لا تنادٍ، فيحتاج إلى التجوُّز بأنَّ ذلك يشبه نداء بعض بعضا، أو بالمبالغة في النداء.

أو لنداء المؤمن: ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الحاقة: ١٩)، والكافر ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ اوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الحاقة: ٢٥)، وفيه البحث المذكور، وعن ابن عبَّاس: ينادي الناس بعض بعضا عند نفخة الفزع في الدنيا، وروي هذا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، وقيل: يحتمل كلَّ نداء واقع على الكُفَّار في الموقف، وفيه البحث المذكور.

﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يَوْمَ التَّنَادِي» ﴿تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن الموقف إلى النار،

١- يشير الشيخ إلى الحديث المتقدِّم في ج١٠، ص٣٨٧.

أو عن النار إذ سمعوا زفيرها فلا يأتون قطرا إلاّ وجدوا فيه الملائكة صفًّا فيرجعون، وَيَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اَللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع من النار لا ينفعكم الفرار عنها، وقيل: لا رادَّ لكم عن النار إذ سُقتم إليها. و«مِنَ اللهِ» متعلّق بـــ«عَاصِمٍ» و«مِنْ» الثانية صلة، والجملة حال من واو «تُوَلُّونَ» أو من المستتر في «مُدْبِرِينَ».

﴿وَمَنْ يُّضْلِلِ اللهُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَمَا لَهُ، مِنْ هَادٍ﴾ أتمّ كلامه بهذا حين أيس منهم، وزاد ما ذكر الله ﷻ عنه بقوله:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو ابن يعقوب عليهما السلام، وكان فرعون في زمان يوسف، وطال عمره إلى زمان موسى، وقد قيل: بين موت يوسف وولادة موسى أربع وَستُّونَ سنة، وهذا قليل يدركه فرعون وغيره مِمَّن لم يقصر عمره، والظاهر أنّ بين يوسف وموسى أضعاف ذلك.

وعن مالك: إنّ فرعون عمّر أربعمائة وأربعين سنة، فيكون قد لقي يوسف وحده لا مع قومه، إذ لم يعمّروا ما عمّر فخاطبه بخطاب الجماعة لأنّه كبيرهم، أو مجيء يوسف بالبيِّنات لهم مجيء وسائطه إليهم بعده، ووجه مناسبة يوسف لهم أنّه في مصر وهي بلد فرعون.

وقيل: فرعون موسى فرعون يوسف طال عمره أربعمائة وأربعين، **والمشهور غير ذلك**، وأنّ فرعون يوسف مات في حياة يوسف، واسمه الوليد من العمالقة، وفرعون موسى اسمه الريان من القبط، وقيل: المراد في الآية يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، أرسله الله إليهم وقام فيهم عشرين سنة.

﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الأمور الدَّالّة على صدقه ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ﴾ من دين الله تبارك وتعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾

مات ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَّبْعَثَ اَللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ هذا إقرار بثبوت الرسالة في الجملة، وبصحَّة رسالة يوسف، مع أنَّه قد مرَّ أنَّهم شكُّوا فيها، وذلك متناقض.

والجواب أنَّهم أرادوا أنَّه لن يبعث الله من بعده رسولاً مشكوكًا فيه، كما شككنا فيه، أي: في يوسف، ولا رسولا مقطوعًا برسالته، وليس كما قيل: إنَّ المعنى تكذيب رسالته ورسالة غيره، أي: لا رسول فيبعث، لأنَّ قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِ﴾ يعارض ذلك، وذكر بعض أنَّهم أظهروا الشكَّ في وقت حياته وهم معتقدون لرسالته، وأقرُّوا بها بعد موته، ونفوها عمَّن بعده، وهو غير متبادر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في المعاصي ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ في دينه، إنهماكا في التقليد مع قيام الحجَّة. وهو اسم فاعل أصله «مرتيب» بكسر الياء قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح.

(نحو) ﴿الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ عطف بيان على «مَنْ»، أو بدل منه، قيل: أو نعت له كما تنعت من النكرة، ويجوز ـــ على ضعف ـــ أن يكون مبتدأ خبره جملة: «كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ...»، والمراد: يطبع على قلوبهم، فوضع لفظ «مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» موضع ضميرهم، وما بين ذلك معترض، ويجوز أن يكون مبتدأ على حذف مضاف، أي: الجدال للذين، وَلَكِنَّ المضاف إليه منوي في فاعل «كَبُرَ» هو الرابط، أي: كبر جدالهم.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ دليل، متعلّق بـــ«يُجَادِلُ» ﴿اَتَاهُمْ﴾ نعت «سُلْطَانٍ»، أي: بغير دليل نقليٍّ آتٍ من الله تعالى على يد رسول، ولا دليل عقليٍّ أُفيض على قلوبهم.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اَللَّهِ وَعِندَ اَلذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: كبر ذلك الجدال لأنَّه في آيات الله بلا حجَّة، وقيل: كبر من هو مسرف مرتاب.

(نحو) واعترض بأنّ فيه مراعاة اللفظ، فكان الإفراد بعد مراعاة المعنى، فكان الجمع بـ«الذِينَ يُجَادِلُونَ»، وذلك مجتنب كما نقله ابن الحاجب[1]، وهو واضح ينبغي تسليمه ومساعدته، لا كما قيل بجوازه بلا ضعف، ووجه إسناد الكبر للذات على هذا القول التمييزُ، أي: كبر مقتهُ، فإن «مَقْتًا» تمييز مُحوَّلٌ عن الفاعل، إلاّ أنّه لم يشهر إسناد الكبر للذات المشخَّصة على طريق باب نعم، ومعناه كما شهر الجنس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإضلال، وإنّما لم أقل: كذلك الطبع لأنّ الإضلال المذكور فيهم لم يَتَقَدَّم ذكره بلفظ الطبع، نعم يجوز على طريق الإدماج بالتنبيه على أنّه طبع.

﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ وصف صاحب القلب بأنّه متكبِّر عن الحقِّ متعدٍّ عن الغير، كما يوصف القلب به لأنّه يتكبَّرُ الإنسان ويتجبَّرُ بقلبه، كما في قراءة تنوين «قلب»، فإنّ في قراءة تنوينه وصف القلب بأنّه متكبِّرٌ جبَّار، لأنّ القلب منبع التكبُّر والتجبُّر، كما وصف بالإثم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٣) ، لأنّه منبع الإثم، وذلك كسَمِعَتْهُ الأُذُن، فإنّ الأذن لم يستقلّ بالسمع، وكذا القلب لم يستقلّ بالإثم والتكبُّر والتجبُّر، وبالطبع يصير مجادلا في آيات الله ويرتاب ويسرف.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾

١- تقدَّم التعريف به، انظر: ج٨، ص٤٠٧.

-٣-

بحث فرعون عن إله موسى استهزاء وإنكارًا لرسالته

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ بناء صريحا ظاهرا ﴿لَّعَلِّيَ أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ الطرق أو الأبواب، وكلُّ ما يتوصَّل به إلى الشيء سبب ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ عطف بيان، أبهم ثمَّ بيّن للتفخيم والتشويق إلى معرفة المبهم. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ عطف على «أَبْلُغُ».

(صرف) والافتعال أبلغ من الفعل في العظم، أو بالعلاج، فالأصل: «أطتلع» أبدلت التاء طاء وأدغم فيها الطاء.

[قلت:] ولعلّه أراد بناء عاليا في موضع عالٍ يرصد به أحوال الكواكب ليستدلَّ بها على حوادث الأرض فينظر هل فيها إرسال الله ﷻ موسى، وكان يعتقد وجود الله سبحانه، وله ولأهل عصره اعتناء بالنجوم، ولا بُعد في هذا.

ولكن أولى منه أنّه أراد إيهام الناس أنَّ موسى يقول: إنّه يلتقي مع الله ويأخذ منه، وهذا بعيد لبعد السماء عن وصول موسى إليها فإنّه كاذب، حاشاه عن الكذب وحاشا الله أن يكون في السماء، أو أراد نفي الأُلوهيَّة، لأنّه لم ير شيئا في الأرض يحكم له بأنّه إله ولا يعلم ما في السماء إلاّ بالطلوع إليها، ولا نطيقه فلا نثبت إلها بلا علم، فأمر ببناء الصرح لإظهار عدم الإمكان.

(بلاغة) ولفظ «لَعَلَّ» تهكُّم لا ترجٍّ، وذلك شبهة منه لعنه الله ﷻ، إذ لا يلزم من انتفاء القدرة على الطلوع إلى السماء انتفاء وجود الله فيها.

(أصول الدين) والله منزّة عن أن يحلَّ في السماء أو العرش أو غيرهما أو في الزمان، ولعلّه سمع أنَّ موسى يقول بعلوِّ الله تعالى ورفعته وظنَّ أنَّ ذلك علوُّ مكان.

﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ، كَاذِبًا﴾ في دعوى الرسالة، أو في أنّ الله موجود، ولا إله غيري ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّن اِلَهٍ غَيْرِي﴾ (سورة القصص: ٣٨) ، أو فيهما معا ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّـنَ﴾ كما أضلّه الله بما يقول، ولم يقل: وكذلك التزيين، لأنّه لم يَتَقَدَّم ذكر إضلاله بلفظ التزيين، إلاّ أن يقال بأن ذلك تدميج بالتنبيه على أنّه تزيين، زيَّن له الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة النمل: ٢٣) ، أو زين الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿زَيَّـنَّا لَهُمُ، أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة النمل: ٤) .

﴿لفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِه﴾ فاتَّسعَ فيه ﴿وَصَدَّ﴾ الناس بتمويهاته، أو أعرض بنفسه ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ دين الله الذي هو أحقُّ باسم الرشاد. ﴿وَمَا كَيْدُ﴾ حيله في تكذيب موسى وتصديق نفسه وإرادة القتل ﴿فِرْعَوْنَ إلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ خسار، لم يؤثّر في موسى بشيء.

﴿وَقَالَ الَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

-٤-

متابعة الرجل المؤمن نصحه لقومه وإثبات عذاب القبر

﴿وَقَالَ الذي ءَامَنَ﴾ وهو مؤمن آل فرعون، لا موسى كما قيل. ﴿يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ فيما أقول لكم ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ دين الله الذي من تمسَّك به نجا من الضيعة والبطالة المهلكين إلى الفوز بالخير الدائم الأعلى، وفيه تعريض بأنَّ فرعون وقومه على غير الرشاد، ثمَّ إنَّ المعنى: أذعنوا لاتِّباعي فأقول لكم ما تهتدون به، أو اتَّبعوني فيما أقول يحصل أنِّي هديتكم.

﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾، أي: متاع هذه الحياة الدنيا، أي: التمتُّع ﴿مَتَاعٌ﴾ تمتُّع يسير، يزول بالموت وغيره ﴿وَإِنَّ الاَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الثبات الدائم.

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّئَةً﴾ معصية لم يتب منها ﴿فَلاَ يُجْزَىٰ﴾ في الآخرة ﴿إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ مقابلها ومعادلها من العذاب.

﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ في الدنيا ﴿صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ﴾ أي: موحِّد، ولم يبطله بالإصرار، وأمَّا المشرك فيجازى في الدنيا على حسناته ﴿فَأُوْلَٰئِكَ﴾ الذين عملوا الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهي وما فيها فوق ما عملوا بأضعاف لا تنتهي، لا مثل ما عملوا. وفي ذكره ذلك لهم ترغيب.

﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمُ، إِلَى النَّجَوٰةِ﴾ إلى موجب النجاة من سوء الدنيا والآخرة، وهو التوحيد والعمل الصالح ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ أي: إلى موجبها وهو الإشراك، باتِّخاذ الأصنام والمعاصي، وحذف المضاف في الموضعين كما رأيت، أو سمَّى الموجب للنجاة والموجب للنار باسم لازمهما ومسبَّبهما وهو النجاة والنار.

(بلاغة) والنداء في المواضع تأكيد، و لم يعطف الثاني وهو قوله: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ لأنَّه تفصيل لما أجمل في الأوَّل، فإنَّ الهدى إلى سبيل الرشاد تحذير من الإخلاد إلى الدنيا، وإيثار للآخرة، وعطف في الثالث لأنَّه للموازنة بين دعوته إلى دين الله ودعوتهم إلى الإشراك، وإن عطف على الثاني كان له دخل في تفصيل الإجمال، وهو ظاهر، فإنَّه كما هو لتحقيق أنَّه هاد وأنَّهم مضلُّون كذلك هو لتحقيق أنَّ الهداية لخلق الله رشاد وإضلالهم غيٌّ.

﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ﴾ بدل من «تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ» ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ بشركته ﴿عِلْمٌ﴾.

(بلاغة) أراد بنفي العلم المعلوم، أي: لا شركة له فضلا عن أن أعلم أنَّها موجودة، كقوله: «ولا ترى الضبَّ بها ينجحر»، أي لا ضبَّ فيها فضلا عن أن يكون له فيها جحر، وانتفاء الشيء سبب لأن لا يكون معلوما وملزوما له، وَالأُلُوهيَّة لا بدَّ لها من علم بدليل.

﴿وَأَنَآ أَدْعُوكُمْ، إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ خوَّفهم بعزَّته تعالى، وأطمعهم بأنَّه غفَّار، فلا ييأسوا. ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ، دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الاَخِرَةِ﴾.

(نحو) «لاَ» عند البصريين نافية لما قبلها، أي: لا يثبت ما ذكر من الإشراك، أو لا يحقُّ، و«جَرَمَ» بمعنى ثبت وحقَّ. و«أَنَّ» وما بعدها في تأويل مصدر فاعل «جَرَمَ»، أي: ثبت انتفاء ثبوت دعوة في الدنيا والآخرة لما تدعونني إليه.

ومن حقِّ المعبود بالحقِّ أن يدعو الأنبياء إلى عبادته، وأن يأمروا غيرهم بها، والأصنام لا تدعو إلى ذلك، لأنَّها جماد، وذلك في الدنيا وأمَّا في الآخرة فتحضر الأصنام ولا ترضى بذلك وتتبرأ منه.

(نحو) أو «جَرَمَ» بمعنى كسب، وفاعله ضمير الدعاء و«أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي...» مفعول به في التأويل، أي: كسب دعاؤكم إيَّاي إلى آلهتكم انتفاء دعوة لها، أي: ما حصل إلاَّ ظهور عدم دعوتها، و«لا» عائدة لما قبل كما مرَّ.

(نحو) وقيل: «لاَ» لما بعد، و«جَرَمَ» اسمٌ لا فعلٌ، وهو اسم لـ«لاَ» عاملة عمل إنَّ، ومعناه القطع، والخبر أَنَّ وما بعدها في التأويل، أي: لا قطع لانتفاء ثبوت دعوة لما تدعونني إليه من أُلوهِيَّة الأصنام. والحاصل: لا قطع لبطلان أُلوهِيَّة الأصنام، أي: لا ينقطع بطلانه، فمعناه: لا بدَّ من بطلان دعوة الأصنام.

ونسبة الدعوة باللام من «لَهُ» في ذلك إلى الفاعل، ويجوز أن تكون إلى المفعول، لأنَّ الكُفَّار يدعون آلهتهم، فنفى في الآية دعاءهم إِيَّاهَا على معنى نفي إجابتها لدعائهم إِيَّاهَا، أي: ما تدعونني إليه من الأصنام ليس له استجابة دعوة لمن يدعوه، بأن سَمَّى الاستجابة بالدعوة، لأنَّ الدعوة سببها، كما سَمَّى الفعل المجازى عليه بالجزاء في قوله: «كما تدين تدان»، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ...﴾ (سورة النحل: ١٢٦) .

أو ليس له دعوة مستجابة، أي: لا يدعى دعاء يستجيبه لداعيه، لأنَّه لا يتكلَّم، أو الأصنام لا تدعو إلى عبادتها ولا تدَّعي الرُّبُوبِيَّة، والإله يدعو إلى عبادته ويقول: أنا الربُّ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ مصدر ميميٌّ، بمعنى ردَّنا ﴿إِلَى اللهِ﴾ وفي الإخبار بـ«إِلَى اللهِ» تقوية الإخبار بـ«عن معاصي الله» وبـ«على طاعة الله»، في قوله عليه السلام: **«لا حول عن معاصي الله إلاَّ بعصمة من الله، ولا قُوَّة على**

طاعة الله إلاّ بعون من الله»[1]، وإن نوَّنت حولاً وقُوَّةً بالنصب علّقت بهما الظرفين، وقيل: يجوز تعليقهما بذلك ولو لم ينوَّن، تشبيها بالمضاف الذي لا ينوَّن.

﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فسَّر ابن مسعود ﷺ المسرفين بالسفّاكين للدماء، فيكون الرجل المؤمن ختم كلامه بما بدأ به، إذ قال: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً»، إلاّ أنّ الختم تعريض، إذ لم يقل: وإنّ السفّاكين للدماء هم أصحاب النار، والبدء تصريح.

وعن قتادة: هم المشركون، لأنّ الإشراك إسراف في الضلال، وقال عكرمة: الجبَّارون المتكبِّرون، وقيل: كلُّ من غلب شرُّه خيره فهو مسرف، مشرك أو موحِّد، **وهو أولى.**

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ يحضر ذكره في قلوبكم يوم القيامة، نادمين إن لم تتوبوا، وهذا تفريع على قوله تعالى: **﴿وَيَا قَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ﴾**. **﴿مَآ أَقُولُ﴾** في هذا الحال **﴿لَكُمْ﴾** من توحيد الله وعبادته **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللهِ﴾** ليعصمني من شرِّكم وشرِّ كُلِّ شيء، وقد توعَّدوه بالقتل.

﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به، ويعتصم ممَّا يكره، ويعاقب الظالم، وهذا آخر كلام المؤمن، وقيل: **﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾** من كلام الله ﷻ، فقوله ﷻ : **﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ﴾** تفريع عليه، وعلى أنَّه من كلام الرجل المؤمن يكون تفريعا على قوله تعالى: **﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾**. و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي: سيِّئات مكرهم، والسيِّئات: الأمور التي تسوء من أصابت،

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر تفسير الآية رقم ١ من سورة الزمر في هذا الجزء، ص٢٣١.

كالإضلال والقتل.

﴿وَحَاقَ﴾ أحاط ﴿بِئَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فوعون وقومه، كما يقال: الآدميُّون، ويراد آدم وذرِّيته، وكما قيل في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ (سورة سبأ: ١٣) ، إنَّه شامل لداود وقومه، أو المراد ظاهره، فيدخل فرعون بالأولى، لأنَّه المضلُّ لهم.

﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الإضافة بمعنى اللام، أي: السوء الذي هو العذاب، لأنَّ السوء يكون عذابا وغير عذاب، أو بيانيَّة، أي: سوء هو العذاب، أو إضافة صفة لموصوف، أي: العذاب السوء.

قيل: كان آل فرعون ألفي ألف وستُّمائة ألف غير الأطفال والنساء والضعفاء بمرض أو كبر أو علّة، والله أعلم بصحَّة ذلك، أصابهم الغرق، وهو سوء العذاب، أو ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾: نار، فتعمُّ النساء والضعفاء أيضا.

(قصص) وروي أنَّ فرعون توعَّد بقتل الرجل المؤمن، فهرب إلى الجبل، فبعث في طلبه ألف رجل فمنهم من أدركه وهو يصلّي، والسباع تحرسه فأكلتهم، ومنهم من مات في الجبل عطشا، ومنهم من رجع خائبا فاتَّهمه وقتله وصلبه. فالمراد على هذا بـ«آل فرعون» هؤلاء الألف لا فرعون معهم، فتكون الإضافة للجنس لا للاستغراق، ويكون ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾: أكل السباع والموت عطشا والقتل.

(نحو) ﴿النَّارُ﴾ مبتدأ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ خبر، وإذا قلنا «سُوءُ الْعَذَابِ»: نار الآخرة فـ«النَّارُ» بدل من «سُوءُ الْعَذَابِ». و«يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا» حال من لفظ «النَّارُ»، أو من لفظ «آلِ»، أو مستأنف.

(بلاغة) والعَرْضُ استعارة بالكناية، شبِّهت النار بعاقل يعرض عليه الشيء

فيقبله أو يردُّه، فرمز لذلك التشبيه بالعرض، وهو استعارة تخييلَّية، ولا يختصُّ العرض بأن يكون لطالبٍ نفس الشيء المطلوب كما توهمه عبارة بعض، أو الكلام استعارة تمثيلَّية، وذلك من باب قولهم: عرض الإمام الأسرى على السيف.

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قبل يوم القيامة، وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنَّة فمن أهل الجنَّة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتَّى يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة**»[1].

والعرض لأرواحهم في أجواف طير سود مرَّتين في كلِّ يوم، كما جاء الحديث به، وروي موقوفا: وتلك الطيور تصوَّر من أعمالهم.

أو بكرة وعشيًّا: عبارة عن الدوام لا خصوص الوقتين، وعلى خصوص الوقتين لا يعذَّبون في غيرهما، وهو المتبادر، أو يعذَّبون بغير النار، ولعلَّ المراد مقدار ذلك على الأوَّل وإلاَّ ففي أيِّ مكان يعتبر الوقتان، فإنَّهما لا يتَّحدان في الأرض كلِّها، وقد يقال: يعتبران في بلادهم التي كانوا فيها.

وفي البيهقي: «إنَّ لأبي هريرة كلَّ يوم صرختين، صرخة أوَّل النهار: ذهب الليل وجاء النهار، وعرض آل فرعون على النار، وصرخة أول الليل ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمع أحد صوته إلاَّ استعاذ بالله من النار»[2]. وأبو هريرة يمثِّل بغدوِّ المدينة وعشيِّها، أو البلد الذي هو فيه، ولعلَّ الغدوَّ والعشيَّ غدوُّ مكَّة وعشيُّها، إذ هي بلد نزول الآية.

١- رواه **النسائي** في كتاب الجنائز، باب وضع الجريد على القبر، رقم٢٠٧٢. وراه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم٤٢٧٠. من حديث ابن عمر.

٢- أورده **البيهقي** في شعب الإيمان، الكتاب التاسع دار المؤمنين ومأواهم الجنَّة... باب فصل في عذاب الله رقم٤٠٠. عن ميمون بن ميسرة.

(أصول الدين) والآية دليل على ثبوت عذاب البرزخ فيما قيل، لَكِنَّ الآية في الأرواح، ووردت أخبار بثبوته للأبدان وفيها أرواحها، وذلك قبل قيام الساعة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا﴾ يقول الله ﷻ للملائكة: «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا» ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون وأتباعه على حدِّ ما مرَّ ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ هو عذاب جهنَّم لأبدانهم وأرواحهم، وهو أشدُّ من عذابهم قبل ذلك غدوًّا وعشيًّا، أو أشدَّ عذاب جهنَّم، لأنَّ بعض عذابها أشدُّ من بعض. قيل: أشدُّ عذابها عذاب الهاوية. وقيل: «يَوْمَ» متعلّق بـ«أَدْخِلُوا»، ولا بدَّ مع هذا أيضا من تقدير القول، فيضعفه عطفه على «عَشِيًّا» أو «غُدُوًّا» فيقدَّر القول أيضا.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَـٰٓؤُا الْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

المخاصمة بين الرؤساء والأتباع في النار

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ﴾ اذكر إذ، والعطف لـ«اذكر» على ما قبلُ عطفَ قصَّة على أخرى، لَكِنَّ الأصل عدم مجرَّد عطف القصَّة على أخرى، فنحتاج إلى تقدير معطوف عليه هكذا: اذكر ما تلي عليك من أمر موسى عليه السلام وفرعون، ومؤمن آل فرعون، وإذ يتحاجون، لا على ﴿يَغْرُرْكَ...﴾ (الآية: ٤) ، بتقدير اذكر، أي: لا يغررك...الخ واذكر إذ يتحاجُّون، أو على ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ (الآية: ١٧) ، لبعدهما، ويضعف عطف «إِذْ»

على «إِذْ» من قوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾.

وواو «يَتَحَاجُّونَ» لآل فرعون، أو لكفّار قريش، أو كفّار الأمم، وهو أولى عند بعض. والتحاجُّ: التخاصم، وفصَّله بقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَآءُ﴾ الأتباع ﴿لِلذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾ الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَبَعًا﴾ في دينكم الباطل تقليدا لكم وخوفا، والمفرد تابع، كخادم وخدم، وهو قليل فلعلَّه مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: تابعين، أو بتقدير مضاف، أي: ذوي تبع، أو بلا تأويل مبالغة كأنَّهم نفس التبع.

﴿فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ تدفعون عنـــا بقوَّتكم بعض العذاب، أو تعذَّبون أنتم بدلنا، أو تزيلونه بوجه مَّا.

(نحو) وعدِّي لتضمُّنه معنى الدفع أو الحمل، أو النصب بحال محذوفة، أي: دافعين أو حاملين نصيبا، و«مِنَ النَّار» نعت، أو النصب على المفعوليَّة المطلقة، أي: إغناء، فيتعلَّق «مِنْ» بقوله: ﴿مُّغْنُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ، أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا﴾ (سورة آل عمران: ١٠) ، أي: إغناء، كذا قيل، ويمكن أنَّ «تُغْنِي» بمعنى تدفع فيكون «شَيْئًا» مفعولا به.

﴿قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾ للأتباع ﴿إِنَّا﴾ إيَّانا وإيَّاكم ﴿كُلٌّ فِيهَآ﴾ «كُلٌّ» مبتدأ، أي: كلُّنا، و«فِيهَا» خبر، والجملة خبر إنَّ، أي: كيف ندفع عنكم ونحن معكم فيها ؟ لو وجدنا قدرة لدفعنا عن أنفسنا. أو «كُلٌّ» خبر و«فِيهَا» متعلّق به، بمعنى: مجموعون فيها، أو نعت لـــ«كُلٌّ»، أي: فريق أو جماعة ثابتون فيها.

﴿إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فريق في الجنَّة وفريق في السعير، لا يتبادلون ولا يغني أحد عن أحد.

﴿وَقَالَ الذِينَ فِي النَّارِ﴾ المستكبرون والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ الملائكة

القائمين بإيقادها وتعذيب من فيها، وتطبيقها وسائر أحوالها.

(بلاغة) ولم يقل: لخزنتها بردِّ الضمير إلى النار للتهويل، ولأنّ جهنّم أخصُّ من لفظ النار، ولو كان المراد نار الآخرة، ولأنّها محلٌّ لأشدِّ العذاب الذي هو النار وغيرها. وجهنّم في القرآن تطلق على جميع طبقاتها وكلُّها صالح لمعنى البئر البعيدة القعر، ولا يثبت أنّها الطبقة السفلى، فيقال: ذُكِرت لبيان أنّهم في السفلى لأنّهم أشدُّ ضلالا وأنّ ملائكتها أقرب إلى الله من سائر الخزنة.

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ في مقدار يوم من أيّام الدنيا ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ متعلّق بـ«يُخَفِّفْ» لتضمُّن معنى يسقط، أو بمحذوف نعت لمحذوف، أي: شيئا ثابتا من العذاب، أو «يَوْمًا» مفعول به على حذف مضاف، أي: عذاب يوم، أي: يسقطه.

﴿قَالُواْ أَوَ لَمْ تَكُ تَأتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ مثل قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّأتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ (سورة التغابن: ٦) ، وعلى الحذف يقدَّر: ألم تخبروا بهذا اليوم ولم تك تاتيكم رسلكم؟ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ...﴾ (سورة الزمر: ٧١) ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات المتلوّة والمعجزات الدَّالّة على أنّه إن لم تؤمنوا بها تعاقبوا بهذا العذاب.

﴿قَالُواْ﴾ أصحاب النار ﴿بَلَىٰ﴾ ليست لم تأتنا بل أتتنا، كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا...﴾ (سورة الملك: ٠٩) ، ﴿قَالُواْ﴾ الخزنة ﴿فَادْعُواْ﴾ إذا كان الأمر كذلك فادعوا الله أنتم، فإنّه لا يجوز لنا الدعاء لكم بالتخفيف ولا يؤذن لنا فيه.

ويجوز أن يكون قولهم: «ادْعُوا» تهكُّما بهم، وعلى كلّ حال المراد بقولهم: «ادْعُوا» الإقناط لا الإطماع في الإجابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ﴾ عموما وأنتم منهم أوّلا وبالذات، أو ما دعاؤكم، فأظهر ليصرِّح

بموجب ضلال دعائهم ﴿إلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ بطلان عن الإجابة.

وهذا من كلام الخزنة كما يتبادر، وقيل: من كلام الله تعالى في حال أنَّهم في النار، والأوَّل أولى إذ كان قبله الدعاء، وإذ الأصل في المعطوف والمعطوف عليه أن يكونا من واحد، ودعاء المشرك في الدنيا قد يستجاب كما وردت أخبار به [وخاصة إذا كان مطلق مًّا]، لا كما قيل: لا يستجاب، وأمَّا الذي في الآية فإنَّه في الآخرة لا يستجاب فيها إجماعا.

ولا يصحُّ ما قيل: المراد وما دعاء الكافرين في الدنيا، كما لا يخفى، وإذا وقع مطلوبه في الدنيا بعد دعائه صحَّ أن يقال: إنَّه أجاب الله له، وقيل: لا لوجهين: كون الإجابة إقبالا عليه، وكونه لا يدري لعلَّ ذلك بغير إجابة، وقد طلب إبليس الإنظار فأُنظِر، وقد يكون ذلك للمسلم إجابة، وقد لا يكون إجابة.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ۝٥٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ۝٥٤ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ۝٥٥ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦﴾

تأييد الله الرسل في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بهم أو بنا، والمأصدق واحد، والمعنى: إنَّ نصرنا مستمرٌّ للرسل وأتباعهم ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجَّة والظفر والانتقام بقتل الكفرة والسبي والاستـــئصال، وإذا غلبهم الكفرة فالعاقبة لما بعد من الانتقام لهم

بعدُ، ولو بعد موت الأنبياء والمؤمنين، أو يعتبر الغالب، أو تعتبر الغلبة بالحجَّة مع غيرها تارة، والحجَّة وحدها تارة، أو هذا المعنى واقع في جنس الرسل لا فيهم كلِّهم ولا في الدنيا كلِّها، فإنَّ الظرف لا يستوعب المظروف وبالعكس.

﴿وَيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُومُ الاَشْهَادُ﴾ الشاهدون للرسل بالتبليغ، جمع شهيد بمعنى شاهد، كأشراف وشريف، أو جمع شاهد كأصحاب وصاحب، أو جمع شَهْد بالإسكان، كصَحْب وأصحاب.

[قلت:] ولا يتبادر ما قيل: الأشهاد الجوارح تنطق بما فعل صاحبُها، لأنَّ الأصل الشهادة باللسان، أو جمع شاهد بمعنى مشاهد فإنَّ عذابهم يشاهده أهل الموقف، كلٌّ يشاهد الآخر، وهذا أشدُّ نصرة للمؤمنين، وكذلك الأوَّلون والآخرون يحضرون لإقرار الرسل بالتبليغ.

﴿يَوْمَ﴾ بدل «يَوْمَ» ﴿لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين أو مطلقا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يعتذرون ولا يقبل عذرهم لبطلانه، أو لا يقع منهم ما هو عذر، فضلاً عن أن يقبل.

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: عليهم البعد من رحمة الله، أو اللام للاستحقاق، وحكمتُها أنَّها بصورة الانتفاع للتهكُّم عليهم، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء الموقف، أُطلق عليه الدار لأنَّه كدار الدنيا، وسُوءُهُ أن يحكم عليهم فيه بأنَّهم للنار ويساقون إليها، أو الدار جهنَّم، وسوءها عذابُها، والإضافة بمعنى اللام، أو إضافة صفة لموصوف، أي: الدار السوء.

(صرف) وذكر السوء لأنَّه في الأصل غير صفة، أو هو في الأصل مصدر، وهو في معنى السوأى بألف التأنيث كالفضلى، أي: الدار السوأى.

﴿وَلَقَدَ ـــ اتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ التوراة والصحف والشرائع والمعجزات،

سمّاهنَّ هدى لأنهنَّ آلاته، أو مبالغة كأنّهن نفس الهدى.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة، وهذا تخصيص بعد تعميم، فإنَّ التوراة بعض ذلك الهدى، وما أُوتي موسى قد أوتوه، ويحتمل أنَّ الهدى ما عدا التوراة، وإيراثهم إعطاؤهم ذلك في حياة موسى مستمرًّا بعده، وهذا أولى من أن يعتبر ما بعد موته، بمعنى أنّه مات وخلّفها فيهم.

(بلاغة) على أنَّ الإيراث مجاز مرسل عن التمليك والإعطاء، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو استعارة أَصليَّة، أشتقَّ منه أورث على التبعيَّة، أو الكتاب التوراة والصحف والزبور والإنجيل لأهنَّ كلّهن على أنبياء بني إسرائيل.

﴿هُدًى﴾ هداية **﴿وَذِكْرَىٰ﴾** تذكيرًا لغيرهم أو اهتداءً وتذكُّرًا لأنفسهم، والنصب على التعليل، أو على الحال من «الْكِتَابَ»، بمعنى هاديا ومذكِّرًا **﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾** خصُّوا لأنّهم المنتفعون.

﴿فَاصْبِرِ﴾ إذا عرفت ذاك فاصبر على إيذاء المشركين والتبليغ **﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾** لك وللمؤمنين بالنصر المذكور في قوله تعالى: **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾**، أو وَعد الله مطلقًا، فيدخل فيه وعده بالنصر للنبيء ﷺ والمؤمنين **﴿حَقٌّ﴾** ثابت لا يتخلّف.

(أصول الدين) **﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾** قال بعض: ما هو ذنب صدر منك قبل النبوءة من الصغائر، على أنّها تقع من الأنبياء قبلها، **والصحيح أنّها لا تقع**، وقيل: ذلك تعبُّد من الله تعالى، **لأنَّ الطاعة إمَّا التوبة عمَّا لا ينبغي وإمَّا اشتغال بما ينبغي.**

والواضح أنَّ المراد: ما هو ذنب في شأنك، لشرف رتبتك و لم يكن ذنبا في حقِّ غيرك، مثل ترك الأَوْلى، ومثل أن يهتمَّ قلبك ويتألَّم بأمر العدوِّ، أو مثل أن

يخطر فيه أن ينصرك عمَّاك حمزة والعبَّاس، وتذهل عن أن الله كافيك في النصر، و لم تستحضره في الحين، **وذلك تعليم للأمَّة.**

وقيل: لذنب أمَّتك المسلمين، وقيل: لذنب أمَّتك في حقِّك، وفيه أنَّه لا يجوز له أن يستغفر لذنوب المشركين، وإن أريد ذنوب المسلمين في حقِّه جاز بمعنى تقصيرهم في حقِّه، فباعتبار أنَّهم سلبوا حقَّه في ذلك. زعم بعض أنَّ الإضافة للمفعول، أي: لإثمهم في حقِّك، وليس هذا مِمَّا يصحُّ، إذ ليس إضافة للمفعول صناعة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قل سبحان الله والحمد لله، ونحو ذلك، وقيل: دم على عبادة ربِّك، وقيل: صلاة الفجر وصلاة العصر **﴿بِالْعَشِيِّ وَالاِبْكَارِ﴾** الباء الأولى للمصاحبة، والثانية بمعنى في. والإبكار: مصدر ناب عن الزمان، أي: وقت الدخول في البكرة، والمراد عموم الأوقات.

ويجوز أن يراد الوقتان خصوصًا، فيكون التسبيح ركعتين عشيًّا وركعتين بكرةً، ثمَّ نسخن بالصلوات الخمس، كلُّ ذلك في مكَّة، وقيل: فرضت الخمس في المدينة، والصحيح الأوَّل.

ثمَّ المشهور ركعتان فقط قبل النسخ، فنقول: فرضت ركعتان فقط في كلِّ اليوم والليل، على أنَّ المراد بالوقتين العموم.

(فقه) ويجوز على العموم أن يراد الصلوات الخمس ثمَّ رأيته عن ابن عبَّاس وزيد: على الحضريِّ اثنتان، وهل الزيادة نسخ؟ قولان في أصول الفقه، بسطتُهما في محلِّها، والذي لي أنَّهَا غير نسخ.

﴿إِنَّ الذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ المسلمين **﴿فِي ءَايَاتِ اللهِ﴾** دلائله المتلوَّة، والمعجزات الدَّالَّة على الوَحْدَانِيَّة، ووجوب الطاعة **﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾** برهانٍ

﴿أَتَاهُمْ﴾ نعت «سُلْطَان»، ومجادلتهم بغير سلطان هي نفس الواقع ذكره الله، ولا يتصوَّر الجدال في إنكارها بحقٍّ.

والمراد مشركو مكَّة نزلت فيهم، ويلتحق بهم غيرهم، والسبب لا يخصِّص عموم اللفظ، أو المراد العموم فيدخلون بالأولى.

(سبب النزول) وقيل: نزلت في اليهود، جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن الدجَّال يكون منَّا في آخر الزمان، وسمَّوه المسيح بن داود، ويبلغ سلطانه البرَّ والبحر، وتجري معه الأنهار حيث سار، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك، وأنَّه هو النبيء المبشِّر لآخر الزمان لا أنت يا محمَّد ﷺ، حسدوه على خروج النبوءة من بني إسرائيل، فنزلت الآية تكذيبًا لهم.

ووصفهم الله بالكبر في ذلك، ونفى أن يبلغوا مناهم إذ قال تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمُ إِلاَّ كِبْرٌ﴾ خبر «إِنَّ» ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ فإنَّ أوصاف الرسالة ظهرت فيه ﷺ، وإنَّه لم يبعث نبيء إلاَّ حذَّر أمَّته الدجَّال، وأنذرهم به.

(أخبار الدجال) كما جاءت به الأخبار أحاديث وغيرها، من أنَّه ما بين آدم وقيام الساعة أشدُّ فتنة من الدجال، وأنَّ عينه اليمنى طافية كعنبة، مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه كلُّ مسلم، وعنه ﷺ: **«إن خرج وأنا فيكم كفيتكم إيَّاهُ، وإلاَّ فالله خليفتي فيكم، وإنَّه يحيي الله على يديه إبل الإنسان الميتة، وأبا الإنسان ومن يعزُّ عليه، فيقال إنَّه الربُّ»**.

وقيل: إنَّه يخيِّل الشيطان ذلك لهم، ولا يدخل مكَّة ولا المدينة، ويقتله عيسى في باب بلد من الشام، ويتبعه سبعون ألفا من اليهود، يخرج من خرسان ويسير في الأرض أربعين عامًا، والعام كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، أو كسعفة في النار، ويجيء بمثل الجنَّة والنار، وناره جنَّة وجنته نار.

(بعض من أنكر الدجال) وأنكر الدجال الخوارج والجهميَّة وبعض المعتزلة وأثبته الجبَّائي، وأنكر ما يتخيَّل به من دلائل الرُّبوبيَّة أو النبوءة، لأنَّها تغليط في الدين، وأجيب بأنَّه قرنت به دلائل البطلان، وأنَّ لله تعالى أن يفتن من يشاء بما شاء.

وإذا قلنا: إنَّها في مشركي مَكَّة وغيرهم فالكبر: التعاظم عن الحقِّ، وحبُّ الرئاسة، أو أن تكون النبوءة لهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف: ٣١) ، وقالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ (سورة الأحقاف: ١١) .

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من كيد الحاسدين، أو من فتنة الدجَّال ﴿إِنَّهُ﴾ لأنَّه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ العالم بالأقوال ﴿الْبَصِيرُ﴾ العالم بالأفعال.

﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَلَا الْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ إِنَّ السَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ۝٦٤ هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾

من دلائل وحدانية الله وقدرته ونعمه وحكمته

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ لخلق الله السماوات والأرض **﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾** فكيف لا يقدر على بعثهم وقد خلقهم وخلقهنَّ أكبر أجساما. ولا يصحُّ تفسير الناس بالدجَّال كما زعم بعض.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا علم لهم يتدبَّرون به أنَّ القادر على خلق الناس وخلقهنَّ قادر على البعث.

(نحو) و«يعلم» منزَّل منزلة اللازم لعدم تعلُّق القصد به إلى معمول كما رأيت، ويجوز إبقاؤه على التعدِّي بأن يكون المراد: لا يعلمون أنَّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، أي: لا يجرون على مقتضى ذلك، وهو أنَّه قادر على البعث.

[قلت:] **ومن لا يعمل بما علم مساو للجاهل**، يقال: مات من علم أنَّه يموت، أي: استعدَّ لما بعد الموت، ومات من لم يعلم أنَّه يموت، أي: لم يستعدَّ له كأنَّه لا يعلم أنَّه يموت.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ﴾ الغافل عن معرفة الحقِّ كالبعث، لا يدرك الحقَّ كما لا يرى الأعمى جسما ولا نورا **﴿وَالْبَصِيرُ﴾** العالم بالحقِّ، كما يرى البصير الأشياء **﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾** أي: ولا يستوي المحسنون بالإيمان والعمل الصالح **﴿وَلاَ الْمُسِيءُ﴾** بتركهما أو ترك أحدهما.

وانتفاء التساوي يرشد إلى البعث ليجازى المحسن المستبصر على إحسانه، ويعاقب المسيء الغافل عن إساءته، لا يتركان بلا بعث، ولا يشتركان في الجنَّة أو النار، أو يهملان بعد البعث.

(بلاغة) وقدَّم «الاَعْمَى» على «الْبَصِير» لمناسبة ما اتَّصَلَ به قبله،

وهو انتفاء العلم، وقدَّم «الذِينَ ءَامَنُواْ...» على «الْمُسِيءِ» لمناسبته ما اتَّصَلَ به قبله وهو «الْبَصِيرُ» ولشرفهم، فكلٌّ قد جاور ما يناسبه، والوجه الثاني أن يقدِّم ما يقابل الأوَّل ويؤخِّر ما يقابل الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وأن يؤخِّر المتقابلان كالأعمى والأصمِّ، والبصير والسميع.

(بلاغة) وأعيدت «لاَ» لطول الفصل، وإرشادا إلى اعتبارها في «الذِينَ ءَامَنواْ»، كأنَّه قيل: ولا الذين آمنوا، ولأنَّ المقصود أنَّ الكافر المسيء لا يساوي المؤمن، كما وطَّأ له بعدم مساواة الأعمى للبصير، و لم يقل: ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء لأنَّ المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن بحصول الثواب له، لا نفي مساواة المحسن للمسيء بحصول العذاب له، وهو ظاهر لا كدر فيه. والأعمى والبصير في العلم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء في العمل، والعلمُ متقدِّم على العمل.

﴿قليلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾ مفعول مطلق، أي: تذكُّرًا قليلاً، أو ظرف، أي: زمانًا قليلا، و«مَا» حرف صلة لتأكيد القلَّة، أو نكرة تَامَّة مفعول مطلق لـ«قَلِيلاً»، أي: قلَّةً مَا، أو نعت «قَلِيلاً»، أي: قليلا ضعيفًا. و«قَلِيلاً» منصوب بقوله: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ قدِّم للفاصلة والحصر. والواو للناس أو الكُفَّار، وإذا كان للكفَّار جاز أنَّ القلة نفي، وجاز أنَّ لهم تذكُّرًا في خلق السماوات والأرض وأنفسهم قليلاً ضعيفًا لا يوصلهم إلى الإقرار بالبعث.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ وقت البعث ﴿لأَتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ لا يصحُّ ريب فيها نفسها، أي: أمر صحيح لا يشكُّ فيه جاءت به الرسل والكتب، أو لا ريب في مجيئها كذلك جاءوا به، ولا يصحُّ الريب فيها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُومِنُونَ﴾ بها لقصور نظرهم على ما يشاهدون، وتغلُّب الأوهام عليهم، كيف يحيي الميت؟

ولتقليد المسبوق السابق.

﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ**﴾ العطف على ما قبله عطف قصَّة على أخرى، ألا ترى أنّه لَمَّا تَمَّت هذه في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ذكر ما قبلها بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذينَ يُجَادِلُونَ﴾ المناسب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ يُجَادِلُونَ...﴾. ﴿**ادْعُونِي**﴾ اسألوني حوائجكم كلّها عمومًا أو خصوصًا، ولو ما هو أقلُّ من ملح الطعام أو شِسْع النعل إذ لا شيء يستغنى عن الله تعالى.

(فضل الدعاء) وعن ابن عبَّاس: الدعاء أفضلُ العبادة، وقرأ الآية، وعنه ﷺ : «**ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**»[1]. قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : «**من لم يدع الله يغضب عليه**»[2] رواه ابن أبي شيبة وأحمد، وقال ذلك في مقام **الكلام على الدعاء، فلا يؤوَّل بالعبادة.**

وقال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**الدعاء هو العبادة**» ثمّ قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمُ، إِنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرُونَ...﴾. وعن ابن عبَّاس: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم﴾: وحِّدوني أغفر لكم، وقيل: سَلُونِي أُعْطِكُم.

[قلت:] ومعنى «يغضب عليه» هنا تصبه المصائب، وأمَّا من لم يدع الله اسكبارًا عنه أو إيَّاسًا من الإجابة فالغضب في حقّه على ظاهره، وأمَّا قول إبراهيم عليه السلام يوم أُلقي في النار قبل الإلقاء أو في الهواء حين أُلقي: «علمُه بحالي يغني عن

١- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم٣٣٧٠. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الدعاء، باب في فضل الدعاء، رقم٣٨٢٩. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **ابن ماجه** في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم٣٨٢٧. ورواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم٩٤٢٦. من حديث أبي هريرة.

سؤالي» وقد قال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أحتاج إلى الله فقال: فادع الله، فقال ذلك، فهو نفس الدعاء، لأنَّه قال ذلك تَضَرُّعًا إلى الله تعالى لا توكُّلاً فقط، أو ذلك في العَامَّة، وأمَّا من أكثر العبادة والذكر واستفرغ فيها الوسع فقد جاء في حديث القدسي: «أنّي أعطيه أفضل ما يسأل وأكفيه».

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أعطكم ما تسألون، قال الله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ (سورة الأنعام: ٤١) ، وإن لم يعط ادُّخر له في الآخرة لدعائه ما هو أفضل، حتَّى يتمنَّى لو لم يستجب له في الدنيا، والتعويض في الآخرة من معنى الاستجابة.

[قلت:] وقد يعطيه في الدنيا عوض ما دعا إليه أو يدفع عنه مَضَرَّة، وما لم يستجب فلخلل فيه، فلاشتغال القلب فيه، أو فيه قطع رحم، أو نحو ذلك. وعنه ﷺ : «**ما من رجل يدعو الله تعالى إلاَّ استجيب له، فإمَّا أن يعجَّل له في الدنيا، وإمَّا أن يدَّخر له في الآخرة، وإمَّا أن يكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطع رحم، أو يقل: دعوت فلم يستجب لي**».

وقيل: عن ابن عبَّاس: ﴿ادْعُونِي﴾: اعبدوني، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: أُثبكم، وفيه أنَّ الدعاء أصله الطلب، فليحمل عليه في الآية، ولاسيما مع قوله: ﴿أَسْتَجِبِ لَكُم﴾ فإنَّ الاستجابة أنسب بمعنى الطلب، فهذان خروجان عن الأصل. ونقول: معنى حديث النعمان بن بشير المذكور آنفًا أنَّ الدعاء سؤال، وأنَّ السؤال عبادة.

وَلَمَّا جعل الله الجدال في آيات الله كبرًا قابله بالدعاء لأنَّه خضوع، لأنَّ الداعي ملتجئ إلى الله تعالى فقال : ﴿إِنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ عن دعائي، قيل: هذا خروج واحد عن الأصل، قلت: بل الدعاء عبادة فلا مجاز، فلا خروج، بخلاف تفسير الاستجابة بالإثابة على العبادة لترتُّبها عليها فإنَّه مجاز،

أو مشاكلة. وتفسير الدعاء بالعبادة لتضمُّها له مجاز، من تسمية المحلّ باسم الحالّ، أو من تسمية العامّ باسم الخاصّ ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أذلاَّءَ.

﴿اللهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ عن الحركة الحسِّية كالعمل باليدين والرجلين، والحركة المعقولة كحركة القلب ونظر العين، وهو جامع لضوء البصر، وفي النوم قطع اشتغال القلب عن العمل، فإنَّ اشتغاله عمل منه، وتَقْوَى الحواسُّ وسائر البدن بذلك السكون، وناسبه برودة الليل غالبًا.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مصيِّرًا للناس باصرين، وهو متعدٍّ.

(بلاغة) أسند الإبصار إليه لأنَّه ظرف للنظر، أو سبب له. ولم يقل: جعل لكم الليل مُسْكِنًا، بوزن «مُبْصِرًا»، ولم يقل: والنهار لتبصروا فيه كما قال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ فيستوي الكلام فيهما، لأنَّ نعمة النهار أعظم من نعمة الليل، فبولغ فيه بأن جعل الإبصار ساريا في أجزاء النهار كلِّه، فلم يقل: لتبصروا فيه كما قال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أو لأنَّهما سواء، فدلَّ على فضل الليل بالتقديم، وعلى فضل النهار بتلك المبالغة، فلو قال: لتبصروا فيه، لفاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي الموجود في «مُبْصِرًا».

(بلاغة) وقيل: لو قيل: جعل لكم الليل مَسْكَنًا، على معنى جعل لكم الليل ساكنًا، على معنى لا ريح فيه، وهو حقيقة عرفية فيه، أو مجازًا بهذا المعنى، أو مجازا بإسناد السكون إليه لأنَّه محلُّه أو سببه، لم يعلم المراد إلاَّ بمقابلته بقوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. أو صرَّح بالسكون في الليل لأنَّه مراد وعلّة بالذات، ورمز بالإبصار في النهار لأنَّ العلّة ابتغاء الفضل، كما في آية أخرى، أي: تستعملون أبصاركم لابتغاء الفضل.

وقيل: المراد جعل لكم الليل مظلمًا لتسكنوا فيه، والنهار مبصرًا لتبتغوا من

فضله بالتحرُّك، فحذف من كلّ واحد ما يناسب ما ذكر في الآخر احتباكًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم لا يوازيه فضل، ولو قال: إنّ الله متفضّلٌ لم يفهم هذا المعنى منه ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ كلّهم بصحّة الأبدان، وبالأرزاق، وجميع مصالحهم، إلاّ أنّ المؤمن يشكر ذلك بالطاعة، والكافر يكفرها بالمعصية، وهو الأكثر.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ الله على فضله بالإيمان والعمل لجهلهم، أو لاتّباع الهوى، وأظهر «الناس» ليدلّ على رسوخ الكفر فيهم، كأنّ علّته كونهم ناسًا.

﴿ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي جعل الليل ساكنًا والنهار مبصرًا، أو تفضّلَ على الناس، ومن لم يكن كذلك لم يكن إلهًا ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أخبارٌ أربعة، الأخير جملة، أو «اللّه» بدل، أو بيان، والخبر «رَبُّكُمْ» و«خَالِقُ» و«لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، أو الجملة هذه مستأنفة.

وقدّم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ هنا لا في الأنعام [آية ١٠٢] لأنَّ ما هنا ردٌّ على منكري البعث والقدرة على الخلق، حجّة للقدرة على البعث، كذا قيل.

﴿فَأَنَّى﴾ كيف؟ أو من أيِّ جهة؟ ﴿تُوفَكُونَ﴾ تصرفون، أو تقلبون عن عبادة الله إلى عبادة ما لا حجّة فيه، وإنّما الحجّة على بطلانه.

﴿كَذَالِكَ﴾ مثل ذلك الإفك البعيد العجيب ﴿يُوفَكُ الذِينَ كَانُواْ بِئَايَاتِ اللَّهِ﴾ بأيِّ آية من آيات الله ﴿يَجْحَدُونَ﴾ والإضافة للجنس كما رأيت، ويجوز أن تكون للاستغراق، لأنّ الكافر بآية واحدة كافر بكلّ آية، والمراد: إِفْكُكُم وإِفْكُ من قبلكم، أو تثبته.

﴿اللَّهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ قَرَارًا﴾ محلّ قرار وثبات، لا تغرقون فيها

كالماء ﴿وَالسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ كقبَّة عليكم كريَّة الشكل، وذلك تشبيه بليغ، لأنَّ البناء فيما يصنع شيئًا فشيئًا، والسماء مخلوقة بمرَّة، وقيل: استعارة كالخلاف في: زيد أسد.

وذكر تفضُّله في البدن بقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أوَّلاً على ما أنتم عليه صغارًا جدًّا منتصبي القامة ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بعد ذلك بالإنماء وَالقُوَّة على علاج الصنائع وإبقائكم بلا شعر إلاَّ في مواضعه، لا كالحيوان المكسوِّ بالشعر. أو الفاء للتفسير، أي: صوَّركم أحسن تصوير.

وذكر التفضُّل في غير البدن مع رجوع النفع إلى البدن بقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ما يليق بالطبع من طعام وشراب ولباس، والرِّزق ما ينتفع به، ولو شاء لرتَّب حياتنا على طعام وشراب مُرَّين أو كريهين، إن لم نأكلهما متنا، **وأَلَزمنا أن نأخذ على الوجه الحلال.**

[قلت:] وزعم بعض أنَّ الطَّيِّبات الحلال، وليس المحلُّ له وإنَّما يفسَّر به في محلِّ الأمر بالأكل، والمحلُّ هنا الامتنان، فناسب التفسير بالذات اللائقة بالطبع، وأيضًا رزقنا الله الحلال والحرام لأنَّ من أكل الحرام أكل رزقه، إلاَّ أنَّه يؤاخذ عليه.

﴿ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ الموصوف بتلك الأفعال ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ﴾ تعالى شأنًا ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالكهم وحافظهم، ولو ترك حفظهم لفنوا وصاروا عَدَمًا.

﴿هُوَ الْحَيُّ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ حياة ذَاتِيَّة لا أوَّل لها وحياته انتفاء الموت عنه، وثبوت صفاته بلا أوَّل، وذلك لا يوجد لغيره كما يفيده الحصر في الآية.

﴿فَادْعُوهُ﴾ اعبدوه خاصَّة، إذ ليس لغيره من الأفعال والصفات ما تجب له به العبادة أو تسوغ، وذكرت بلفظ الدعاء لأنَّ المقبول ما يكون بتضرُّع كما في الدعاء ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ عن الشركة والرياء، وما يفسد العمل، أو ينقصه

﴿الدِّينَ﴾ العبادة.

﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ منصوب بحال محذوفة من الواو، أي: ادعوه قائلين: الحمد لله ربِّ العالمين، باللِّسان والقلب، أو بالقلب ولو بمعناه. روى الطبري والبيهقي عن ابن عبَّاس: «من قال لا إله إلاَّ الله فليقل على إثره الحمد لله ربِّ العالمين» وقرأ الآية.

[قلت:] والذي تبادر إليَّ أنَّه تعالى حمد نفسه وهو من كلامه تعالى، لا مقول لهم كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (سورة الفاتحة: ١-٢)، و﴿الْحَمْدُ لله الذي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالاَرْضَ﴾ (سورة الأنعام: ١)، و﴿الْحَمْدُ لله الذي أنزَلَ عَلَىٰ عبْده الْكِتَابَ﴾ (سورة الكهف: ١)، وغير ذلك.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

النهي عن عبادة غير الله وعلَّة ذلك

﴿قُلِ انِّي نُهِيتُ﴾ نهاني الله ﴿أَنَ اَعْبُدَ﴾ عن أن أعبد ﴿الذينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ الله لَمَّا جَآءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ من الآيات المتلوَّات والمعجزات في السماوات والأرض وفي أنفسكم، ومعنى مجيء المعجزات التي في السماوات والأرض وفي الأنفس مجيء التذكير بهنَّ من الله

ﷻ، وهذا النهي هو مضمون البَــيِّــنَات، ففي وقت نزول البَــيِّــنَات حصل النهي عن عبادة غير الله، بنفس هذه البَــيِّــنَات، أو لَمَّا جاءني الألفاظ المشتملة على البَــيِّــنَات حصل النهي بها.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ﴾ بأن ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنقاد بالعمل وإخلاصه فيما يتجدَّد بعدُ، كما أسلمتُ قبلُ له ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بواسطة خلق أبيكم منه، أو يقدَّر مضاف، أي: خلق أباكم، فأصلكم تراب كأنَّكم من التراب، أو خلقكم من أغذية تولَّدت من تراب، بأن تصير دما، ومن هذا الدم النطفة، كما قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ منيٍّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ دم جامد تولَّد من النطفة، و لم يذكر المضغة والعظام لذكرهما في الآية الأخرى [سورة المؤمنون: آية ١٤]، ولعلَّ ذكر ذلك فقط لأنَّه أهون شيء وأخسُّه.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أُمَّهَاتكم ﴿طِفْلاً﴾ أي: أطفالا، والطفل يطلق على الواحد والاثنين فصاعدا، والذكر والأنثى، أو اعتبر إخراج كُلِّ واحد على حدة فأفرد ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ﴾ متعلِّق بمعطوف محذوف، أي: ثمَّ يبقكم لتبلغوا، أو يعطف على علَّة محذوفة معلَّقة بـــ«يُخْرِجُكُمْ»، أي: ثمَّ يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ثمَّ لتبلغوا ﴿أَشُدَّكُمْ﴾ كمالكم في القُوَّة والعقل.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ عطف على «لِتَبْلُغُوا»، أو متعلِّق بمعطوف مقدَّرا، أي: ثمَّ يعمِّركم لتكونوا، أو يبقيكم لتكونوا ﴿وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل ما شاء الله من ذلك، من قبل الإخراج، أو من قبل الأشدِّ، أو قبل الشيخوخة.

﴿وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى﴾ عطف على «لِتَكُونُوا» أو على «لِتَبْلُغُوا» عطف عامٍّ على خاصٍّ، أو متعلِّق بمحذوف معطوف على «خَلَقَكُمْ»، أي: وفعل ذلك الخلق من تراب ثمَّ من نطفة...الخ لتبلغوا أجلا مسمًّى، أو يقدَّر بعد «مُسَمًّى».

والأجل المسمَّى: يوم القيامة، والمراد: لتبلغوه للجزاء، أو يقدَّر مضاف، أي:

لتبلغوا جزاء أجل مسمًّى، وذلك أنَّ الجنَّ والإنس خلقوا للعبادة والجزاء. وليس الأجل المسمَّى يوم الموت، فإنَّه يعارضه ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ فإنَّ من تُوُفِّيَ لا يقال فيه بعدُ: يبلغ أجلا مسمًّى.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعقلوا عن ربِّكم أنَّكم تبعثون بعد الموت، كما أنَّكم خلقتم من أشياء ميِّتة، أو يحييكم كما أماتكم، أو لتعقلوا ما في خلقكم من ذلك من الحكم والعبر، وَالأوَّل أولى، وإنَّما يفسَّر باعتبار الحكم والعبر، لو كان الخطاب للمؤمنين، لأنَّ الكافرين لا يطلب منهم الاعتبار بذلك لذاته، وأمَّا أن يطلب منهم لينتقلوا منه إلى الإيمان بالبعث فجائز، راجع للتفسير الأوَّل.

﴿هُوَ اَلذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ منزّلان منزلة اللازم لعدم تعلُّق المقام بمن يُحيَى ومن يمات، بل المراد أنَّ الإحياء والإماتة لا يكونان إلاَّ منه، أو باقيان على التعدِّي، أي: يحيي ما لم يكن حيًّا البتَّة، وما كان حيًّا ثمَّ مات، ويميت ما كان حيًّا، فذلك حجَّة للبعث.

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أراد خروجه من العدم إلى الوجود ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تتوجَّه إرادته لوجوده فيكون، لا يتوقَّف على شيء من الأشياء ولا علاج ولا آلة، وما كان مرتَّبا على شيء كالنبات من الماء وعلاج مخلوق أو آلة فوقوعه من ذلك أيضا بقول: كن، بمعنًى توجُّه الإرادة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ

فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

جزاء المجادلين بالباطل في آيات الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي: إلى الذين بنوا جدالهم على ما لا وجه لثبوته، وهذا المعنى غير متقدِّم فلا تكرير، لكن ما الدليل على أنَّ هذا مراد هنا، و لم يرد فيما تقدَّم ؟ فأولى منه أنَّه كرِّر للتأكيد، أو المجادلون هنا غير المجادلين هناك، أو الجدال هناك في البعث وهنا في التوحيد.

﴿الذِينَ﴾ بدل من «الذِينَ»، أو بيان، أو نعت، ويضعف أنَّه مبتدأ خبره «سَوْفَ يَعْلَمُونَ» قرن بالفاء. ﴿كَذَّبُواْ بِالْكِتَابِ﴾ القرآن كلِّه، وسائر الوحي، أو كتب الله كلِّها، والمكذِّب بواحد أو ببعضه مكذِّب لكلِّ كتب الله تعالى، وقال: ﴿الذِينَ كَذَّبُواْ بِالْكِتَابِ﴾ و لم يقل: الذين جادلوا في الكتاب، لأنَّ المجادلة تكون في بعض لا في كلِّ على المعتاد، كذا قيل، وفيه أنَّ الجدال يكون في الكلِّ بإبطاله كما يكون في البعض، وَالكُفَّار يبطلون القرآن كلَّه لا بعضه.

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ سائر الكتب وسائر الوحي، والكتاب ــ قيل ــ هو القرآن وسائر الوحي معه، أو «مَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا»: سائر الوحي والكتاب: كلُّ الكتب. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يتصوَّر أن يكون خبرَ ﴿الذِينَ كَذَّبُواْ﴾ لأنَّهم معيَّنون ولو إجمالا، فلا يشبه الشرط في العموم، فلا يقرن خبره بالفاء إلاَّ على قول من أجاز زيادتها في الخبر مطلقا، وإن أريد العموم جاز.

والصحيح أنَّ «الذِينَ» غير مبتدأ فالفاء للعطف على «كَذَّبوا»، والمفعولان محذوفان معلَّقا عنهما، أي: يعلمون ما جزاؤهم على الجدال والتكذيب، أو عن أحدهما، أي: يعلمون الجزاء ما هو، أو مفعول واحد، أي: يعرفون عين الجزاء وذلك إذا شاهدوا.

﴿إِذِ﴾ متعلّق بـ«يَعْلَمُونَ» **﴿الاَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾** تثبت في أعناقهم، بصيغة مضارع الاستقبال، ولا يقدَّر ماض، ويعتبر تحقُّق الوقوع بعد لأنّه ينافي سوف **﴿وَالسَّلاَسِلُ﴾** عطف على «الاَغْلاَل»، أي: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم، الأغلال ربطت بها أيديهم إلى أعناقهم، والسلاسل في الأعناق يجرُّون بها.

(بلاغة) وأخّرت السلاسل ــ والله أعلم ــ للدلالة على أنّ تمكُّن الأغلال في أعناقهم أقوى من تمكُّن السلاسل فيها، وليس ذلك قلبًا، لصحَّة أنّ الأعناق محلٌّ لوضع الأغلال والسلاسل، فلا يلزم أنّ الأصل: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل.

(نحو) وأجيز كون السلاسل مبتدأ خبره قوله: **﴿يُسْحَبُونَ﴾** والرابط محذوف، أي: بها **﴿فِي الْحَمِيمِ﴾** متعلّق بـ«يُسْحَبُونَ»، والجملة مستأنفة، أو حال من واو «يَعْلَمُونَ»، أو هاء «أَعْنَاقِهِمْ».

﴿ثُمَّ فِي النَّارِ﴾ متعلّق بقوله: **﴿يُسْجَرُونَ﴾** يحرقون ظاهرا وباطنا **﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ، أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ﴾** عبَّر بالماضي في الموضعين لتحقُّق الوقوع، والسؤال توبيخ. **﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾** غابوا فلا نراهم، وتارة قرنوا بهم، ويوم القيامة مواطن مختلفة، أو أرادوا بغيبتهم عدم نفعهم على التجوُّز بالاستعارة التبعيَّة في ضلَّ، فتارة يغيبون تحقيقا وتارة مجازا، أو قرنوا بهم ولم يشعروا لشدَّة الهول، وتارة يشعرون.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ إضراب عن كون آلهتهم ضلّت إلى أنّهم ما عبدوا في الدنيا شيئا نافعا يعتدُّ به، أو ذلك كذب اضطرُّوا إليه لاضطرابهم كقولهم: **﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾** (سورة الأنعام: ٢٣) ،

وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ﴾ يحيِّرهم في أمرهم حتَّى يفزعوا إلى الكذب، ويجوز بقاؤه على ظاهره من الضلال في الدين، كما يبقى في التفسير الآخر المذكور، أي: مثل ذلك الإضلال يضلُّ الله الكافرين في الدنيا، فيعبدون ما يبرأون منه يوم نبعثهم، أو مثل ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة نضلُّهم في الدنيا عن الهدى بسوء اختيارهم، أو كما أضلَّ أعمال هؤلاء وأبطل ما كانوا يؤمِّلونه يفعل بأعمال جميع من دان بالكفر.

﴿ذَلِكُم﴾ أي: ما ذكر من الأغلال والسلاسل والسحب والسجر والتوبيخ، وحاصل ذلك هو العذاب الذي هم فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الاَرْضِ﴾ بطرا ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالشرك والمعاصي، أو بغير استحقاق، وذكر الأرض لتوسُّعهم في البطر، أو ذمًّا لهم بأنَّ الأرض لم تخلق لذلك بل لعبادة الله تعالى.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسَّعون في الفرح، وقيل: تفرحون بما يصيب الأنبياء والمؤمنين ممَّا يكره، وتتوسَّعون في الفرح بما أوتيتم من النعم، واشتغلتم به عن طاعة المنعم ﷻ، وعنه ﷺ: «**إنَّ الله تعالى يبغض البذخين الفرحين، ويحبُّ كلَّ قلب حزين**»[1]، أي: حزين لذنوبه وتقصيره في حقِّ الله تعالى، ولجهله بالخاتمة.

﴿ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أبواب دخول جهنَّم أو طبقاتها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرين الخلود ﴿فَبِيسَ مَثْوَى﴾ مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والمؤمنين، والمخصوص بالذمِّ محذوف، أي: جهنَّم، والكلام على تقدير القول، أي قيل:

١- أورده **الحاكم** في مستدركه، كتاب الرقاق، رقم٧٨٨٤ . وأورده **البيهقي** في شعب الإيمان في كتاب الخوف من الله تعالى، رقم٨٩٣. من حديث أبي الدرداء. بدون لفظ: «إنَّ الله تعالى يبغض البذخين الفرحين».

ادخلوا أبواب، والقائل الملائكة يقولون لهم ذلك قبل الدخول، وقيل: بعد دخولها ومحاورتهم، فبعد دخول الأبواب قيل: ادخلوا طبقاتها ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (سورة الحجر: ٤٤) .

(بلاغة) ولو قيل: فبئس مدخل المتكبِّرين لتجاوب العجز والصدر لفظا ومعنى، لابتدار الصدر بالدخول، لكن لَمَّا كان الدخول مقيَّدا بالخلود الذي هو المعتمد في المقام اكتفى عن المدخل بـ«مَثْوًى» لأنَّ معناه المقام، والمقام أنسب بالخلود أو هو الخلود في المراد، فقد تجاوب الصدر والعجز معنى.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

الدعوة إلى الصبر، وعاقبته النصر

﴿فَاصْبِرِ انَّ وَعْدَ اللهِ﴾ بتعذيب المكذِّبين ﴿حَقٌّ﴾ واقع لا بدَّ منه ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ «إِنْ» الشرطية أدغمت نونها في ميم «مَا» الصلة، والنون للتوكيد، والغالب اجتماعهما بعد «إن» الشرطية، وقد تزاد بلا نون توكيد، وقد يؤكَّد بها دون زيادة «ما»، قال الشاعر:

فإمَّا تريني ولي لِمَّة فإنَّ الحوادث أولى بها

﴿بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ﴾ كالقتل والأسر في حياتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قد علم الله سبحانه أنَّه يريد بعض ما يعدهم قبل التوفِّي، ولكن قال ذلك تهييجا على ازدياد التوكُّل ﴿فَإِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، الجواب

محذوف نابت عنه علّته، أي: نعذّبهم لأنّهم إلينا يرجعون ولا يفوتوننا.

أو ﴿إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مجاز عن قوله: نعذّبهم في الآخرة، تعبيرا بالملزوم أو السبب عن اللازم أو المسبَّب، وقدَّر بعض «إِنْ» قبل «نَتَوَفَّيَنَّكَ» وجعل «إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» جوابا لها، بمعنى نُجَازِ، أو نائبا عن جوابها، أي: إمَّا نرينك بعض الذي نعدهم، وقدَّر جواب المذكورة هكذا: فإمَّا نرينَّك بعض الذي نعدهم فذلك، أو نتوفينَّك فإلينا يرجعون.

وإذا جعل ﴿إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ جوابا فإنَّما رفع لأنَّه كأنَّه جملة اسْمِيَّة لتقدُّم «إلى» لأنَّ «إلى» لا تلي «إن» الشرطيَّة، فقرن بالفاء، والبعض الآخر المفهوم من الآية ما يصيبهم في الدنيا أيضا وما يصيبهم في الآخرة، فالذي يعدهم عامٌّ لما في الدنيا ولما في الآخرة.

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلاً﴾ عظاما كثيرين، والمراد الأنبياء المرسلون كما يتبادر، وقيل: المراد الأنبياء، ولو كانوا غير مرسلين، لأنَّ شأن النبيء مطلقا التبليغ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ من قبل وجودك، أو من قبل إرسالك، وهو أولى.

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ بعض أخبارهم كآدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ويوسف وموسى وشعيب وداود وسليمان وعيسى ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ بعض أخبارهم، وهم الأكثر، أو يقدَّر أوَّلاً: رسلا قصصناهم ورسلا لم نقصصهم، ثمَّ يقدَّر مضافان كما رأيت، وهو أولى، ويجوز تقدير الضمير في ذلك كلّه مفردا مراعاة للفظ «مَنْ».

وأكثر الرسل لم يقصصهم الله في القرآن، وعدم قصِّهم لا ينافي معرفته ﷺ بعددهم، كما قال ﷺ لأبي ذرٍّ السائل عن عدد الأنبياء: «**هم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر -ويروى- ثلاثمائة وثلاثة**

عشر جمًّا غفيرا»[1]، لأنَّ المنفيَّ في الآية قصٌّ أخبارهم لا معرفة عددهم، ولا مانع أنَّه تعالى أخبره بعد الآية بأسمائهم.

وأخطأ من قال: إنَّه ﷺ لم يعلم عدد الأنبياء والمرسلين، وقد أخبره الله تعالى بهؤلاء الأنبياء الذين بعد عيسى عليه السلام الذين لم يشهروا إذا صحَّ الخبر، مثل خالد بن سنان العبسي، وأخبره بعبد حبشيٍّ نبيء، كما في ابن مردويه والطبراني عن عليٍّ، فهو مِمَّن لم يقصصه الله تعالى عليه ﷺ ، وذكر ابن عبَّاس أنَّ الله تعالى بعث عبدا أسود في الحبشة.

والمراد بالقصِّ المنفيِّ القصُّ في القرآن، ولا ينافي القصَّ في غير القرآن بعد الآية. ومعنى كونه عبدا أنَّه مِمَّن يتَّخذ عبيدا من السودان، ولا نفرة في ذلك لأنَّه غير مملوك، ولأنَّه مرسل إلى جنسه، وذلك عرف الآن أيضا، يقال: هو أحد العبيد، أي: السودان الذين تتَّخذ منهم العبيد، وقيل: إنَّه عبد مملوك لبني الخشخاش يرعى الغنم.

﴿وَمَا كَانَ﴾ ما صحَّ، ولا خبر للكون، ويجوز أن يكون له خبر **﴿لِرَسُولٍ﴾** من تلك الرسلِ **﴿اَنْ يَّاتِيَ بِئَايَةٍ﴾** تتلى أو معجزة **﴿اِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾** فالآيات هبات من الله تعالى **﴿فَإِذَا جَآءَ امْرُ اللهِ﴾** بالعذاب في الدنيا والآخرة، وقيل: يوم القيامة، وقيل: يوم بدر **﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾** أنجز ولم يتخلَّف ولم يؤخَّر **﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾** «هنا» اسم للمكان استعير للزمان، لجامع أنَّ كلاًّ ظرف للحوادث، ويجوز إبقاؤه على معنى المكان المقضيِّ فيه، كأرض بدر والمحشر، فيكون الأمر القتل وعذاب يوم القيامة **﴿الْمُبْطِلُونَ﴾** المتمسِّكون بالباطل، أو الداخلون فيه، أو أصحاب الباطل. ويبعد أن يفسَّر بالمضيِّعين لما لهم في الجنَّة من

١- روى الشطر الأخير الخاصَّ بالرسل **أحمد** في مسند الأنصار، رقم٢١٠٣٦ من حديث أبي ذرٍّ.

الأملاك والحور، ولا يبعد أن يقال في تفسيره إذا جاء أمر الله بإرسال رسول أرسله وخسر مكذّبوه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾

دلائل أخرى على وجود الله ووحدانيته

﴿اللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنْعَامَ﴾ الأزواج الثمانية ﴿لِترْكَبُواْ مِنهَا﴾ لا مفعول لـ«تَرْكَبُ» لأنّ المعنى: ليحصل لكم الركوب منها، وهو على الإبل منها، وعلى البقر في بعض المواضع. وهذه اللام للتعليل كما لا يخفى، وأمّا لام «لَكُمْ» فللاختصاص لا للتعليل، وإلاّ تعلّق حرفان لمعنى واحد بمتعلّق واحد، وذلك لا يجوز إلاّ بالتبعيَّة، فإن جعلنا «لِترْكَبُوا» بدل اشتمال من «لَكُمْ» صحّ التعليلان. و«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض.

﴿وَمِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ كما نأكل لحم البعير والغنم والبقر، وما يتولّد من الألبان. و«مِنْ» للابتداء، وجملة «تَاكُلُونَ» حال من الواو في «تَرْكَبُوا» أو من «هَا» والواو حالية لا عاطفة. وقدّم «مِنْهَا» للفاصلة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالألبان والأصواف والشعور والجلود، وكراء الإبل للحمل، والبقر للحرث ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ثابتة في صدوركم، كحمل الأثقال. والعطف على «لِترْكَبُوا».

(بلاغة) والمتبادر إلى أفهامنا أن يؤتى بلام التعليل في الكلّ، فيقال:

ولتأكلوا منها، أو تترك في الكلّ فيقال: تركبوا منها ومنها تأكلون، لكن لو عطف «تَاكُلُونَ» على «تَرْكَبُوا» أو أدخل عليه اللام لحذفت النون، وفاتت الفاصلة، كما أنّه لو لم يقدَّم قوله: ﴿مِنْهَا﴾ لفاتت.

(بلاغة) وأمَّا قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ فكالتابع للأكل، فيجري مجراه، أو يجعل حالا من الواو، أو من «هَا». وقال: ﴿وَمِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ بالجملة الحالية ومضارع الاستمرار تمييزا عن الركوب بكون الأكل من ضروريَّات الإنسان، وكذا ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ باعتبار الشرب واللبس، وهما ضروريَّان، ويبحث بأنَّ الضروريَّ أحقُّ بالتعليل. وقوله: ﴿لِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا﴾ راجع للإبل، وكذا قوله تعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فبعض ذلك عامٌّ وبعضها خاصٌّ، وقد قيل: المراد بالأنعام وضمائرها الإبل خَاصَّةً، وهو قول الزجَّاج، وهي سفائن البرِّ، والفلك سفائن البحر، وليس ذلك في جانب الإبل تكرارا مع الركوب، لأنَّ المراد بيان أنَّ لكم سفائن في البرِّ وسفائن في البحر.

وقيل: المراد هنا حمل النساء والولدان والمرضى والشيوخ والضعفاء على الإبل في الهوادج، ولذلك فصل عن الركوب، كما قد يقال في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ إنَّه في ركوبها للحجِّ مثلا والغزو وطلب العلم، وإقامة دين، وزيارة قبر النبيء ﷺ ومن تستحب زيارته، ففصل لذلك عن مطلق الركوب.

وأدخل بعض في الأنعام الخيل والبغال والحمير وكلّ ما ينتفع به من البهائم. وقدَّم «عَلَيْهَا» و«عَلَى الْفُلْكِ» للفاصلة، وبطريق الاهتمام، ولم يقل: وفي الفلك كما قال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ (سورة هود: ٤٠) ، للمشاكلة، ولأنَّ من في السفينة مستعل على أرضها أو على سقفها.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ دلائل قدرته، وعِظَمَ شأنه ﴿فَأَيَّ ءايَاتِ اللهِ﴾ استفهام توبيخ، وإضافة الآيات إلى الله لتربية المهابة في تهويل إنكارها ﴿تُنكِرُونَ﴾ لا آيةً منها يجترئ من له عقلٌ على إنكارهَا.

(صـرف) ولفظ «أيٌّ» صالح للمذكّر والمؤنث، لأنّه اسم غير صفة، والتأنيث في ذلك خلاف الأصل لا يقاس عليه، كرجلة وحمارة وإنسانة، قال الشاعر:

بأي كتاب أو بِأيٍّ سنّة ترى حبَّهم عارًا عليَّ وتحسب[1]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

تهديد المكذبين المجادلين في آيات الله

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ أقعدوا فلم يسيروا، أو الهمز ممَّا بعد الفاء، فلا تقدير. ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المهلكين لكفرهم، ﴿كَانُواْ أَكْثَرَ منهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ تقدَّم الكلام على ذلك، ولا يخفى أنَّ «ءَاثَارًا» غير آثار الأقدام، ففيه ردٌّ على من قال بأنَّ الأثر في الآية الأخرى [غافر آية ٢١] أثر القدم، والقرآن بعضه يفسِّر بعضا.

١– البيت لكميت في مدح آل البيت.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ «مَا» نافية، أو استفهامية توبيخية مفعول به لقوله: ﴿أَغْنَىٰ﴾، أي: دفع، أو مفعول مطلق له، أي: أيَّ إغناء أغنى ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ما كانوا يكسبونه من الأموال وعبادة غير الله، أو ما أغنى عنهم كونهم يكسبون.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات المتلوَّة والمعجزات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ معنى «فَرِحُوا»: استغنوا، لعلاقة اللزوم والسببيَّة، فإنَّ الفرح بالشيء سبب وملزوم للاستغناء به عَمَّا لم يفرح به.

أو فرحوا بما عندهم من العلم بعد أن قابلوه بما جاءت به الرسل فوجدوه أفضل ممَّا جاءت به على زعمهم، وذلك إمَّا عقائدهم وشبههم في المبدأ والمعاد وأحوال الآخرة، وتسميتها علما باعتبار زعمهم وتهكُّما، وإمَّا علم الفلاسفة واليونان الدهريِّين يحتقرون علم الأنبياء إلى علمهم. قيل لسقراط: آيات موسى تهذِّبك بالشرع، فقال: نحن قوم مهذَّبون لا نحتاج إلى مهذِّب، وهو مطابق للواقع، لأنَّ فيه الاستغناء عَمَّا جاءت به الرسل.

وإمَّا المراد: الجهل، فسمَّاه علما تهكُّما. قيل: ولاغتباطهم به وَضَع ﴿فَرَحُواْ...﴾ موضع «لم يفرحوا بما جاءت به الرسل»، وهذا ضعيف جدًّا، لا دليل عليه، وفيه تخليط بالتعبير عن الجملة المثبتة بالجملة المنفيَّة بلا دليل. والضمير في «فَرِحُوا» و«عِندَهُمْ» لِلْكُفَّارِ.

وَإِمَّا أن يُجعل الواو لِلْكُفَّارِ والهاء للرسل، فرحٌ لِلْكُفَّارِ فَرَحَ ضحك بعلم الرسل، وفيه أنــَّهُ لا دَليل عَلَى أَنَّ الفرح الضحك. وقولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ـــ أي: أحاط بهم عقاب ما كانوا يستهزئون به من الوحي، أي: العقاب الذي استحقُّوه لاستهزائهم به ـــ لا يكون دَلِيلا لهذا الوجه الأخير، بل صالح للوجوه كلِّهَا.

وَإِمَّا أن يجعل الواو والهاء للرسل، أي فرح الرسل بعلمهم لنجاتهم به لَمَّا رأوا الكفرة هلكوا بتكذيبهم به، وفيه تفكيك الضمائر، إذ إنَّ الهاء في «جَاءَتْهُم» للكفرة لا للرسل.

وَإِمَّا أَنَّ الضميرين لِلْكُفَّارِ في «فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ»، والعلم علمهم بأمر الدنيا المستغنون هم به عن علم الوحي، وهذا هو الراجح، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (سورة الروم: ٧) .

﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ ما يعذّبون به من أنواع العذاب ﴿قَالُواْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ كُلّ ما عبدوا من دون الله من صنم وشمس وقمر وغير ذلك. وهاء «بِهِ» عائدة إلى الله ﷻ ، والرابط محذوف، أي: مشركين له، أي: بمَا كُنَّا أشركناه بالله في العبادة والتسمية بالألوهيَّة.

﴿فَلَمْ يَكُ﴾ أي: الشأن، والخبر الجملة بعد، أو تنازع هو وقوله: ﴿يَنفَعُهُمْ،﴾ في قوله: ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ أدخل النفي على «يَكُ» ولم يقل: فلم ينفعهم...الخ ليفيد نفي الصحَّة، وهو أبلغ من نفي النفع، أي: لم يَصِحَّ في الحكمة أن ينفعهم إيمانهم ﴿لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ قبول الإيمان بعد حضور العذاب من باب الإكراه على الدين، ولا إكراه في الدين ولا إجبار فيه ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ...﴾ (سورة يونس: ٩٨) .

﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ أي: سنَّ اللهُ السنَّة التي مضت في عباده أن لا يقبل توبة من أصرَّ حتَّى عاين العذاب أو ملك الموت، فحذف «سنَّ» وأناب عنه مصدره وأضافه لفاعل «سنَّ»، أو

منصوب على التحذير، أي: احذروا سنَّة الله ﷻ في أعداء الرسل يا أهل مَكَّة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ الإشارة بـ«هُنَالِكَ» إلى وقت رؤية البأس، ومرَّ كلام في مثله، سواء في انتفاء القبول عند رؤية البأس الإيمان والتوبة ـــ وقال بعض بقبول التوبة عند رؤية البأس ـــ أو [عند رؤية] الموت، والله أعلم، وهو الموفق المستعان.

وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة فصلت وآياتها ٥٤

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ⑥ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⑦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧ ﴾

إعراض المشركين عن القرآن

﴿حم تَنزِيلٌ﴾ خبر لمحذوف، أي: القرآن تزيل، أي: منزّل ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ متعلّق بـ«تَنزِيلٌ» ﴿كِتَابٌ﴾ خبر ثان ﴿فُصِّلَتْ ـ آيَاتُهُ﴾ نعت «كِتَابٌ»، وتفصيلها لفظيٌّ ومعنويٌّ، وأمَّا اللفظيُّ فكجعلها سورا وجعلها فواصل باتِّحاد اللفظ في آخر كلِّ فاصلة، أو بالموازنة كقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ (سورة الفلق: ٣) ، باعتبار ما قبله، وقوله: ﴿مِن مَّسَدٍ﴾ (سورة المسد: ٥) ، كذلك.

وكلُّ فاصلة تمام آية، والمعتبر ما قبل ألف التنوين في الوقف، وما قبل ألف الإطلاق كـ«السَّبِيلاَ» و«الرَّسُولاَ» [الأحزاب آية٦٦ و٦٧] وهما تبع لما قبلهما، وأمَّا المعنويُّ فكالوعد والوعيد والقصاص والأمثال، وكالأمر والنهي والأخبار والثواب والعقاب والحلال والحرام، والحقِّ والباطل، وبعضها يتضمَّن بعضا، ولكن اختلفت بالاعتبار.

[قلت:] ويضعف ما قيل: إنّها فصّلت بالتنزيل إذ لم تنزل بمرّة كسائر كتب الله ﷻ، ويضعف أن يقال: جعلت فاصلة بين النبيء ﷺ ومن خالفه.

﴿قُرْءَانًا﴾ حال من «كِتَابٌ» لأنّه بمعنى مقروء، أو لنعته بما هو كالمشتقّ، وهو قوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ منسوب إلى العرب.

[قلت:] وهو امتنان من الله تعالى، إذ جعله بلغة القوم الذين نزل على نبيئهم، فيسهل عليهم لفظه ومعناه، وينشرونه للعجم بالترجمة، وكذا امتنّ الله على أهل كلّ كتاب انزله بلغتهم[1].

(نحو) وهذه الحال مؤكّدة فكونه قرآنا هو معنى كتابا، لأنّ المكتوب مقروء، أو توطئة للنعت بعده، وأجيز أنّه مفعول مطلق لنعت محذوف، أي: مقروء قرآنا عربيًّا، أي: قراءة عَرَبِيَّة، لكن فيه النعت بالمفرد بعد النعت بالجملة، أو قدّر الفعل، أي: يُقرأ قرآنا عربيًّا، بالبناء للمفعول.

﴿لِّقَوْمٍ﴾ متعلّق بـ«فُصِّلَتْ» ولا تنصت إلى ادّعاء تعليقها بـ«تَنزِيلٌ»، ولا إلى دعوى تعليقها بمحذوف نعتا لـ«قُرْءَانًا»، ولا إلى كون اللام للتعليل. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يعرفون معانيه، لكونه بألسنتهم وهم كُفّار، عدّي لواحد لكونه بمعنى: يعرف، أو لا يعلّق معناه بمفعول، فيكون كاللازم، أي: **لقوم أهل علم ونظر.** ﴿بَشِيرًا﴾ نعت لـ«قُرْءَانًا» لأهل الطاعة بالجنّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل المعصية بالنار.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن قبوله والتدبّر فيه، والهاء للقوم، وأجاز بعض المحقّقين رجوعه للكُفّارِ المذكورين حكما، وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ للمؤمنين بأن يفسَّر «يَعْلَمُونَ» بالإيمان والعمل، لأنّ العامل هو المنتفع به، وغيره كالعدم، ورجوعه أيضا للقوم باعتبار أن يراد من شأنهم العلم والعمل.

١– وامتن علينا معشر الجزائريّين أن جعل لساننا عربيًّا.

﴿فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ لا يسمعونه، أي: لا يقبلونه وقد سمعوه بآذانهم، شبَّه عدم القبول بعدم السمع لجامع عدم التأثُّر به، وهو مبنيٌّ على اعتبار أنّ السمع بمعنى القبول، فدخل النفي على ذلك، وذلك استعارة.

﴿وَقَالُواْ﴾ حين دعاهم إلى التوحيد ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية عظيمة لا ينفذها بصر ولا شيء ولا يخرقها، والمفرد غطاء بالكسر. وعن مجاهد: هي جعاب النبل وهي غطاء أيضا للنبل، وذلك استعارة عن القسوة العظيمة، ووزنه «أفعلة» نقلت كسرة النون الأولى إلى الكاف الساكنة، وأدغمت في النون بعدها.

﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله وحده، واتِّباع سائر ما يوحى، و«مِنْ» للابتداء، كقولك: رأيته من ذلك الجبل، تريد: تحصَّلت لي رؤيته من الجبل الذي هو فيه وأنا في غيره، أو بمعنى عن. وعلى كلّ حال تتعلّق بـ«أَكنّة».

﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل سمع لا نسمع الأصوات، وذلك استعارة عن الإعراض التامِّ بالقلوب ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ عظيم يمنعنا من التواصل، يستوعب الفسحة، لأنّ «مِنْ» للابتداء من جانب كلّ فينتهي كلٌّ إلى الآخر، ولو لم يذكر قوله: ﴿وَبَيْنِكَ﴾، وغلّب التكلُّم على الخطاب فكيف وقد ذكره؟ ولو لم يذكر «مِنْ» احتمل الاستيعاب وعدمه ولو ذكر قوله: ﴿وَبَيْنِكَ﴾.

(بلاغة) بالغوا في إقناط رسول الله ﷺ من إيمانهم بثلاث جمل تمثيليّات، سدُّوا محلّ المعرفة وهو القلب، وما يوصل إليه المعرفة وهو السمع، والبصر الممنوع بالحجاب. والحجاب مستعار للقسوة، أو الامتناع الشديد. والكلام كنايات متعدِّدة بدون استشعار تشبيه، أو استعارات مفردات، أو استعارة تمثيليّة، وكذا يجوز في الجملتين قبل.

(بلاغة) وفي قوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ استعلاء الأكنَّة على القلوب، لأنَّ الغطاء مستعل على ما غطِّي به، فهو موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي قُلُوبِهِمُ، أَكِنَّةً﴾ في الإسراء [آية ٤٦] والكهف [آية ٥٧]، وكانتا بـــ«عَلَى» لأنَّ الإسناد فيهما إلى الله ﷻ ، فناسب الاستعلاء، إذ قال: ﴿جَعَلْنَا﴾ وهنا حكاية كلامهم، فكان بـــ«فِي».

وزاده إقناطا بما ذكر الله عنهم في قوله ﷻ : ﴿فَاعْمَلِ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا، أو اعمل جهدك في كيدنا بإبطال ديننا إِنَّا عاملون كذلك في إبطال دينك، وفي هذا المعنى أيضا إقناط، إلاَّ أنَّ في الأوَّل متاركة، وفي هذا مجاهرة في العناد، والمقصود بالذات إِنَّا عاملون، وأمَّا «فاعمل» فتوطئة له.

(سيرة) قال عمر ﷺ : أقبلت قريش إلى رسول الله ﷺ فقال: ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب؟ فقالوا: يا محمَّد ما نفقه ما تقول ولا نسمعه، وإنَّ على قلوبنا لغلفا، فأخذ أبو جهل لعنه الله ثوبا فمدَّه بينه وبين رسول الله ﷺ ، أي: كالستر فقال: يا محمَّد، قلوبنا في أكنَّة ممَّا تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، وَلَمَّا كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا إلى النبيء ﷺ ، فقالوا: يا محمَّد أعرض علينا الإسلام، فلمَّا عرض عليهم الإسلام أسلموا عن آخرهم، فتبسَّم النبيء ﷺ وقال: الحمد لله بالأمس تزعمون أنَّ على قلوبكم غلفا وقلوبكم في أكنَّة ممَّا أدعوكم إليه، وفي آذانكم وقرا، وأصبحتم اليوم مسلمين، فقالوا: يا رسول الله كذبنا والله بالأمس، لو كان كذلك ما اهتدينا أبدا، وَلَكِنَّ الله تعالى الصادق والعباد الكاذبون عليه، وهو الغنيُّ ونحن الفقراء إليه، **ولعلَّ الحديث لم يثبت**، إلاَّ إن ارتدُّوا بعد.

﴿قُلِ اِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا مَلَك ولا جنِّيٌّ يمنعكم التلقِّي منِّي، فما هذا الحجاب الذي تدَّعون بيننا ؟ لا مغايرة بيننا بالجنسيَّة تقتضي تغاير

الأديان، وهذا جواب لقولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّة»، أي: لست بملَك بل بشر مثلكم، أوحي إليَّ دونكم وصحَّت نبوءتي، فوجب اتِّـباعي فيما أوحي إليَّ من أنَّ إلهكم واحد.

ولا يصحُّ ما قيل: إنِّي بشر مثلكم لا أقدر أن أخرج قلوبكم عن الأكنَّة وأرفع الحجاب والوقر، لأنَّ ذلك تكلُّف في التفسير لا دليل عليه، ولا يتبادر، ولو كان المعنى صحيحا، وكذلك لا يفسَّر بأنَّ البَشَرِيَّة التي تنفون بها رسالتي هي التي تثبت الرسالة، إذ لا يرسل ملك ولا جنِّيٌّ ولو صحَّ المعنى.

﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يوحى إليَّ، الصحيح أنَّ «أنَّما» المفتوحة تفيد الحصر كالمكسورة، حَصَرَ الوَحْدَانِيَّةَ لله ﷻ، وهو أمر معقول ظاهر الدلائل يدخل الأسماع، فكيف تقولون: قلوبنا في أكنة مِمَّا تدعوننا إليه وفي آذننا وقر؟.

﴿فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ توجَّهوا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة **﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾** من شرككم وسائر ذنوبكم.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذِينَ لاَ يُوتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ إنكارا لها أن تكون من الله تعالى، وشحًّا، وعدم الشفقة على المساكين.

و لم يذكر المساكين لأنَّ المقام لذكر شحِّهم وإنكارهم، لا من يعطونه، وقد فرض في مَكَّة شيء يعطى يسمَّى زكاة، ثمَّ نسخ بالزكاة المفروضة في المدينة، والمال شقيق الروح، فمن لم يؤمن بالله لا تسمح نفسه بزكاته، ومن أعطاها لله تعالى تبيَّن أنَّه صحيح الإيمان، وما ارتدَّت بنو حنيفة إلاَّ للزكاة.

(فقه) وذلك يَدُلُّ على خطاب المشركين بالفروع كالأصول، إذ رتَّب الويل على ترك الزكاة، كما رتَّبه على الشرك.

وحمل ابن عبَّاس ومجاهد ذلك على المعنى اللغويِّ، أي: لا يؤتون أنفسهم أو

النبيء ﷺ الطهارة بالإيمان والعمل. وعبارة بعض: لا يزكُّون أعمالهم، أي: لا يوحِّدون ويعملون الصالحات.

﴿وَهُم بِالاَخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة، قدِّم للفاصلة، ولطريق قصدهم بالذمّ ﴿هُمْ﴾ ضمير فصل فيما قيل، ولو كان الخبر نكرة، والأولى أن يكون تأكيدا لفظيًّا ﴿كَافِرُونَ﴾ لا يرجون ثوابا ولا عقابا لعدم البعث عندهم.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمُ، أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، أو لا يمنُّ به عليهم، وقيل: غير محسوب، وقيل: غير منقوص، والقولان تفسير بحاصل المعنى. وعلى كلِّ حال يكون ذلك تعريضا بالمشركين بأنَّه لا خير لهم لأنَّهم لا يؤتون الزكاة، ومقابلة لقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وكأنَّه قيل: وطوبى للمؤمنين.

[قلت:] وقيل: المراد إنَّه لا يقطع عملهم إذ تركوه أو بعضه لهرم أو مرض أو مانع، حتَّى يقال: يكتب للحائض أنَّها صامت وصلَّت وفعلت ما لا تفعله الحائض، إذ صحَّت نيتها وقصدها، ومثلها النفساء، مثل أن تعزم على عبادة فيمنعها الحيض أو النفاس، أو تشتدَّ رغبتها ونيتها أنَّه لولا الحيض والنفاس لوصلت العبادة و لم تقطعها، بل يكتب لهم في حال تركه ما داموا أحياء، وكذا الحائض والنفساء.

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري: سمعت رسول الله ﷺ غير مرَّة وغير مرَّتين يقول: «**إذا كان العبد يعمل عملا صالحا فشغله عنه مرض أو سفر كتب الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وهو صحيح مقيم**»[1]. وروي:

١- رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب إذا كان العبد يعمل عملا صالحا... رقم٣٠٩١. ورواه **البخاري** بلفظ مشابه في كتاب السير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، =

«إذا مرض أو هرم أو عجز لحادث كتب الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وقال للملائكة: اكتبوه له فأنا قيّدته».

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

كمال قدرة الله تعالى وتوبيخ المشركين

﴿قُلَ ايِنَّكُمْ لَتكْفُرُونَ بِالذي خَلَقَ الاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ جرى قضاؤه أن يخلقها في مقدار يومين فأخبر بما جرى به قضاؤه، وخلقها في يومين، وذلك لحكمة يعلمها.

[قلت:] وفي ذلك إشارة إلى استحباب التأنّي في الأمور، ولو شاء لخلق الأرضين والسماوات، والعرش والكرسي، والملائكة والثقلين والحيوانات والبحور وغير ذلك في أقلّ من لحظة، وزعم بعض أنّه خلق أصلها ومادّتها في يوم، وصوّرها في يوم، يوم الأحد ويوم الإثنين.

﴿وتَجْعَلُونَ لَهُ، أَندَادًا﴾ آلهة تنازعه وتشاركه في زعمكم من الملائكة والجنّ وغيرها، وجمع الندّ لأنّه الواقع، لا لكونهم لا يؤاخذون على الندّ والنّدّين، فإنّهم يؤاخذون على الواحد وغيره.

=

رقم٢٨٣٤. من حديث أبي موسى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العالي الشأن لصفاته وأفعاله، وأفرد الكاف لأنّها لرسول الله ﷺ، أو لكلّ أحد على سبيل البدليَّة لا لمخصوصين ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كلّهم الأرض وغيرها من الأجسام والأعراض، فكيف يجعل مملوكه ندًّا له.

﴿وَجَعَلَ﴾ قيل: العطف على «خَلَقَ» وفيه الفصل بجملتين مشوِّشا للذهن، مورثا لصعوبة فهم معنى الوصل، ولو كان قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ...﴾ بمنزلة ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ...﴾ فهما كواحدة، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مؤكّد لمضمون الكلام كما رأيت في تفسيره آنفا، والأقرب العطف على محذوف، أي: خلقها وجعل.

﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا راسية، أي: ثابتة ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلّق بـ«جَعَلَ» أو نعت لـ«رَوَاسِيَ» أو لمنعوته، وإنّما صحَّ النعت على طريق قولك: إنّ الرواسي الثابتة من فوقها هو جعلها.

(بلاغة) وفائدة قوله: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أنّها فوقها لا تحتها كالعمد لها، ولا مغروزة فيها كالمسامير، ليتوصَّل بارتفاعها إلى مصالح واعتبارات، وغرز بعض أسفلها كما يكشف بالسيل لا ينافي أنّها من فوقها لقلّته، فإنّها قيل: أنزلت الجبال بعد خلق الأرض، وغرز قليل من أسفلها أو دفن.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ كثّر خيرها بالإنبات، وخلق المعادن، والجواهر والحيوان، ومنه الإنسان ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ جعل الأقوات مقادير مخصوصة، وأضافها لضمير الأرض لأنّها في الأرض، أو يقدَّر مضاف، أي: أقوات أهلها.

وقيل: الأقوات الأمطار والمياه، فإنَّها قوت للأرض تشربها فتلد الثمار النافعة، وما ينتفع به ممَّا تأكل الدوابُّ، والخشب والحطب، وعن عكرمة أنّها ما خصَّ به كلّ إقليم من الملابس والمطاعم والمشارب والنبات ممَّا تعمر به

الأرض، كما قرئ: «وَقَسَّمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» وقيل: خلق في كلّ بلدة ما لم يجعل في الأخرى لينتفعوا بالتجر، وقيل: قدَّر البُرَّ لأهل أرض، والتمر لأهل أرض، والذُّرَة لأهل أرض، والسمك لأهل أرض.

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلّق بـ«قَدَّرَ» على مذهب أبي حنيفة في القيد بين متعاطفين أو متعاطفات أنّه يعود إلى الأخير.

[قلت:] والذي يظهر أنّه للكلّ، لأنّ عاملها واحد، حتَّى يدلّ دليل على تخصيص، ويجعل ذلك من باب الحذف أو من التنازع، وإذا لم يصلح العامل لكلّ على حدة قدِّر ما يعمُّ، مثل أن يقدَّر هنا: حصل مجموع ذلك في أربعة أيـــّام، ثمّ رأيته قولا للشافعي.

(رفع إشكال) قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثمّ قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ثمّ قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات فِي يَوْمَيْنِ﴾ وخالف ظاهر ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[١] الجواب قيل: إنّ المراد في تتمَّة أربعة أيـــّام وتتمَّتها يومان، وإلاّ كانت الأيـــّام ثمانية، وإنّما هي ستَّة بزيادة يومين على أربعة[٢].

ومثّل لذلك بقولك: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيـــّام، وإلى الكوفة في خمسة عشر، تريد تتمَّة خمسة عشر، كذا قيل، **وهو تخليط**، وإنّما الجواب ما يجيء بعد إن شاء الله تعالى[٣]، وعبارة بعض: في أربعة أيـــّام مع اليومين الأوّلين المذكورين قبل، ففي المثال: خمسة عشر بعد العشرة المذكورة.

١- في سورة الأعراف آية ٥٤، وسورة يونس آية ٣، وسورة هود آية ٧، وسورة السجدة آية ٤، وسورة الفرقان آية ٥٩، وسورة الحديد آية ٤.

٢- ويفسِّر بعض المحقِّقين الأيـــّام بالمراحل، إذ لا يوم ولا شهر آنذاك.

٣- انظر تفسير قوله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مفعول مطلق لمحذوف نعت لـــ«أَرْبَعَة»، أي: مستوية للسائلين سواءً، أي: استواءً، ويدلُّ له قراءة يعقوب بجر «سَوَآءٍ» على أنّه نعت لـــ«أَرْبَعَة».

(بلاغة) وفائدة «سَوَاءً» دفعُ الزيادة والنقص، لأنّه قد يذكر العدد والمراد دونه، كقوله تعالى: ﴿الحجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ (سورة البقرة: ١٩٧) ، فإنّهنّ شوال وذو القعدة وتسعة أيّــام من ذي الحجَّة، قيل: وليلة النحر، والبسط في الفقه، تقول: فعلته في يومين وتريد أنّه لم يستقلّ به يوم واحد، بل أخذ من الآخر نصفا أو أقلّ أو أكثر، فكأنّه قيل: في أربعة أيّــام كاملة.

(نحو) و«لِلسَّائِلِينَ» متعلّق بنعت محذوف جوازا، أي: سواء مهيَّأة للسائلين، أي: مستوية مهيأة للسائلين، أي: المحتاجين، أو خبر لمحذوف، أي: ذلك للسائلين عن مدَّة خلق الأرض وما فيها، أو متعلّق بـــ«قَدَّرَ» بمعنى الطالبين للأقوات، أو حال من الأقوات، بمعنى الطالبين، والمتبادر الثاني.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ﴾ أي: توجّهت إرادته إلى السماء وانتهت إليه بالتدبير، يقال: استوى زيدٌ إلى كذا، بمعنى أنّه قصده ولا يشتغل بغيره ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ شيء مظلم، وهو ـــ قيل ـــ مَادَّة من أجزاء فردة تركّبت السماء منها. [قلت:] ولست أقول بالجواهر الفردة من حيث شرعت في فنِّ الكلام، ثمّ رأيت والحمد لله تعالى بعض الْمُحَقِّقِينَ من الْحَنَفِيَّة قال كما قلت.

ويقال: كان عرشه على الماء فأحدث الله فيه سخونة فارتفع زبد ودخان، فخلق الله السماوات من الدخان، وقيل: خلق الله ياقوتة خضراء فذابت لجلال الله بأمره تعالى، فكانت ماء فأزبدَّ فارتفع منه دخان، فخلق منه السماوات.

وله أن يخلق ما شاء ممَّا شاء، ويخلق ما شاء من غير شيء، وليس الدخان دخان نار، لأنّ النار لَمَّا تخلق حينئذ، وهب أنّها خلقت لكن ليس ذلك دخانها.

وظاهر الآية أنَّ الأرض قبل السماء وقد قال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات: ٣٠) ، وهو يدلُّ على تأخيرها، الجواب أنَّ خَلْقَ جرم الأرض متقدِّم على خلق السماء، ودَحْوُها متأخِّر، ويجوز أن يكون السماء قبل الأرض، فيكون المعنى: قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلاَرْضِ ايتِيَا﴾ بما أودعت فيكما من المنافع وأحضراه، والأمر للتسخير، وليس المعنى: أحدُثا، فإنَّه قد ذكر حدوثهما قبل، إلاَّ أن يقال: الفاء للترتيب الذكري، فيكون الأمر للتكوين، أو «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» معطوف على «اسْتَوَىٰ إِلَى السَمَآءِ» في نية الاتِّصَال به، و«قَالَ لَهَا وَلِلاَرْضِ...» في نية التأخير عن «فَقَضَاهُنَّ...».

والمراد إتيانُهما بما فيهما، وذكر الاستواء للسماء و لم يذكره للأرض اكتفاء بأنَّه قدَّرها وقدَّر ما فيها، وقيل: إتيان السماء حدوثها، وإتيان الأرض دحوها، تشبيها للخروج من العدم، ودحو الأرض بالإتيان من مكان، وقيل: لتأت كلٌّ منهما الأخرى فيما أريد منهما، أمرًا بالمواتاة بمعنى الموافقة، فذلك مفاعلة لقراءة ابن عبَّاس: «آتيَا» و«وَقَالَتَا ءَاتَيْنَا» بالمدِّ من الإيـــتاء بعنى الموافقة، وليس بلازم، لجواز أنَّ الإيتاء في قراءة ابن عبَّاس المسارعة، كما فسَّرها ابن جنِّي، أو بمعنى إعطاء، أي: أعطيا ما أردت منكما.

﴿طَوْعًا اَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتأثير القدرة بلا مانع، لأنَّهما لا عقل لهما ترضيان به أو تكرهان، وإن فرضناه فما هو معتبر.

(نحو) والنصب على المفعوليَّة المطلقة على حذف مضاف، أي: إتيان طوع أو كره، أو على الحالية بالتأويل بالوصف، أي: طائعتين أو كارهتين، أو بتقدير مضاف، أي: مصاحِبَتَيْ طَوْعٍ أو كَرْهٍ، وهكذا أُتْرُكْ أنت ونحن تقدير

«ذي» بمعنى صاحب في مقام التأويل بالوصف، ونقدِّر لفظ «مصاحب» مكان تقدير «ذي»، لأنَّ «ذا» ليست وصفًا بل تأوُّلٌ بالوصف.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ الجمع لأنَّ الاثنين جمع مجازًا، أو لأنَّ الأرض أرضون والسماء في ضمن سماوات، وكونه بصيغة العقلاء لخطابهنَّ خطاب العقلاء، وجوابهنَّ جوابهم إذ وصفتا بالقول، أو لأنَّ لهنَّ عقلا خلقه الله تعالى لهنَّ، حينئذٍ، والأصل: أتينا طائعات.

واختير التذكير لما ذُكر فإنَّه يعتبر التأنيث في مقامه، ولو كان بحسب اللفظ كما لو كان بحسب المعنى، تقول: قالت الهندان: نحن قائمتان، وقالت الهنود نحن قائمات، أو قوائم.

وقولهما تمثيل للتأثُّر بالقدرة التَّامَّة من الله ﷻ، أو حقيقة بأن خلق الله لهما عقلاً ففهمتا ونطقتا، [قلت:] وبه أقول لأنَّه ظاهر الكلام بلا مانع، وفيه إظهار قدرته تعالى بإنطاق الجماد، فيقابل ما في الأرض من البلاغة، وقد زعم من زعم أنَّ للجمادات عقولا مستمرَّة، وهو خطأ.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي: صيَّرهنَّ سبع سماوات، والهاء للسماء، وضمير الجمع باعتبار الخبر، وهو المفعول الثاني، كما يؤنَّث المبتدأ المذكَّر لتأنيث الخبر، وقيل: باعتبار أنَّ السماء سبع، وأنَّه اسم جمع، وفيه أنَّه مثل قولك: صير سبع سماوات سبع سماوات، فيكون تحصيل الحاصل.

ولا يسيغه قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ لأنَّ سبع سماوات لا تنقلب سبع سماوات لحظة ولا أقلَّ ولا أكثر، وقد قال الله تعالى: ﴿السَّمَآءَ الدُّنْيَا﴾ (سورة فصِّلت: ١٢) ، فلو كان اسم جمع لم يقل ذلك، فإنَّ المراد الأولى الواحدة إذ وصفها بالدنيا، وقيل: «قَضَى» بمعنى فصل، والكلام فيه كما مرَّ إلاَّ أنَّ سبع فيه حال مقدَّرة، أو بدل من الهاء، أو مفعول به، أي: قضى منهنَّ سبع سماوات،

فحذف «مِنْ»، وقيل: تميز للهاء، وأنَّ الهاء لمبهم مشعر بالتمييز بعدها.

وقيل: ليس في الآية ترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء، وأكثر المفسِّرين على تقدُّم إيجاد الأرض على إيجاد السماء، حملاً للخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة، لا على معنى الحكم والتقدير والقضاء الأزلي.

وما يلزم على حملها على ظاهرها من خلاف الظاهر يدفع بجعل الترتيب إخباريًّا، وما صحَّ إبقاؤهُ على ترتيب الحدوث حمل عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ فالسماء بعد الأرض، ولا يغايره قوله تعالى: ﴿هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى...﴾ (سورة البقرة: ٢٩) ، لأنَّه في خلق ما فيها لا في إيجادها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ءَآنتُمُ أَشَدُّ خَلْقًا...﴾ إلَى قوله ﷻ : ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (سورة النازعات: ٢٧-٣٣) فالمقدَّم فيه خلق السماء وأحوالها على دَحْوِ الأرض لا على خلق الأرض، أي: دحَا الأرض بعد ذلك دحَاهَا، أو اذكر الأرض دحاها...الخ أو تدبَّر الأرض.

قال ابن عبَّاس: خلق الأرض في يومين قبل السماء، وكانت السماء دخانًا فسوَّاها سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض، وجعل الجبال في الأرض بعد خلق السماء، وقد مرَّ لك أنَّ «فَقَضَاهُنَّ» في نية التقديم على «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ»، والفاء لترتيب الذكر.

(قصص) قال ﷺ : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال وما فيهنَّ من المنافع يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الماء والشجر والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة أيــَّام، فقال تعالى: ﴿أَيِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ وقرأ الآية إلى قوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ وخلق يوم الخميس السماء،

وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة. وظاهره خلق ما في الأرض في هذا الحديث قبل خلق السماء، بمعنى التقدير والتدبير وخلق الْمَادَّة، لا الإيجاد، ألا ترى أنّه ذكر العمران والخراب ولا وجود لهما حينئذ، فما ذلك إلاّ التقدير.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : خلق الله تعالى التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدوابّ يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة، وذلك تقدير لا إيجاد[1].

والحديث ظاهر في أنّ أوَّل الأسبوع يوم السبت وهو الظاهر وعليه الجمهور، ويروى عن ابن عبَّاس أنّ أوّله الأحد، وروى الطبريُّ عن أبي بكر عنه ﷺ : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار والعمران والخراب يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس، إلى ثلاث ساعات، أي: من يوم الجمعة، وخلق في أوَّل ساعة الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم. واليهود لعنهم الله على أنّ أوَّل الأسبوع الأحد احتجاجًا بما يدَّعون أنّه في التوراة وبظاهر الأسماء.

وللعرب أسماء أخر: أوَّل، وأهون، وجبار، ودبار، ومؤنس، وعروبة، وشبار. وقال مقاتل وجماعة: خلق السماء قبل الأرض ودحوها، وأوَّلوا آية تقدُّم الأرض بتقدُّمها حكما، وقضاءً بأن ستوجد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ...﴾ (سورة آل عمران: ٥٩) ، وكذا في «بَارَكَ» وما بعده.

١-رواه **مسلم** في كتاب صفة القيامة وَالجَـنَّة والنار، باب ابتداء الخلق. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم٨١٤١، من حديث أبي هريرة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ما اقتضت الحكمة أن يكون فيها، كوجود الملائكة والنيِّرات. والإيحاء بمعنى التكوين، أو الإيحاء إلى أهلها بما يكلّفون به. والعطف على «قَضَى».

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ النجوم مستوية، أو بعضها منخفض وبعضها مرتفع، أو بعضها فيها وبعضها فيما فوقها، وقيل: تحتها زيِّنت بها ﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول مطلق لمحذوف معطوف على «زَيَّنَّا»، أي: وحفظناها، أي: السماء، قيل[1]: أو المصابيح حفظًا من الآفات والشياطين المسترقة.

﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكر كلُّه ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ عظيم العلم وكثيره، وهو علم لا يتناهى.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

١– وهذا يوافق الاكتشافات الحديثة، فالغلاف الجوِّي للأرض كمظلّة واقية للأحياء في الأرض من الشهب والنيازك وغيرها، ويصحُّ أن يطلق اسم السماء على الغلاف الجوِّي فكلُّ ما علاك فهو سماء.

تهديد المشركين بمثل صاعقة عاد وثمود

﴿فَإِنَ اَعْرَضُواْ﴾ متعلّق بقوله: ﴿قُلَ اَيِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ...﴾ أي: أعرضوا عمَّا تقول من التوحيد وسائر الشرع، وعن التدبُّر في ذلك ﴿فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ﴾ إنشاء لا إخبار كأعتقتُ وبعتُ ونحوه من العقود، فقد حصل الإنذار بهذا اللفظ.

[قلت:] وقال غيري: ماض عبَّر به عن المضارع للدلالة على تحقُّق الإنذار المنبئ عن تحقُّق المنذَر به، فإن أراد أنَّه مستقبل بمعنى سأنذركم لم يجز تأخير الإنذار، والله لا يأمره بتأخيره، وإن أراد الحال كان المعنى الإخبار بأنَّه قد أنذرهم في الحال، وهذا الإنذار غير واقع في الحال بغير هذا اللفظ فلا يصحُّ، فلزم أنَّه لفظ أنشأ به الإنذار.

وإن أراد الإخبار بأنَّه قد أنذرتكم قبل وبلَّغت فلا عليَّ، جاز، لَكِنَّ ذلك ماض على ظاهره وإخبار صحيح. ومعنى تحقُّق المنذر به أنِّي خوَّفْتُكم من تحقُّقه لقولكم لا يقع.

﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَة عَادٍ وَثَمُودَ﴾ عذابًا كعذابهم، قاله قتادة، وَلَعلَّهُ أراد عذابا كعذابهم الذي يسمَّى صاعقة، وإلاَّ فالصاعقة لا يطلق على مطلق العذاب، فالمراد صاعقة حَقِيقيَّة، كصاعقة هؤلاء، أو عذاب يشبهها في الشدَّة، وخصَّ عادًا وثمودًا بالذكر لوقوعهم على بلادهم في اليمن والحجر.

وَسَمَّى ذلك العذاب صاعقة لأنَّه يصعق به الإنسان، أي: يموت به. ويطلق لفظ الصاعقة على النار النازلة من السماء، ولا تختص بأهل الشقاوة، ولا يخلو منها عذاب عاد وثمود، وما زالت تنزل إلى الآن وقد كثرت، فتارة تحرق الناس، وتارة الدوابَّ، وتارة الشجر وغير ذلك.

(حادثة تاريخية) وحرقت سنة ثلاث مائة وخمس أسواق فاس، وأسواق تيهرت قاعدة زناتة، وأسواق قرطبة، وأرباض مكناسة من بلاد جوف أندلس، وكلٌّ ذلك في شوال السنة المذكورة فسمِّيت سنة النار.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾ متعلّق بنعت محذوف، أي: صاعقة عاد وثمود الواقعة إذ جاءتهم الرسل، هم رسولان هود وصالح، عبَّر عنهما بالجمع لعظم شأنهما، أو هما رسل كثيرة باعتبار كثرة أفراد القبيلتين، فكلٌّ واحد منهما رسول إلى هذا، ورسول إلى هذا، ورسول إلى ذلك، وهكذا مثل تنزيل تغاير الصفات بمنزلة تغاير الذوات.

أو الرسل: هود وصالح ورسلهما، أو هما ومن قبلهم ومن بعدهم، لأنَّ الدعوة واحدة لكن فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز لأنَّ مجيء غيرهما مجاز. و«صَاعِقَة» معرفة لإضافته إلى العلم، وحذف الموصول الذي هو «ال» وصلته جائز.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عن جميع جهاتهم، عبَّر عنهنَّ بالجهتين كما يعبَّر عن اليوم بالبكرة والعشيِّ، ومعنى ذلك اجتهادهم في الإنذار، أو جاءهم بالإنذار عمَّا أصاب من قبلهم من الكُفَّار، وما يصيب من بعدهم، أو بالعكس، إذ لَهُمَا علم بأنَّه ستجيء رسل تكذّبهم أقوامهم فيهلكون، أو أحدهما لما مضى والآخر للآخرة، وينبغي أن يكون هو خلفهم هنا.

(بلاغة) واستعير اسم المكان للزمان، والمعنى: جاءتهم الرسل المتقدِّمون والمتأخِّرون، كأنَّ مجيء كلامهم مجيء أبدانهم، والدعوة واحدة إلى الإسلام وما لا تختلف فيه الشرائع، كما قال الله ﷻ : **﴿أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ اللهَ﴾**.

أو ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كناية عن كثرة الرسل، كقوله تعالى: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ (سورة النحل: ١١٢) . و«أَنْ» حرف تفسير، لأنّ المجيء بالوحي فيه معنى القول دون حروفه، و«لاَ» ناهية.

(نحو) ولا يجوز أن تكون ناصبة على أنّ «لاَ» ناهية، ولا مخفّفة على أن «لاَ» ناهية، بل لا حاجة إلى دعوى التخفيف وإضمار اسمها، ولا دليل عليه، وذلك أنّه لا خارج للنهي يكون منه المصدر، ويجوز أن تكون ناصبة و«لاَ» نافية، والمصدر مقدَّر بالباء متعلّقة بـ«جَاءَتْ»، أي: بأن لا تعبدوا إلاّ الله، أي: بانتفاء عبادتكم غير الله، أي: بوجوب أن لا تعبدوا إلاّ الله، فحذف المضاف.

وكأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقال الله ﷻ : ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرُّسل ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لأنزلهم رُسُلاً، أو أنزل بمعنى أرسل استعمالا للمطلق في المقيَّد، قيل: اختار الإنزال لأنّ إرسالهم إنّما يكون بطريق الإنذار.

ويجوز تقدير مفعول المشيئة من جنس الجواب، كما هو الكثير، أي: لو شاء ربُّنا إنزال الملائكة رسلا لأنزل الملائكة، ولا مانع له، وهم في السماء وأقوى، ولَمَّا لم يترلهم علمنا أنّكم لستم رسلاً منه، إذ لا يترك الأقوى القريب في محلّ الوحي، ويرسل الضعيف البعيد.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لأنـكم بشر مثلنا لا مزيَّة لكم علينا، فإنَّا كافرون بالأمر الذي أرسلتم به على زعمكم، أو أثـبتوا إرسالَهم تهكُّمًا، أو يقدَّر: «إذا لم يترلهم فَإِنَّا...»، ويضعف عود الهاء إلى النهي عن العبادة لغيره، أو إلى انتفاء صحَّتها، فتكون «مَا» مَصدَرِيَّة.

(سيرة) لَمَّا أسلم عمر وحمزة والعبَّاس وغيرهما، وخاف الكفرة

انتشار الإسلام، قال أبو جهل وعتبة بن ربيعة ومن معهما من الملإ: التمسوا رجلا يعلم السحر والكهانة والشعر، يُكَلِّم مُحَمَّدًا فقد الْتبس علينا أمره، فقال عتبة بن ربيعة: أنا أعرف ذلك، فقال لرسول الله ﷺ : يا محمَّد أأنت خير من هاشم وعبد المطلب؟ لم تشتم آلهتنا وتضلِّل آباءنا ؟ إن أحببت الرئاسة عقدنا لك ألويتنا، أو المال جمعنا لك ما يغنيك وعقبَكَ، أو التزوُّج زوَّجْناك عشرًا من قريش تختارهنَّ.

فقال ﷺ : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾ إلى: ﴿...فَإِنَ اَعْرَضُواْ فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك فاه وأنشده بالرحم أن يسكت.

فخرج ولزم بيته، فقال أبوجهل: ما أراه إلاَّ قد صبا إلى محمَّد وأعجبه طعامه لحاجة أصابته، فذهبوا إليه فقال: ياعتبة، ما حسبنا إلاَّ أنَّك صبوت إلى محمَّد وأعجبك أمره؟ فإن احتجت جمعنا لك ما يغنيك عن محمَّد، وإنَّما أراد إغضابه ليُوسِّع في الكلام بما عنده، فغضب.

فقال: والله لقد علمتم أنِّي أكثر قريش مالاً، والله لا أكلِّم مُحَمَّدًا أبدًا، ولكن تَكَلَّم بكلام ما هو شعر ولا سحر ولا كهانة وناشدته الرحم أن يكفَّ خوفًا منِّي عليكم أن تهلكوا، وقد علمتم أنَّه إذا قال شيئًا وقع.

قال ربيعة: والله ليكوننَّ لقوله نبأ، دعوه فإن تصبه العرب كفوكم، وإلاَّ فملكه ملككم، وعزُّه عزُّكم، وأنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ للتَّفريع بتفصيل ما لكلِّ طائفة منهما من الجناية والعذاب، وبدأ بعاد لتقدُّم زمانهم على ثمود ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ تعظموا على غيرهم لعظم

أجسامهم، فكانوا يظلمونهم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ذكر الأرض للعموم، كأنَّه قيل: على أهل الأرض، وتلويحًا بأنَّها للعبادة لا للتكبُّر أو تكبَّروا عن التوحيد والطاعة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بغير استحقاق للاستكبار.

﴿وَقَالُواْ﴾ أشرًا وفخرًا ﴿مَنَ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ استفهام وإنكار وردٌّ لتخويف الرسول لهم بالعذاب، وكان الرجل منهم يترع الصخرة من الجبل فيرفعها بيده.

﴿اَوَلَمْ يَرَوَاْ﴾ أغفلوا و لم يروا ؟ أي: لم يعلموا علمًا طبيعيًّا شبيهًا بالمعاينة أو علما كسبيًّا ﴿اَنَّ اللهَ الَذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنهُمْ قُوَّةً﴾ أي: قدرة، لأنَّه قويٌّ بالذات خالق للقوى والقدر وما أتاهم به الرسل منه تعالى. وفي ذكره تعالى قوَّته تهكُّم بقدرتهم، و لم يعبِّر بالقدرة بل عبَّر بالشِّدة للمشاكلة، وقال: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ دون خلق السماوات والأرض لادِّعائهم الشدَّة ﴿وَكَانُواْ بِئَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكرونها مع علمهم بها. وقدَّم بـــ«بِئَايَاتِنَا» على طريق الاهتمام وللفاصلة.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة بردًا شديدًا تُهلكهم ببردها، أو شديدة الصَّوت لقوَّتها، وهو المشهور، فالصرصرة: الصوت الشديد، ففي تلك الريح نار، وإن فسَّرناها بالبرد لم يمتنع أن تكون حارَّةً يعقبها البرد، أو باردة يعقبها الحرُّ.

والشِّدة معلومة من تكرير الحرف، تكسرهم، تحمل الرجل أو المرأة في الهواء وتدقُّه في الأرض، وتحمله وتضربه للصخرة، وتضرب الإنسان على الحائط، وتدخل عليه في بيته وستره وتقتله فيه، أو تخرجه وتقتله، وهي مأمورة.

ويقال: الريح ثمانية، أربعة عذاب: الصرصر والعاصف والقاصف والعقيم، وأربعة رحمة: الناشرة والمبشِّرة والمرسلة والذارية.

وفي معنى شدَّة الصوت الصيحة، قال الله: ﴿فَأَقْبَلَتِ اِمْرَأَتُهُ فِي

صَرًّا﴾ (سورة الذاريات: ٢٩) ، وفي الحديث: «**إنَّ الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا قدر حلقة الخاتم، ولو فتح قدر منخر الثور لهلكت الدنيا**». قيل: وكانت تحمل العير بأوقارها فتلقيها في البحر.

﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ مصدر مجموع بمعنى الوصف، أو يقدَّر مضاف، أي: مصاحبات نحس، أو مبالغة، أو صفة مشبَّهة أصله: «نحْسٌ» بكسر الحاء وسُكِّن تخفيفًا، وَيَدُلُّ أنَّه قد قرئ في السبع بالكسر، وجمع الألف والتاء على أنَّه مذَكَّر لأنَّه غير عاقل.

(**لغة**) والنحس: الشؤم، وقيل: النحس البردُ، والصرصر الصوت قال شاعر: «كأنَّ سلافه مزجت بنحس». وقيل: ذوات غبار وتراب لا يكاد الإنسان يبصر فيها، قال الراجز:

قد اغتدى قبل طلوع الشمس للصـــــيد في يوم قليل النَّحس

أي الغبار، ويحتمل البرد، وهو أولى. والصحيح أنَّ النحس الشؤم يقال: يوم نحس ويوم سعيد، وهذا اليوم سعيد لنا نحس على الكافرين، وإنَّما النحس بالنسبة إلى من يصيبه السوء، لا إلى الزمان، لا من خصوصيات الأوقات.

[قلت:] إلاَّ أنَّ أخبارا كثيرة بنحس أيـــَّام كإربعاء آخر الشهر، وكالثلاثاء يجاب فيه دعاء الداعي فتصيبه الآفات، قال ابن عبَّاس: «الأيـــَّام كلُّها لله تعالى، لكنَّه ﷻ خلق بعضها سعودًا وبعضها نحوسًا».

وكانت أيـــَّام النحوس المذكورة أواخر فبراير وأوائل مارس، من شهور الشمس، وآخر شوال من شهور القمر من الأربعاء إلى الأربعاء. وروي: ما عذِّب قوم إلاَّ في يوم الأربعاء. وقال السدِّي: أوَّلها غداة يوم الأحد، وقال

الربيع بن أنس: أوَّلها يوم الجمعة.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: الذلّ، وكأنَّه قيل: العذاب الخازي بالتعريف لـ«عَذَابَ». ونعته بالخازي بلا تفضيل بدليل اسم التفضيل في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وإسناد الخزي إلى العذاب مجاز عقليٌّ، بأنَّه اشتدَّ عذابهم حتَّى اتَّصَفَ بالخزي، مثل قولك: شعر شاعر كأنَّ شعرك ينظم شعرًا.

اشتدَّ عذابهم لاشتداد تكبُّرهم ﴿وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم في الآخرة قبل وقوعه، ولا بإخراجهم بعده.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بيَّنا لهم طريق الهدى، وطريق الضلال، ونصبنا لهم الأدلَّة، وأمرناهم بالهدى، واختاروا الضلال كما قال:

﴿فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ﴾ أي: الضلال، استعار له اسم العمى لجامع عدم الاهتداء إلى المقصود بالذات ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾ عدِّيَ «اسْتَحَبَّ» بـ«عَلَى» لما في استحباب الشيء من تغليبه على غيره وإعلائه عليه. وقيل: خلق الاهتداء فيهم فاهتدوا ثمَّ كفروا.

(أصول الدين) واستدلَّ المعتزلة بالآية على أنَّ العبد مستقلٌّ بالإيمان عن الله، لأنَّه قال: بيَّنَّا لهم فاختاروا بأنفسهم العمى، وهوخطأ فاحش، والأشياء كلُّها مستأنفة من الله، ولا استقلال لشيءٍ مَّا بشيءٍ، ولا دلالة لهم في الآية، فإنَّ قدرة الله هي المؤثِّرة بلا إجبارٍ، وللعبد قدرة مقارنة لقدرته تعالى، مخلوقة له تعالى أيضا، بلا إجبار، ألا ترى أنَّك حين إرادة المعصية قادر على تركها، والمحبَّة ضروريَّة، وإنَّما الاختيار لمقدِّماتها، وكذا البغض ضروريٌّ والاختيار لمقدِّماته، [قلت:] ومعنى تكليفنا بمحبة الله ورسوله ﷺ إلزام مقدِّماته.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ صيحة العذاب، أو نار العذاب من السحاب، أو نار العذاب مصاحبة الصيحة ـــ سبحان من ينزّل النار من الماء ـــ وإضافة «صَاعِقَةُ» لـــ«الْعَذَابِ» للمبالغة، كما بالغ بوصف العذاب بقوله: ﴿الْهُونِ﴾ كأنّه نفس الهون، أي: الذلّ، كأنّ عذابهم نفس الهون، وأنّ له صاعقة، أو يقدَّر: مصاحب الهون، أو هو بدل.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يكسبونه من اختيار الضلال على الهدى، بالإشراك وتوابعه من المعاصي، وهذه سَبَبِـــيَّة مؤكّدة للسَّـــبَبِـــيَّة بالفاء.

﴿وَنَجَّيْنَا﴾ من الريح والصاعقة ﴿الَذِينَ ءامَنُوا﴾ من قوم عاد وثمود ﴿وَكَانُواْ يَـــتَّقُونَ﴾ يحذرون المعاصي، أو يحذرون التهاون في أمر الله إجلالاً له تعالى، ودون ذلك يتّقون نار الآخرة، أو يطيعون الله تعالى، لأنّ الإطاعة حذر من النار الأُخرَوِيَّة، أو التهاون، ولو لم يقصد المطيع هذا الحذر إلاّ أنّه لم يتهاون.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ٢٤ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥ ﴾

شهادة الكفار على أنفسهم في الآخرة خزيا وتبكيتا لهم

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ اللهِ إِلَى اَلنَّارِ﴾ أي: واذكر يوم نحشر، فهو منصوب على أنَّه مفعول به لمحذوف، ومعطوف على «قُلَ اَنذَرْتُكُم»، أو على الظرفيَّة لمحذوف للتَّهويل، مؤخَّرًا، أي: يومَ نحشر أعداء الله إلى النار يكون ما يكون ممَّا لا تفي به العبارة من ألوان العذاب.

وَالكُفَّارُ: مَنْ عُهِدَ لا العموم كما قيل، لأنَّ الله ﷻ قال بعد ذلك: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالاِنسِ﴾. والمراد بالنار نفسها.

والحشر: السَّوْق إليها بعد الحساب، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ...﴾ لجواز تكرُّر الشهادة على شفيرها بعد وقوعها في الموقف. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يساقون إلى النار، أو يحبسُ أوَّلهم لآخرهم ليتلاحقوا كما أنَّ هذا شأن الكثير المنتشر، وهم كثير منتشر.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء، ولا تخلو «حتَّى» الابتدائية عن غاية، فهي هنا غاية لـ«نَحْشُرُ» أو «يُوزَعُونَ» إذا فسَّرناه بيساقون ﴿إِذَا مَا﴾ صلة لتأكيد ﴿جَآءُوهَا﴾ حضروا عندها، وهنا حذفٌ، تقديره: حتَّى إذا ماجاؤوها وسئلوا عمَّا فعلوا من السوء فأنكروا، كما دلَّت عليه الشهادة عليهم في قوله تعالى:

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ولا يأبى هذا التقدير تأكيد اتِّصَال جواب «إِذَا» بشرطها بـ«مَا»، لأنَّه يكفي في الاتِّصَال أن يجمع ذلك مجلس واحد، وذكر الجلود تعميم بعد تخصيص، فإنَّ موضع السمع والأبصار من الأذن والعين أيضًا جلد، ففائدة ذكرها هو التعميم، وأيضًا كلُّ جزء يشهد، وهي ألوف ألوف جزء، تشهد دفعة أو ما شاء الله، أو يراد بالجلود ما سوى السمع والبصر، أو ما سوى البصر.

وخصَّ السمع لأنَّه وسيلة لإدراك الآيات المتلوَّة، والعين لأنَّها وسيلة لإدراك الآيات التكوينيَّة، فالسمع يشهد بكفرهم بما يتلى عليهم، والبصر يشهد بإعراضهم عن الآيات التكوينيَّة، والجلود بذلك وبما سواه من المعاصي، أو تشهد الجلود بما سوى الشرك من المعاصي كالزنى.

والحواسُّ خمسٌ: اللسان أخرصه الله يومئذ، والشمُّ التكليف فيه قليل، مثل أن يشمَّ رائحة امرأة أجنبيَّة تشهِّـيًا، أو الخمرة تلذُّذا أو نحو ذلك، والجلد حاسَّة اللمس، فذكره مع الأذن والعين لكثرة التكليف فيهنَّ.

وقيل: الجلود الجوارح، وهو ضعيف، وقيل: الفروج ونسب للجمهور وابن عباس رضي الله عنهما. قال رسول الله ﷺ: «**أوَّل ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى، ثمَّ تنطق الجوارح، فيقول تبًّا لكُنَّ فعَنْكُنَّ كُنت أُناضل**»[1].

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ خصُّوا الجلود بالسؤال لكثرة أجزائها الشاهدة على صاحبها المدافع عنها، فكانت شهادها أعجب وأنسب للسؤال، أو لا تخصيص، بل الجلود يعمُّ السمع والبصر بمعنى موضعهما.

وإن أريد نفس قوَّة السمع والبصر لا محلُّهما فإنَّما خصُّوا الجلود بالسؤال لأنَّها ترى، بخلاف السمع والبصر، بمعنى ما أودع في الجارحتين، ولأنَّ هذا المودع فيهما لا يدرك العذاب، بخلاف الجلود فإنَّها تدركه، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم...﴾.

وصيغة العقلاء في «شَهِدتُّمْ» وقوله ﷻ: **﴿قَالُواْ أَنطَقَنَا اللهُ الذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾** لأنَّ الله ﷻ جعل لها العقل، أو لوقوعها فيما هو من شأن العقلاء،

١-روى ما يقاربه لفظا **مسلم** في كتاب الزهد والرقاق، باب (..) رقم٢٩٦٩، من حديث أنس بن مالك.

وهو السؤال والجواب.

وقيل: ليس السؤال سؤالاً ينتظر له جواب بل مطلق تعجب، ومع ذلك أجيبوا بالنطق كنطق اللّسان بأنّ شهادتنا ليست بأعْجب من إنطاق الله الذي أنطق كلّ شيء. والمراد بـــ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ كلُّ ما نطق نطقًا حقيقيًّا، كالمَلَك والإنس والجنّ، وما أنطق الله تعالى من الحيوانات مع أنّ لهنَّ نطقًا غير نطقنا، وما أنطق الله تعالى من الجماد، لا كلّ شيء على العموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [قلت:] فإنّه لا يقال: الله قادر على نفسه ولا على المحال كما لا يقال: عاجز عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (سورة الأحقاف: ٢٥) ، فإنّها لم تدمِّر كلّ شيء على العموم.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فكيف لا يقدر على إنطاقنا ؟. هذا آخر كلام الجلود أو آخره: ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقيل: آخره: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وإذا كان هذا من كلام الله لا من كلامهم يقوله الله لهم يوم القيامة لقوم عاد وثمود، أو لأهل مكّة، أو للكفرة كلّهم فمعنى ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مع أنّهم في المحشر رجوعهم إليه بالحساب والنار والخلود، لا ما يشمل البعث، اللهمَّ إلاّ باستحضار ما مضى من البعث، وجعل المضارع ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للتجدُّد. ويجوز أن يراد: البعث الماضي، استحضارًا لصورته. والواضح أنّ ذلك من كلام الجلود، والبحث كذلك لأنّها تقول ذلك بعد البعث، وأمَّا إن كان من كلام الله لكفّار مكّة أو للْكُفّارِ مطلقًا قبل يوم القيامة فلا إشكال. والمراد بالرجع البعث.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ في الدنيا حال المعصية ﴿أَنْ يَّشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ تمتنعون عن أن يشهد، لأنّ الاستتار امتناع عن الظهور، أو تستترون عن الناس كراهة أن يشهد، ولئَلاّ يشهد، إن كان من كلام الله يقوله لهم يوم القيامة توبيخًا، فهو حكاية لما سيقوله له، والصحيح أنّه من كلام الجلود،

فيكون ذكر الجلود في قوله: ﴿سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر للبيان، والتفريع بإضافتها إليهم، والأصل: سمعكم ولا أبصاركم ولا نحن.

﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ﴾ اعتقدتم ﴿أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولكن لأجل ظنِّكم أنَّ الله تعالى لا يعلم كثيرًا ما تعملون خفيَةً، و«مِنْ» للبيان.

(سبب النزول) قال ابن مسعود: كنت مستندًا للكعبة فجاء رجلان ثقفيان وقريشيٌّ، أو قريشيان وثقفيٌّ، وفي الصحيحين: كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فتكلَّموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد: نعم إن رفعنا أصواتنا، وقال آخر: إن سمع بعضه سمع كلَّه، فذكرت ذلك للنبيء ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُم تَسْتَتِرُونَ...﴾ إلىَ قوله سُبحَانَهُ: ﴿...مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، فهذا نصٌّ في أنَّ قوله: ﴿وَمَا كُنتُم...﴾ ليس من كلام الجلود. ﴿وَذَلِكُمْ﴾ أي: ذلكم الظنُّ البعيد المترلة في الشرِّ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ خبر ﴿الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمُ، أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم. و«الذي» خبر ثان، أو «ظنُّكم» بدل «ذَلِكُمْ» و«أَرْدَاكُمْ» خبر، وهذا أولى من الأوَّل، لأنَّ الأوَّل اتَّحَدَ فيه المبتدأ والخبر ولم تحصل الفائدة، كقولك: سيِّد الجارية مالكها، وهو لا يجوز، اللهمَّ إلاَّ أن يراد الكمال في القبح، كما يراد الكمال في الحسن، كقوله: «أنا أبو النجم وشعري شعري».

أو يقال: تحصل الفائدة بالخبر الثاني كما تحصل بالنعت، نحو: زيد رجل مسلم، وأمَّا أن تجعل الإشارة إلى الأمر العظيم فلا، إذْ لاَ دَليلَ عليه ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ لذلك الظنِّ ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صارت أبدانهم التيَ أُعطُوها ليُعملوها في السعادة سببًا للشِّقوة.

﴿فَإِنْ يَّصْبِرُواْ﴾ غيبةٌ بعد خطاب، تلويحًا بأنَّ حالهم توجب الإعراض

عنهم، والكلام في شأنهم لغيرهم كصورة من أعياك أمره، فأعرضت عنه إلى غيره، تعالى الله، أو لبعدهم بها عن مقام الخطاب ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى﴾ مقام دائم ﴿لَّهُمْ﴾ الجملة علّة قائمة مقام الجواب، أي: فإن يصبروا رجاء أن ينفعهم الصبر كما في الدنيا لم ينفعهم الصبر، لأنّ الله قضى أنّ النار مثوى لهم.

أو المراد التسوية بمحذوف، أي: فإن يصبروا أو لا يصبروا فالنار مثوى لهم، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُم﴾ (سورة الطور: ١٦) .

﴿وَإِنْ يَّسْتَعْتِبُواْ﴾ يطلبوا العتبى، أي: الرجوع إلى ما يحبّونه جزعًا ممّا هم فيه ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها، أو إن يعتذروا لم يقبل عذرهم، أو إن طلبوا زوال العتاب لم يجابوا، وذلك أنّ ما هم فيه من لوازم ما يوجب العتاب، والحاصل أنّ «الاستفعال» هنا للطلب أو للسلب.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ وكّلنا عليهم وسلّطنا، وهذا أولى من أن يفسَّر بِسَبَّبْنَا لهم من حيث لم يحتسبوا، وذكر «من حيث لم يحتسبوا» ليس من معنى هذا اللفظ في وضع اللغة، وإنّما هو بيان للمراد في الآية. وفُسِّر [﴿قَيَّضْنَا﴾] بقَدَّرْنَا، وهو على الأوّل من القيض، وهو قشر البيض المستعلي على ما حواه، وقيل: التقييض بمعنى الإبدال، كالمقايضة بمعنى المعاوضة، فتقييض القرين أخذه بدلاً من سائر القرناء.

﴿قُرَنَآءَ﴾ أصحاب يقترنون بهم من غواة الجنّ أو منهم ومن الإنس، يستولون عليهم ولكلّ أحد قرين من الجنّ يأمره بالمعاصي، وملك يلهمه بالطاعة إلاّ النبيء ﷺ فقد غلب على قرينه وأسلم، فصار لا يشير إليه إلاّ بالخير[1]. والمفرد: قرين.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ في أنفسهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حاضرًا من أمر الدنيا من أنواع الضلال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ شأن ما خلفهم من أمر الآخرة، وشأنها هو

١– يشير إلى الحديث المتقدّم في ج٥، ص٢٦١.

إنكارها، لأنَّه هو الذي يليق بها من جانبهم، فلك أن تقدِّر: زينوا لهم طلب ما بين أيديهم أو حبَّه، وإنكار ما خلفهم.

وسمِّيت الآخرة بما خلفهم لأنَّها شيء ليس بين أيدينا، وهي كالشيء وراءك يتبعك ولابدَّ منه، وعن ابن عبَّاس ﵄ : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الآخرة، أي: لأنَّها كأمر استقبلك وأنت تمشي إليه، يقولون: لا بعث ولا جنَّة ولا نار، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أمر الدنيا، لأنَّ الإنسان مثلا كلُّ وقت يمضي عنه فقد فاته وتركه.

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما حضر لهم من الأعمال السَّـيِّـئة، و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما استقبل منها، لأنَّه لم يحضر، فهو كالشيء غاب خلفهم، وعليه فيجوز العكس، فتقول: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما استقبل من أعمالهم، و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما حضر منها.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ثبت عليهم القضاء بالنار، أو قولنا: ﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ ومرَّ ذلك[1] ﴿فِي أُمَمٍ﴾ كثيرة، حال من الهاء، أي: ثابتين في جملة أمم. ولا حاجة إلى تفسير «في» بمع، مع أنَّ معناها الأصليَّ صالح. ﴿قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِم﴾ مضت على الشرك والعصيان كدأب هؤلاء. والجملة نعت «أُمَمٍ». ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ﴾ تعليل لـــ«حَقَّ» جُمليٌّ، أو مستأنف، والهاء لهم وللأمم، أو لهم دون الأمم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ

١- انظر تفسير الآية ١٣ من سورة السجدة في الجزء ١١.

أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

جزاء المعرضين عن سماع القرآن الكريم

﴿وَقَالَ الَذِينَ كَفَرُواْ﴾ رؤساء المشركين بعض لبعض، ولغيرهم ﴿لاَ تَسْمَعُواْ﴾ لا تنصتوا ﴿لِهَذَا الْقُرْءَانِ﴾ بدل أو بيان، لا نعت، إلاَّ إن لم نجعله علمًا بـــ«ال»، بل فسَّرناه بهذا المتلوِّ ونحوه مِمَّا هو اسم جنس.

(سبب النزول) عن ابن عبَّاس: كان رسول الله ﷺ وهو بِمَكَّةَ إذا قرأ القرآن يرفع صوته، أي: للتبليغ، فكان المشركون يطردون الناس عنه، ويقولون: «لا تسمعوا لهذا القرآن».

﴿وَالْغَوْاْ فِيهِ﴾ إيتوا باللغو في حال قراءته، لتشوِّشوا على القارئ، وسواء في ذلك نبيئنا ﷺ والصحابة، وكانوا في قراءته ﷺ يأتون بالْمُكاء والصفير والصياح، وإنشاد الشعر والأراجيز، وقال أبو العالية: أي أَقْدَحُوا فيه بذَمِّه وعيبه، ومثل أنه سحر أو كذب أو أساطير الأوَّلين، واللغو ما لا أصل له، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ تغلبونه على قراءته، فلا تسمع منه، فلا يتبعه سامع لو سمع أو تضجروه فلا يقرأه عليكم، أو تميتون ذكره.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ فوالله لنذيقنَّ، أي: نطعمهم، والإذاقة أخصُّ عن الإطعام، فعبَّر بالخاصِّ عن العامِّ، أو عبَّر بالإذاقة اعتبارًا لما يزداد بعدُ. ﴿الذينَ كَفَرُواْ﴾ لنذيقنَّهم، أي: هؤلاء، فأظهر ليصفهم بالكفر الموجب للإذاقة، أو الكفرة مطلقًا فيدخل هؤلاء بالأولى.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء قبح ما عملوا، أي: شديد القبح، وهو كلُّ معاصيهم ولو صغارًا، لأنَّها كبائر بالإصرار، ولا نجازيهم بأعمالهم الحسنة كإغاثة الملهوف وصلة الرَّحم، وقرى الضيف، لأنَّها مُحْبَطَةٌ بالشرك، أو قد جوزوا عليها في الدنيا، والمراد عذاب الآخرة، وقيل: الدنيا، وقيل: عذاب الدنيا والآخرة، وعن ابن عبَّاس: العذاب عذاب يوم بدر، وأسوأ الذي عملوا في الآخرة.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من العذاب الشديد والجزاء في الدنيا والآخرة **﴿جَزَآءُ اَعْدَاءِ اللهِ﴾** وقوله: **﴿النَّارُ﴾** مبتدأ خبره جملة قوله: **﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾** أو ذلك الجزاء الذي في الآخرة جزاء أعداء الله، فالنار بدل «جَزَاءُ»، أو بيان، أو مبتدأ خبره الجملة بعده. و«في» للتجريد على كلِّ وجه ولِّد من النار لشدَّتها دارًا أخرى دائمة توليدًا للمبالغة.

أو المراد: لهم فيها الخلود، وزيد لفظ «دَارُ» المضاف توطئة لذكر الخلود، لأنَّه في موطن كالدار، كما يزاد الاسم توطئة للخبر، أو للحال، أو الكلام على ظاهره لا تجريد ولا زيادة، أي: لهم في النار موضع مخصوص بهم.

﴿جَزَآءَ﴾ مفعول مطلق لـ«نَجْزِيَنَّهُمْ» أو لـ«جَزَاءُ»، كما نصب بالمصدر في قوله تعالى: **﴿جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾** (سورة الإسراء: ٦٣) ، **﴿بِمَا كَانُواْ بِئايَاتِنَا﴾** متعلِّق بقوله: **﴿يَجْحَدُونَ﴾** قدِّم بطريق الاهتمام أو للفاصلة، أي: يجحدون بئاياتنا، قيل: وللحصر الإضافي، أي: جزاءً بكونهم إنَّما يجحدون بئاياتنا خاصَّة، لا بما ينبغي جحوده من الباطل.

وهذا الحصر المُدَّعى يُوهم أنَّهم لو جحدوا الآيات ـــ والباطل دون الباطل ـــ لنجوا، وليس كذلك، ويجاب عن هذا الإيهام بأنَّ المراد أنَّ هذا

الجحود بالآيات دون الباطل حالهم فلا إيهام، **ولا يخفى أنَّ ترك الحصر أولى**. وقيل: الجحود اللغو المذكور في الآية، لأنَّ اللغو مسبَّبٌ عن الجحود.

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم في ذلك العذاب **﴿رَبَّنَآ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ اَلْجِنِّ وَالاِنسِ﴾** الفريقين اللذين أضلاَّنا، أي: حملاَنا بالتزيين على الضلال من الشرك والمعاصي، وهما فريق من الجنِّ وفريق من الإنس، وقيل: المراد شخصان لا فريقان، وهما إبليس وقابيل، وهما سببان في الكفر والقتل، وبُحث بأنَّ قابيل موحِّد عاصٍ لا مشرك، فكيف يكون تحت المشرك ؟ الجواب أنَّ ذلك طلب من المشركين، اغتاظوا بمن سبَّب لهم في ذلك كائنًا من كان، ولو موحِّدًا.

وليس ذلك إخبارًا من الله أنَّه يكون تحت المشرك، مع أنَّه يقرب جوازُ جعله تحته لأنَّه شديد الجرم، أوَّلُ من فعل ذلك، وأهل الدنيا إلى قيام الساعة جَارُون على القتل الصادر منه، وهو رئيس أهل الكبائر، وإبليس رئيس أهل الشرك، **والتفسير الأوَّل أولى**، طلبوا أن يريهم الله الكفرة المسبِّبين لهم في هذا العذاب الدائم بالمباشرة لهم على عهدهم.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ حيثُ كنَّا من النار، فيجتمع عليهم عذاب النار وعذاب الوطء بأرجلنا، وقيل: تحت طبقتنا في النار من طبقة أخرى تحتها **﴿لِيَكُونَا مِنَ اَلاَسْفَلِينَ﴾** ذلاًّ ومهانًا على كونهما تحت الأقدام تحقيقًا، ومكانا على أنَّهما في طبقة أخرى تحت طبقتهم.

﴿إِنَّ اَلذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اَللَّهُ ثُمَّ اَسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ اُلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ اِلتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيا وَفِي اِلَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾

ما وعد الله به أهل الاستقامة

﴿إِنَّ الذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اَسْتَقَامُواْ﴾ بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، وإن زلُّوا تابوا وأخلصوا العمل، وعن عمر: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب، وعن عثمان: إخلاص العمل، وعن عليٍّ وابن عبَّاس: أداء الفرائض.

وقيل: استقاموا على الشهادة أن لا إله إلاَّ الله، أي: بأن يجروا على مقتضاها، وإن أعرضوا عن الفانية وأقبلوا على الباقية، وزادوا النوافل فزيادة خير، وإعراض عمَّا سوى الله تعالى. وقد فسَّر الفضيل الاستقامة بالزهد في الفانية، والرغبة في الباقية.

وسأل الصدِّيق الصحابة عن الاستقامة، فقالوا: لا يذنبون، فقال: شدَّدْتم، ـ أي: لأنَّهم إذا أذنبوا تابوا، وإنَّما المحذور أن يروغوا روغان الثعلب كما قال عمر ـ قالوا: لأبي بكر: فما تقول؟ فقال: لم يَرْتَدُّوا، أي: بقوا على التوحيد ومقتضاه من أداء الواجب، وترك المعصية. أترى الصدِّيق يطلق على المصرِّ والذي يروغُ أنَّه استقام ؟ لاَ واللهِ. وكان الحسن إذا قرأ الآية قال: «اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة».

و«ثُمَّ» للتراخي في الزمان، لأنَّ أداء الفرائض ليس لا بدَّ متَّصلاً، فقد يسلم بكرةً، ولا يرد عليه فرضٌ إلاَّ بعد مدَّة من اليوم، أو للتراخي في الرتبة، فإنَّ الاستقامة أصعب من الإقرار، وأيضًا الاستقامة تتضمَّن التوحيد وزيادة، فإنَّه كلَّما عَمِلَ فرضًا وتقرَّب به إلى الله فقد وحَّد، ويجوز اعتبار التراخي الرتبي ببعد العمل عن التوحيد، فإنَّه أفضل من العمل ومنشأه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ﴾ من الله ﷻ، عند الموت وفي القبر، وعند

البعث، يبشرونهم برضى الله ﷻ والجنَّة، وعند المصائب يلهمونهم الصَّبر وما يشرح الصدر.

﴿أَلاَّ تَخَافُواْ﴾ فإنَّ الله غفر ذنوبكم وتقبَّل حسناتكم، وفي الدنيا لا تخافوا فإنَّ المصائب تَذْهَبُ ويبقى بعدها الأجر ﴿وَلاَ تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلَّفتم، وهذا عند الموت، ولا تحزنوا الشقوة فلستم من أهلها، ولا تحزنوا على المصائب أن تدوم فإنَّها لا تدوم، وهذا في الدنيا، و«أنْ» مفسِّرة، فإنَّ نزول الملائكة يتضمَّن القول، و«لاَ» ناهية، أو «أَنْ» ناصبة مَصدَرِيَّة و«لاَ» نافية، فتقدَّر الباء، أي: بانتفاء الخوف والحزن.

﴿وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ توعدونها على ألسنة الرسل والأنبياء، وهذا عند الموت وفي القبر والبعث.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ نلهمكم المصالح الدِّينيَّة، ونعينكم، وندعو لكم بالسداد وبالغفران، ولم تشعروا بنا مشاهدة وتشخيصًا في حياتكم، هذا يقولونه أيضًا عند الثلاثة.

﴿وَفِي الاَخِرَةِ﴾ هذه التي نحن فيها عند البعث، وفي الموقف بالشفاعة لكم، كذا قيل، والأولى أنَّهم يقولون هذا عند الموت، أي: نحن أولياؤكم في الدنيا بما ذكر، و﴿فِي الاَخِرَةِ﴾: هذا الوقت وما بعده، أو ﴿فِي الاَخِرَةِ﴾: البعث وما بعده، فـ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾: في الدنيا وما بعدها.

وقيل: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ من كلام الله ﷻ . تولَّيناكم بالهداية والتوفيق والنصر في الدارين، وإذا لم يفتن المؤمن عن دينه فقد نصر، والصحيح أنَّه من كلام الملائكة إلى ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أو إلى ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ الآن وحين تدخلون الجنَّة على الإطلاق ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تَتمنَّون لأنفسكم.

(صرف) والأصل: تَدتعون بتاء بعد الدال الساكنة، أُبدلت دالاً وأُدغمت فيها الدال بوزن تَفْتَعِلُونَ، من الدعاء بمعنى الطلب، والتمنِّي طلب.

وقيل: لكم فيها ما رأيتم وأحببتم أن يكون لكم، وخطر ببالكم أن يكون لكم، فإنَّ الله ﷻ يحكم لكم به. [قلت:] ولا يخطر ببالهم ولا يحِبُّون أن يكون لهم ما حكم به لغيرهم.

و«فيها» متعلّق بـ«لَكُمْ» أو بمتعلّقه، أولى من كونه حالاً من الكاف، وكذا في ﴿لَكُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ (سورة فصلت: ٢٨) .

﴿نُزُلاً﴾ شبيهًا بما يُعَجَّل به للنزيل وهو الضيف، بالنسبة إلى ما هو أعظم ممَّا يخطر في بالهم، ويتمنَّون ويشتهون، وهو حال من الضمير المستتر في «لَكُمْ» أو في متعلّقه العائد إلى «مَا»، وقيل: جمع نازل كشارف وشرف، فيكون حالاً من الكاف، أو من واو «تَدَّعُونَ».

(نحو) ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ يتعلّق بمحذوف نعت لـ«نُزُلاً» إذا لم يجعل جمع نازل، وإذا جعل جمع نازل تعلّق بـ«تَدَّعُونَ» أو بـ«لَكُمْ» أو بمتعلّقه، ويجوز تعليقه بأحد هذه الثلاثة، ولو جعل «نُزُلاً» بمعنى ما يعجَّل به للضيف. [قلت:] وتفسير «نُزُلاً» بالمنِّ أو بالثواب تفسير بالحاصل من المعنى، فإنَّ ذلك الذي يشبه ما يعجَّل به للضيف ثواب من الله تعالى، ومن منِّه سبحانه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

الدعوة إلى الله تعالى وآداب ذلك

﴿وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلاً﴾ استفهام إنكار، أي: لا أحسن قولاً ﴿مِّمَّن دَعَآ﴾ بلسانه أو كتابه أو نحو ذلك ﴿إِلَى اَللهِ﴾ إلى دينه من التوحيد والعبادة، كرسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، وهكذا، والمؤذّنين والمقيمين عند إرادة الصلاة.

ولا يعترض بأنّ الأذان في المدينة والسورة مَكِّيـّـة، لأنّ معنى الآية مِمَّن دعا في أيِّ زمان وفي أيِّ مكان، ولا تحتاج إلى التأويل بتأخير الحكم عن النزول، **ألاَ ترى أنّ الآية شملت ما نحن الآن عليه، لأنّه تعالى لم يخصّ الدعاء إلى الله بشيء مخصوص فيعترض بأنّه لم يوجد حين النزول.**

وقيل: الدعاء إلى الله شامل للقتال في سبيل الله ﷻ ، ولإخراج الحقوق بالضرب أو بالحبس ونحو ذلك، ولو بإظهار طاعة لِيُقْتَدَى بها، وكلّ دعاء إلى الله داخل في العبادة بالقول أو بالفعل، كالجهاد والحدود، أو بالقلب كالدعاء فيه بالهداية، أو بالإيمان.

ودعوةُ الأنبياء بالدلائل والمعجزات والسيف، ودعوة العلماء بالحجَّة وهم علماء بالله، وعلماء بصفاته، وعلماء بأحكامه، ودعوة المجاهدين بالسيف، ودعوة المؤذّنين دعاء إلى الصلاة والعبادة.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ عملاً صالحًا من أداء الفرائض، أو مع النفل كالصلاة بين الأذان والإقامة، وترك المعاصي إذا دعت النفس أو غيرها إليها، وهو داخل في أداء الفرائض، وذلك على العموم عمل القلب والجارحة واللّسان.

وقيل: ركعتان بين الأذان والإقامة، ولا يتبادر هذا الخصوص، ولعلّه تمثيل،

وفي الصحيحين عنه ﷺ : «**بين كلِّ أذانين صلاة**»[1] قاله ثلاثًا، وقال ذلك لمن شاء، يعني ليس فرضًا. وروى أبو داود والترمذي عن أنس: «**الدعاء بين الأذان والإقامة لا يردُّ**»[2]، والمراد بالأذانين في الحديث الأذان والإقامة.

﴿**وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ يقوله بلسانه فرحًا به وافتخارًا على المشركين، وشهرة له، أو ذلك قول اعتقاد، يقال هذا قول فلان، أي: معتقده ومذهبه.

[قلت:] والآية تشير إلى أنَّ الداعي إلى أمر من أمور الدين يكون عاملاً به ليكون أقرب إلى القبول عنه، وكون الإنسان فاعلاً لمعصية لا يسقط عنه فرض النهي عنها، وكونه تاركًا للفرض لا يسقط عنه فرض الأمر به.

[قلت:] ودلَّت الآية على أنَّه يجوز أن يقول الإنسان أنا مسلم أو مؤمن، أو من المسلمين أو من المؤمنين، بحسب ما رأى من نفسه في الحال، ولو لم يقل: «إن شاء الله»، وإن أراد عند الله أو أنَّه سعيد فليقل: «إن شاء الله».

﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ**﴾ الخصلة من الطاعات كـــ«لا إله إلاَّ الله»، والصلاة والصوم والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحبِّ النبيء ﷺ وحبِّ آله. ﴿**وَلاَ السَّــيِّـــئَةُ**﴾ كالشرك، وترك الصلاة أو الصوم، ونحو ذلك من الفرائض، وبغض النبيء ﷺ وآله، وَهُمْ كلُّ بَرٍّ تَقِيٍّ، كذا روي

١- رواه **البخاري** في كتاب الأذان، باب كم بين الأذان والإقامة... رقم٥٩٨. ورواه **مسلم** في كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب بين كل أذانين صلاة، رقم٨٣٨، من حديث ابن مغفل المزني.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب الصلاة، باب ما جاء في أنَّ الدعاء لايردُّ بين الأذان والإقامة رقم٢١٢. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة، رقم٥٢١. من حديث أنس رضي الله عنه .

عن ابن عبَّاس وعليٍّ.

فيكون قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ، وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ خارجًا عن ذلك بالعنوان، ومذكور للمشاكلة، ولو دخل بالمأصدق، كما يقال: الشيء بالشيء يذكر.

والأولى أنَّ المراد بالسيِّئة ما تكره النفس، وبالحسنة ما تسكن إليه، أو ما يشمل ذلك والمعاصي والطاعات.

فالآية آمرة له ﷺ ولغيره بالصبر على أذى المشركين، مع التمسُّك بالدين، وآمرة بالحِلْم والمداراة ومقابلة الإساءة بالإحسان، وذلك أدعى للمشرك إلى الإسلام، وللعاصي إلى التوبة، بخلاف الانتقام والغلظة. وذلك التفسير أنسب بقوله: ﴿ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾.

و«لاَ» صلة لتأكيد النفي، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ﴾ (سورة فاطر: ٢١) .

والشيء لا يستوي وحده بل مع غيره، إلاَّ إن أريد استواء بعضه ببعض. ولو فسَّرنا الآية بِأَنَّ الحسنات بعضها أفضل من بعض، والسيِّئات كذلك بعضها أقبح من بعض، على أنَّ «ال» للجنس لكانت «لاَ» نافيةً لا صلةً.

ومفعول «ادْفَعْ» محذوف، أي: ادفع السيِّئة بالتي هي أحسن، كما صرَّح به في آية أخرى [سورة المؤمنون آية ٩٦]، و«أَحْسَنُ» خارج عن التفضيل، أي: بالفعلة التي هي حسنة، ويمكن بقاؤه على التفضيل، بأن تكون حسنتان أو حسنات بعضها أفضل من بعض، فأمر بالدفع بالفضلى كالإحسان إلى من أساء، وترك الانتقام فيدفع بالإحسان.

والفاء في جواب شرط محذوف، أي: إذا دفعت ألسيئة بالتي هي أحسن

«فَإِذَا الذِي...». و«إِذَا» للفُجاءَة، أي: فاجأك كون عدوِّك المشاقِّ لك مثل وليِّك الشفيق في مجرَّد أنَّه يترك ضرَّك لا في أنَّه يحبُّك هذا هو الغالب، وقد يكون مثله في الحبِّ زيادة على ترك الضرِّ قال شاعر:

إنَّ العداوة تستحيل محبةً بتدارك الهفوات بالحسنات[1]

ولا يصحُّ أنَّ الآية في أبي سفيان بن حرب لأنَّ السورة مَكِّيَّة، وأبو سفيان أسلم قريبًا من مَكَّة عند سفره ﷺ إلى فتحها، نعم حكمها يقبل الصدق عليه إلاَّ أنَّه قيل: مازال تصدر منه هفوة.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ﴾ أي: لا يصيَّر لاقيًا لهذه الدفعة المفهومة من «ادْفَعْ» أو لهذه الفعلة التي هي الدفع بالتي هي أحسن، أو للتي هي أحسن في الدفع. وليس الضمير عائدًا إلى الجنَّة ولا إلى «لا إله إلاَّ الله» كما قيل بهما، لأنَّهما لم يذكرا، وَأيضًا لم يشهر استعمال التلقية والتلقِّي في إدخال الجَنَّة، بل في تلقين الكلمة أو الفعلة، وكلمة «لا إله إلاَّ الله» قابلة لذلك لَكِنَّ المقام للدفع.

﴿إِلاَّ الذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: حصل منهم الصبر على الشدائد، وكظم الغيظ وترك الانتقام، بمعنى أنَّه إذا فعل ذلك أحد علمنا أنَّه قد صبر، وإنَّما قلت ذلك ولم أقل: الذين فيهم طبيعة الصبر، لأنَّه تعالى لم يقل: إلاَّ الصابرون.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ﴾ نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ من خصال الخير، وهذا مدح، وقيل: الحظُّ العظيم الثواب، وقيل: الجنَّة، ويحتمل أنَّهما قول واحد على أنَّ الثواب الجنَّة.

﴿وَإِمَّا﴾ «إِنْ» شرطية و«مَا» الصلة، لتأكيد اتِّصَال الجواب بالشرط

١- البيت من الكامل، وهو بلا نسبة في الدرر، ج٢، ص٥٣، وهمع الهوامع: ج١، ص١١٢. انظر: المعجم المفصل في شواهد اللغة، ج١، ص٥٣٧.

على جهة الإنشاء ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ يمسَّنَّك مسًّا كالمَسِّ بالشوكة أو بالإبرة أو نحوها، أو بطرف الإصبع بعنف، استعير استعارة تبعيَّة لوسوسة الشيطان، الباعثة على الشرِّ.

﴿مِنَ اَلشَّيْطَانِ﴾ «مِنْ» للابتداء متعلّق بـ«يَنْزَغ» ﴿نَزْغٌ﴾ كالوسوسة بترك الدفع، أو استعمل الخاصَّ، وهو نزغ، في العامِّ وهو مطلق المسِّ، أو أسند النزغ إلى النزغ كجَدَّ جِدُّه برفع جدُّه، وذلك مبالغة، أو «نَزْغٌ» بمعنى اسم فاعل، فتكون «مِنْ» للبيان تعلّق بمحذوف حال من «نَزْغٌ».

وإن جعلنا «نَزْغٌ» بمعنى اسم الفاعل بمعنى شيطان مثلاً كان من باب التجريد، جرِّد من الشيطان لمبالغته في النزغ شيطان آخر نازغ، و«مِنْ» للابتداء، وكذا إن جعل بمعنى نازغ مرادًا به الوسوسة.

ويجوز أن يراد بالشيطان ما يشمل شيطان الإنس الذي يوسوس بالشرِّ. وقيل: النزغ الغضب، وهو تفسير باللاَّزم والمسبَّب ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ من نزغه وسائر شرِّه.

﴿إِنَّهُ، هُوَ اَلسَّمِيعُ﴾ العالم سبحانه بالأصوات، فهو عالم باستعاذتك إذا استعذت، وبقول مَن آذاك وبنزغ الشيطان ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأحوال والأشياء كلِّها، ومنها شأنك وصلاحك، وأذى من آذاك، فينتقم منه عنك. والخطاب للنبيء ﷺ، أو لكلِّ من يصلح، وأجيز أن يكون له والمراد غيره.

[قلت:] وتستحبُّ الاستعاذة عند الغضب. استبَّ رجلان عند النبيء ﷺ، فاشتدَّ غضب أحدهما، فقال النبيء ﷺ: «**إنِّي لأعلم كلمةً لو قالها**

لذهب عنه الغضب: **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»[١]، فقال الرجل: أمجنونًا تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ...﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

الأدلة على وجود الله وتوحيده وقدرته وحكمته

﴿وَمِنَ ايَاتِهِ﴾ الدَّالّة على وجوده وكمال قدرته، وعِظمِ شأنه **﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾** في اختلافهما ظلمة ونورًا وتعاقبهما على استمرار، وإيلاج كلٍّ في الآخر **﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** في استنارتهما واختلافهما بِقُوَّة النور والعظم والآثار والحركات، وكون القمر تابعا للشمس وهي أكبر منه جرمًا ونورًا، وكون نور القمر من نور الشمس.

وأصله أطلس، بخلاف الشمس فإنَّها جرم مضيء بالذات كالنار، وقيل: ضوؤها من نور العرش قابلته فأضاءت، وأصلها طلساء، ومن آياته أنَّهما يكسفان إذا أراد الله تعالى.

وأكثر ما يكسف القمر في الليالي البيض، وقد روي أنَّه سئل الحسن البصري: لأيٍّ شيء يستحبُّ صيام أيّـــام البيض؟ فقال: لا أدري، فقال أحد

١- رواه **البخاري** في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم٥٧٦٤ ورواه **مسلم** في كتاب البرّ والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم٢٦١٠، من حديث سليمان بن صرد.

الحاضرين: لكنّي أدري، فقال الحسن: ما هو ؟ فقال أحد الحاضرين: إنّ القمر لا ينكسف إلاّ فيهنّ، فأحبَّ الله أن لا يحدث في السماء أمر إلاّ حدثت له في الأرض عبادة.

وقدَّم الليل لتقدُّمه خلْقَةً مع كون الظلمة عدمًا، والعدم سابق على الوجود كذا قيل، وفيه أنّ المتقدِّم ظلمة مستمرَّة لا مقدار مخصوص، يسمَّى ليلاً يليه نهار، ودعوى هذا المقدار تحتاج لدليل، وقدَّم الشمس ليتَّصل ذكرها بذكر النهار إذ حصل بها، وإنَّها آيته، ولأنّها أصل لنور القمر وأعظم منه جرمًا ونورًا.

﴿لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾ لأنّهما مثلكم مخلوقان عاجزان ﴿وَاسْجُدُواْ لله الذِي خَلَقَهُنَّ﴾ خلق الليل والنهار والشمس والقمر، والليل والنهار، لم يسجد لهما أحد كما سجد للشمس والقمر، لكن لما كان لا علم لهما ولا اختيار كما أنّ الشمس والقمر كذلك، وكان أصلهما الشمس، قرنهما في النهي عن السجود مع الشمس والقمر.

وذكر بعض المحقّقين أنّه قرنهما معهما ليدلّ على أنّهما مثلهما في أنّه لا علم ولا اختيار، وهو ضعيف، لأنّهما لا يتوهَّم فيهما أحد أنّهما عالمان مختاران لأنّهما معقولان لا حسِّيان كالشمس والقمر.

(صرف) والأصل في جمع القلّة من غير العقلاء أن يرجع إليه ضمير المفرد المؤنّث، ويجوز ضمير جماعة الإناث كما هنا، فإنّ الأربعة كجمع القلّة الذي هو بالأصالة لتسعة فأقلّ، وقيل: لعشرة وأقلّ، ولعلّ في الآية اعتبار تعدُّد الليل والنهار، وتعدُّد طلوع الشمس والقمر، فكأنّهما شموس وأقمار، وذلك كثرة.

وقيل: الضمير للشمس والقمر، وضمير الكثرة للتعدُّد بالاعتبار، ووجه هذا القول أنّ الليل والنهار لم يعبدهما أحد، بل عبدت الشمس والقمر، وقيل:

الضمير للآيات من قوله: ﴿وَمِنَ ــ ءَايَاتِهِ﴾ ووجهه أنَّ الشمس والقمر غير جمع، فالأصل أن لا يردَّ إليهما ضمير الجمع، ولا سيما ضمير جَمع الكثرة.

﴿إِن كُنتُمْ، إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وحده لا غيره ولا مع غيره، قدِّم للحصر والفاصلة، لأنَّ السجود أقصى مراتب العبادة فيخصُّ الله تعالى به.

(فقه) وهنا يسجد عليٌّ وابن مسعود والشافعيُّ، وعند ﴿يَسْئَمُونَ﴾ يسجدُ ابن عبَّاس وابن عمر وأبو وائل وبكر بن عبد الله، وابن وهب ومسروق والسلمي، والنخعي وابن صالح وابن وثاب، والحسن وابن سيرين وأبو حنيفة والشافعيُّ في رواية عنه، وهو أصحُّ الوجهين عنه عند الشافعيِّ، لأنَّه تمام المعنى على أسلوب السجود، لأنَّ الاستكبار عن السجود مذموم، ولا يخفى أنَّه أحوط لأنَّه إن كان محلُّه ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لم يضرَّ الفصل القليل، وإن كان ﴿يَسْئَمُونَ﴾ لم يجز التقديم.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ﴾ عن ترك السجود لغير الله سبحانه، الجواب محذوف، أي: فلا تَعبأ بهم، أو فلا يعبأ بهم، أو لم يخلّ ذلك بعظمة الله تعالى، نابت عنه علّته وهو قوله تعالى:

﴿فَالذِينَ عندَ رَبِّكَ﴾ أي: لأنَّ الملائكة الذين في حضرة القدس وهم خير منهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ،﴾ ينزّهونه عن صفات الخلق بأنواع التسبيح والعبادات في السجود ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في الأوقات التي هي عندكم ليل والأوقات التي هي عندكم نهار كلها، أو هما عبارة عن الاستمرار والدوام، ذلك أنَّه لا ليل عندهم ولا نهار.

﴿وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ﴾ لا يملُّون التسبيح، بل هو لذّة لهم، والآيتان تتضمَّنان النهي عن السجود للأصنام، إذ نهوا عن السجود للشمس والقمر، وهما أفضل منها.

وكانت الصابئون ــ وقيل المجوس ــ يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وأهلُ مكّة الأصنامَ، ويقول هؤلاء: نعبدها لتقرّبنا إلى الله، فنهاهم الله تعالى عن التقرُّب إليه بها، وأمرهم بإخلاص السجود له تعالى.

(فقه) واستدلّ بعض بقوله تعالى: ﴿لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ...﴾ على صلاة الخسوف والكسوف لأنّه لا صلاة تتعلّق بالشمس والقمر غير صلاة الخسوف والكسوف، فأمرنا أن لا نقصدهما بالسجود عند الكسوف والخسوف بل نقصد الله تعالى، ولا يظهر ذلك ولاأُسَلّم، وبنى على ذلك أنّها لكونها من القرآن أفضلُ من صلاة الاستسقاء.

﴿وَمِنَ ــ ايَاتِه أَنــّكَ﴾ يا محمَّد أو يا كلّ من يرى ﴿تَرَى الاَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة كالخاشع المتذلّل، على الاستعارة التبعيَّة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ﴾ من السماء ﴿اهْتَزَّتْ﴾ صارت مثل من تحرَّك بنشاط وعزَّة، على الاستعارة التبعيَّة ﴿وَرَبَتِ﴾ صارت حالها كحال ما ازداد.

(بلاغة) وذلك بانتفاخ يليه الانشقاق عن نبات، والنبات كأنّه جزء منها، وذلك على الاستعارة التبعيَّة، وأولى من ذلك أن تجعل الاستعارات الثلاث استعارة واحدة مركّبة، بأن يشبَّه خلوُّها من النبات وانقلابها إليه بحال شخص كان رَثّ الهيئة، وإذا زالت عنه الرثّة والكآبة بإقبال الدُّنيا عليه نَشِطَ في حركته ومرح في مشيته.

﴿انَّ الذي أَحْيَاهَا﴾ أخصبها، سمَّى الإخصاب إحياء على الاستعارة ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ باعثهم أحياء من قبورهم ومن حيث كانوا، ولو بتبديلات متعدِّدات، مثل أن يأكل الحوت إنسانًا ويأكل إنسان آخر هذا الحوت أو يأكله سبع ويأكل هذا السبع سبع آخر، ﴿إِنَّهُ، عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدرة لا تتناهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

توبيخ الملحدين في آيات الله تعالى وتنزيه القرآن العظيم عن الطعن فيه

﴿إِنَّ الذينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتنَا﴾ يميلون عن الحقِّ في شأن القرآن إلى الباطل بالتكذيب، وجعله من أساطير الأوَّلين، وسِحْرًا، وبالمكاء والصفير واللغو، وكذلك في غير القرآن من كتب الله، وزادت الكتب بالتحريف منهم، وذلك أنسب بقوله ﷻ : ﴿وقَالَ الذينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ...﴾ (سورة فصلت: ٢٦) . أو الآيات: الدلائل التكوينيَّة، كالليل والنهار والشمس والقمر وإحياء الأرض، يميلون بالإعراض عن أن تكون دلائل على البعث، وهذا أنسب بقوله: ﴿وَمِنَ ـــ ايَاته اللَّيْلُ...﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ـــ ايَاتِه أَنَّكَ تَرَى...﴾.

﴿لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فلا ينجون من عقابنا بالنار على إلحادهم كما قال: **﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾** يليها بجسده كُلِّه عاريًا مقهورًا خائفًا **﴿خَيْرٌ اَم مَّنْ يَّاتِي ءَامِنًا﴾** منها **﴿يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ﴾** يبعث السعداء آمنين منها، ويحدث عليهم الخوف بأهوال الموقف فينسون الأمن، وقد يتكرَّر ذلك عليهم، يخطر في قلوبهم ويزول، والله أعلمُ، -**اللهمَّ أسألك الأمنَ**-.

و لم يقابل الإلقاء في النار بإدخال الجنَّة بل قابله بالإتيان في أمن، لأنَّ الأهمَّ لأهل المحشر الأمن من النار، ولو بموت أو من شدَّة عذاب المحشر، أو بدون دخول الجَنـــّة، ولا يخطر في بالهم دخول الجَنـــّة حال الخوف، أو حذف من

كلٌّ ما ثبت في الآخر، أي: أَفَمن يأتي خائفًا يوم القيامة ويلقى في النار خير، أم من يأتي يوم القيامة آمنا ويدخل الجنَّة ؟.

ويجوز أن يراد بالإتيان في الأمن الذهاب إلى الجَنـــّة بعد فراغ أمر الموقف. والآية على العموم. وقال ابن عبَّاس: الآية تمثيل بأبي جهل لعنه الله والصدِّيق ﷺ، وعن ابن بشير: نزلت في أبي جهل وعمار ﷺ، وقيل: في أبي جهل وعمر، وقيل: فيه وفي حمزة، وقيل: فيه وفي رسول الله ﷺ .

﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمُ﴾ من الإشراك والمعاصي، أمر تهديد ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على عملكم.

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ﴾ القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وقت مجيئه، لم تمض مدَّة يتفكَّرون فيها.

(نحو) وخبر «إنَّ» محذوف، هو «لَمَّا» وجوابها المحذوف، أي: إنَّ الذين كفروا بالذِّكر لَمَّا جاءهم ذلك الذكر فاجؤوه بالكفر، ولا تكرير، بل المعنى: إنَّ كفرهم مفاجئ أو معاجل، أو إنَّ الذين كفروا بالذكر لَمَّا جاءهم كفروا به والحال أنَّه كتاب عزيز، فهو مقيَّد بما بعده، كما تقول: هذا الرجل رجل مبارك. أو الخبر قوله: ﴿لاَ يَاتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ والرابط محذوف، أي: لا يأتيه الباطل، أي: لا يؤثِّر فيه باطلهم، أي: لا يعطِّله ولايزيِّفه، أو الرابط «ال» نائبة عن هذا الضمير في لفظ «الْبَاطِلُ» المقدَّر، أو الخبر قوله بعد: ﴿لاَ ياتيه الْبَاطِلُ﴾ وفصل بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، أو الخبر قوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ...﴾، أي: ما يقال لك فيهم، أو يقدَّر: معاندون أو هالكون، قيل: أو يقدَّر: لخالدون في النار، يقدر بعد: «حَمِيدٍ» وقيل: الخبر: «أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ»، وهو بعيد.

﴿وَإِنَّهُ، لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ عظيم الشأن، كريم على الله تعالى لا يوجد نظيره، أو غالب على اعتراض المعترضين، أو على الكتب بنسخها ﴿لاَّ يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ الجملة صفة ثانية لـ«كِتَابٌ» ومعنى ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ و﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾: الكناية عن جميع ا لجهات، كما يعبَّر بالبكرة والعشيِّ، أو بالصباح والمساء عن جميع الزمان، شبِّه بالشخص المحوط بالحفظ، على الاستعارة بالكناية، ورمز إليه بلازمه وهو الحفظ عن أن يوصل إليه بسوء.

أو المراد: الأخبار الماضية والأخبار الآتية، أو الآتية، أو الآتية والماضية، أو الأزمان الماضية والآتية، أو ﴿الْبَاطِلُ﴾ بمعنى مبطل، كمَكان وَارِسٍ منبت الورس، أي: مُورس، أو مصدر كالعافية، أي: بطلان، لا يبطله كتاب سابق من الله ولا متأخِّر عنه فلا يصيبه بطلان.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ خبر ثانٍ لـ«إِنَّ» أو نعت ثالث لـ«كِتَابٌ».

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ من التوحيد والطاعة والأمر بهما، فكذَّبهم أقوامهم كما كذَّبك قومك، فاصبر كما صبروا، أو ما قيل للرُّسل من قبلك من الوعد بالنصر في الدنيا والآخرة، والانتقام من الأعداء فيهما، والقائل الله، أو ما قيل للرسل من قبلك من التكذيب والشتم، فالقائل الكُفَّار، كقوله تعالى: ﴿كَذَالِكَ مَآ أَتَى الذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ اِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ﴾ (سورة الذاريات: ٥٢) ، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ .

أو ما قيل للرسل هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لذنوب الناس التائبين من التكذيب لهم والعناد ﴿وَذُو عِقَابٍ اَلِيمٍ﴾ للمصرِّين منهم على التكذيب، وذلك للمسلمين نصرة، وعليه فالجملة بدل من «ما» لأنَّ المراد اللفظ وعلى غيره يكون المراد ذو مغفرة للمؤمنين وذو عقاب للكافرين هكذا.

(بلاغة) أو لم يقل «شديد» مع أنّه أنسب بقوله ﴿حَمِيدٍ﴾ وقوله: ﴿بَعِيدٍ﴾ للإيماء إلى أنّ تراكيب القرآن ليست كالأسجاع والخطب، وأنّ حُسنه ذاتيٌّ، والنظر فيه إلى المعاني دون الألفاظ، كما يأتي فيه كثيرًا ما يشبه الإيطاء.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

التأكيد على كون القرآن عربيا

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن العظيم المعبَّر عنه بالذكر ﴿قُرْءَانًا﴾ كلامًا مقروءًا على غير لغة العرب، كما قال ﴿أَعْجَمِيًّا﴾ من جملة ما قالوا: هلاّ نزل القرآن بلغة العجم، كما أنزلت التوراة، لنعلم أنّه من الله تعالى لا من كلام محمّد ﷺ ، لأنه عربيٌّ ﴿لَّقَالُوا۟﴾ مع طلبهم أن يكون عجميًّا ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بيِّنت بلسان نفقهه.

﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ استفهام إنكار لياقة ذلك، أو تعجيب، أي: أكلام عجميٌّ ومرسل إليه عربيٌّ؟ وعليه فالإفراد في إليه للجنس، وهما خبران لمحذوفين كما رأيت، أو فاعل لمَا حذف، أي: أيجتمع أعجميٌّ وعربيٌّ؟ وهذا من كلام الله تعالى ، أو من كلامهم، فيكون المعنى: مالك وللعجمة ؟ أو مالنا وللعجمة ؟ فيكون قولهم مقبولاً في أنّهم لا يفهمونه، لأنّ قلوبهم في أكنّة من كلام العجم، وفي آذانهم صمم عن الاستماع له.

أو معنى ﴿فُصِّلَتَ ـــ ايَاتُهُ، ءَآعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: لولا جعَلَ بعضَها عجميًّا للعجم، وبعضها عربيًّا للعرب، فقال الله ﷻ: أكتاب واحد بعضه عجميٌّ وبعضه عربيٌّ؟.

(قصص) وقيل: كان يدخل على يسار[1] غلام عامر بن الحضرمي ـــ وكان يهوديًّا أعجميًّا ـــ ينظر هل هو على باطل كسائر اليهود، فكان يعلِّمه بعض القرآن فضربه سيِّده، وقال: إنَّك تعلِّمه، فقال: لا والذي أنزل التوراة على موسى والزبور على داود إنَّه هو الذي يعلِّمني، فأجد ما أنزل عليهما وما يقول من مشكاة واحدة.

والياء في الموضعين للنسب، أي: أكلام منسوب إلى الإنسان الأعجم؟ أو إلى مطلق الكلام الأعجم لجواز نسبة البعض إلى كلِّه، ومنسوب إلى الإنسان العربي؟ ويجوز أن تكون [الياء] في «أعجمي» للتأكيد، أي: أكلام أعجم على التجوُّز، لأنَّ الأعجم صاحب كلام العجمة لا الكلام، وذلك كأحمري، والدهر بالإنسان دواري، والمراد نفس الأحمر ونفس الدوار، وقد يُطلق الأعجم على من لا يفهم كلامه لِلُكنة أو غرابة لغته.

﴿قُلْ هُوَ لِلذِينَ ءامَنُواْ هُدًى﴾ إرشاد إلى الحقِّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الأمراض المعقولة، من إنكار وشبهة وشكٍّ ﴿وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: وقرٌ عنه أو منه، وهو ما يشبه ثقل السمع من عدم التأثُّر بما سمعوا من الذكر.

(نحو) ولا حاجة إلى جعل «وَقْرٌ» فاعلاً للجارِّ والمجرور قبله، ولا إلى جعل «وَقْرٌ» خبرًا لمحذوف و«فِي ءَاذَانِهِمْ» حالاً من «وَقْرٌ»، أي: هو وقر في

١-غلام أصابه رسول الله ﷺ في غزوة بني محارب وبني ثعلبة تعدَّى عليه العرانيون وكان يرعى إبلهم. انظر: سيرة ابن هشام، ج٤، ص٢٩٧.

آذانهم، وجملة هو وقر خبر، والرابط هاء «ءَاذَانِهِمْ» لأنّ فيه مخالفة الأصل، وهو حذف مستغنى عنه ومجيء الحال من الخبر، ومع أنّ المبتدأ ليس إشارة، وفيه مجيء الحال من النكرة بلا مسوِّغ، بخلاف تقدير: وقر منه، أو وقر عنه، ففيه الحذف وحده.

ولا يغرَّنك ذكر «هو» في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فإنّ المخالفة في ذلك الإعراب لا يرجِّحها مناسبة «هُوَ»، وأجيز عود «هُوَ» لـ«وَقْرٌ»، والأَوْلى ما علمت من أنّه للذكر.

(بلاغة) ومعنى يكون الذكر كعمًى بَصَرِ الوجه أنّهم ازدادوا به عمى في بصيرتهم للخوض فيه بالإنكار والباطل، فهم يزدادون الضلال بزيادة الإرشاد، كلّما حدث من الله ﷻ إرشادٌ لهم زادوا ضلالاً به، وهو إنكارهم له.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء مرتبة في الشرّ، والبعد معتبر في الشرّ بالأسفل والجهات غير الفوق، وفي الخير إلى الفوق، فهم كالأصمِّ الأعمى، فمناديه والمشير له من قريب كأنّه في موضع بعيد، كما قال الله ﷻ:

﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هم في حال التذكير بالقرآن كمن ينادى بعيدًا جدًّا لا يسمع صوت مناديه، ولا يرى مناديه، ولا إشارته، وهذا أنسب بقوله: ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ممَّا قيل: إنَّهُم كمن يسمع صوتًا ولا يفهم تفاصيله.

(بلاغة) والكلام استعارة تمثيلية، وهي أولى من أن تجعل في «يُنَادَوْنَ» على حدة، وفي «مَكَانٍ بَعِيدٍ» على حدة، وقيل: الكلام على حقيقته ينادون من مكان يعمُّ أهل المحشر لبعده بأقبح أسمائهم، وأقبح كفرهم ليفتضحوا، وذلك أشدُّ عليهم ـــ قيل ـــ من عذاب النار، جعله الله تعالى أشدُّ عليهم في قلوبهم، حتَّى إنَّهُم لو عجّل لهم دخولها بدون ذلك الكلام كان خيرًا لهم.

﴿وَلَقَدَ ءَاتَيْنَا مُوسَى اَلْكِتَابَ﴾ التوراة، أي: وبالله، وإنّما قدّرتُ الباء لا الواو لِئَلاّ يجتمع واوان، ولكن لا بأس، ولا سيما أنّ إحداهما محذوفة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ صدّقه بعض وكذّبه بعض، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنّه قد كذّب الناس موسى عليه السلام، كما كذّبك قومك، فاصبر كما صبر، والكلام تعلّق بقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إذا قلنا إلاّ ما قد قيل لهم من التكذيب.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ﴾ عِدَةٌ ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير عذاب من كذّب بك إلى وقته المؤقّت له بلا استئصال، كما قال الله عز وجل: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ (سورة القمر: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (سورة فاطر: ٤٥).

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين المدلول لهم بالمقام، وَالكُفّار باستئصال الكُفّار بالخسف أو النسخ أو الرجم أو الريح، أو غير ذلك، كما فعل بالمكذّبين من قبلك.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ كُفّار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من الذكر، وهو القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موجب للريب والاضطراب، وقيل: هاء «إِنَّهُمْ» لليهود وهاء «مِنْهُ» لكتاب موسى وهو التوراة، لأنّهم المختلفون في التوراة.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وَحَّد الله تبارك وتعالى، وعمل بما كلّف به ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ يعمله، أو فلنفسه عمله، أو فلنفسه نفعه، أو فلنفسه ثوابه. و«مَنْ» شرطيّة، ولا داعي إلى أنّها موصولة، لأنّها تحتاج إلى أن يقال: أشبهت «مِنْ» الشرطية في العموم، فزيدت الفاء في جوابها، وإذا كان ذلك فلتجعل شرطيّة من أوّل الأمر.

وكذا البحث في قوله: ﴿وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ إساءته، أو فعليها عقابه. والضمير لـ«مَنْ» ولو كان مؤنّثًا، لأنّ «مَنْ» في معنى النفس، أو للنفس قبلُ

مرادًا بها ما أريد بـ«مَنْ» على طريق الاستخدام، وكان عليٌّ يقول: «ما عملتُ خيرًا لأحدٍ ولا شرًّا، لي ما عملت أو عليَّ» ويقرأ الآية.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بأن ينقص من الثواب أو يبطله بدون استحقاق، أو يثيب أحدًا بثواب غيره، إلاَّ ما بتوسُّط، فيثابان معًا، أو بزيادة على المذنب، أو أخذ أحدٍ بذنب غيره إلاَّ ما بتوسُّط فيعاقبان معًا لا يلقى على الظالم ذنوب المظلوم. ومعنى ﴿بِظَلَّامٍ﴾ بذي ظلم.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

اختصاص علم الغيب بالله تعالى وانتهاء أسطورة الشك في قيام الساعة

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله وحده لا إلى غيره، ولا إليه وإلى غيره ﴿يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ متى هي إذا تردَّد قلبك، أو سئلت متى هي؟ فقل: لا يعلم وقتها إلاَّ هو، [قلت:] وأمَّا «يعلمه الله»، أو «الله يعلمه» بإرادة الحصر في قولك: «الله يعلمه» وهو حصر في العرف لا في الوضع الأصليِّ فجائز، كما إذا سئلت شيئًا فقلت هو عند فلان تريد نفيه عن نفسك، وأمَّا في الوضع فجائز أن يقول: «يعلم الله كذا» أو «الله يعلمه»، وتريد أنَّ غيره يعلمه أيضًا.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ فاعل، و«مِنْ» صلة ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ جمع كِمٍّ بالكسر وقد يضمُّ، وهو وعاء الثمرة في شجرها، نخلة أو غيرها ممَّا له كِمٌّ. ﴿وَمَا تَحْمِلُ﴾ جنينًا ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ فاعل، و«مِنْ» صلةٌ، وسواء الآدمية والجنِّـيَّة والحيوان.

ويجوز جعل «مَا» في الموضعين غير نافية معطوفة على «السَّاعَة»، فتكون «مِنْ» للبيان، ويكون تأنيث «تَخْرُجُ» مراعاة لـ«مَا» الواقعة على «ثَمَرَات»، كأنَّه قيل: إليه يردُّ علم الساعة وعلم الثمرات التي تخرج، والأنثى التي تحمل، وجعل «مَا» نافية ـ كما مرَّ ـ أولى.

﴿وَلاَ تَضَعُ﴾ الحمل أو لا تضع الجنين ﴿إِلاَّ بِعِلْمِه﴾ إلاَّ مع علمه بما يمكث الجنين في بطنها من مدَّة، وبأنَّه منفرد أو مُتَعَدِّد، وبأنَّه ذكر أو أنثى أو خنثى، ومتى تضع. وعلى النفي بـ«مَا» يقدَّر مثل هذا في الموضعين، أي: ما تخرج من ثمرات من أكمامها إلاَّ بعلمه، وما تحمل من أنثى إلاَّ بعلمه، أو قدِّر متعلَّقًا عامًّا بعد تفصيل، أي: لا يحصل ذلك إلاَّ بعمله، ولا يقدَّر هذا المقام إذا جعلت «مَا» اسمًا.

(نحو) والعطف في ذلك كلِّه على قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فيكون ذلك كالبرهان على الحشر، وأجيز عطفه على قوله: ﴿وَمِنَ ـ ايَاتِه أَنـَّكَ تَرَى الاَرْضَ﴾ (سورة فصلت: ٣٩)، أو على ﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ (سورة فصلت: ٣٧)، تقوية لبرهان البعث باختصاصه بعلم عموم ما يخرج من الثمرات، وما تحمل الأنثى وعموم الوضع.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ اذكر يوم...إلخ، أو ظرف لمحذوف، أي: ويوم يناديهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِي﴾ يكون ما يكون، وسمَّاهم شركاء على زعمهم كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الذينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٢)، وفيه تهكُّم وتقريع، ويجوز تعليقه بقوله تعالى:

﴿قَالُواْ﴾ وعلى كلِّ وجه يكون قولهم: ﴿ءَاذَنـَّاكَ مَا مِنَّا من شَهِيد﴾ جوابًا لندائهم، إلاَّ أنَّه إذا لم يعلَّق بـ«قَالُوا» يكون «قَالُوا» جواب سؤال، كأنَّه قيل: فما قالوا في جواب النداء؟. وهاء «يُنَادِيهِمْ» عائد إلى من عبد غير الله

كصنم وملك ونيِّر ونار.

ومعنى «آذَنــَّاكَ» أخبرناك، والمخبَر بفتح الباء يجوز أن يكون عالمًا بالخبر قبل الإخبار كما هنا، ويجوز أن يكون غير عالم به، ولا يجوز: أعلمناك، لأنَّ الله سبحانه لا يجهل.

(نحو) و«مِنَّا» خبر، و«شَهِيدٍ» مبتدأ و«مِنْ» صلة، أو فاعل للظرف، أي: لا شاهد منَّا بالشركة لشيء معك، يقرُّون تارة يوم القيامة بأنَّهم جعلوا لله شركاء، وتارة ينكرون. والجملة مفعول به لـــ«آذَنــَّاكَ» معلَّق عنها بالنفي، وإن تقدَّم عن قولهم: «ءَاذَنــَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ» مثله فذلك إخبار.

(بلاغة) وإعادة الله ﷻ السؤال زيادة توبيخ، وإلاَّ فإنشاء حملوا الإيذان بهذا الكلام، كقولك: اشتريت، مُنشِئا للشراء وموقعًا له بهذا اللفظ، لا إخبار عن شراء سابق، وقولك: أعتقت عبدي، منشئا للإعتاق بهذا اللفظ ومحصلا له به لا مخبرا عن إعتاق سابق.

ويجوز أن يكون الإيذان نفي الإشراك في قلوبهم يوم القيامة، إذ علم ما فيها من النفي، فسمُّوه إخبارًا بلسان الحال، وهذا لا يقتضي سبق سؤال، وكأنَّهم قالوا: أنت تعلم ما فيها.

أو «شَهِيدٍ» بمعنى حاضر، أي: ما منَّا أحد يشاهد معبودًا غيرك، وتارة يقرُّون بالمشاهدة. أو ذلك كناية عن نفي أن يكون له شريك، كقولك: فلان لا يشاهد في السوق، أي: لا يوجد فيها، ولا نرى لك مثلاً، أي: لا مثل لك.

وأجيز عود واو «قَالُوا» للشركاء، لَمَّا أسمعهم الله تعالى نداء من اتَّخَذَهَا شركاء أجابوا بِأنــَّا لم يكن منَّا أحد يشهد أنَّهم محقُّون في اتِّخَاذهم إيَّانا آلهة، أو لم نشاهد عبادتهم، وفيه تفكيك الضمائر بعض لكذا، وبعض لكذا، بلا داعٍ، وما لا تفكيك فيه هو الأصل.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل الآخرة في الدنيا، أي: تلف وضاع ولا نراه، وذلك تارة، أو لا نفع فيه كالشيء الذي تلف. و«مَا» واقعة على العاقل، كالملائكة والجنِّ ومن عبده من الناس، وعلى غير العقلاء كالأصنام والنار والنيِّرات، أو واقعة على القول، فـ«يَدْعُونَ» بمعنى يقولون إِنَّهَا آلهة.

﴿وَظَنُّواْ﴾ أيقنوا، وجملة قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مفعولاَ «ظَنَّ»، وهو معلّق عنها، أو مفعولاَهُ محذوفان، أي: ظنُّوا ذلك منجـيًا لهم، أو مُمَوِّهًا، فالظنُّ غير العلم، فـ«مَا لَهُمْ مِن مَّحِيصٍ» ردٌّ عليهم. والمحيص: المنجى والمهرب.

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١ ﴾

تبدل أحوال الإنسان وتغيُّر أطواره

﴿لاَّ يَسْئَمُ﴾ لا يملُّ ﴿الانسَانُ مِن دُعَآءِ﴾ طلب ﴿الْخَيْرِ﴾ المال وأسبابه، والصحَّة والشفاء والجاه، وزوال الحزن، وغير ذلك ولا يفتر.

﴿وَإِن مَّسَّهُ﴾ أصابه، مجاز بالاستعارة لجامع الحضور ﴿الشَّرُّ﴾ ضدُّ الخير المذكور ﴿فَيَئُوسٌ﴾ فهو عظيم الإيَّاس من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ منقطع الرجاء انقطاعًا عظيمًا، ولا يظهر ما قيل: إنَّ القنوط ظهور أثر الحزن على البدن من الذبول ورقَّةِ الجسم والصوت، وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ

اللهِ﴾ (سورة الزمر: ٥٣) ، فـ«قَنوطٌ» تأكيد لـ«يَئوسٌ»، أو هو أشدُّ اليأس، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة.

﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ كسعة مال وشفاء وعزَّة ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ فعلة منَّا ضارَّة له، كضيق المعيشة، والمرض والذلّ ﴿مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا﴾ أي: هذا الخير، وهذا الذي أصابني ﴿لِي﴾ أنا متأهِّل له لفضلي، أو لاكتسابي، أو لنسبي، أو هذا لي لا يزول، والأوَّل أولى ومتضمِّن للثاني، لأنَّ ما يستحقُّه لما ذكر من شأنه لا يزول على زعمه.

﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ بعد الموت كما يقول محمَّد ﷺ ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّيَ﴾ ووالله أو بالله لئن ردَّني الله مالكي إليه بالإحياء لقيام الساعة ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ، لَلْحُسْنَىٰ﴾ جواب القسم، وهو مغن عن جواب الشرط.

والحسنى: الجنَّة، أو الحالة الكريمة، وهو اسم تفضيل للمؤنَّث خارج عن التفضيل، ومعناه: الحسنة، لا أحسن من كذا. ويحتمل البقاء عليه، بمعنى: إنَّ لي في الآخرة إن بعثت أفضل ممَّا لي في الدنيا، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ (سورة الكهف: ٣٦) ، أو لي عنده أفضل ممَّا للمؤمنين في الآخرة.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ فوالله لنخبرنَّ ﴿الذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ من الشرك والمعاصي، فهم مكلَّفون بفروع الشريعة، وقد نسوا أعمالهم، أو أكثرها نعلمهم بها وبأنَّهم يستحقُّون بها الإهانة والعذاب لا الكرامة.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: عذابا من نوع عذاب عظيم، كوثاق شديد لا يطاق قطعه ولا الخروج عنه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الانسَانِ﴾ الكافر أو الجنس، لأنَّ الإعراض عن الشكر وطول الدعاء للدنيا قد يصدر من الموحِّد. وليست «ال» للاستغراق. والمؤمن الموفّي قد يصدر منه ذلك ويتوب.

﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر بإهمال الطاعة، والوقوع في المعصية، وباستعمال تلك النعمة في المعصية ﴿وَنَـــئَا بِجَانِبِهِ﴾ نهض أو ذهب بجانبه من بدنه، وهو عبارة عن التكبُّر والخيلاء، كما يكنَّى عنه بقولك: شمخ بأنفه، وثنى عطفه، وتولّى بركنه.

والجانب: الجنب على حقيقته من البدن، ويجوز أن يراد به الجهة من المقام، منزّلة منزلة البدن، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّـــهِ جَنَّـــتَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٤٦) ، تعالى عن الجهة، كما يقول الكاتب: إلى حضرة فلان وإلى مجلسه، يريد إلى فلان، وكأنَّه قيل: نأى بنفسه كناية عن التكبُّر والخيلاء. أو ﴿جَانِبِهِ﴾: انحرافه، كثني عطفه مراد به انحرافه عن المقام لا ما مرَّ.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو﴾ فهو ذو ﴿دُعَآءٍ﴾ طلب لله في إزالته ﴿عَرِيضٍ﴾ متَّسع، استعارة تبعيَّة، من عرض الأجسام لجامع الاتِّساع، وذلك إشارة إلى أنَّ لدعائه طولا مجازا، وهو أزيد من العرض.

وذمَّه الله بعرض الدعاء وطوله، لأنَّه مع الجزع يفقد ما فقد لا تضرُّعا إلى الله المنعم، كما ذمَّه بعدم الشكر والاشتغال بالنعمة عن الطاعة، وبالبطر بالنعمة، فهو ضعيف العقل ييأس ويقنط، وهو مع ذلك يدعو.

والدعاء رجاء، أو هو في هذا الدعاء العريض غير طامع، أو هو في حال إيَّاسه وقنوطه آيس وقانط أن ترجع إليه النعمة بدون شدَّة هذا الدعاء العريض. أو له أحوال: تارة يائس ويقنط، وتارة يدعو دعاء عريضا، أو بعض ييأس ويقنط، وبعض يدعو عريضا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

ضرورة التأمل في الآيات والأنفس

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني عن الحال، الإخبار بالشيء مسبَّب ولازم لرؤيته، بمعنى علمه أو إبصاره، ثمَّ إنَّه عبَّر بالاستفهام عن الأمر **﴿إِن كَانَ﴾** القرآن **﴿مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾** «ثُمَّ» للتراخي الرتبي، فإنَّ الكفر به مع تعاضد الدلائل الموجبة للإيمان بعيد جدًّا، أو للتراخي الزماني، على أصلها باعتبار نزوله بغير حضرهم، وقبل كفرهم به، فإنَّ الكفر به يكون بعد نزوله.

ومتعلَّق «أَرَآيتم» محذوف كما رأيت، فيكون قوله تعالى: **﴿مَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾** تفسيرا، فإنَّه بيان بأنَّ الحال أنَّه لا أضلَّ من شقاقهم، أو معموله هذه الجملة: «مَنَ اَضَلُّ...» علّق عنها.

(نحو) وقيل: المفعول الأوَّل محذوف، أي: أرأيتم أنفسكم، وإذا كان من باب ظنَّ على هذا جاز «أرايتموكم»، والثاني جملة «مَنَ اَضَلُّ».

(بلاغة) والأصل: «من أضلُّ منكم»، وعبَّر بالظاهر وهو «مَنَ اَضَلُّ» في وَجْهِ جَعْلِ الجملةِ مفعولاً لـ«أَرَأَيت» بلا تقدير مفعول آخر، ليصفهم بالشقاق البعيد، تعليلا به لأَضَلِّـيَّتِهم، وبيانا لحالهم أنَّه الشقاق البعيد، أي: الخلاف البعيد جدًّا. وجواب «إِنْ» أغنى عنه «أَرَآيتم»، كأنَّه قيل: إن كان من عند الله وكفرتم به فأخبروني من أضلُّ؟ وهذا أولى من أن يقال: أغنى عنه «مَنَ

اَضَلُّ» لأنّ «مَنَ اَضَلُّ» لم يذكر في الآية مستقلاً بل محكيًّا بالقول، حتّى لو قيل: إن كان من عند الله ثمّ كفرتم به فمن أضلُّ احتيج للتأويل.

﴿سَنُرِيهِمُ، ءَايَاتِنَا﴾ أي: الفتوحات الدَّالَّة على قُوَّة الإسلام وأهله، ووهن الكفر وأهله، بيد رسول الله ﷺ وخلفائه ﴿فِي الاٰفَاقِ﴾ جمع أفق بضمٍّ فإسكان، أو بضمَّتين، أو فتحتين، وهو النَاحية، أي: في المغرب والمشرق والجنوب والشمال.

والمراد: نري من حيي منهم، أو من حيي ومن مات، بأن يخبر في قبره بفتح البلاد وظهور الإسلام.

﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ في بلاد العرب، كأنّه قيل: وفي بلادهم، ولم يصرِّح بإحدى العبارتين بل قال: ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ لأنّه أدلُّ على تمكين النصر وتلويحا إلى أنّها آيات بالنسبة إلى الأنفس، ولو كانت في الأرض والقرى والمدن.

وقيل: ﴿الاٰفَاقِ﴾: ما حول مكّة وغير ذلك كخيبر، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾: فتح مَكّة، وقال الضحَّاك: ﴿فِي الاٰفَاقِ﴾: ما أصاب الأمم، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾: ما أصابهم يوم بدر، ولا يعترض ذلك بأنّهم قد رأوا مدن الأمم المهلكة قبل نزول الآية هذه، لأنّهم رأوا خرابها ولم يعلموا أنّه لتكذيبهم الرسل، فقال الله ﷻ : سنريهم أنّه للتكذيب لعلّهم يخافون الهلاك، فيتركوا التكذيب، وإنّ الآية مقدَّمة في النزول قبل ما فيه بيان أنّه للتكذيب من هذه السورة مؤخَّرة الوضع، لكن هذا خلاف الأصل.

وقال عطاء: ﴿الاٰفَاقِ﴾: أقطار السماء والأرض، أراهم الشمس والقمر والكواكب والرياح والجبال وغيرها، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾: لطيف الصنع في خلقتهم على صورهم، ويبحث بأنّهم علموا صورهم وعلموا السماء والأرض

والشمس والقمر والجبال وما ذكر، وعلموا أنّ الله تعالى خلقها قبل نزول الآية، فيجاب بأنّ الله تعالى **ينبّههم على حكم وتفاصيل، ككونهم نطفا ثمّ علقا ثم مضغا...الخ، وبأنّ السماء وما معها دلائل وكذا النطف ونحوها.**

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ بوقوع ما فيه من الأخبار على طبقها **﴿أَنَّهُ﴾** أي: القرآن، وقيل: الدين، وقيل: التوحيد، وقيل: رسول الله ﷺ، والأوّل أولىٰ، وقيل: الله ﷻ **﴿الْحَقُّ﴾** الثابت المصرّح بالغيوب الصادق فيها، الظاهر على الدين كلّه ولو كره المشركون، وإنّما الحقُّ هو، لا ما خالفه.

وقوله: **﴿سَنُرِيهِمْ...﴾** متعلّق بقوله: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ...﴾** لتضمُّن كلّ منهما الحثّ على النظر المؤدّي إلى المطلوب.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ إنكار وتوبيخ لهم على إنكارهم أنّه سيريهم الآيات في الآفاق وفي الأنفس، وعلى الحذف يقدَّر: أيحبُّون زيادة الإكثار، و لم يكف بربِّك ؟ والباء صلة، و«رَبٌّ» فاعل، أو يقدَّر: أأنكروا إراءة الآيات في الآفاق وأنفسهم و لم يكف بربِّك ؟ .

﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ في تأويل مصدر بدل اشتمال من «رَبٌّ»، أي: ألم تكفهم في تحقُّق الإراءة شهادته ﷻ، واطّلاعه على كلّ شيء، ولو أنكروه أو شكُّوا فيه، أو لم يخطر لهم شيء ظاهر؟ فنزل لهم منزلة ما علموه وأقرُّوا به.

وقيل: المصدر على تقدير الباء، أي: أو لم يكف ربّك بأنّه على كلّ شيء شهيد، أي: بشهادته. ومفعول «يَكْفِ» محذوف، أي: أو لم يكفهم ربُّك، وقيل: المعنى أو لم يغنهم ربُّك عن إراءة الآيات أنّه شهيد على جميع الأشياء؟ وقد أخبرك أنّه من عنده فهو من عنده حقًّا، لأنّه عالم بجميع الأشياء، وهو من جملتها، ويبحث فيه بأنّهم لم يسلّموا أنّه تعالى أخبره.



فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

الآية	العنوان	الصفحة

تفسير سورة يس

تفسير سورة الصافات

تفسير سورة ص

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة غافر

تفسير سورة فصّلت



التعريف بالمفسِّر*

- في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

- في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

- في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها،

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلّ فنّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.
- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.
- في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

و يليه بإذن الله تعالى الجزء الثالث عشر وأوله تفسير سورة الشورى

ص.ب : ٦٦٨ – الرمز البريدي : ١١٣ – مسقط – سلطنة عُمان

رقم الإيداع : ٣٢٤ / ٢٠٠٥م

شركة مطابع الباطنة ومكتبتها للطباعة التكنولوجية الحديثة ش.م.م
٢٤٨١٠١٣٣ - ٢٤٨١٤١٣٢